

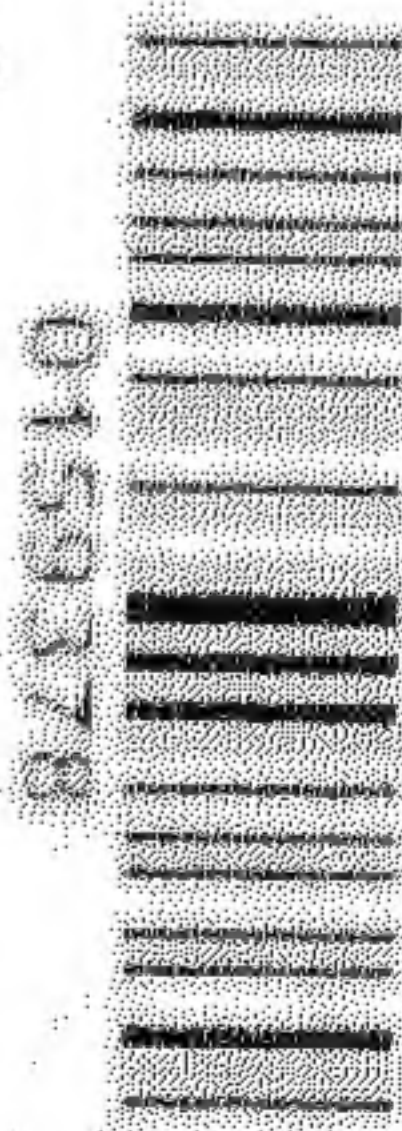
الحياة والآخرة

في القصة النبوية

تأليف

د. محمد عبد المنعم خنكسي

دار الحديث
بيروت



0159378



سید محمد

داد

ضفا

ع



892.709

٥٥١

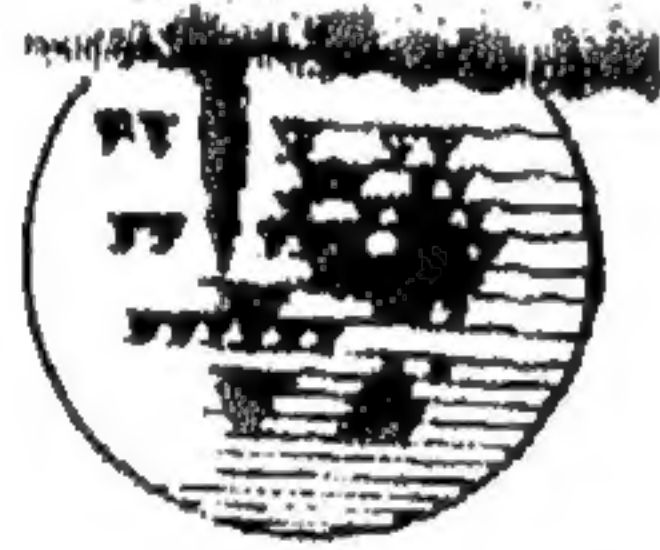
خف ١

ح

الحياة الأدبية

في العصر الجاهلي

Publication of the Alexandria Scientific Association



تأليف

د. محمد عبد المنعم خفاجي

الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

المدينة العامة لكتبة الاسكندرية
رقم التصنيف: 892.7109
رقم التسجيل: 10198

١ ٤٦٥٤

٩١٢٥٠٠

دار الحديث

بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

مقدمة

هذه هي الطبعة الثالثة لكتاب « الحياة الأدبية في العصر الجاهلي » تصدر بعد الطبعتين السابقتين بوقت طويل، وبعد أن نفذت نسخ الكتاب، وتعذر الحصول عليه.

وفي هذه الطبعة زيادات كثيرة عن الطبعتين السابقتين، وفيها تحقيقات عديدة أضفناها إلى الكتاب.

ولا يمكنني أن أنوه بالجهد الذي بذلته، والعبء الذي حملته، في سبيل إصدار الكتاب في هذا الحجم الكبير.

ولكنني أعتمد على ثقة القراء وتقديرهم.

ومن الله أستمد التوفيق، وأطلب العون، وألتمس السداد، وما توفيقني إلا بالله.

المؤلف

تمهيد الأدب وأطواره

- ١ -

يطلق الأدب فنهم منه بادیء ذی بدء معناه ، الذى يدور حول الجيد البلیغ من الكلام نثره ونظمه .

فالأدب هو كل كلام عبر عن معنى من معانى الحياة ، وجلا صورة من صورها بأسلوب جميل ، ولفظ بديع ، فتثير معانيه العاطفة ، وتستثير بلاغته الإعجاب . فالكلام لا يكون أدباً إلا إذا اشتمل على : معان تبعث عواطف القارىء والسامع ، وعلى ألفاظ جميلة تؤدي بها هذه المعانى والأفكار ، وإلا إذا لام الذوق ، ووافق الطبع ، وأثر في النفس ، وصور لك الأشياء كما تجدها أنت حين تخلو إليها وتفكر فيها .

ومبث الجمال في الكلام قد يكون في معانيه ودقتها وعمقها وروعها ، وقد يكون في ألفاظه وسحرها وفصاحتها وعذوبتها أو نفاستها ، وقد يكون في ألفاظه ومعانيه جميعاً ، وذلك أتم لبلاغة الكلام ، وأجمع لسحره وتأثيره ، وأدعى لخلوده وبقائه على أمد العصور .

وبعد فجودة الأدب هي مقياس حظه من القبول والإعجاب والخلود ، وإنما تتأتى الجودة بحسن المعانى وتخير ما يتصل منها بالموضوع وما يناسبه في دقة وحسن ترتيب ، وبحسن الألفاظ والأساليب والملاءمة بين الألفاظ والمعانى ، وعلى أى حال فإن أجود البيان نثره ونظمه ما صدر عن الطبع ، وجاء عفواً القريحة من غير تكلف ولا استكراه ولا إغراب .

ومتى كان الكلام جيداً على هذا النحو ، فهو الذى نسميه أدباً ، ونعنى بحفظه وروايته وتدوينه .

وقد مرت كلمة أدب بأطوار تاريخية مختلفة في نشأتها اللغوية (١) مما
نلم به في هذا المقام . .

١ - وردت كلمة أدب في الشعر والنثر المأثورين عن العصر الجاهلي :

١ - قال الأعشى :

جروا على أدب منى بلا نزق ولا إذا شمرت حرب بأغمار (٢)

٢ - وقال عتبة بن ربيعة لابنته هند عن أبي سفيان : «يؤدب أهله ولا
يؤدبون» ، وقالت له : وسأخذه بأدب البعل ، (٣)

(١) راجع الجزء الأول من العصر الجاهلي للرافعي ، ومقالات في الأدب
للزيات ، والأدب الجاهلي لطف حسين ، والرد عليه للغمراوي وخضر حسين -
وأصول النقد الأدبي للشايب ، ولسان العرب مادة «أدب» ، وخزانة الأدب في بيت
سهم بن حنظلة : «حسن ذا أدبا» ، وكذلك ترجمته في الأغاني ، ٢٧ : ٢ أمالي
المرتضى ، ١٤٥ : ٣ شرح الحماسة للتبريزي ، وقصيدة كعب بن سعد التي فيها «شب
وهو أديب» ، في المفضليات ، وترجمته في الخزانة وشرح أمالي المرتضى (مع
ملاحظة أن القصيدة في الجهرة منسوبة لمحمد بن كعب الغنوي - ص ٢٧٤ - وفي
الخزانة والسيوطي والعيني لكعب بن سعد الغنوي) ، وترجمة مزاحم العقيلي
في الخزانة والأغاني ، وبيته «الأديب المذال» ، و ١٣ شرح أدب الكاتب للجواليقي ،
و ١٠٤ : ٢ أمالي في حديث عتبة مع ابنته هند ، وحديث قيس بن زهير في الأغاني
وأمالي المرتضى ١٤٩ : ١ ، و ١٦٠ : ٧ شرح الكامل ، ٦٣ : ٣ شرح الكامل للبيت
«أبعد ستين عندي يبتغي الأدبا» ، من قصيدة جاهلية لامرأة ، وص ١٧ ج ٦
تاريخ الطبري «يؤدبني الحجاج» ، ونهج البلاغة ، والأدب الصغير والأدب الكبير
لابن المقفع ، ورسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب .

(٢) البيت من قصيدة الأعشى في شرح راجع ص ١٤ من الروائع العدد

الخامس الخاص بالأعشى .

(٣) ١٠٤ : ٢ أمالي

٣ - وقال النعمان الخطباء العرب الذين أوفدهم إلى كسرى : فلا يكون ذلك منكم فيجد في آدابكم مطعنا ، (١) . وقال في رسالته إلى كسرى :

« وقد أوفدت إليها الملك رهطاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وآدابهم » (١)

٤ - وورد في شعر جاهلي لامرأة : أبعد ستين عندي يبتغي الأدبا ؟

وهي في كل هذه النصوص لا تخرج عن المعنى الخلق المعروف .

ب - وجاء الإسلام بعد ظلمات من الجهل والضلالة والجاهلية ، فنجد كلمة أدب تتردد في نصوص إسلامية كثيرة منها :

١ - جاء في الحديث الشريف « أدبني ربّي فأحسن تأديبي ، وهو حديث مشهور ، ويبدو أن التأديب هنا بمعنى التهذيب الخلق ، ولكن إذا رجعنا إلى الرواية في أصل ورود الحديث وهي (٢) أن أبا بكر قال لرسول الله (ص) ما سمعت أفصح منك فمن أدبك ؟ فقال رسول الله (ص) : « أدبني ربّي فأحسن تأديبي » ، نجد أن التأديب هنا بمعنى التعليم وهو طور من أطوار كلمة أدب المشهورة بيننا الآن .

٢ - وفي حديث مشهور يروي عن عمر بن الخطاب : « طفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار » .

وعلى الجملة فالأدب في كل هذه النصوص بمعنى الخلق الكريم واصطناع السيرة الحميدة ، ودلت هذه الكلمة على ذلك في العصر الجاهلي ، كما دلت عليه في صدر الإسلام ، قال الجواليقي م ٥٤٠ هـ في شرح أدب الكاتب :
والأدب الذي كانت العرب تعرفه هو ما يحسن من الأخلاق وفعل المكارم (٣) ،

(١) ١:١٦٩ العقد ط ١٩٣٥ القاهرة المطبعة التجارية

(٢) راجعها في ص ٣٤ من الأدب العربي وتاريخه في حضري صدر الإسلام والدولة الأموية للرحوم محمود مصطفى ط ١٩٣٧

(٣) ١٣ شرح أدب الكاتب للجواليقي ، ص ٢٧ شفاء الغليل للشهاب الخفاجي

ج - ثم جاء عصر بني أمية . ووردت كلمة أدب ورددت فيه كثيراً :

١ - من ذلك ما أنشده الجاحظ :

ولاني - على ما كان من عنجهيتي ولوثة أعرابيتي - لأديب (١)

٢ - وقول كعب بن سعد الغنوي :

حبیب إلى الزوار غشيان بيته جميل المحيا شب وهو أديب
٣ - وقول سالم بن وابصة الأسدي الشاعر من قصيدته التي ذكرها
صاحب الحماسة (٢) :

إذا شئت أن تدعى كريماً مكرماً أديباً ظريفاً عاقلاً ماجداً حراً
إذا ما أنت من صاحب لك زلة فكن أنت محتملاً لزلة عذراً
٤ - وروى صاحب اللسان (٣) في مادة « أدب » لمزاحم العقيلي - وهو
شاعر أموي - قوله في صفة الإبل :

وهن يصرفن النوى بين عالج ونجران تصريف الأديب المذال (٤)
٥ - وقال بعض الفراريين :

كذلك أدبت حتى صار من خلقي أنى وجدت ملاك الشيعة الأدبا
٦ - وقال سهرم بن حنظلة ، ويظهر لي أنه أموي :

(١) البيت في ص ١٢٦ ج ١ البيان والتبيين ط ١٩٢٧ . العنجهية : الحق والجهل . اللوثة : الحق أيضاً ، والمراد بكل ذلك جفاء الأخلاق

(٢) ١٦ ج ٢ ديوان الحماسة الطبعة الثالثة ١٩٢٧ بمطبعة السعادة . وسالم بن وابصة تابعي وأبوه وابصة صحابي جليل ، وبعض هذه الأبيات في الأمالى ص ٢٢٤ طبع دار السكتب .

(٣) ٢٠٠ ج ١ اللسان

(٤) رمل عالج : جبال متصلة يتصل أعلاها بالدهناء بقرب اليمامة وأسفلها بنجد وتنسح اتساعاً كثيراً . النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد وهي مؤنثة لاغير .

لم يمنع الناس مني ما أردت ، ولا أعطيهم ما أرادوا حسنَ ذأدبا (١)

٧- وألف ابن المقفع م ١٤٣ هـ كتابين له ، سماهما . الأدب الكبير والأدب الصغير ، وفي الأدب الصغير تتردد كلمة أدب كثيرا (٢) ، وكذلك في الأدب الكبير .

٨- ومن خطبة للحجاج : هذا أدب ابن زهية (٣) أما والله لاؤدبكم غير هذا الأدب .

٩- ومن رسالة لعبد الحميد الكاتب : أحب (أمير المؤمنين) أن يعهد إليك عهدا . . يحملك منه أدبه ، ويشرع لك عظته .
وهي في كل ذلك بالمعنى الخلقى العام المعروف .
ولكن وردت نصوص أخرى في هذا العصر منها :

١- قال عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي لمعلم ولده : أدبهم برواية شعر الأعشى .

٢- وقال معاوية : اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم (٤) .

٣- ووجدت طبقة المعلمين ، الذين كانوا يؤدبون الناشئين من أبناء الخلفاء والأمراء والولاة ، ويعلمونهم الأخبار واللغة والشعر وغيره ، وأطلق عليهم لقب « الأدباء » و « المؤدبين » ، مما يدل على أن الكلمة كانت تستعمل بمعنى التعليم .

٤- وقال عبد الحميد الكاتب من رسالته للكتاب : « فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب » .

(١) وينسب البيت لطغيلة الغنوى وهو جاهلي (١٣ شرح أدب الكاتب ط القدسي ١٩٣٥ ، ٢٧ شفاء الغليل ط ١٢٨٢)

(٢) ص ٥٦ و ٥٣ و ٤٠ وسواها من الأدب الصغير ط ١٩١١ .

(٣) رجل كان على شرطة البصرة قبل الحجاج

(٤) ٤١ ج ٢ وفيات الأعيان

٥ - وفي الأدب الصغير لابن المقفع م ١٤٣ هـ « جل الأدب بالمنطق ، وكل المنطق بالتعليم ، ليس حرف من حروف معجمه ، ولا اسم من أنواع أسمائه ، إلا وهو مروي متعلم مأخوذ من إمام سابق من كلام أو كتاب » .

٦ - وقال محمد بن علي بن عبد الله بن عباس المتوفى عام ١٢٥ هـ : كمالك من علم الأدب (١) أن تروى الشاهد والمثل .

وهي في أغلب هذه النصوص كلها ليست بالمعنى الخالق المعروف ، إنما هي تدل على ما كان يلقى به المعلم إلى طلبته من الشعر والقصص والأخبار والأنساب وكل ما من شأنه أن يشقف نفس الصبي ويهذبها من أنواع العلوم المختلفة الخاصة باللغة والشعر وما يتصل به .

ومن ذلك كان منشأ الكلمة المشهورة : « حرفة الأدب » ، وأول من قالها الخليل (٢) ، وذلك لأنهم كانوا يتكسبون بالتعليم .

فكلمة « أدب » في العصر الأموي كانت تطلق : على المعنى الخالق المعروف ، وعلى رواية أشعار العرب وأخبارها وأيامها وأنسابها ، أو تعليمها للناشئين والمتعلمين .

وثقافة الكتاب - وهو أخص من الأديب - تجدها مبسوسة في رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب .

٧ - وجاء عصر بني العباس ، فنشأت دراسات في النحو والصرف والعروض واللغة والبلاغة ، وشملت كلمة « أدب » هذه الدراسات جميعها ، كما كان يطلق لفظ الأدباء على الكتاب والشعراء لتكسيهم بالأدب ، ويقول الجواليقي

(١) في القرن الأول كانوا يطلقون على موضوعات علم الأدب : علم العرب ، أما اصطلاح علم الأدب فقد وجد في القرن الثاني ،
(٢) ٥٢٩ ثمار القلوب للثعالبي

في شرح أدب السكاك (١)، « اصطلاح الناس بعد الإسلام بمدة طويلة على أن يسموا العالم بالنعو والشعر وعلوم العرب « أدبياً » ، ويسموا هذه العلوم الأدب ، وذلك كلام مولد ، لأن هذه العلوم حدثت في الإسلام » .

ولما اشتدت حركة التأليف وقويت النهضة العلمية استقلت هذه العلوم بنفسها وبحوثها وانعزلت عن الأدب ، وأصبحت منذ منتصف القرن الرابع كلمة أدب تدل على الكلام الجيد من المنظوم والمنثور وما يتصل به ويفسره من الشرح والنقد والأخبار والأنساب وعلوم العربية ، شملت الشعر كما شملت النثر الذي أجاد فيه فحول الكتاب في هذا العصر أيضاً ، كما شملت النقد الذي بدأ ينمو فيه . وكذلك الغناء (٢) ، قال ابن خلدون : « وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن - الأدب - لما هو تابع للشعر ، إذ الغناء إنما هو تلحينه ، وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه (٣) ، وصار لفظ الأدباء من ذلك الحين لا يطلق إلا على الشعراء والكتاب ، فانفردوا به ، وزال عن العلماء جملة لاستقلال العلوم يومئذ وضعف الرواية ونضوب مادتها ، حتى قيل . ختم تاريخ الأدب بشعلب والمبرد . وألفت في الأدب بهذا المعنى كتب مشهورة : كالبيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ م ٢٥٥ هـ ، والسكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد م ٢٨٥ هـ ، وكتاب العقد الفريد لابن عبدربه الأندلسي م ٣٢٨ هـ ، والأمالى لأبي علي القالي م ٣٥٦ هـ ، وكذلك الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني م ٣٥٦ هـ ، وسواها من أصول كتب الأدب ومصادره الأولى ، وكان الذين يقومون بدراسة علوم الأدب وروايتها

(١) ١٣ و ١٤ شرح أدب السكاك للجواليقي ، ٢٧ من شفاء الغليل للشهاب

الخفاجي ط ١٢٨٢ هـ

(٢) ٢٤ : ١ تاريخ آداب العرب للرافعي

(٣) ٤٨٩ المقدمة ط ١٩٣٠ بالمطبعة الأزهرية

يسمون « المؤذنين » ، إلى أن كان القرن الرابع الهجرى وانتشرت العجمة وضعفت العصبية العربية فانتهى عهد المؤذنين حتى قيل : ختم تاريخ الأدب بالمبرد ٢٨٥ هـ وتعلب م ٢٩١ هـ (١) ، وصار لفظ الأديب يطلق على الشاعر أو الكاتب أو الناقد فحسب ، وأصبح الأدب يدل كما قدمنا حتى اليوم على الجيد من الكلام المأثور شعراً ونثراً وما يحتاج إليه من التفسير وتبيين ما فيه من مظاهر الجمال أو القبح ؛ وأصبح النحوى أو العالم بأصول البلاغة أو بأوزان الشعر وقوافيه لا يستطيع أن يسمى نفسه أديباً (٢) .

ويقول ابن خلدون فى حد الأدب : هذا العلم لا موضوع له وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملائكة من شعر على الطبقة ويجمع متساو فى الإجادة ومساوئل من اللغة والنحو مبثوثة مع ذكر بعض من أيام العرب وذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة (٣) .

والخلاصة أن :

١ - كلمة أدب وردت فى نصوص جاهلية وإسلامية بمعنى الخلق الكريم

(١) راجع ١٢٢ : ٥ معجم الأدباء الشعر فريد رفاعى
(٢) وذلك بعد أن كان اسم النحوى مرادفاً لاسم الأديب حتى إن بعض العلماء قد ألف فى تراجم النحويين كتباً سميت باسم طبقات الأدباء كما فعل ابن الأنبارى فى كتابه « نزهة الألبا فى طبقات الأدباء » ، والغزذقي القـيروانى م ٧٩ هـ فى كتابه : « شجرة الذهب فى معرفة أئمة الأدب » ، وهو تراجم للنحويين والنحويين ، ولم يكن النحوى هو من عرف القواعد فحسب بل كان النحوى هو من عرف القواعد وحفظ أشعار العرب وعلم تخريجها وحفظ أيامهم وخطبهم وحكمهم ومساجلاتهم (راجع ص ٦٨ مشكلة اللغة العربية للاستاذ محمد عرفه ط ١٩٤٦)
(٣) ٤٨٨ المقدمة لابن خلدون .

٢ - وأنها وردت في العصر الأموي بمعنى الخلق الكريم ، والتعليم والتثقيف اللذين يقودان إلى الكريم الفاضل من الأخلاق ، ثم استعملت في رواية النثر والشعر لأنهما يدعوان إلى الفضائل ومكارم الأخلاق .

٣ - وأنها في صدر العصر العباسي إلى منتصف القرن الثالث استعملت بمعنى التعليم أيضاً ، وأصبحت فيه كلمة أدب تطلق على : رواية الشعر وما يتصل به من الأخبار والأنساب وعلوم اللغة والعربية ، وعلى تعليمها (١) ، ثم استقلت هذه العلوم فأصبح الأدب منذ منتصف القرن الرابع لا يطلق إلا على الجيد المأثور من الشعر والنثر حتى العصر الحديث (٢) .

وأطلق لقب الأدباء على الشعراء والكتاب لتكسيبهم بالأدب كما كان يتكسب المؤدبون بصناعة التعليم .

ويجب أن يلاحظ مع ذلك أن كلمة أدب في العصر العباسي كانت تطلق من أواخر القرن الثالث أحياناً عند العظماء والكبراء وحاشيتهم وعلى سبيل التجوز على ما يشمل الثقافة العامة من غناء وسمر ، وحسن أدب المنادمة والحديث وخدمة الخلفاء والملوك ، والبراعة في الصيد وفي لعب النرد والشطرنج ، وقيل لهذه العلوم : آداب رفيعة وهي قريبة من الفنون الجميلة عندنا اليوم ، وكان الأديب يقابل لفظ المثقف : ومن هذا يمكننا أن نقول إن للأدب معنيين مختلفين : الأدب بمعناه الخاص وهو الكلام الجيد الذي

(١) في القرن الثاني كان تطلق كلمة الأدباء والمؤدبين على المعلمين ، ومن ذلك كان منشأ الكلمة المشهورة « حرفة الأدب » ، وأول من قالها هو الخليل أحمد م ١٧٤ هـ ، وإنما سموا بالأدباء لأنهم كانوا يتكسبون بالتعليم

(٢) يقول الراجزي : لم ينتصف القرن الرابع حتى كان لفظ الأدباء قد زال عن العلماء جملة وانفرد به الشعراء والكتاب لاستقلال العلوم يومئذ ، على ما كان من ضعف الرواية ونضوب مادتها ، حتى قالوا : ختم تاريخ الأدباء بشطب والمبرد ٢٦٦ : ١ الراجزي .

يحدث في نفس قارئه وسامعه لذة فنية شعراً كان أو نثراً ، والأدب بمعناه العام وهو ما يشمل الثقافة العامة التي تكون الرجل وترقى به إلى مستوى عقلي ممتاز .

هذا ولقلة اطلاع بعض المستشرقين ومن تابعهم من أدبائنا ، زعموا أن كلمة الأدب لم ترد في نص جاهلي أو إسلامي ، ولما قيل لهم إن الحديث « أدبني ربي » ينفي ما ذهبتم إليه ، قالوا إنه حديث ضعيف . ثم قالوا : وإذا كانت كلمة « أدب » لم ترد في نص جاهلي أو إسلامي موثوق به وبصحة روايته ، وليست مع ذلك في اللغة العبرية والسريانية كما يؤيده الباحثون في اللغات فمن أين إذا اشتقت هذه الكلمة وكيف استعملت في اللسان العربي ؟ اختلفوا في الإجابة عن ذلك السؤال :

١ - فبعض الباحثين يذهبون إلى أن كلمة « أدب » بالفتح مأخوذة من كلمة « أدب » بسكون الدال بمعنى الدعاء يقال : أدب القوم يأدبهم أدبا : إذا دعاهم إلى المأدبة لتناول الطعام (١) ، واسم الفاعل منه « أدب (٢) » قال طرفة الشاعر الجاهلي الفحل :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدب فينا يلتقر (٣)
ويجمع على « أدبة » ، ومنه قول الإمام علي رضي الله عنه : « أما إخواننا بنو أمية فقادة أدبة (٤) » .

فقد تولدت كلمة « أدب » ، إذا من كلمة « أدب » بمعنى الدعاء (٥) ، فالأدب

(١) ١:٢٠٠ اللسان (٢) ١:٢٠١ اللسان

(٣) الجفلى : الدعوة العامة . النقرى : الدعوة الخاصة . انتقر : دعا النقرى

(٤) ٢:٢٠١ اللسان (٥) ويذكر ذلك الجواليقي في شرح أدب الكاتب

(ص ١٣) ، كما يذكر وجهها آخر لاشتقاق كلمة أدب وهو أنها مأخوذة من الادب

يدعو إلى المحامد والآداب دعاء إلى الطعام ، وفي اللسان ما يؤيد ذلك قال ابن منظور م ٧١١ هـ في اللسان : « والآداب : الذي يتأدب به الأديب من الناس ، لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقايح (١) » .

وأخذ كلمة « أدب » من الأدب بالسكون رأى يعوزة الحجة ، فضلا عن أن الكلمة لم تنقل بنصها وسكون دالها والمعهود استعمال الكلمة عند نقلها من معنى إلى معنى بهيئتها وشكلها (٢) .

٢ - ويرى الاستاذ تليو من المستشرقين أن كلمة « أدب » مشتقة من كلمة « آداب » جمع « دأب » بعد أن دخلها القلب المتكافئ (٣) ، ومع مرور الزمن تنوسى الأصل وتوهم أنها جمع « أدب » .

ويضعف هذا أن « دأب » لم تجمع على آداب ، وأن هذا الرأي مجرد حدس وظن .

٣ - وقيل إن كلمة « أدب » أخذت عن بعض اللهجات العربية من غير اللهجة القرشبية (٤) وهي لهجات كانت لا تزال موجودة في العصر الإسلامي ثم ذاعت الكلمة بين الجميع ثم نقلت من المعنى الخلق إلى المعنى الاصطلاحي

وهو المعجب فكأنه الشيء الذي يعجب منه حسنه ، ولأن صاحبه الرجل الذي يعجب منه لفضله (١٣ و ١٤ شرح أدب الكاتب)

(١) راجع : ٢٠٠ : ١ اللسان

(٢) وفي اللسان (٢٠١ ج ١) الأدب مصدر قولك أدب القوم يادبهم أدبا إذا دعاهم إلى طعامه والآدب الداعي إلى الطعام ، وقال سيبويه : قالوا المأدبة كما قالوا الدعاء وقيل المأدبة من الأدب . وفي اللسان أيضا : الأدب : الظرف وحسن التناول (٢٠٠ ج ١ اللسان)

(٣) ص ١٨ الأدب الجاهلي لطفه حسين

(٤) ص ٢٠ من المراجع نفسه

المعروف في العصر الأموي للنسابة بين المعنيين ، قالوا : وهذا رأى قريب إلى العقل وهو أشبهه بالصواب .

٤ - وهناك من الباحثين من يفرض أن كلمة أديب مأخوذة من لغة السومريين إذ كان معناها عندهم (إنسان) ، وبقيت في لغة العرب كما كانت في الأصل مرادفاً بها معنى الإنسانية ، وغيرت في اللغات السامية الأخرى من أديب إلى آدم (١) .

وكل هذه الفروض والتأويلات ترينا مدى تخطيط هؤلاء وهؤلاء .

إن كلمة أدب قد وردت في نصوص جاهلية وإسلامية وأموية بنصها حيناً وبمادتها حيناً آخر ، وإذا كان بعض اللغويين لم يرووا هذه النصوص ولا هذه الكلمة عن العصر الجاهلي كابن منظور فإنها ماثورة في كتب الأدب وسواها فارجعوا إليها إن شئتم .

ولا حاجة لنا - بعد وجود هذه النصوص في الأدب الجاهلي - إلى أن نبني على استنتاج لا يؤيده الدليل آراء هي من صنع الوهم والخيال .

- ٤ -

وبعد فالأدب مظهر للبلاغة ، وصورة من صور التفكير والخيال والعاطفة والإحساس والشعور والذوق والفهم والحياة ، وهو وسيلة للمصلحين والمرسلين وأصحاب الدعوات العامة ، ولا يستغنى عنه إنسان في العصر الحديث ، فالصحافي والقاضي والمحامي والنائب والوزير والأمير والسكراتب والمصلح والواعظ والمرشد وغيرهم في حاجة ماسة إلى الأدب وتأثيره وقوته في التعبير والاقناع وإثارة المشاعر في نفوس الجماهير والطبقات .

هذا والأدب العربي من أغنى آداب الأمم جميعاً ، ولا يزال كما

(١) راجع الفصل الأول من الباب الأول من كتاب أصول النقد الأدبي للشايب

كان حافلا بأسباب القوة والبلاغة ، وعاملا كبيرا في المجتمعات العربية وإصلاحها .

- ٥ -

وينقد الدكتور طه حسين رأي من يذهب إلى أن كلمة أدب مشتقة من الأدب بمعنى الدعوة إلى الطعام . كما ينقد رأي نلينو الذي ذهب إليه من أن الكلمة مأخوذة من آداب جمع دأب (١) ويذهب إلى أن الكلمة - أدب - استعملت في عصر بني أمية بمعنى التعليم بطريق الرواية على اختلاف ألوان هذه الرواية (٢) ، وأنها قد دخلت في لغة قريش إبان العصر الأموي حيث انتقلت إليها من إحدى اللهجات العربية الغير القرشية التي ضاعت (٣) .

ويقول : إن الأدب في القرن الثاني والثالث والرابع كان يدل على ما يؤثر من الشعر والنثر ، وما يتصل بهما لتفسيرهما من ناحية ، ولنقدهما من ناحية أخرى (٤) . . وهذا هو مدلول الأدب الآن عندنا ، وعند الأمم الأجنبية القديمة والحديثة على السواء (٤) . . فالأدب عنده هو مآثر الكلام ، والأدب يستطيع ألا يتجاوز مآثر الكلام نظما كان أو نثرا ، ولكن مؤرخ الأدب لا يستطيع أن يكتفى بمآثر الكلام ولا بما يتصل به من علوم ، وإنما هو مضطر إلى أن يدرس تاريخ العقل الإنساني ، فيلم بتاريخ العلوم والفلسفة والفنون وسواها (٥) .

ويدخل طه حسين النقد في الأدب ، ويخالفه هيكل في ذلك ، فيخرج النقد عن الأدب ، بدعوى أن القصيدة مثلا تغلب فيها الذاتية أي تظهر فيها شخصية الشاعر وميوله وأهواؤه ، أما النقد فتغلب عليه الموضوعية ، أي تنمحي أو تكاد تنمحي فيه شخصية الناقد ولا تظهر فيه إلا أصول النقد وموازينه الدقيقة ، وهو من أجل هذا - عند هيكل - إلى أن يكون علما أدنى منه إلى أن يكون أدبا . . من حيث يرى طه حسين أن الذاتية هي المؤثر

(١) ١٨ و ١٩ الأدب الجاهلي لطله حسين طبعة ١٩٢٧

(٢) ٢١ المرجع

(٣) ٢٦ المرجع

(٤) ص ١٩ المرجع

(٥) ص ٢٤ المرجع

الأول في النقد ، وأن الذوق هو المسيطر على الناقد ، فالذاتية هي الظاهرة في النقد لا الموضوعية ، فهو كالقصيدية مثلاً سواء بسواء ، فن الغلو - كما يقول طه حسين - أن يقصر لفظ الأدب على الشعر والقصة والرسالة دون ما يمس هذه الآثار كلها من النقد ؛ ويرى هيكل أن التاريخ الأدبي ليس من الأدب لأنه علم ، ولكن طه حسين يقول : إن كلمة الأدب لها معنيان : أحدهما خاص وهو يدل على الشعر والنثر الفني وكل كلام يقصد به إلى الجودة وإلى إحداث المتعة الفنية في نفس القارئ أو السامع ، والثاني عام يعمد إليه الذين يريدون تاريخ الآداب وهو يدل على كل ما تنتجه النفس الإنسانية من ثقافات ، فالأدب بمعناه الخاص عند طه حسين يدخل فيه النقد والتاريخ الأدبي وبعض كتب التاريخ وبعض كتب الفلسفة أحياناً .

- ٦ -

وأدب لغة أية أمة من الأمم هو ذلك الفن البليغ من مآثور شعرها ونثرها مما يصدر عن الطباع ، ويؤثر في النفوس ، ويشير العواطف ، ويدعو إلى الإعجاب والاستحسان ، وما يتصل بذلك من شرح ونقد وقصص وأخبار وأنساب وثقافة عامة تعين على فهم الآثار الأدبية وتذوقها ، ولذلك يقول ابن خلدون م ٨٠٨ هـ في مقدمته : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف ، وقد سبقه إلى ذلك ابن قتيبة م ٢٧٦ هـ فقال : « من أراد أن يكون عالماً فليأزم فناً واحداً ، ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم ، (١) .

وأهم مصادر الأدب العربي : البيان والتبيين للجاحظ والكمال للمبرد والأغانى للأصفهاني ، والأمالى للقالي ، وأمالى ابن الشجري ، والعقد الفريد لابن

(١) ٤٨٨ المقدمة ط المطبعة الأزهرية . وهو مسبوق بكلام عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتاب حيث يقول منها في ثقافة الكاتب : « قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به ،

عبد ربه، وبتيممة الدهر، ومعجم الأدباء لياقوت م ٦٢٦ هـ، ووفيات الأعيان لابن خلكان م ٦٨١ هـ، وزهر الآداب للحصري م ٤٣٤ هـ، وبغية الوعاة للسيوطي م ٩١١ هـ ونفح الطيب للمقري وقلائد العقبان للفتح بن خاقان، والمستظرف للأبشيبي من علماء القرن التاسع الهجري، وثمرات الأوراق لابن حجة الجوى م ٨٣٧ هـ، وسواها من الكتب والمصادر.

— ٧ —

أما تاريخ أدب اللغة العربية، فهو علم جديد حديث للشأفة، ابتكره الإيطاليون في القرن الثامن عشر (١)، وعنى به المستشرقون في القرن التاسع عشر، ونقله عنهم المغفور له الأستاذ حسن توفيق العدل إثر عودته من ألمانيا عام ١٨٩٢ وقيامه بتدريسه في مدرسة المعلمين العليا ودار العلوم؛ ثم سار على أثره جورجى زيدان في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية»، ثم ألف فيه بعد ذلك عدد من بحول الأدباء من أمثال الاسكندري في الوسيط الذى اشترك معه في تأليفه الشيخ مصطفى العنانى، وفى غير الوسيط من كتبه في تاريخ الأدب التى كانت تدرس في دار العلوم، والشيخ علام سلامة، والمرحوم أستاذنا محمود مصطفى والدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى، وأحمد حسن الزيات فى كتابه «تاريخ الأدب العربى»، والمغفور له مصطفى صادق الرافعى فى كتابه «تاريخ أدب لغة العرب»، الذى طبع بعد وفاته فى ثلاثة أجزاء، وأصحاب المفصل بجزئيه - وقد كان علم تاريخ أدب اللغة العربية فى أول القرن العشرين يسمى تاريخ أدبيات اللغة العربية :

كان منهج أدباء العرب فى دراسة الأدب العربى (٢) ينحون نحو دراسة تراجم الأدباء والكتاب والشعراء ورواية آثارهم الأدبية ونقدها والموازنة بينها وبين غيرها من الآثار مع تدوين مآثور أدب العرب شعراً ونثراً وشرحه

(١) على أن أول من ميز الأدب والفنون بالتاريخ هو باكون مؤسس الفلسفة الحديثة المنوفى ١٦٢٦ م فقد جمل التاريخ ثلاثة أنواع : التاريخ الدينى وتاريخ الاجتماع وتاريخ الآداب والفنون (٢) راجع كتابى «مذاهب الأدب»، ص ٧٩

وتحليله ونقده والإلمام ببعض أصول الأدب والشعر في الأسلوب والطبع والروح والذوق ، ومن هؤلاء : الجاحظ في البيان والمبرد في الكامل ، وابن سلام في طبقات الشعراء ، وابن قتيبة في « الشعر والشعراء » ، وأبو الفرج في الأغاني ، والقالي في الأمل ، وابن عبد ربه في العقد ، والآمدي م ٥٢٧١ في الموازنة ، والقاضي الجرجاني م ٣٦٦ هـ في الوساطة : وابن رشيقي م ٤٥٦ في العمدة ، وأبو هلال في الصناعتين . ومن هذه الكتب : وفيات الأعيان لابن خلدون م ٦٨١ هـ ، وقيمة الدهر للشعالي م ٤٢٨ هـ ، ومعجم الأدباء لياقوت م ٦٢٦ ، ونفح الطيب للمقري ، وقد تبع هذا المنهج في العصر الحديث الشيخان : المرصفي في الوسيلة الأدبية ، وحمزة فتح الله في المواهب الفتحية .

ويقول ابن خلدون : كتب الأدب أربعة : كتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب الكامل للمبرد وكتاب أدب السكاك لابن قتيبة وكتاب النوادر لابن قتيبة أيضاً .

ولسكن المستشرقين (١) استمدوا من هذه الأصول والدراسات العامة المبثوثة المفرقة في أدبنا العربي ما أعانهم على بحث تاريخ الأدب العربي على ضوء بحوثهم في تاريخ آداب لغاتهم ، فأخذوا يبحثون عصور الآداب العربية وحالة اللغة والأدب في كل عصر وحلّلوا المؤثرات العامة التي أثرت في الأدب في كل فترة من هذه الفترات نهضة أو ضعفاً ، وعنوان تاريخ أعلام الأدب العربي في الشعر والنثر والكتابة والخطابة وترجموا لهم ودرسوا آثارهم الأدبية دراسة واسعة وذكر والخلاف بين المدارس الأدبية المختلفة وأثر كل مدرسة في الأخرى ، والتجديد والتقليد بين هذه المدارس المتنوعة ، إلى غير ذلك من جديد الدراسات التي لم توجد بهذا اللون في الأدب العربي القديم ، والتي

(١) راجع مقدمة الأدب الجاهلي ومقدمة تجديد ذكرى أبي العلاء لطفه

لا تعتمد دراسات العمدة والمثل السائر وفهرست ابن النديم بجانبها شيئاً مذكوراً
وسميت هذه الدراسات « علم تاريخ أدب اللغة العربية » .

فهذا العلم جديد إذًا ، وهو يبحث في أحوال اللغة نثرها ونظمها في شتى
العصور المختلفة ، وفي المؤثرات العامة في الأدب العربي في كل عصر ضعفاً
وقوة ، وفي ما كان لأعلام الأدب العربي من الأثر فيه وفي اللغة ، وفي
حياتهم وتحليل أديهم ونقده .

ولهذا العلم منزلة كبيرة في دراسات الأدب في العصر الحديث : فهو
يوقفنا على الأساليب الأولى التي أثرت في الأدب العربي ارتقاء وضعفاً في شتى
العصور ؛ ويعرض علينا الآثار الأدبية لكل عصر ، حتى لنكاد نلمس سمات
كل عصر في التعبير والبيان ، ونقف على الفروق بين الأدب وأساليبه في كل
جيل ، وهو فوق ذلك لا يلبس أعلام الأدب ورجاله ، فيؤرخ حياتهم ويدرس
آثارهم ، ويحيي ذكرهم على مر الأجيال .

- ٨ -

والتاريخ الأدبي لأدب أمة من الأمم شديد الصلة بتاريخها الاجتماعي
والسياسي :

- ١ - فهو يؤرخ حياة الأمم الأدبية والفكرية والخلقية .
- ٢ - وبعين المؤرخ السياسي في فهم حقائق التاريخ وحالة الأمة التي
يريد تدوين تاريخها العام .

وإذا كان التاريخ الأدبي مؤثراً في التاريخ العام فلا شك أنه يتأثر به إلى
حد كبير أيضاً ، فليس من السهل دراسة أدب الأمة إلا بعد دراسة تاريخها
السياسي وأثره في حياتها الأدبية ؛ وليس من السهل دراسة الأدباء من شعراء
وكتاب ، إلا بعد دراسة عصورهم التي نشأوا فيها ، وأثر بيئاتهم وأحوال
مجتمعاتهم في حياتهم العامة والخاصة ، فضلاً عن أن الأحداث السياسية الكبرى
هي التي تؤثر في حالة الأدب وحياته وضعفه أو قوته .
فكلا التاريخين في الحقيقة متأثر بصاحبه مؤثر فيه .

وتاريخ أدب اللغة العربية يمكنك أن تقسمه إلى عصور متعددة ،
تختلف حالة الأدب العربي في كل عصر منها عن حالته في الآخر اختلافاً
واضحاً ، لاختلاف الحياة السياسية في هذا العصر عنها في العصر الذي يليه
أو الذي قبله .

وهذه العصور هي :

١ - العصر الجاهلي : ويبتدىء باستقلال العدنانيين عن اليمنيين في منتصف
القرن الخامس للميلاد ، وينتهي بظهور الإسلام سنة ٦٢٢ م .

٢ - العصر الإسلامي : ويبتدىء بظهور الإسلام وينتهي بقيام الدولة
العباسية سنة ١٣١ هـ ، وبعض الباحثين يقسم هذا العصر إلى قسمين :

أ - عصر صدر الإسلام : من ظهور الإسلام حتى قيام الدولة الأموية
عام ٤١٠ هـ .

ب - العصر الأموي : من عام ٤١ إلى سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ
٣ - العصر العباسي : ويبتدىء بقيام الدولة العباسية عام ١٣٢ هـ وينتهي
بسقوطها على أيدي التتار عام ٦٥٦ هـ .

وبعض العلماء يقسمه إلى عصرين :

أ - العصر العباسي الأول : ويبتدىء من قيام الدولة إلى عام ٣٣٤ هـ .

ب - العصر العباسي الثاني ، يبتدىء من عام ٣٣٤ هـ إلى آخر عهد الدولة .

٤ - العصر التركي : ويبتدىء بسقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ ، وينتهي بحكم
محمد علي لمصر عام ١٢٢٠ هـ .

ويقسمه البعض إلى عصرين :

عصر المماليك ، وعصر العثمانيين :

٥ — عصر النهضة الحديثة : من قيام حكم محمد علي في مصر عام ١٢٢٠ هـ حتى يومنا هذا .

ولعل من الجدير بالذكر أن ننوه هنا بأن الحياة الأدبية في أول عصر من العصور لا تمكاد تختلف عنها في نهاية العصر الذي قبله في كثير ، ذلك أن حياة الأمة وحالتها الاجتماعية والخلقية والعقلية والفكرية لا تتغير إلا ببطء وبعد مدة كبيرة تعمل فيها عوامل التغيير السياسي الجديد عملها ، وفي بدء الانقلاب السياسي لا تمكاد تشعر بفارق كبير بين الحياة الأدبية التي توجد في بدء الانقلاب وبينها قبيل الانقلاب ، فإذا ما مضى الزمن وسارت الأيام ظهر أثر هذا التغيير السياسي الجديد في حياة الأمة وتفكيرها واثارها الأدبي بجميع فنونه وألوانه .

هذا والمؤثرات السياسية ليست وحدها هي العامل الرئيسي في التغييرات الأدبية ، بل هناك عوامل كثيرة أخرى منها : نفس الإقليم الذي تعيش فيه الأمة ، ونوع الحضارة التي نحيها في ظلالها ، ومقدار الثقافة التي تشيع فيها ، ومنها الدين الذي هو قوام الحياة النفسية والوجدانية للشعوب : ومنها مدى الاتصال بين هذا الشعب والشعوب الأخرى التي تجاوره أو البعيدة عنه ، ومنها استعداد الأمة الفطري الذي يلون ملكاتها العامة بألوان خاصة متميزة ومنها الحروب التي تقوم بين الأمة وغيرها من الأمم المجاورة لها ؛ إلى غير ذلك من شتى المؤثرات في الحياة الأدبية .

ومن ذلك نعلم أن الحياة السياسية لا يستلزم تحسنها نهضة الأدب والشعر في أي أمة من الأمم ، بل قد تسوء الحياة السياسية ومع ذلك ترقى الآداب وتنهض كما حدث في القرن الرابع الهجري فقد ارتقت الحياة الأدبية إلى حد كبير بتشجيع الملوك والأمراء للأدب والشعر واللغة ، وقد ترقى الحياة السياسية للأمة ومع ذلك يضعف أدبها كما في عصور الطغيان السياسي في حكم الملوك المستبدين .

الباب الاول

المؤثرات العامة

في الأدب الجاهلي

يتأثر الأدب عامة في شتى العصور بمؤثرات كثيرة (١)، أهمها : البيئة ؛ والدين ؛ وحياة الأمة السياسية، ومقدار حظها من البداوة أو الحضارة ، وما يؤثر في عقول أبنائها من ثقافة ومعرفة ، ومدى ما بينها وبين غيرها من الأمم المختلفة من اتصال وعلاقة ، وفطرة الأمة نفسها وما تدفعها إليه هذه الفطرة من اتجاهات وأهداف ، ومن المؤثرات في الأدب : التنافس الأدبي ؛ وظهور النقد، والأسواق الأدبية والأندية الثقافية ، وسوى ذلك مما ينهض بالأدب ويؤثر فيه .

وقد كانت هناك عوامل كثيرة تؤثر في الأدب الجاهلي ، منها هذه البيئة العربية . وحياة العرب السياسية والاجتماعية والدينية . ومعارفهم العامة ، ومدى اتصالهم بغيرهم من الأمم والشعوب ، ومنها هذه اللغة العربية نفسها . إلى غير ذلك من المؤثرات في الأدب الجاهلي (٢) مما سنلم به في هذا الباب في شيء من التفصيل .

(١) راجع المؤثرات العامة في الأدب بتفصيل في كتابي « مذاهب الأدب ، ص ٦٩ وما بعدها ، وفي كتاب « الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام ، تأليف : خفاجي وحسن حاد والمسعودي ص ٤٨ طبعة ١٩٥٥ ، وفي أصول الأدب كالزيات ، ولذلك آثرنا عدم التعرض لها بتوسع في هذا المقام .

(٢) راجع كتاب « قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي ، - تأليف عبد الله

عبد الجبار ومحمد عبد المنعم خفاجي

الامة العربية

موطن العرب ، وصف للجزيرة العربية :

العرب هم سكان الجزيرة العربية . وتطلق على هذه البقعة اسم « جزيرة » مع أن الماء لا يحيط بها من كل حدودها . فبينما تجد أنه يحيط بها من الغرب بحر القلزم « البحر الأحمر » ، ومن الجنوب بحر الهند أو بحر العرب « المحيط الهندي » ، ومن الشرق بحر عمان وفارس ونهر الفرات ، نجد حدودها من الشمال أرضا متسعة شاسعة تشمل الجزيرة وبلاد الشام وفلسطين إنما هو خارج عن شبه الجزيرة ، وإن كان العرب قد سكنوا قبل الإسلام جزءا كبيرا من سوريا والجزيرة العربية وأرض فلسطين .

وتنقسم شبه جزيرة العرب إلى خمسة أقسام هي : تهامة ، ونجد والحجاز واليمن ، والعروض .

تهامة : هي الجزء الواقع غرب جبل السراة الذي يقسم شبه الجزيرة من الجنوب (اليمن) إلى الشمال (الشام) قسمين .

وهي أرض منخفضة ، وتسمى الغور ، وتمتد على شاطئ البحر الأحمر ، وسموها تهامة لشدة حرها وركود ريحها ، من التهم وهو شدة الحر وركود الريح . ويسمى جبل السراة الحجاز لأنه حجز بين تهامة الواقعة غربيّه وبين نجد الواقعة شرقيّه ، ومن ذلك يقال : أغار وأنجد وأتهم .

وتهامة أقسام : تهامة اليمن ، وتهامة الحجاز .

وأما نجد : فهي الواقعة شرقي جبل السراة من أدنى حدود اليمن جنوبا إلى السماوة شمالا وتنتهى من الشرق إلى العروض ، وسميت نجدا لارتفاع أرضها .

وتقع اليمن جنوبى نجد إلى ساحل بحر الهند وتمتد شرقا إلى حضرموت

والشجر وعمان . وتشمل قسماً من تهامة وقسماً من نجد .

وأما العروض : فتشمل اليمامة والبحرين وما والاها وفيها مرتفعات ومنخفضات ومسائل أودية . وسميت عروضاً لاعتراضها بين اليمن ونجد والعراق .

وأرض شبه الجزيرة كثيرة الجبال الجرد المختلفة اللون ومنها الحار جمع حرّة . وهى الجبال السوداء اللون . يتخلل هذه الجبال : بعض الأودية التى تجرى فيها السيول أحياناً ، والصحارى الواسعة الكبيرة .

وأشهر الأودية بشبه الجزيرة وادى الدهناء بنجد ، وهو فى موطن تميم بالقرب من البصرة .

وتكثر فى بلا اليمن الأودية والرياض (١) . من حيث تقل فى الحجاز ، فيعتمد أهله على العيون أو ماء المطر الذى يلبث الكلاً فى بعض الأراضى القريبة من الأودية . ولعدم نزول المطر فى مواعيد منظمة تعذر على العرب المكث فى مكان واحد . ومن أجل ذلك أكثروا الرحلة والانتجاع لمواقع الماء ومنابت الكلاً والعشب .

وجو شبه الجزيرة شديد الحرارة فى تهامة مع رطوبة شواطئها الواقعة على « البحر الأحمر » ، شديد أيضاً فى الجبال صيفاً وإن اشتد البرد بالجبال شتاء . أما نجد فمعتدلة الهواء ، وحول الأودية أكثر ، لارتفاعها ، ووجود بعض الأعشاب والحشائش والمزروعات فيها . وأما اليمن فمعتدلة شتاء ، شديدة الحرارة صيفاً ؛ ينزل بها المطر بغزارة فى الربيع . وأطيب الرياح بشبه الجزيرة ربح الصبا ، وأشدّها حرارة ربح السموم .

وأهم مدن الحجاز : مكة وتقيم بها قریش وكنانة وبجنوبها هذيل . والمدينة وبها الأوس والخزرج وهم الانصار وبنو قريظة والنضير وقينقاع

(١) هى المواضع التى يستنقع فيها الماء

من اليهود وشمالها فدك وخيبر . وبمحاذاة فدك وادى القرى الذى يقول فيه جميل :

ألا ليت شعرى هل أبين ليلة

بوادى القرى إلى إذا لسييد

ومن مدنه كذلك الطائف وتسكنها ثقيف وهى فى الجنوب الشرقى لمكة ويقع شرقها سوق عكاظ ، وهى خصبة جيدة الجو والهواء تزرع بها الفاكهة وتقع جدة على البحر الأحمر فى امتداد مكة . كما تقع يلبع عليه فى امتداد المدينة .

وأشهر مدن اليمن نجران شمالا وقد اعتنق سكانها النصرانية ، وأراد ذو نواس إرغامهم على اليهودية فأبوا فأحرقهم فى الأخدود الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم « قتل أصحاب الأخدود » . وبنجران بنى أبرهة معبداً كبيراً ليصرف العرب عن الكعبة إليه ولكنه أخفق فيما أراد . ومن مدن اليمن : مأرب أو سبأ وكان فى الجنوب الغربى منها السد الذى خربه سيل العرم عام ١٢٠ ق م وفيه يقول الأعشى :

وفى ذاك للهوتسى أسوةً ومأربُ عفى عليها العرم
رُخامٌ بلمته لهم حميرٌ إذا جاء موَّارُهُ لم يَرمِ
فأروى الزرعَ وأعنا بها على سعة ماؤُهُم إذ قسم
فصاروا أيادى ما يقدرو ن منه على شربِ طفلٍ فطم

ومن مدنها صنعاء وهى حاضرتها حتى اليوم ، وبها قصر غمدان وفى جنوبها خرائب مدينة « ظفار » حاضرة الحميريين . وفى المثل « من دخل ظفار حمر » أى تكلم باللغة الحميرية . وتشمل اليمن : حضر موت ومهرة والشحر ، وشمال حضر موت الأحقاف مساكن عاد « واذكر أبا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » ، وإلى مهرة تلعب الإبل المهرية وقيل إن نسبتها إلى مهرة حتى من قضاة من عرب اليمن ولغة المهرين حميرية مستعجمة لا تكاد تفهم وأهم القبائل باليمن : همدان وكان لها فى الجاهلية صنفان يغوث ويعوق .

وكذلك مذحج ومراد . والحضارمة ذو نشاط في التجارة والرحلة .
وبنجد مدينة الرياض ، ومن جبالها أجأ وسلسى جبلاطىء ؛ وبها كثير
من القبائل العربية المشهورة كطىء وتميم وبكر وتغلب وقيس وعيلان
وعطفان ، ونجد : إقليم صحراوي تكثر بها الدارات (الواحات) والوادية
وجوها معتدل طيب الهواء ، وقد أشاد بها وبجوها الشعراء ، قال الشاعر :
تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَّارٍ فَبَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَّارٍ
أَلَا يَا حَبِذَا نَفَحَاتِ بَجْدٍ وَرِيَا رَوْضَةَ بَعْدَ الْقَطَارِ (١)

ولابن الصمة :

قفا ودعنا نجداً ومن جلّ بالحمى وقلّ لنجدٍ عندنا أن يودّعنا
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا
وأما العروض فتلتظم اليمامة والبحرين وعمان .
وأما عمان فقطر جبلى على شاطئ البحر في الجنوب الشرقي للجزيرة وقد
اشتهر أهله بالملاحة وكان يسكنها قوم من طىء من أشهرهم قبيلة بهان .
واليمامة في الداخل وتنسب إليها زرقاء اليمامة وتقع في الجنوب الشرقي لنجد
وكانت مسكناً لطسم وجديس . والجزء الممتد في شرق الجزيرة إلى حدود
العراق على بحر فارس يسمى البحرين ومن أشهر مدنه : هجر وتشتهر بالتمر ،
وفي المثل : كناقل التمر إلى هجر ، وخرّبها القرامطة وبنوا مكانها الإحساء ،
ومن مدنه كذلك قطر .
واشتهر أهلها بالغوص على اللؤلؤ . وقد كان يسكن البحرين قبائل من
عبد القيس وتمر .

أصل العرب :

العرب إحدى الأمم السامية التي تنسب إلى سام بن نوح ومن الأمم
(١) العرار : نبت طيب الرائحة : القطار : جمع قطر جمع قطرة

السامية البابليون والآشوريون والسبثيون والآراميون والانباط والاحباش
والعبرانيون والفيلينيون .

وقد اعتمد العالم ايشورون م ١٨٢٧ هـ هذا التقسيم وأقره وحشر هذه
الشعوب كلها في زمرة واحدة .

وقد استخلصت هذه التسمية « السامية » من التوراة (١)

فجموعة الأمم التي كانت تقطن بلاد آسيا الدنيا هي التي كانت تكون
هذه الوحدة الدموية واللغوية المستقلة .

ولكن هل كان لجميع الأمم السامية موطن واحد ومهد أصلي نشأت كلها
فيه ثم تفرعت عنه وانتشرت في أنحاء المعمورة (٢) ؟

لم يتفق الباحثون من المستشرقين بعد على شيء في ذلك . فبعضهم يقول
بالإيجاب ، وبعضهم يجيب بالنفي ، والذين يقولون إنه كان للأمم السامية
موطن أصلي واحد يزعم بعضهم أن المهد الأصلي للساميين هو أرض أرمينية
بالقرب من حدود كردستان . والتوراة تؤيد أن هذا المهد الأصلي هو
أرض بابل ، ويؤيد ذلك المستشرق الإيطالي جويدي . والبعض يرون أن مهد
الساميين هو جزيرة العرب ، وآخرون يرونه في الحبشة . ومن الذين ينفون
هذا المواطن الأصلي المشترك للساميين نولدكة ويؤيد رأيه باختلاف
مسميات المشاهدات الأولى - من جبل وشجر وحيوان ونبات - في جميع
اللغات السامية .

ومهما يكن فأقدم الهجرات السامية كانت هجرة سكان الجزيرة الذين

(١) سفر التكوين الاصحاح العاشر

(٢) راجع : كتاب « اتجاه الموجات البشرية لمحبة الدين الخطيب » وفي مجلة
الرسالة عام ١٩٣٦ بحث لكاتب في أصل الحضارة العربية وهل نشأت في الجزيرة
العربية أو في العراق أو الحبشة ثم انتقلت اليها ، وراجع كذلك كتاب تاريخ
اللغات السامية .

اتجهوا نحو بابل وأسسوا لهم مملكة كبيرة في وادي الفرات .

الشعوب العربية :

يجتمع رأى المؤرخين على أن العرب ثلاث طبقات :

١ - الطبقة الأولى وقد بادت وتلاشت وتسمى العرب البائدة أو العاربة وقد درست آثارهم وأخبارهم إلا القليل . والمشهور منهم قبيلة عاد وكانت بلادها الأحقاف بين اليمن وعمان من البحرين إلى حضرموت والشحر ، وقبيلة ثمود وكانت منازلهم بالحجر ووادي القرى بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم من الجبال ، وغيرها من القبيلتين : كالمهالقة ، وطسم بالأحقاف ، وجديس ، ويزعم بعض الباحثين أن الجورانيين من العرب البائدة وهو خطأ في البحث والرأى .

ب - والطبقة الثانية - التي بقيت آثارها وأخبارها - هي أولاد قحطان الذى يسمى فى التوراة باسم يارح بن يقطان وأبوهم يعرب بن قحطان أول من نطق بالعربية من هذا الجيل ، ويزعم العرب أنه أصل لسانهم وبذلك يفتخر حسان فى قوله :

تَمَلَّمتُ من منطق الشيخ يعربُ أبينا فصرتمُ معربين ذوى نَفْسٍ
وكنتم قديماً ما لكم غيرَ عَجْمَةٍ كلامٌ وكنتم كالبهائم فى القَفْرِ
وقد سكنوا اليمن بعد المعينيين مهاجرين اليها من بابل أو الحبشة . وهذه الطبقة فرعان :

١ - العرب المتعربة ، وقد ورثوا صفات العرب القديمة . وهم السبئيون والحيريون .

٢ - العرب المستعربة وهم عرب الشمال أو الاسماعيلية أو العدنانية الذين استفادوا اللغة من عرب الجنوب ، ونقلوا العادات والأخلاق عنهم بمصاهرة اسماعيل لقبيلة جرهم الثانية اليمنية الى نزحت من الجنوب الى الشمال

وهي غير جرهم الأولى إحدى القبائل البائدة . والعدينايون أهل الحجاز وأصحاب اللغة الفصحى ومظاهر المدنية العربية إلى يومنا هذا . أما أهل الجنوب من ولد قحطان فقد بادت دولهم وطويت صحائفهم قبل البعثة بعدة قرون ، ومن بقي منهم اندمج في عرب الشمال .

ويذهب نسب العدنانيين إلى اسماعيل عليه السلام الذي هاجر به أبوه إبراهيم إلى مكة بواد غير ذي ذرع هو وأمه هاجر المصرية وتزوج من جرهم ثم كثر أولاده واستقلوا بهذه البلاد وطردها منها الجرهميين ، وأصبحوا عنصراً جديداً يخالف في الحياة والتقاليد واللغة عنصر القحطانيين .

ويبدأ تاريخ العدنانيين منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وسلسلة نسبهم إلى عدنان - من ذرية اسماعيل - معروفة أما ما بين عدنان واسماعيل فيختلف فيه علماء الأنساب اختلافاً كبيراً .

القبائل العربية (١) :

١ - القبائل القحطانية :

(١) راجع في هذا :

- أ - كتب التاريخ كابن خلدون والطبري والكمال لابن الأثير وسواها
- ب - كتب الأنساب وهي كثيرة لا يحصها العد
- ج - كتب الأدب : ومن أهمها : العقد الفريد (٢٠٨ - ٢٦٣ : ٢ العقد ط التجارية ١٩٣٥)

ملاحظة : قال ابن السكبي : الشعب أكبر من القبيلة ثم من العمارة ثم البطان ثم الفخذ ثم العشيرة ثم الفصيلة ، والفصيلة هي أهل بيت الرجل خاصة ، والعشيرة هي رهط الرجل . وقال غيره : الشعوب العجم والقبائل العرب (راجع ٢٢٣ ج ٢ العقد ط ١٩٣٥ .. وراجع ١١٢ الشباب الراصد للطفي جمعه ط ١٩٢٦ - والأحكام السلطانية للماوردي ص ٣٥٣ بون ط ١٨٥٣ ، ولسان العرب مادة نخذ ، وبلوغ الأرب ١٩٠ : ٣ وما بعدها)

قحطان (١) هو الجد الأول للقبائل القحطانية ، وأبؤهم هو يعرب بن قحطان .

وكان مهد شعب قحطان هو اليمن . وأشهر قبائلهم : كهلان وحير .
أما كهلان : فكان لهم ملك باليمن حيث شاركوا الحميريين في ملك هذه البلاد ، ثم انفرد الحميريون بالملك وصارت بطون كهلان تحت إمرتهم ونفوذهم ثم تضاعف ملك حمير وبقيت الرياسة على العرب بالبادية لبني كهلان .

ومن بطون كهلان : « الأزد » ومنها : الأوس والخزرج سكان المدينة ، وغسان ملوك الشام ، و « طيء » وكانت منازلهم باليمن ثم هاجروا منها بعد سيل العرم وأقاموا بنجد بجبلى أجأ وسلمى (٢) ، و « كندة » باليمن ونجد ، و « بجيلة » و « لحم » و « عاملة » شمالي الشام ، و « مذحج » باليمن ، ومراد وهمدان بها أيضا ، و « جذام » على خليج العقبة .

وأما حمير : فكانت بلادهم مشارف اليمن فظفار وما حولها . ومن قبائلهم : « قضاة » وكان قضاة مالكا لبلاد الشحر ، وقبره موجود بجبل الشحر واليه نسبت القبيلة . ويزعم بعض النسابين أن قضاة من القبائل العدنانية وهذا خطأ واضح . وانقسمت قضاة إلى بطون من أشهرها :

(١) راجع انساب اليمن في المقدم (٢٤٢ : ٢ ط ١٩٣٥) ، وفي كتاب تاريخ سني الملوك لحزرة الأصفهاني تفصيل لتاريخهم وانسابهم .

(٢) يقعان في الشمال الشرقي للمدينة ويخترقهما وادي الدهناء . ولما عثما عاش بنو طيء في عز ومنعة قال شاعرهم عارق الطائي :

ومن مبلغ عمر بن هند رسالة إذا استحققتها العيس تنفضي من البعد
أيوعدني والرمل بيني وبينه تأمل رويدا ما أمانة من هند ؟
ومن أجأ حولي رعان كأنها قبائل نخيل من كميت ومن ورد

« بلى ، شمالى الحجاز و « جهينة » ، كذلك « وعذرة » جنوب الحجاز
و « تنوخ » قرب المعرة .

هذا وكان اليمانيون يسمون مقاماتهم باليمن مخاليف جمع مخلاف ، ويضاف
إلى اسم القبيلة التى تسكنه .

وقد أثر فى حياتهم الاجتماعية والسياسية سيل العرم تأثير كبيراً . فقد
كانوا بنوا فى مأرب سداً كبيراً بمثابة (الخزانات الحديثة المعروفة عندنا)
وأفادوا منه فى تجميع مياه السيول والأمطار وخزنها فيه وتصريفها عنه على
حسب الحاجة . ولما قلت العناية به وبالسهر عليه تصدعت جوانب هذا
السد ولم يستطع مقاومة هجمات السيول المتواردة عليه والمياه الكثيرة
الموجزة خلفه فانكسر وفاضت المياه على ما أمامه من القرى والمزارع
فأتلفتها ، وكان ذلك على ما حققه الباحثون عام ١٢٠ ق م وأدى ذلك إلى هجرة
أهل الجنوب إلى الشمال .

٢ - العدنانيون أو الاسماعيليون أو الحجازيون أو عرب أهل الشمال :

يلتمى نسبهم إلى اسماعيل بن ابراهيم الذى نزل مكة وجاور جرهما وصاهرهم
وبنى هو وأبوه ابراهيم البيت الحرام ، ثم تناسل أبناؤه وكان منهم عدنان
وولده ، ومن عدنان تبتدىء سلسلة نسب العدنانيين المعروفة .

وقد انقسمت القبائل العدنانية من نزار بن معد بن عدنان . ومن بطونه :
لياد وربيعه ومضر وأنمار . وأشهرهم وأكثرهم ربيعة ومضر .

أما ربيعة فمنها قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم فى تاريخ العرب حيث
كانوا أبناؤون مضر فى الشرف والسيادة ومنهم كان أكثر الخوارج فى الإسلام
ومن ربيعة : عيد القيس ، ومنها بكر وتغلب أبنا وائل ، ومن بكر حنيفة
وعجل أبنا لجيم .

وأما مضر (١) فأنقسمت إلى جذمين كبيرين :

١ - قيس عيلان بن مضر . ولها بطون كثيرة أشهرها : سليم وهوازن
وعظمان ، وعبس وذبيان ، وأشجع ، وعدوان ، وغنى ، ومن قيس : عامر
ابن صعصعة ومنه تفرعت بطون كثيرة .

٢ - إلياس بن مضر وقد تشعبت منه بطون كثيرة منها : تميم بن مر ،
وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمه وبطون ، كنانة بن خزيمه . ومن
كنانة : قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

وانقسمت قريش إلى قبائل كثيرة أشهرها : جمح ، وسهم ، وعدى ،
ومخزوم ، وقيم ، وزهرة بن كلاب ، وعبد الدار بن قصي ، وأسد بن عبد العزى
ابن قصي ، وعبد مناف بن قصي .

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ، ونوفل ، وعبد المطلب ،
وهاشم . وبيت هاشم هو الذى كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب
ابن هاشم صلوات الله عليه ، ومنه العباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب
وأما الأمويون فليسوا من بني هاشم ، وإنما هم من بني عبد شمس أخيه ،
وبالجملة فمهد شعب عدنان مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة ،
ولما تكاثرت أولاد عدنان هاجروا إلى بلاد كثيرة .

فهاجرت عبد القيس - من ربيعة - وبطون من بكر بن وائل إلى البحرين
وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان أمير هذه الجهة من قبل الفرس حين
مجيء الإسلام ، وهو المنذر بن ساوى التميمي .

وهاجرت بنو حنيفة - من بكر - إلى اليمامة ، ونزلوا بمجر حاضرتها ،
وكان أميرهم حين مجيء الإسلام هو هوذة الحنفي وفيه يقول الأعشى .

(١) ويوجد مضر يفتخر شاعرهم ويقول :

إذا مضر الجرام كانت أرومتي وقام بنصرى خازم وابن خازم

عطست بأنف شاخ وتناولت يداى الثريا قاعدا غير قائم

من ير « هوذة » يسجد غير متثبٍ إذا تعمم فوق التاج أو وضعها
له أكاليل بالياقوت فصلها صواغها ، لا ترى عيبا ولا طبعا
وأقامت سائر بكر . وائل ما بين اليمامة والبحرين حتى أطراف
سواد العراق .

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية . وسكنت بنو تميم ببادية البصرة .
وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة . وسكنت ثقيف بالطائف ، وهوارن
في شرقي مكة . وبنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة ، وأقام بمكة وضواحيها
بطون قریش .

حياة العرب الاجتماعية والسياسية والدينية

تمهيد :

العرب (١) اسم جمع واحد عربي، وأصل هذه المادة على اختلاف أوضاعها تدل على التحول والانتقال مثل «عبر»، و«برع»،... الخ. ويرى بعض المعاصرين أن هذه الكلمة كانت في أصلها تطلق على نوع خاص من القبائل التي كانت تسكن الخيام وتنتقل من موضع إلى آخر. وكان قدماء العبرانيين يطلقون هذا الاسم على صنف خاص من القبائل التي كانت تلتقل بخيامها في جهات طورسينا وبادية فلسطين والشام. وبهذا يتبين أن كلمة «عرب» لم تكن تدل في أصلها على كل من يتكلم باللغة المنسوبة إلى العرب وإنما كانت تدل على القبائل المتبدية التي كانت تسكن شمال الجزيرة. ثم شاعت لغة هذه القبائل وسار لها السلطان على أكثر قبائل الجزيرة العربية فأطلق لفظ «العرب» على كل من يتكلم بهذه اللغة من أولئك السكان سواء أكانوا بدوا أم حضرا. ويزعم آخرون أن لفظة «عربي أو عرب» يراد بها في اللغة السامية الأصلية «الغربيون»، ويريدون بهم سكان غربي الفرات من بدو وحضر إلى البحر المتوسط، وكانوا يسمون بلادهم «مات عربي»، أي بلاد الغربيين، فلفظ «العربي» مرادف للفظ «الغربي»، أي من يسكن غربي الفرات. ثم سرى هذا الاسم على جميع سكان الجزيرة عندما تغلبت عليها لغة الساكنين في هذه الجهات وما لبث العرب أن أفردوا لفظا يدل على سكان الخيام المتنقلين في البوادي وهو لفظ «الأعراب». فإذا أرادوا هذا الجيل مطلقا سواء كان حضريا أو بدويا أطلقوا عليه اسم «العرب»، وإذا أرادوا سكنة الخيام المتنقلين خاصة أطلقوا عليهم اسم «الأعراب»، فكل أعرابي عربي ولا عكس.

وقد كان الناس في العصر الثامن الهجري وما بعده يطلقون اسم «العرب»

ولا يريدون به إلا الأعراب خاصة فجري ابن خلدون في مقدمته على عرف أهل زمانه ، ولذلك اختلط على الناس فهم كلامه فاختلفوا في مراده . فمنهم من قال إنه لا يريد بهذه الكلمة إلا المتنقلين من أهل البوادي خاصة ، ومنهم من قال إنها كلمة مطلقة فيجب إجراؤها على إطلاقها فهو يريد بهم هذا الجيل من الناس بدوهم وحضرهم . وقد أطنب الكتاب في هذا الموضوع وأسهبوا ، مع أن الأمر من الواضح بحيث لا يحتاج إلى إيضاح . فان أسلوب ابن خلدون يدل على أنه جاري عرف زمانه في إطلاق لفظ « العرب » على الأعراب خاصة . ولا يزال هذا العرف شائعا عند العامة من عرب هذا العصر في العراق والشام ومصر وغيرها فلا يفهمون من لفظ « العرب » إلا البدو أو القبائل التي تقطن الأرياف (١) . وبعض الناس اليوم يظن أن العرب والأعراب لمطان مترادفان لا يتميز أحدهما عن الآخر .

ولما أراد علماء العربية تدوين اللغة وضبط قواعدها في القرن الثاني للهجري استعانوا بالقرآن الكريم أولا وبكلام العرب الموثوق بعريتهم ثانيا ، ولما كان العرب حينذاك منتشرين في الأرض يخالطون حمراء الأمم وصفراءها وقد اضطربت سلايقهم ولى علماء العربية وجوههم شطر الأعراب في وسط الجزيرة ، فنقلوا الكثير من أشعارهم وأخبارهم ودونوا أمثالهم وخطبهم وما يتعلق بأحسابهم وأنسابهم فاجتمع لهم من ذلك الشيء الكثير ، وأصبح ما نقلوه مادة الأدب ويلبوع الشاهد في ضبط قواعد اللغة . وهذا هو الذي حدا ببعض الناس إلى الظن بأن الأعراب هم مصدر اللغة ويلبوعها ، ومنهم تستهد أصولها وفروعها ؛ وأنهم الأكثرية في سكان الجزيرة العربية . وإذا أرادوا أن يمثلوا العربي لا يجدون له مثالا إلا الأعرابي . وهذا وهم شائع . لأنك إذا تقربت الجزيرة العربية في صدر الإسلام وجدت سكان الأرياف والقرى والمدن الذين يقيمون على المياه ويعيشون على الزراعة والتجارة هم الأكثرية وعليهم كان الاعتماد في الفتوح

(١) راجع ص ١٥٢ من كتاب صور من الفكر العربي للخفاجي

الإسلامية ، منهم القواد والقسم الأعظم من الأجناد . أما الأعراب فكانوا على الهامش لأشأنهم في الفتوح إلا تبعاً . ولم يبلغ فيهم من أهل الحنكة إلا القليل .

حياتهم الاجتماعية :

العرب بدو وحضر : فالبدو هم الذين يقيمون بالبادية ، والحضر هم سكان المدن .

وكان بالجزيرة العربية مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن : كمأرب وصنعاء وزبيد وعدن . ومن أشهر مدن الجزيرة العربية : مكة والمدينة والطائف . وفرق كبير بين حياة البدو وحياة الحضر :

فالبدو قوم رحل ، يرتادون منابت الكلاء ومواقع الغيث لا يستقر بهم مقام ، يرحلون بأغنامهم وأنعامهم إلى حيث تطيب لهم الإقامة حيناً ، غداؤهم لحوم أنعامهم وألبانها ولباسهم من أصوافها وأوبارها ، وحياتهم كفاف وقناعة . اللبن والتمر واللحم هي ما كولاتهم . ومن أجل هذا الفقر والشقاء كثرت بينهم الغارات والحروب ، يأبون أن يكونوا أصحاب حرفة ويرون في ذلك عارا كبيرا . أهم ما يفتخرون به البطولة والقوة على النضال والنزال أما أهل المدن فعيشتهم مستقرة ، يعتمدون على الزراعة والصناعة في اليمن أو على التجارة في الحجاز ، يأوون إلى بيوت ومساكن ، ويعيشون في ظل أمن وسلام غالبا وكانوا أقل شجاعة وأشد حبا للمال وأكثر توفرا على وسائل الترف والنعيم . وكان اليمنيون أمن في الحضارة وقد نقل المؤرخون كثيرا من أحوالهم مما يدل على إفراط في الترف من المسيج الفاخر وأطباق الذهب والفضة وتزين قصور أغنيائهم بأنواع الزينة ، وقد أوصلهم إلى ذلك كثرة الأموال في أيديهم من طريق التجارة والزراعة . وكان أكثر الحجازيين تحضرا قریش في مكة فقد أغنتهم التجارة ومن يأوي إليهم من الحجاج ، فنعموا بما لم ينعم به غيرهم من سكان الحجاز .

والقبيلة هي الوحدة التي بنيت عليها حياتهم ، وأفراد القبيلة ينتسبون إلى أب واحد (١) وقل أن ينتسب إليها من لم يشاركها في نسبها إلا عن طريق الحلف (٢) أو الولاء .

والقبيلة تسمى غالباً باسم الأب كربيعة ومضر والأوس والخزرج ، وقليلاً ما تنتسب إلى الأم كخندف وبجيلة ، وقد تعرف القبيلة بمحادث حدث كغسان وهو اسم الماء الذي نزلت به هذه القبيلة . ولكن الكثير الذائع نسبة القبيلة إلى الأب .

ويسود أفراد القبيلة العصبية والتناصر والتعاون ، وكل فرد يتعصب لقبيلته أصابت أم أخطأت :

وما أنا إلا من « غزيرة » ، إن غوت غويت وإن ترشدت غزيرة أرشدت
والقبيلة تحميه من العدوان وتطالب بدمه إن جنى أحد عليه ؛ وإذا خرج فرد منها على تقاليد القبيلة أو جر عليها المغارم تخلت عنه وأعلنت براءتها منه وسمى « خليفاً » ، وقد يلتجئ فرد إلى غير قبيلته فيسمى « حليفاً » .
ولكل قبيلة رئيس هو سيدها ومرجعها وملاذها في الشدائد (٣) ؛

(١) ١٢٠ ج ٣ المخصص .

(٢) وكما كان الفرد يصير حليفاً لقبيلة غير قبيلته فقد كانت القبيلة تحالف قبيلة أخرى تحتسمى بها ، وإن بقيت بعض القبائل معتزة بعصبيتها متجمرة بنفسها لانحلاف غيرها ، وجمرات العرب ثلاثة : ضبة ونمير وعبس ، والبعض يزبدرابعة هي بنو الحارث بن عبد المدان .

(٣) وكان لرئيس القبيلة حق معلوم في الغنائم ، قال الشاعر يخاطب بسطام ابن قيس سيد شيبان :

لك المربع مندا والصفايا وحكمك والنشيط والفضول

المربع : ربع الغنيمة . والصفايا : ما يصطفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة ، والنشيط : ما أصابه الرئيس في الطريق قبل الوصول إلى دار العدو . والفضول : ما فضل من الغنيمة مما لا يقبل للقسمة على عدد الغزاة .

ولها شاعر أو أكثر يتغنى بمفاخرها وشرفها ومجدها ، ويدود عنها أعداءها
وخصومها .

وعلاقة القبيلة بالقبائل الأخرى علاقة عداء غالباً: إغارة وسلب وحرب
وانتقام وأخذ بالثأر :

يُغار علينا واترينَ كَيْشْتِيْ بِنَا إِنْ أَصْبَحْنَا ، أَوْ نَغِيرُ عَلَى وَتَرْ
قَسَمْنَا بِذَلِكَ الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَا فَمَا يَنْقُضِي إِلَّا وَنَحْنُ عَلَى شَطْرٍ

وكانت القبيلة تنقسم إلى أسر ، والأسرة تخضع للأب خضوعاً مطلقاً
في كل شيء .

وللرأة شأن في الأسرة العربية . يبدأ بذكرها الشعراء قصائدهم ،
ويتغنون بحمائلها ويكنشونها بكنيتها ، ويحترمونها ، ويفخرون بنسبتهم
إلى أمهاتهم كما يفخرون بالنسبة إلى الأب ، ويستمعون لمشورة
زوجاتهم ونسائهم وحسبك أن الحارث بن عوف أحد أشراف
العرب كانت زوجته الصغيرة بنت أوس بن حارثة بن لام الطائي هي التي
أشارت عليه بأن يسعى في الصلح بين عبس وذبيان ففعل فاستحق بذلك
حمد الناس ومدح الشعراء ، وكانوا يستشيرونها في الزواج ويقبلون
رأيها (١) .

كانوا يتزوجون ويعددون بين الأزواج كما كانوا يظلقون ،
قال الأعشى :

أَيَا جَارَتِي بَيْنِي فَانْكِ طَالِقَةٌ كَذَلِكَ أُمُورُ النَّاسِ غَادٍ وَطَارِقَةٌ

(١) راجع في ٢٠٤ ج ٢ الأما إلى أخذ عتبسة بن ربيعة لرأي ابنته هند في
زواجها وكانت قد شرطت عليه ذلك ، وبرأيها وموافقتها تزوجت أبا سفيان
ابن حرب .

وكانوا يحبون أولادهم ويحنون عليهم :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

وإذا كان بعض العرب قد أدوا البنات خشيّة الفقر أو العار ، فإنما كان ذلك في طبقة منحلة منهم في بعض بطون من تميم وأسد ، وقد كان بعض العرب يكره أن تلد امرأته بنتاً (١) .

وعلاقة الرجل بإخوانه من قبيلته علاقة محبة وتناصر وكافي المثل ، انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . . ويقول الشاعر :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهائنا

وكانوا يلهون بالخمر (٢) وغناء القيان والقمار ، ويصيدون الوحوش بالخيول أو بالكلاب المملّية ، وقد قالوا إن كليب بن وائل أول من اصطاد بالفهد - ويرد في شعرهم كثير من الأبيات يصفون فيها صيد بقر الوحش وحمار الوحش وغيرهما ، والجود والكرم أهم خصائص العربي (٣) .

وكانوا يتمدحون بالبرورة والأخلاق والشرف والشجاعة والكرم

(١) وفي ذلك تقول زوج عربي ولدت بنتاً فغضب زوجها وتحول إلى بيت جاره :

ما لأبي حمزة لا ياتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا والله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالارض لزارعينا

(٢) ومن العرب من حرم الخمر على نفسه في الجاهلية (راجع ٢٠٤ ج ١ الامالي)

(٣) راجع أجواد أهل الجاهلية في العقد الفريد (١٤٥ ج ١ ط ١٩٢٨)

وراجع حديث حاتم وما اشتهر به من الجود والنجدة وما وقع له مع زوجته ما وية في ذيل الامالي ص ١٥٢ . ومن أجواد العرب : كعب بن مامة الإيادي وأوس بن حارثة بن لام الطائي وهرم بن سنان (راجع بلوغ الأرب)

والوفاء (١) .

وللكرم في حياة العربي حظ كبير ، ومن العرب أناس اشتهروا بالجود
والسخاء وصاروا مضرب الأمثال كحاتم وسواه .

والإبل هي عماد الحياة في جزيرة العرب ، وكانوا يعنون بالخيول
للطعان والنزال .

وأشهر صناعاتهم الغزل ، وفي المدينة والطائف واليمن قامت الزراعة
وكذلك حول المياه والعيون (٢) .

وكانت التجارة دأب القرشيين الذين كانوا يغدون ويروحون في
الجزيرة العربية آمنين مطمئنين ، وكان لبني عبد مناف رحلات إلى
الشام واليمن ، والحبيشة وفارس ، لأخذ العهود من ملوكها وتأمين السبل
لتجارة قريش (٣) .

(١) وقصة وفاء السموال معروفة ، ومن وفاتهم انهم قتلوا أخاهم وفاء بعهد
الجار قال الشاعر :

قتلنا أغانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجير مقابره
(راجع ٥٩ : ١ تاريخ الأمم الإسلامية للخضري بك ط ١٩٢٦) . وكذلك
قصة وفاء هانيء بين قبيلة لأمانات النعمان بن المنذر التي أودعها عنده والتي
تعرض بسببها هو وقومه والعرب لحرب كسرى في يوم ذي قار ، قصة معروفة
مشهورة (راجع ٣٧٤ ر ٣ من العقد الفريد ط ١٩٢٨)

(٢) والبيت الذي رواه سيديويه في شواهد (٣٥٩ ج ١ الكتاب لسيديويه) وهو :
إلا رجلا جزاه الله خيرا يدل على محصلة تبليت
يدل على أنهم كانوا يعرفون استخراج الذهب ، ولا شك أن ذلك كان في اليمن
إذا صح أن هذا البيت جاهلي . والمحصلة : المرأة التي تحصل الذهب من تراب
المعادن وتخلصه منه وطلبها للبيت لغرض التحصيل طبعاً .

(٣) ١٩٩ النوادر ملحق بكتاب الأمل . ويقول الشاعر :
يا أيها الرجل المحول رحله هلا نزلات آل عهد منافع

وامتدت تجارة قریش إلى الین والشام ، وكانت لهم رحلتان رحلة إلى الین شتاء ورحلة إلى الشام صيفاً ، وقد تقسم أولاد عبد مناف البلاد التي يتاجرون معها ، فكان هاشم يذهب إلى الشام ونوفل إلى فارس وعبد شمس إلى الحبشة والمطلب إلى الین ، ولم يكن يتعرض لهم أحد لأنهم أهل بيت الله وحماة .

وأمدت هذه الرحلات الهاشميين بثقافة واسعة وصقلت أفكارهم وأذواقهم وأسلوبهم وجعلتهم أرقى عرب الشمال ذكراً وأبناً — نظراً وأحصفهم عقلاً .

حياتهم السياسية :

(١) المجتمع العربي يتحكم فيه رؤساء القبائل وساداتها ، فكل قبيلة تأتمر بأمر سيدها وتخضع لإرادته في السلم والحرب جميعاً :

دعانا والأسنة مشرعات فكنا عند دعوته الجوابا

وهو الحاكم والمرجع في كل ما شجر بين أفرادها من خلاف . وللقبيلة بجانب رئيسها أحكام امتازوا بأصالة الرأي وحصافة العقل وصدق النظر يفرع اليهم في الخصومات الأدبية كالمفاخرة في النسب ونحوها (١) .

وهذا النظام هو الذي كانت تسير عليه أغلبية العرب من البدو في نجد والحجاز وتهامة . ويستثنى من ذلك مكة والإمارات التي على النخوم والین .

= الأخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف

والخالطون غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالسكافي

(١) وكان عمرو بن حمزة الدوسي أحد حكام العرب (راجع ١٤٣ ج ٢ الأمال)

(ب) والقرشيون لثرائهم من التجارة ، ولا نصالحهم بالأمم المتحضرة كفارس والروم ، ولنضوج عقليتهم وثقافتهم وتفكيرهم ، كانوا يحكمون مكة حكماً أدق وأنضج من هذا النظام البدوي السائد ، وقد وضع قصى في القرن الخامس الميلادي أساس هذا النظام الجديد ، فقد جمع شتات القرشيين ووحّد كلمتهم وأخذ ولاية البيت الحرام وجدد بناء الكعبة وبني دار الندوة ليجتمع فيها الرؤساء الذين لا تقل أعمارهم عن الأربعين ليتشاوروا ويعقدوا أنكحاتهم وألويتهم ويفصلوا في خصوماتهم .

وأصبح لقصى السيادة التامة في مكة ، كما صار الرئيس الديني للبيت ؛ وكان له رئاسة دار الندوة ، واللواء ، فلا تعقد راية الحرب إلا بيده ، والحجابة وهي حجابة الكعبة لا يفتح بابها إلا هو وهو الذي يلي أمر خدمتها ، وسقاية الحاج ورفادته ، والسقاية هي الحياض التي كانوا يملأونها بالماء ويحلبونها بشيء من التمر والزبد يشرب منها الناس إذا وردوا مكة ، والرفادة هي الطعام الذي كان يصنع للحجاج على سبيل الضيافة ، وكانت قریش تساعد قصياً على ذلك بما تقدمه من خراج سنوى .

وورث أولاد قصى هذه المآثر والمفاخر ، وتنافسوا عليها ، ثم استقر رأيهم على اقتسامها بينهم (١) .

- ١ — فكانت السقاية في بني هاشم ويقوم بها العباس بن عبد المطلب .
- ٢ — والعقاب — راية قریش — كانت في بني أمية عند أبي سفيان بن حرب وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب فإذا اجتمعت قریش على أحد أعطوه العقاب وإلا رأسوا صاحبها فقدموه .
- ٣ — والرفادة كانت في نوفل عند الحرث بن عامر ، والرفادة هي ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج .

(١) راجع العقد الفريد ، ١ ج ٢ ، ٤٩ ، بلوغ الأرب

٤ - والسدانة لبني عبد الدار يقوم بها الحرث بن طلحة وكان اليه السدانة مع الحجابة ، والسدانة خدمة الكعبة وحجابتها ويبد صاحبها مفتاح الكعبة ولها المقام الأول عندهم .

٥ - والمشورة لبني أسد وصاحبها يزيد بن زمعة بن الأسود وكان يستشار في الأمور الكبيرة .

٦ - والندوة في بني عبد الدار أيضاً ، وهي الاشراف على دابر الندوة .

٧ - والأشناق وهي الديات والمغارم وهي في بني تميم ونهض بها أبو بكر الصديق ، وكان صاحبها إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه .

٨ - القبة والأعنة ، والقبة هي الخيمة التي كانوا يضربونها ويجمعون اليها أدوات الحرب ، والأعنة هي تولى أمر الخيل في الحرب ، وكان ذلك لبني مخزوم ونهض بهما خالد بن الوليد ، وقيل إن الأعنة كانت في بني عدي .

٩ - السفارة وهي لبني عدي ونهض بها عمر بن الخطاب وكانت اليه السفارة في الجاهلية وهي التوسط بين قريش وغيرها في الحرب وفي السلم معاً

١٠ - الأيسار وهي تولى أمر الأزمات وكانت في بني جمح وقام بها صفوان بن أمية .

١١ - الحكومة والأموال المحجرة التي سموها لأهلهم وهي لبني سهم ويقوم بها الحرث بن قيس ... وبما وضعته قريش « حلف الفضول » فقد اجتمعت بطون قريش وتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان على رد المظالم بكراً ولا يظلم أحد إلا ممنوعه وأخذوا للظالم بحقه ، وحضره الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في الخامسة والعشرين من عمره وقال فيه : « لقد شهدت حلف الفضول وما أحب أن لي به حمر النعم » .

(ج) ولقد قامت في اليمن دول متحضرة منظمة من أشهرها :

١ - دولة (١) المعيليين : ما بين ١٢٠٠ - ٨٠٠ ق م .

نزحوا من العراق إلى اليمن واستوطنوا بها وشادوا القصور والمحافظ .

٢ - دولة سبأ : من القرن الثامن قبل الميلاد حتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد أيضا ، وقد ورد ذكرها في التوراة ، وفي القرآن الكريم ما يدل على ترف أهلها : وقد ازدهرت مدينة سبأ قبل الميلاد بقرون وتدل النقوش والآثار التي عثر عليها على أنها كانت في القرن الثامن قبل الميلاد .

وحاضرة هذه الدولة هي مأرب وكانت تربها التجارة بين الهند والحبشة والعراق ومصر والشام في بعض العصور ، فازدهرت المدينة والدولة . ووحدت صلات تجارية بين بلقيس ملكة سبأ والملك سليمان بن داود ملك أورشليم . إلا أنه أثر في حياة دولة سبأ أمران :

أولهما : انتقال التجارة إلى الطريق البحري وانقطاع مرورها بسبأ .
وثانيهما : سيل العرم الذي حطم سد مأرب فأغرق البلاد ، وهاجر أهلها منها وتفرقوا في أرجاء الجزيرة العربية .

٣ - الدولة الحيرية : ١٢٠ ق م - ٢٥٠٠ م .

وعاصمة هذه الدولة ظفار ، وامتازت بالفتوحات ومحاربتها الفرس

(١) راجع ص ٢٢٧ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية لولفغسون ط القاهرة سنة ١٩٢٩ في الحديث عن اليمن ودولها وتاريخها والمصادر التاريخية التي تتحدث عنهم . وراجع كتاب تاريخ المدن الإسلامي

والحبشة ، وتضارب المؤرخون في أسماء ملوكهم (١) وعددهم
ومدة حكمهم .

وتنقسم هذه الدولة إلى طبقتين :

١ - الأولى ينتهى حكمها فى أواخر القرن الثالث الميلادى (٢) .

٢ - والثانية مدت سلطانها على الشحر وحضرموت ويسمى ملوكها
التبابعة (٣) وآخرهم ذو نواس (٥١٥ - ٥٢٥ م) .

وذو نواس صاحب الاخدود الذى عذب فيه أهل نجران لعدم تركهم
النصرانية واتباعهم دينه الرسمى (اليهودية) وأحرق الكتاب المقدس مما
دعا إلى غضب الحبشة فقامت بحملة حربية على اليمن دفاعا عن النصرانية (٤)
وكانت بقيادة أرياط وأبرهة فاستولوا على اليمن عام ٥٢٥ م وحكمها أرياط
ثم أبرهة ، وأبرهة هو الذى بنى كنيسة عظيمة بصنعاء اصرف العرب عن
الكعبة اليها ، ثم غزا مكة ليهدم الكعبة فأهلكه الله ، وملك بعده ابنه
يسكسوم ؛ ثم قام سيف بن ذى يزن وحارب الحبشيين وأخرجهم من

(١) راجع اجتماع العرب عند ملك من ملوك حمير (١٧٦ ج ٢ الأمالى) ، وتعزية
وفود العرب لسلامة ذى فائش فى ابنه (٩٩ ج ٢ الأمالى)

(٢) ومن ملوكها : ربيعة وهو الذى قص رؤيته على شق سطيج وأقام بعض
أبنائه بالحيرة ومنهم النعمان بن المنذر

(٣) فتبع الأول اسمه زيد ، وتبع الآخر هو أسعد أبى كرب وكان ملكه
قبل ملك ربيعة بن مضر ، وذلك من ٣٨٥ - ٤٢٠ م ، وقالوا : إنه غزا المدينة
وكسا الكعبة فى مكة وأنه أول من تهود من العرب

(٤) ويعمل المؤرخون اليونانيون هذه الحملة الحربية بتعلييل آخر (١١٦
الشهاب الراصد)

اليمين بمساعدة الفرس له الذين أمدهم بجيش بقيادة وهرز (١) .

وكانت مدة حكم الحبشة لليمن اثنتين وسبعين سنة ، وكتاب الإكليل
للهمداني أحسن مرجع قديم عن اليمن وتاريخها .

(د) إمارة الحيرة : من القرن الثالث الميلادي إلى ٦٣٢ م

وهي إمارة عربية أقامها الفرس على حدود بلادهم بالقرب من الكوفة
لتحميمهم من غارات العرب وليحاربوا بها أعداءهم الروم . فقد وضع
أردشير يده على هذه البلاد واستولى عليها وحكم العرب المقيمين فيها بما
أدّى إلى هجرة قضاة عنها إلى الشام ، ورأى أردشير أنه يستحيل عليه أن
يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه إلا بأن يملك عليهم
رجلا منهم . فاختار جذيمة الوضاح ملكا على الحيرة وسائر من
بادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر ، وجذيمة هو الذي قتلته الزباء نحو
عام ٢٦٨ م انتقاما منه لقتله والدها ، فاحتال ابن أخت له اسمه عمرو بن عدي
حتى قتلها (٢) .

(١) راجع ٧٥ ج ١٦ الأغاني ، ٢: ٥٣ الأغاني أيضا . وراجع وفود قریش
على سيف بن ذي يزن في العقد الفريد (ص ١٧٥ ج ١ ط ١٩٢٨)
(٢) المصادر الأفرنجية تذهب إلى أن الزباء كانت ملكة تدمر من قبل
الرومانيين ، ثم حاربها الرومان وأسروها وماتت في روما نحو عام ٢٧٣ م ،
وكان اسمها عندهم زنوبيا . وكان سابور قد هاجم تدمر بعد أن أسر الإمبراطور
فالريان . إمبراطور الروم ، ولكن ملكة تدمر قاومتها بما سارت عليه من حرب
العصابات حتى هزمتها ومنحت روما ملك تدمر لقب أمير الشرق وملك تدمر ،
وكان اسمه « اودناتوس » ثم قتل وتولى الملك بعده ابنه الطفل وقامت زوجته
وصية على ولدها وكانت تلك الزوجة هي زنوبيا . أرادت زنوبيا التوسع
فأرسلت جيشا ليفتح مصر ويخرج الرومان منها فأفلح في ذلك ، ثم غزت الاناضول
واستولى جيشها عليها عام ٢٧٠ م واعترف بها الإمبراطور شريكه له في
الإمبراطورية وأصبحت تدمر عاصمة مهابة . ثم تولى « كلوديوس » إمبراطورية =

ثم ولى على الحيرة عمرو بن عدى بن نصر اللخمي أول ملوك اللخمين بالحيرة ، وملكهم ما بين عامي (٢٦٨ ، ٦٣٢ م) أى حتى فتح خالد ابن الوليد للحيرة .

ومن ملوكها : النعمان بن امرئ القيس صاحب الخورنق والسدير (١) . والنعمان بن المنذر الذي مدحه النابغة وقد قتله كسرى وقامت من أجله موقعة ذي قار عام ٥٨٠ م (٢) .

وولى على الحيرة بعد النعمان بن المنذر إلياس بن قبيصة الطائي ، وحارب هانيء بن مسعود الشيباني طلباً لودائع النعمان بن المنذر التي أودعها عنده وانتصر بنو شيبان وهزموا الفرس هزيمة منكرة ، ثم عاد الملك إلى آل الخنم .

الرومان تخف لمخاربة زنوبيا فزمها في الاناضول ثم على حدود تدمر وحاصر عاصمتها تدمر . ثم أخذوها أسيرة هي وابنها واستولوا على تدمر وخربوها عام ٢٧٢ م .

(١) بناهما له سبنار الذي قتله الملك خوفاً أن يبني مثلهما فقتل في المثل دجراه جزاء سبنار ،

(٢) راجع خطبة هانيء بن قبيصة في قومه يحرضهم على الحرب في يوم ذي قار في الامالي (١٦٩ ج ١)

وراجع في الامالي (١٩٥ النوادر الملحق بالامالي) خير المنذر بن ماء السماء وقتله نديمه وجعله لنفسه في كل سنة يوم يؤس ويوم نعيم وقتله عبيد بن الابرص يوم يؤسه .

ولم يند بنت النعمان بن المنذر لرجل أولها يدا فدعت له : شكرتك يد نالتها خصاصة بعد ثروة ، وأغناك عن يد نالتها ثروة بعد فاقة (٢٧ : ٤ زهر الآداب) وراجع اجتماع وفود العرب عند النعمان في العقد (١ : ٢٥٦ ط ١٩٢٨) ، وفود العرب على كسرى في العقد (١ : ١٦٦) ، وفود حاجب بن زرارة على كسرى (١ : ١٧٤ العقد) ، وفود أبي سفيان على كسرى (١ : ١٧٤ العقد) وفود حسان بن ثابت على النعمان (١ : ١٧٥ العقد)

وقد تأثرت إمارة الحيرة بمحضارة الفرس وثقافتها ومعارفها تأثراً كبيراً
وكان ملوكها في استقلال داخلي .

ووفادة العرب على كسرى مظهر للنفوذ الفارسي في بلاد العرب ، حدث
ابن القطامي عن السكابي قال :

« قدم النعمان بن المنذر على كسرى ، وعنده وفود الروم والهند والصين ،
فذكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب ، وفضلهم على جميع
الأمم ، لا يستثنى فارس ولا غيرها . »

فقال كسرى — وأخذته عزة الملك — : « يا نعمان ، لقد فكرت
في أمر العرب وغيرهم من الأمم ؛ ونظرت في حال من يقدم على من وفود
الأمم ، فوجدت الروم لها حظ في اجتماع ألفتها ، وتظم سلطانها ، وكثرة
مدائنها ، ووثيق بديانها ، وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها ويرد شبهتها ،
ويقسم جاهلها . ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبها مع كثرة أنهار
بلادها وثمارها ، وعجيب صناعاتها ، وطيب أشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة
عددتها . وكذلك الصين في اجتماعها ؛ وكثرة صناعات أيديها وفروسياتها ،
وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها ملكاً يجمعها . والترك
والخزر — على ما بهم من سوء الحال في المعاش ، وقلة الريف والثمار والحصون
وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس — لهم ملوك تضم قواصمهم
وتدبر أمرهم .. ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير ، في أمر دين ولا دنيا ،
ولا حزم ولا قوة ، ومع أن مما يدل على مهانتها وذلتها وصغر همتها محلتهم التي
هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ،
ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة . قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها
ومشاربها ، ولهوها ولذاتها : فأفضل طعام ظنر به ناعمهم لحوم الإبل التي
يعافها كثير من السباع لثقلها ، وسوء طعمها ، وخوف دائها . وإن قرى

أحدهم ضيفاً عندنا مكرمة ، وإن أطعم أكلة عدها غنيمة - تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ما خلا هذه التنوخية التي أسس جدى اجتماعها ، وشد بملكيتها ، ومنعها من عدوها ، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا وإن لها - مع ذلك - آثاراً ولبوساً ، وقرى وحصوناً ، وأموراً تشبه بعض أمور الناس (يعنى الين) . ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة والبؤس ، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

قال النعمان : « أصلح الله الملك ! حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلمها ، ويعظم خطيئها ، وتعلو درجاتها . إلا أن عندى جواباً فى كل ما نطق به الملك فى غير رد عليه ، ولا تكذيب له . فإن أمننى من غضبه ، نطق به » . قال كسرى : « قل ، فأنت آمن » . قال النعمان : أما أملك - أيها الملك - فليست تنازع فى الفضل لموضعها الذى هى به من عقولها وأحلامها ، وبسطة محلها ، وبحبوحه عزها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الأمم التى ذكرت فأى أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها ، قال كسرى : « بماذا ؟ » قال النعمان : بعزها ومنعتها ، وحسن وجوهها ، وبأسها ، وسخائها وحكمة أسلتها ، وشدة عقولها ، وأنفتها ، ووفائها . . . فأما عزها ومنعتها ، فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك ، وقادوا الجند . ولم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل . حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر : إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور .

وأما حسن وجوهها وألوانها . فقد يعرف فضلمهم فى ذلك على غيرهم ، من الهند المنحرفة ، والصين المنحرفة ، والترك المشوّهة ، والروم المقشرة . . . وأما أنسابها وأحسابها ، فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها ، وكثيراً من أولها ، حتى إن أحدهم ليسأل عن وراء أبيه دنيا ، فلا يلبسبه ولا يعرفه . وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أباً فأباً ، أحاطوا بذلك أحسابهم ، وحفظوا أنسابهم ، فلا يدخل رجل فى غير قومه

ولا ينتسب إلى غير نسبه ، ولا يدعى إلى غير أبيه : وأما سخاؤها ، فإن
أدناهم رجلاً تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه في حموله . وشبعه وريه
فيطرقه الطارق الذي يكتفي باللذة ويحتزى بالشربة ، فيعقرها له ، ويرضى
أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحداث ، وطيب الذكر . وأما
حكمة ألسنتهم . فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ، ورواق كلامهم ،
وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال ، وإبلاغهم في
الصفات - ما ليس لشيء من السنة الأجناس ، ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم
أعف النساء . ولباسهم أفضل اللباس ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة
جبالهم الجزع ، ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سفر ولا يقطع بمثلها بلد قفر .
وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون به ، حتى يبلغ أحدهم من نسكه
أن لهم أشهراً حراماً ، وبلداً محرماً ، وبيتاً محجوراً ، ينسكون فيه مناسكهم ،
ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه ، وهو قادر على
أخذ ثأره ، وإدراك رغبته منه ، فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله
بأذى . وأما وفائها ، فإن أحدهم يلحظ اللحظة ، ويومئ الإيماء ، فهي
واث وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه ، وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض
فيكون رهناً بدينه ، فلا يغلق رهنه ولا تحفر ذمته . وإن أحدهم ليبلغه
أن رجلاً استجار به ، وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب ، فلا يرضى
حتى ينفى تلك القبيلة التي أصابته أو تنفى قبيلته ؛ لما أخفر من جواره ، وإنه
ليبلغ إلىهم المجرم المحدث ، من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفسهم
دون نفسه ، وأموالهم دون ماله .

أما قولك ، أيها الملك يثدون أولادهم ، فإنما يفعل من يفعل منهم بالإناث
أنفة من العار ، وغيره من الأزواج . وأما قولك : « إن أفضل طعامهم
لحوم الإبل ، على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له فعمدوا
إلى أجملها وأفضلها . فكانت مراكبهم وطعامهم ، مع أكثر البهائم شحوماً ،
وأطيبها لحماً ، وأرقها ألباناً ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ؛ وإنه لا شيء من

اللعمان يعالج ما يعالج به لجهها إلا استبان فضلها عليه . . وأما تحاربهم ، وأكل بعضهم بعضاً ، وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم ، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم ، إذا أنست من نفسها ضعفاً ، وتخوفت من نهوض عدوها إليها بالزحف . وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد ، يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهاهم ، وينقادون لهم بأوامرهم ، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين مع أنفتهم من الخراج . .

وأما اليمن التي وصفها الملك ، فإنما أتى جد الملك الذي أتاه ، عند غلبة الجيش له على ملك متسق ، وأمر مجتمع . فأناه مسلوباً طريداً مستحضراً قد تقاهر عن إيوانه ، وصغر في عينه ماشيد من بنائه . ولولا ما وتر به من يليه من العرب ، لمال إلى بحال ؛ ولوجود من يجيد الطعام ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار . .

فدعج كسرى لما أجابه النعمان به ، وقال : « إنك لأهل لموضعك من الرياسة في أهل إقليمتك ؛ ولما هو أفضل ، ثم كساه من كسوته وسرحه إلى موضعه من الخيرة . فلما قدم النعمان الخيرة ، وفي نفسه ما فيها ، بما سمع من كسرى من تنقص العرب ، وتهجين أمرهم . بعث إلى أكثم بن صيفي ، وحاجب بن زرارة التميميين ، وإلى الحرث بن عباد وقيس بن مسعود البكرين ، وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين ، وإلى عمرو بن الشريد السلسي ، وعمرو بن معديكرب الزبيدي ، والحرث بن ظالم المري . فلما قدموا عليه في الخورنق ، قال لهم :

« قد عرفتكم هذه الأعاجم ، وقرب جوار العرب منها . وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غور ، أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولاً كبعض طماطمته في تأتيمهم الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله . فقص عليهم مقالات كسرى وما رد

عليه . فقالوا : « أيها الملك ، وفقك الله ! ما أحسن ما رددت ! وأبلغ ما
 حججت به ! ففرنا بأمرك ، وادعنا بما شئت . قال : « إنما أنا رجل منكم ،
 وإنما ملكك وعزرت بمكانكم ، وما يتخوف من ناحيتكم . وليس شيء
 أحب إلى مما سدد الله به أمركم ، وأصلح به شأنكم ، وأدام عزكم ، والرأي
 أن تسيروا بجماعتكم — أيها الرهط — وتنطلقوا إلى كسرى . فإذا دخلتم
 نطق كل رجل منكم بما حضره ، ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو
 حدثته نفسه ، ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه ، فإنه ملك عظيم السلطان
 كثير الأعوان ، مترف معجب بنفسه . ولا تنخدلوا له انخدال الخاضع
 الذليل . وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم ، وفضل منزلتكم
 وعظيم أخطاركم . وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفي لسن
 حاله ، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها ، فإنما دعائي إلى
 التقدم إليكم على ميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه ، فلا يكون
 منكم ذلك فيجد في آدابكم مطعناً ، فإنه ملك مترف ، وقادر متسلط ، .
 دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حلال الملوك ، لكل رجل منهم حلة
 وعممه عمامة ، وختمه بياقوتة . وأمر لكل رجل منهم بنجبية مهرية وفرس
 نجبية ، وكتب معهم كتاباً : « أما بعد ، فإن الملك ألقى إلى من العرب ما قد
 علم وأجبهته بما قد فهم ، بما أحببت أن يكون منه على علم ، ولا يتلجلج في
 نفسه أن أمة من الأمم التي احتجرت دونه بمملكاتها ، وحمت ما يليها بفضل
 قوتها ، تبلغها في شيء من الأمور التي يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير
 والمكيدة . وقد أوفدت — أيها الملك — رهطاً من العرب لهم فضل من
 أحسابهم وأنسابهم ، وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك وليغضض عن جفاء ،
 إن ظهر من منطقهم وليكرمني بإكرامهم وتعجيل سراحهم . وقد نسبتهم
 في أسفل كتابي هذا إلى عشائريهم ، فخرج القوم في أهبتهم حتى وقفوا بباب
 كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان . فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن
 يجلس لهم مجلساً يسمع منهم فلما أن كان بعد ذلك بأيام ، أمر الرؤساء

ورجوه أهل مملكته ، فحضرُوا وجلسُوا على كراسي عن يمينه وشماله . ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه ، وأقام الترجمان يؤدي إليه كلامهم . ثم أذن لهم في الكلام . فتكلم كل رجل بما حضره ، وكسرى يسمع فيقبل ما يعجبه ويقوم ما يراه معوجاً ، حتى انتهوا . فقال : « قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم ، وتفنن فيه متكلموكم . ولولا أني أعلم أن الأدب لم يثقف أودكم ، ولم يحكم أمركم ، وأنه ليس ملك يجمعكم فتنتطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة فنطقتم بما استولى على ألسنتكم وغلب على طباعكم . لم أجز لكم كثيراً مما تكلمتم به : وإني لأكره أن أجيبه وفودي ، أو أحنق صدورهم ، والذي أحب لإصلاح مدبركم . وتألف شواذكم ، والاعذار إلى الله فيما بيني وبينكم . وقد قبلت ما كان في منطقكم من صواب ، وصفححت عما كان فيه من خلل . فانصرفوا إلى ملككم فأحسنوا مؤازرته ، والتزموا طاعته . واردعوا سفهاكم وأقيموا أودهم ، وأحسنوا أدبهم — فإن في ذلك صلاح العامة » .

(هـ) إمارة غسان :

هاجرت قبائل من قضاة إلى مشارف الشام وسكنت بها لخصبها ، وكانت هذه البلاد تحت حكم الرومان فاصطنعهم الرومان ليمنعوا غارات العرب عن ملكهم وليكونوا عدة ضد الفرس واللخميين ، ثم تغلب على هذه البلاد بنو جفنة الغسانيون ورئيسهم جفنة بن عمرو فواته الروم ملكاً على الشام ، وشمل حكمهم مقاطعتي حوران والبلقاء ، وعاصمة ملكهم هي جولان أو الجابية أو جلق بالقرب من دمشق .

وقد تأثرت هذه الإمارة بالحضارة الرومانية ، ومن أشهر (١) ملوكها الحارث بن جبلة وقد عينه الإمبراطور جوستينيان عام ٥٢٩ م أميراً على

(١) ومن ملوكها الحارث بن أبي شمر الغساني . راجع حديثه مع قيس بن ربيعة في الامالي (١: ٢٥٧)

جميع قبائل العرب في الشام ومنحه لقب بطريق وكان الحارث نصرانيا على مذهب اليعاقبة وقد سافر إلى القسطنطينية عام ٥٦٣ م وهو الذي توسط لأمريء القيس في الذهاب إلى قيصر في القسطنطينية ليستعين به . وآخر ملوكهم هو جبلة بن الأبرم ، وقد اشتهر الغسانيون بالكرم ومدحهم الشعراء كحسان والأعشى والنابغة وعلقمة الفحل .

وقد حارب الغساسنة الفرس واللخمين وكانت لهم أيام انتصروا فيها على اللخمين .

الحياة الدينية عند العرب :

الحياة الدينية عند العرب مختلفة الألوان والمظاهر والعقائد فمن وثنية إلى يهودية ونصرانية إلى حنيفية وتحنث : ويهمننا هنا أن نلم بكل هذه الألوان المختلفة من التدين عند العرب .

وكانت الوثنية هي الدين السائد في جزيرة العرب ، وهي عبادة الأصنام والأوثان .

والأصنام هي تماثيل الإنسان من المعادن أو الخشب ، والأوثان هي تماثيل الإنسان من الحجر

وكان بدء عبادة الأصنام عند العرب أنهم كانوا يعظمون الكعبة تعظيما شديدا فلما تكاثروا وضائق بهم مكة وهاجروا منها كان لا يظعن ظاعن إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما له وحبا لمكة فحيثما حل وضعه وطاف به كما كان يطوف بالكعبة . واستمروا على تعظيم هذه الحجارة حينما تأصل فيه حبهم لها وتعظيمهم إياها ثم استحال هذا التعظيم عادة فعبادة ، ثم عمت هذه العبادة حتى وصلت إلى مكة مقر التوحيد .

وكان أول من غير دين إبراهيم وإسماعيل فوضع الأصنام في الكعبة عمرو بن لحي ، وكان حاجب البيت الحرام ، شاهد أهل البلقاء يعبدون

الأصنام فنصب صنما في الكعبة سماه « هبل » وجعل عبادته إليه ، ومن أشهر الأصنام عند العرب :

مناة : وكان منصوبا على ساحل البحر بين المدينة ومكة وكانت العرب تعظمه وتذبح حوله وكان الأوس والخزرج يعظمونه وقد ذكرت « مناة » في القرآن الكريم « ومناة الثالثة الأخرى » وكان من أسماء العرب « عبد مناة » و « زيد مناة » . قيل كان يعبد مناة خزاعة ، قيل : وهذيل أيضا ، وقيل أنها كانت لبني كعب . والصحيح أنها كانت للأوس والخزرج . وفي سنة ٥٨ هـ وهي عام الفتح بعث الرسول (ص) عليا رضي الله عنه فهدمها .

واللات وهي صخرة مربعة بدت عليها ثقيف بناء بالطائف وكانت ثقيف تعبدها ومن سدننها عتاب بن مالك ، ومن أسماء العرب : زيد اللات وريم اللات . وورد ذكرها في القرآن الكريم : أفرأيتم اللات والعزى . ويقول عمر بن الجعيد :

فاني وتركى الكأس عمدا لسكالذى تبرا من لات وكان يدينها

وبقيت إلى أن أسلمت ثقيف فبعث رسول الله المغيرة بن شعبه فهدمها وحرقها بالنار ، وفي ذلك يقول شداد بن عارض ينهى ثقيفا عن العودة إلى عبادتها :

لَا تَنْصُرُوا اللَّاتَ إِنَّ اللَّهَ مَهْلِكُهَا وكيف نصركم من ليس ينتصر
إِنَّ الْقِيَّ حَرَقَتْ بِالنَّارِ فَاشْتَعَلَتْ ولم تقابل لدى أحجارها هدر
إِنَّ الرَّسُولَ مَتَى يَنْزِلْ بِسَاحَتِكُمْ يظعن وليس بها من أهلها بشر

ويقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر

والعزى : وهي شجرة وكانت أعظم الأصنام فكانت قریش تخصها بالزيارة والهدايا والنحر عندها . وكانت العزى بواد من نخلة بأرض الشام

يقال له حرض وقيل بالقرب مكة وسدنتها من بني مرة من سليم ، ومن أسماء العرب عبد العزى . وبعد ظهور الإسلام أرسل الرسول صلوات الله عليه خالد بن الوليد وذلك عام الفتح فقطعها .

وكان من العرب من يقولون إن الثلاث — اللات والعزى ومناة — بنات الله .

ومن أصنامهم : ود ، وسواع ، ويعوق ، ويعوق ، ونسر . وكان ود لكسب ، وسواع لهذيل : قال الشاعر :

تراهم حول قبيلتهم عكوقا كما عكفت هذيل على سواع

ويعوق المذبح ، ويعوق لهدان وقيل لمрад ، ونسر الخير قبل أن يدينوا باليهودية . ومن أصنامهم : « هبل » وهو أعظم الأصنام التي كانت حول الكعبة وكانوا يستقسمون عنده بالأزلام ، « وذو الخالص » وهو الخشم وهو مروة بيضاء منقوش عليها مثل هيئة التاج وقد بنى له بيت بين مكة والمدينة على مسيرة سبعة ليال من مكة . وروى أن امرأ القيس استقسم عنده في الأخذ بشار أبيه فنهى عن ذلك فرمى بالقدح في وجهه وقال :

لو كنت يا ذا الخالص الموتورا مثلي وكان شيخك المقبور

لم تنه قتله العدا زورا

وقيل إنه وجد حول الكعبة بمكة يوم الفتح ستون وثلاثمائة صنم حطمها الرسول (ص) بيده كلها . وكان لأهل كل بيت صنم في بيتهم يعظمونه . وكان لغير قريش بيوت عبادة كالكعبة وتسمى الطواغيت وكانوا يضعون فيها الأصنام ويطوفون بها ويهدون إليها الهدايا ويذبحون الذبائح ويستقسمون عندها بالقداح ولها سدنة وحجاب .

وهكذا كانت حياة العرب متأثرة بهذه الأصنام أيما تأثر (١) إلا أن

(١) ومن القرابين — الذبائح — التي كانوا يذبحونها عندها : البحيرة والسائبة والوصيلة والحام . وهي مذكورة في القرآن الكريم .

الشعر العربي الذي يصور هذه الناحية الدينية من نواحي حياة العرب العامة غير كثير ، وقد يكون ذلك لأن رواة الشعر الجاهلي بعد الإسلام قد أهملوا ما ظهرت فيه الوثنية تديناً وارضاء لله

ودخلت اليهودية إلى جزير العرب فانتشرت في يثرب وحولها في فدك وخيبر ، وفي اليمن ومن أول ملوكهم الذين تهودوا « ذو نواس » ، وقد تعصب لليهودية وحاول جعلها الديني الرسمي وأحرق نصارى نجران في الأخدود تعصباً ليهوديته مما أثار الحبشة النصرانية فغزت اليمن بلاد وملاكتها وكان ذلك في أوائل القرن السادس الميلادي كما تقدم

وتهود كذلك بعض أناس من كندة وكفانة وأشهر شعراء العرب من اليهود السموأل بن عادياء .

ودخلت النصرانية إلى الجزيرة أيضاً حيث استقرت في ربيعة وغسان وبعض قضاة وطى ، لترددهم على الروم وفي قبائل العباد ، بالخيرة وكان بنو تغلب من نصارى العرب أيضاً ، وأشهر مواطن النصرانية في اليمن « نجران » وكان أهلها على مذهب اليعاقبة كالحبشة

وكانت اليهودية والنصرانية قليلتين بالنسبة إلى الدين السائد في الجزيرة وهو الوثنية . وكان القسوس والرهبان يردون العرب ويدعون إلى دينهم ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار ، وأشهر شعراء النصرانية قس بن (١) ساعدة وأميرة ابن أبي الصلت وعدى بن زيد .

ومن العرب من كان يعبد الكواكب ، فقد كان بين اليمنيين من عبد الشمس ، وعبدت كنانة القمر ، وعبد قوم من لحم وخزاعة وقريش نجم الشعرى ، وروى أن قوماً من قريش اعتنقوا الزندقة أخذوها عن بعض أهل الخيرة الذين أخذوها عن الفرس ، والزندقة تسير على مذهب

(١) راجع حديثه مع قبصر (٢: ٣٧ الأمل)

مانى وتقول بالهين : إله النور وهو أصل كل خير وإله الظلام وهو منبع كل شر .

ووجد من العرب من أنكر هذه الأديان كلها وقالوا ما حكاه الله عز وجل عنهم « ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » .

وكانت قريش لها ولاية البيت وبعض ميزات دينية كعدم الوقوف بعرفة أو الإفاضة منها وسوى ذلك . وكان بعض قليل من العرب يعبدون الله على ما يتصورون من دين الحنيفية البيضاء دين إبراهيم وإسماعيل .

وبعضهم أنكروا الأديان وغابت عنهم حقيقة الحنيفية فتفرقوا في البلدان يلتمسونها ويطلبون التوحيد ، ومن هؤلاء ورقة بن نوفل الأسدي وزيد بن عمرو بن نفيل العدوي وعثمان بن الحويرث بن خزيمية وعبيد الله ابن جحش الأسدي ، فأما ورقة فتنصر ، وأما زيد فاعتزل الأديان كلها وقال أعبد رب إبراهيم ، وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم وتنصر ، وأما عبيد الله فأقام على ما هو عليه من الشك حتى جاء الإسلام فأسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة فلما قدمها تنصر فيها .

وكان في العرب كهان مشهورون ، لهم قصص كثيرة وكان العرب يأخذون رأيهم في المشكلات . . ومنهم : سطيح ، وطريفة ، وزبراء السكاهنة (١) ، وسواد بن قارب (٢) .

وكان منهم الطوارق بالحصى (٣) ، ومن الكهان ابنة الخُس (٤) .

(١) راجع حديث زبراء مع بنى رثام من قضاة في الامالى (١: ١٢٦) ،
واقراً وفود عبد المسيح على سطيح في العقد الفريد (١: ١٧٨ ط ١٩٢٨)

(٢) ٢: ٢٨٩ الامالى

(٣) راجع الامالى (١: ١٤٢)

(٤) راجع حديثها مع أبيها في (ذيل الامالى ص ١٠٧)

معارف العرب في الجاهلية

أ - كان التبابعة في اليمن ، والمناذرة والغساسنة في الحيرة والشام على حظ من المعرفة والثقافة يدلنا على ذلك ما وصلوا إليه من بناء السدود وحفر المجارى المائية وتخطيط المدن وتنظيم الجيوش وهندسة الأمواه ، ولا شك أنهم تأثروا بالفرس والروم وسواهم من الأمم المتحضرة وأخذوا عنهم الطب والحساب والزراعة .

ب - أما سواد العرب فأميون بدو لا عهد لهم بعلم أو ثقافة ولا بتعليم أو تدريس ، وإنما كانت لهم معارف وصناعات أفادوها بتجارهم أو باتصالهم بالأمم الأخرى عن طريق التجارة أو الأمارات القائمة على الحدود أو البعث الدبلوماسية ، ومن أشهر معارفهم :

١ - النجوم والمطر والرياح :

ففي اللغة العربية أسماء متعددة للنجوم ، وللرياح على اختلاف أنواعها ، وللمطر . وتشابه أسماء البروج والكواكب في العربية والسكندانية كثير .

وبعض هذا وصلهم عن السكندانيين أهل بابل القديمة ، وبعضه اهتموا إليه بفطرتهم لحاجتهم إلى معرفة الوقت والعلم بزمان الخصب والمحل وأوقات الرياح والمطر سواء كانوا في البر أو البحر ، وساعدهم على ذلك صفاء جو الصحراء وحدة فطنتهم ، وحاجتهم إلى المطر والسحاب .

ويتصل بهذا ما كان عليه بعض عرب السواحل كأهل اليمن والبحرين من معرفة بالملاحة البحرية وسير المراكب في البحار ، وفي اللغة العربية ألفاظ كثيرة لذلك ، ويقول طرفة :

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوءَ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ
تَعْدُو لِيَّةً أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنْ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشْتَقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حِينَ وَمُهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمُفَايِلُ بِالْيَدِ

٢ - الطب

وقد وصلهم بعض معلومات عنه من الفرس والروم واليونان وكان
الحارث بن كلدة طبيب العرب في الجاهلية م ١٣ هـ قد تعلم في بلاد الفرس
وكان من ثقيف وعاش حتى جاء الإسلام وكان الرسول صلى الله عليه وسلم
يشير على المرضى أن يذهبوا إليه ، ويضرب المثل بابن حذيم الطبيب قال
الشاعر أوس بن حجر :

فَهَلْ لَكُمْ فِيهَا إِلَى ، فَانِي طَبِيبٌ بِمَا أَعْيَا النَّطَاسِي حَذِيمًا (١)
وتروى عنه الحكمة المشهورة « البطننة بيت الداء والحمة رأس الدواء ،
وهو من تيم وكان يقال « أطب من ابن حذيم » .

كما استمدوا بعضه من تجاربهم العامة . وكان للكي بالنار حظ كبير في
علاجهم . وكانوا يعالجون إبلهم وخيلهم بالكي وبالقطران إلى غير ذلك
من العلاج .

وفي اللغة العربية أسماء لكثير من الأمراض ولكثير من الأدوية النباتية
وسواها ، ولكثير من أوصاف الإبل والخيل .

ويضرب بطب الحارث بن كلدة المثل ، وقد وفد الحارث (٢) بن كلدة

(١) الضمير يعود للمعزى أى فهل لكم ميل في رد المعزى إلى وهى معزى على
إغتهاها نضيقوه . النطاسي : العالم

(٢) كان الحارث من الطائفة طبيب العرب في عصره ، وقد سافر إلى فارس
وتعلم الطب ، وعرف الداء والدرء ، وكان يضرب بالعود ، تعلم ذلك بفارس
والين ، وبقى أيام رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية توفي نحو
سنة ٥٠ هـ راجع ٣٢٨ : ٣ بلوغ الأدب ، ٣٤١ : ٤ العقد الفريد

الثقفي على كسرى أنوشروان ، فأذن له بالدخول عليه ، فلما وقف بين يديه ، قال له : من أنت ؟ قال : أنا الحرث بن كلدة الثقفي . قال : فما صناعتك ؟ قال : الطيب ، قال : أعرابي أنت ؟ قال : نعم من صميمها ، وبجبوحه (١) دارها ، قال : فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وضعف عقولها ، وسوء أغذيتها ؟ قال : أيها الملك ؛ إذا كانت هذه صفتها كانت أحوج إلى من يصلح جهلها ، ويقنم عوجها ، ويسوس أبدانها ، ويعدل أمشاجها (٢) ؛ فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه !

قال كسرى : فكيف تعرف ما تورده عليها ؟ ولو عرفت الحلم لم تلصق إلى الجهل !

فقال : أيها الملك ، العقل من قسم الله تعالى ، قسمه بين عباده كقسمة الرزق فيهم ، فكل من قسمته أصاب ، فمنهم مثرو معدم ، وجاهل وعالم ، وعاجز وحازم ، وذلك تقدير العزيز العليم ! فأعجب كسرى من كلامه .

ثم قال : فما الذي تحمد من أخلاقها ، ويعجبك من مذاهيبها وسجاياها ؟ قال الحرث : أيها الملك ؛ لها أنفُس سخية ، وقلوب جرية ، ولغة فصيحة ، وألسن بليغة ، وأنساب صحيحة ، وأحساب شريفة ، يمرق (٣) من أفواههم الكلام مروق السهم من نبعة الرام (٤) ، أعذب من هواء الربيع ، وألين من سلسبيل المعين (٥) ؛ مطعموا الطعام في الجذب ، وضاربوا الهام في الحرب ، لا يرام عزهم ، ولا يضام جارهم ، ولا يستباح حريمهم ، ولا يذل كريمهم ، ولا يقرون بفضل الأنعام ، إلا للملك الهام ، الذي لا يقاس به أحد ، ولا يوازيه سوقة (٦) ولا ملك !

(١) جببوحه : صميم

(٢) الأمشاج : الأخلاط :

(٣) يمرق : يخرج .

(٤) الرام شجر

(٥) السلسبيل : اللين الذي لا خشوة فيه ، والمعين : الماء الجاري

(٦) السوقه : خلاف الملك .

فاستوى كسرى جالساً ، وسر لما سمع من محكم كلامه ؛ وقال لجلسائه :
لانى وجدته راجحاً ، ولقومه مادحاً ، وبفضيلتهم ناطقاً ، وبما يورده من لفظه
صادقاً ؛ وكذا العاقل من أحكمته التجارب اثم أمره بالجلوس فجلس ، فقال له :
كيف بصرك بالطب ؟ قال : ناهيك ا

قال : فما أصل الطب ؟ قال : ضبط الشفتين ، والرفق باليدين ، قال :
أصببت ا فما الداء الدوى ؟ قال : إدخال الطعام على الطعام ، هو الذى يفنى
البرية ، ويملك السباع فى جوف البرية ، قال : فما الجرة التى تلهب منها
الأدواء ؟ قال : هى التخممة ، إن بقيت فى الجوف قتلت ، وإن تحملت أسقت
قال : صدقت .

فما تقول فى الحجامة ؟ قال : فى نقصان الهلال ، فى يوم صحو لا غيم فيه ،
والنفس طيبة ، والعروق ساكنه ، والسرور يفاجئك ، وهم يباعدك ، قال : فما
تقول فى دخول الحمام ؟ قال : لا تدخله شبهان ، ولا تقم بالليل عريان ، ولا تقعد
على الطعام غضبان ، وارفق بنفسك ، يكن أرخى لبالك ، وقلل من طعامك ،
يكن أهنأ لنومك .

قال : فما تقول فى الدواء ؟ قال : ما لزمك الصحة فاجتنبه ، فإن هاج داء
فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه ؛ فإن البدن بمنزلة الأرض ؛ إن أصلحتها
عمرت ، وإن تركتها خربت .

قال : فما تقول فى الشراب ؟ قال : أطيبه أهنا ، وأرقه أمراه ؛ وأعذبه
أشها ، لا تشربه صرفاً فيورثك صداعاً ، ويشير عليك من الأدوية أنواعاً .

قال : فأى اللحم أفضل ؟ قال : الضأن الفقى ؛ والقديد المالح مهلك الأكل
واجتلب لحم الجزور والبقر .

قال : فما تقول فى الفواكه ؟ قال : كلها فى إقبالها وحين أولانها ، واطرکها إذا
أدبرت وولت وانقضى زمانها ؛ وأفضل الفواكه الرمان والأترج ، وأفضل

الرياحين الورد والبنفسج : وأفضل البقول الهندباء (١) والخس .

قال : فما تقول في شرب الماء ؟ قال : هو حياة البدن ، وبه قوامه ،
ينفع ما شرب منه بقدر الحاجة ، وشربه بعد النوم ضرر ، أفضله أمراه ،
وأرقه أصفاه .

قال : فما طعمه ؟ قال : شيء لا يوصف ، قال فما لونه ؟ قال : أشبهه على
الابصار لونه ، لأنه يحكى لون كل شيء يكون فيه .

قال : فما النور الذى فى العينين ؟ قال : مركب من ثلاثة أشياء : فالبياض
شحم ، والسواد ماء ، والناظر ريح .

قال : فعلى كم جبل وطبع البدن ؟ قال : على أربعة طباع : المرة السوداء
وهى باردة يابسة ، والمرة الصفراء وهى حارة يابسة ، والدم وهو حار رطب ،
والبلغم وهو بارد رطب ، قال : فلم لم يكن من طبع واحد ؟ قال : لو خلق من
طبع واحد لم يأكل ولم يشرب ، ولم يمرض ولم يهلك ! قال : فمن طبيعتين ؟ لو كان
اقتصر عليهما ! قال : لم يحزن لأنهما ضدان يقتتلان ! قال : فمن ثلاث ؟ قال :
لم يصلح موافقان ومخالف ! فالأربع هو الاعتدال .

قال فأجمل لى الحار والبارد فى أحرف جامعة ؟ قال : كل خلوص حار ، وكل
حامض بارد ، وكل حريف حار ، وكل مر معتل ، وفى المرحار وبارد ، قال
فأفضل ماء وجلبه المرة الصفراء ؟ قال : كل بارد لين ، قال : فالمرة السوداء ؟ قال
كل حار لين ، قال فالبلغم ؟ قال : كل حار يابس ، قال فالدم ؟ قال : لإخراجه
إذا زاد ، وتطهئته إذا سخن بالأشياء الباردة اليابسة ، قال فالرياح ؟ قال بالحقن
اللينة ، والأدهان الحارة اللينة ، قال أفتأمر بالحقنة ؟ قال : نعم قرأت فى بعض
كتب الحكماء أن الحقنة تنقى الجوف ، وتسكسح الأدوية عنه ، والعجب لمن

احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد ! وإن الجاهل من أكل ما قد عرف مضرته ؛
ويؤثر شهوته على راحة بدنه .

قال : فما الحمية ؟ قال : الاقتصاد في كل شيء . ، فإن الأكل فوق المقدار
يضع على الروح ساحتها ، ويسد مسامها .

قال : فما تقول في النساء (١) . . وأيهن القلب إليها أميل ، والعين
برؤيتها أسر ؟

قال : إذا أصبغت مديدة القامة ، عظيمة الهامة (٢) ، واسعة الجبين ،
قنواء العينين (٣) ، كحللاء (٤) لعساء (٥) ، صافية الخد ، عريضة الصدر ،
مليحة النحر (٦) ، في خدها رقة وفي شفثيها لعس ، مقرونة الحاجبين ، ناهدة
الشدين ، لطيفة الخصر (٧) والقدمين ، بيضاء ، فرعاء (٨) جمدة (٩) ، غضة
بضة (١٠) ، تخالها في الظلمة بدرأ زاهراً . تبسم عن أقحوان (١١) ، وعن
مبسم كالأرجوان (١٢) ، كأنها بيضة مكنونة ، ألين من الزبد ، وأحلى من
الشهد ، وأنزه من الفردوس والخلد ، وأزكى ريحاً من الياسمين والورد ،
تفرح بقرها ، وتسرك الخلوة معها .

فاستضحك كسرى حتى اختلجت كتفاه ! وقال : لله درك من أعرابي ، لقد
أعطيت علماً ، وخصصت فطنة وفهماً ! وأحسن صلته وأمر بتدوين ما نطق به .

-
- (١) عبارات نابية في الأصل حذف هنا (٢) الهامة : الرأس
(٣) قنواء : بيضة القنأ وهو ارتفاع أعلى الأنف واحديداب وسطه وسبوغ
طرفه ، والعينين : الأنف كله أو ما صلب منه .
(٤) الكحللاء : التي كأنها مكحولة ولم تكحل (٥) لعساء : في شفثها سواد
(٦) النحر . أعلى الصدر (٧) الخصر : وسط الإنسان
(٨) الفرعاء : التامة الشعر (٩) جمدة : غير سبطة الشعر
(١٠) بضة ناعمة (١١) الأقحوان : نبت من نبات الربيع ، له نور
أبيض ، كأنه ثغر جارية حديثة السن (١٢) الأرجوان : صبيغ أحمر ،
(٥)

٣ - الأنساب والأخبار (١) :

أما الأخبار فمصدرها عندهم قصص التوراة والإنجيل وأساطير الفرس
والزوم والأخبار المتوارثة عن آباءهم وأجدادهم وعن الأمم الأخرى
المجاورة لهم .

وأما الأنساب فكانوا على جانب كبير من النبوغ فيها لأنهم كانوا شديدي
العناية بحفظ أنسابهم لاعتزازهم بعنصرهم ودمهم .

وكان في كل قبيلة نسابون يعرفون الكثير من أنساب العرب وقبائلهم
وبطونهم ومفاخرهم وتاريخهم وأيامهم ووقائعهم .

ومن أشهر النسابين : « دغفل » السدوسي وقد ضرب به المثل وأدرك
زمن الرسول وعاش إلى زمن معاوية ، ومن أشهرهم أيضاً : ابن لسان الحجرة
من بني تميم اللات ابن ثعلبة ، ومن أشهرهم أيضاً « زيد ابن الكيس النمرى »
وسيدنا أبو بكر الصديق .

ويقول الجاحظ في البيان والتبيين :

ومن رؤساء النسابين : دغفل بن حنظلة وزيد بن الكيس النمرى (٢) .
ويذكر أسماء بعض النسابين (٣) ، وفي مختصر العقد ذكر لأخبار عن
أبي بكر الصديق ودغفل في هذا الباب (٤) .

(١) أشهر النسابين :

أ - دغفل ، وابن الأشقر (الرافعي - الفهرست - أديان العرب ٢٢٦ ج ١
و ٢٦٠ ج ٣ البيان والتبيين - الميداني)

ب - ابن لسان الحجرة وهو من علماء زمانه من بني تميم ومن أنساب العرب كان
في السكوفة أيام المغيرة بن شعبه (١٣٨ ج ١٤ الأغاني)

(٢) ٢١٠ ج ١ البيان والتبيين

(٣) ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١١ ج ١ البيان

(٤) ٢٠١ - ٢٠٤ مختصر العقد

٤ - الفراسة والقيافة :

والعراسة هي الاستدلال بالأمور الظاهرة على الخفية كالاستدلال بشكل المرء ولونه وقوله على خلقه ، وللعقل فيها نصيب كبير .

والقيافة قسمان : قيافة الأثر وهي الاهتداء إلى الهارب بآثار أقدامه ، وقيافة البشر وهي الاستدلال بهيئة الرجل وشكل أعضائه على نسبه .

اشتهر بنو لُهب بالقيافة وكذلك بنو مُدج ، كما اشتهروا أيضاً بالزجر وهو الاستدلال بصوت الحيوان وحركته على الحوادث ، وكانوا يتفألون بالطير الذي يمر من ميامن الإنسان ويتشامون بالطير الذي يمر من مياسره ويسمون الأول سائحاً والثاني بارحاً ، ويقول النابغة :

زعم العواذل أن رحلتنا غداً وبذاك خبّرنا الغراب الأسودُ

وفي بني لُهب يقول الشاعر :

خبيرُ بنو لُهبٍ فلاتك مُلغياً مقالة لُهيٍّ إذا الطيرُ مرّت

٥ - الكهانة والعرافة :

وهما الأخبار عن الأمور المغيبة ماضية كانت أو مستقبلية . وقيل الكهانة الإخبار عن الماضي والمستقبل والعرافة خاصة بالماضي . وكان في العرب كهان ولهم فيهم اعتقاد . ومن أشهرهم (١) : سطيح الذئبي . وطريفة الخير ، ومن أشهر العرافين الأبلق الأسدي عراف نجد ، ورباح بن عجلة عراف اليمامة ويقول عروة بن حزام :

جعلتُ لعرافِ اليمامة حِكْمَهُ وعرافِ نجدٍ إن هما شفيا نى

وكان العرب يفتزعون إلى كهانهم في كل ما يطرأ عليهم من أمر أو

(١) راجع ص ٤٩ من هذا الكتاب . هذا والكهانة بالفتح والكسر ، والعرافة بالكسر في الحرف الأول

يستعصى عليهم من مشكلات وأزمات وشدائد .

ومن الحكهان المشهورين : طريفة (١) ، و يروى أنه كانت العمارة في أرض سبأ أزيد من مسيرة شهرين الراكب المجد ، وكان أهلها يفتبسون النار بعضهم من بعض مسيرة أربعة أشهر ؛ ثم مزقوا كل ممزق .

وكان أول من خرج من اليمن في أول الأمر عمرو بن عامر مزينة (٢) وكان سبب خروجه أنه كانت له زوجة كاهنة ، يقال لها طريفة الخير ، وكانت رأت في منامها : أن سحابة غشيت أرضهم ، فأرعدت وأبرقت ، ثم صعدت (٣) فأحرقت كل ما وقعت عليه ، ففرعت طريفة لذلك فرعا شديداً وأتت الملك عمراً ، وهي تقول : مارأيت كالיום ، أزال عني النوم ، رأيت غيما أرعد وأبرق ، وزجر وأصعق ، فما وقع على شيء إلا أحرق . فلما رأى ما داخلها من الفزع سكنها .

ثم إن عمراً دخل حديقة له ، ومعه جاريتان من جواريه ، فبلغ ذلك طريفة ، فخرجت إليه ، وخرج معها وصيف (٤) لها اسمه سنان ؛ فلما برزت من بيتها عرض لها ثلاث مناجد (٥) ملتصبات على أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن ، فقعدت إلى الأرض واضعة يديها على عينيها ، وقالت لوصيفها : إذا ذهبت هذه المناجد فأخبرني . فلما ذهبت أخبرها ، فانطلقت مسرعة ، فلما عارضها الخليج الذي في حديقة عمرو وثبت من الماء سلحفاة ،

(١) شرح مقامات الحريري ص ٢٦٥ ج ١ ، بلوغ الأرب ص ٢٨٣ ج ٣ ،
بمعجم الأمثال ص ٢٥٢ ج ١ ، المسعودي ص ٣٤٤ ج ١ ، معجم البلدان (مأرب)
(٢) ملك اليمن ، ومزينة : لقبه ، فقد كان يلبس كل يوم حلتين ويمزقهما
بالعشي ، يكره الأعوذ فيهما ، ويأنف أن يلبسهما غيره (٣) أصابت بصاعقة :
وهي نار تسقط من السماء مع الرعد الشديد (٤) الوصيف : الخادم ، غلاما كان
أو جارية (٥) هي دواب تشبه اليرابيع ، واليربوع : دويبة نحو الفأرة ، لكن
ذنبه وأذنيه أطول منها ، ورجليه أطول من يديه .

فوقعت في الطريق على ظهرها ، وجمعت تروم الانقلاب فلا
تستطيع ، وتستعين بذنبها فتحشو التراب على بطنها من جنباته ، وتقذف
بالبول قذفا .

فلما رأته طريفة جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاة إلى الماء مضت
طريفة إلى أن دخلت على عمرو ، وذلك حين انتصف النهار في ساعة شديد حرها
فإذا الشجر يتكفأ (١) من غير ريح ، فلما رآها استجيا منها ، وأمر الجاريتين
بالانصراف إلى ناحية ؛ ثم قال لها : هلمى يا طريفة ، فكمننت (٢) له ، وقالت :
والنور والظلماء ، والأرض والسماء ؛ إن الشجر لهالك ، وليعودن الماء كما كان
في الزمن السالك .

قال عمرو : من أخبرك بهذا ؟ قالت : أخبرني المناجد ، بسنين شدائد ، يقطع
فيها الولد الوالد . قال : ما تقولين ؟ قالت : أقول قول الندمان لهفأ ، لقد رأيت
ساحفا (٣) ، تجرف التراب جرفا ، وتقذف بالبول قذفا ؛ فدخلت الحديقة ؛
فإذا الشجر من غير ريح يتكفأ !

قال : ما ترين في ذلك ؟ قالت : هي داهية دهياء (٤) من أمور جسيمة ،
ومصائب عظيمة ! قال : وما هو ؟ ويا لك ! قالت : أجل ! إن فيه الويل ! وما للئ
فيه من قيل (٥) ، وإن الويل فيها يحى به السيل !

فألقي عمرو نفسه عن فراشه ، وقال : ما هذا يا طريفة ؟ قالت : خطب
جليل وحزن طويل ، وخلف (٦) قليل ! قال : وما علامة ما تذكرين ؟
قالت : اذهب إلى السد ، فإذا رأيت جرذا (٧) ؛ يكثر يديه في السد

(١) يتكفأ (٢) كمن له : قضى له بالغيب (٣) السلحفاة (٤) داهية
دهياء : شديدة (٥) قال قتيلا : نام في القائلة ، وهي نصف النهار ، والمراد
الإقامة والمسكن .

(٦) الخلف : ما استخلفته من شيء .

(٧) ضرب من الفهران

الحفر ، ويقلب برجليه من أجل الصخر ، فاعلم أن غمر الغمر (١) . وأن قد وقع الأمر .

قال : وما الذى تذكرين أنه يقع ؟ قالت : وعد من الله تعالى نزا وباطل بطل ، ونكال بنا نكل ؛ فبغيرك يا عمرو يكون الشكل (٢) !

فانطلق عمرو فإذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقليبها خمسون رجلا ، فرجع إلى طريقة فأخبرها الخبر ، وهو يقول :

أبصرت أمراً عادئاً منه ألم وهاج لي من هوله برح (٣) السقم
من جرذ كفحل خنزير الأجم (٤) أو كبش صرم (٥) من أفاريق (٦) الغم
يسحب صخرأ من جلاميد العرم له مخاليب وأنياب قضم (٧)
ما فاته سحلا (٨) من الصخر قضم (٩)

فقالت طريقة : وإن علامة ذلك الذى ذكرته لك أن تجلس فتأمر بزجاجة فتوضع بين يديك فإن الريح تملؤها من تراب البطحاء من سهلة (١٠) الوادى ورملة ، وقد علمت أن الجنان مظلمة لا يدخلها شمس ولا ريح .

فأمر عمرو بزجاجة فوضعت بين يديه ، ولم تمكث إلا قليلاً ، حتى امتلأت من التراب ، فأخبرها بذلك ، وقال لها : متى يكون ذلك الخراب الذى يحدث فى السد ؟ قالت : فيما بينى وبينك سبع سنين ! قال : ففى أيها يكون ؟ قالت : لا يعلم بذلك إلا الله تعالى ، ولو علمه أحد لعلمته ، وإنه

(١) الغمر : الماء الكثير

(٢) الشكل : كسبب وقفل : الموت والهلاك (٣) البرح : الشدة

(٤) الأجم : جمع أجمة ، وهى الشجر الكثير الملتف (٥) الصرم : الجماعة

(٦) الأفاريق : الفرق تجمع على فرق وجمعت فى الشعر على أفارق وجمع الجمع

أفراق وجمعه أفاريق (٧) قضم قضمًا : أكل بأطراف أسنانه (٨) سحله :

قشره ونحته (٩) قضم : كسر (١٠) السهلة : تراب كالرمل يجىء به الماء .

لأتأتى على ليلة فيما بينى وبين سبع السنين إلا ظننت هلاكه فى غـدها
أو فى مسائها ١

ثم رأى عمرو فى منامه سبيل العرم (١) ، وقيل له : إن آية ذلك أن ترى
الحصباء قد ظهرت فى سعف النخل ؛ فنظر إليها فوجد الحصباء قد ظهرت فيها ،
فعلم أنه واقع . وأن بلادهم ستخرب .

فـكنتم ذلك ، وأجمع على بيع كل شىء له بأرض مأرب وأن يخرج منها
هو وولده ؛ ثم خشى أن تنكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاده إذا دعاه
لما يدعوه إليه أن يتأبى عليه (٢) ، وأن يفعل ذلك به فى الملامن الناس ؛ وإذا لطمه
يرفع هو يده ، ويلطمه .

ثم صنع عمرو طعاماً ، وبعث إلى أهل مأرب : إن عمراً قد صنع طعاماً
يوم مجد وذكر ، فاحضروا طعامه ١

فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذى أمره بما قد أمره ، فجعل
يأمره فيتأبى عليه ؛ ورفع عمرو يده فـلطمه ، فـلطمه ابنه فصاح عمرو : واذا له يوم
نفر عمر ويهيج صبي ويضرب وجهه ١ وحلف ليقتلنه ، فلم يزالوا به حتى
تركه ، وقال : والله لا أقیم بموضع صنع هذا بى فيه ١ ولا يبعن أموالى ، حتى
لا يرث بعدى منها شيئاً ١ .

فقال الناس بعضهم لبعض : اغتبنوا غنضة عمرو ، واشتروا منه أمواله
قبل أن يرضى ؛ فابتاع الناس منه كل ماله بأرض مأرب ، وفشا بعض حديثه
فيما بلغه من شأن سبيل العرم ، فقام ناس من الأزد فباعوا أموالهم ؛ فلما
أكثروا البيع استنكر الناس ذلك فأمسكوا عن الشراء ١ فلما اجتمعت إلى عمرو
أمواله أخبر الناس بشأن السبيل وخرج . فخرج لخروجه منها بشر كثير .

(١) العرم : السبيل الذى لا يطاق ، وقيل هو المطر الشديد ، وقيل هو اسم واد
(٢) تأبى عليه : امتنع .

٦ - ومن معارفهم الخط والكتابة وسيتحدث عنهما بتفصيل .

وكان الشعر ديوانهم ومظهر معرفتهم وأهم ثقافة لهم .

٧ - وفوق ذلك فقد كان العرب يعرفون بعض الصناعات كالغزل وصناعة الرماح وكانت تصنع في الخط بالبحرين . أما السيوف فكانوا يجلبونها من العراق والأبلة وكانوا يسمون الأبلة الهند ولذلك يقولون سيوف هندية ، إلى غير ذلك من صناعاتهم الصغيرة . واشتهرت اليمن والحيرة ومشارف الشام بألوان كثيرة من الصناعات .

الخط العربي (١) في الجاهلية

١ - كان العرب أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، كان ذلك هو الغالب عليهم والذائع فيهم والمشهور عنهم . ذلك أن الكتابة أثر من آثار الحضارة والعرب كانوا لا يزالون يعيشون على الفطرة والبداءة كما كانوا من قديم الأزمان والعصور .

٢ - وأول الخطوط المعروفة وأقدمها هو « الخط المهرى » القديم ، وهو مبدأ سلسلة الخط العربي . وقد استمد الفيلانيون منه « خطهم الفيليني » والفيلانيون هم سكان ساحل الشام ، وكانوا يترددون على مصر للتجارة وغيرها كما خضعوا لحكم الفراعنة قديماً ، وعن الخط الفيليني أخذت أمم كثيرة أصول خطوطها كالآراميين (سكان فلسطين والشام والعراق) والحميريين (سكان اليمن) .

(١) راجع ١٩٦ وما بعدها من تاريخ اللغات السامية ط القاهرة ١٩٢٩ - ص ٥٨ وما بعدها ج ١ من تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد بك دياب - وكتاب الخط الخط لعرفان بك - ٤٣٠ ج ٢ صبح الأعشى وج ٣ ص ٥ من صبح الأعشى أيضاً - و ٢١٤ - ٢٢٢ ج ٢ المزهري للسيوطي طبع صبيح

فسكان اليمن من معيليين ثم سبئيين ثم حميريين قد أخذوا خطهم عن
الفيلقيين وأدخلوا عليه شيئاً من التنقيح والتحوير فسمى بالخط المسند
أو الحميري .

وهذا محل اتفاق بين المؤرخين من العرب والمستشرقين وبعد ذلك يختلف
الفريقان اختلافاً كثيراً :

١ — مؤرخو العرب :

يرون أن النبط (١) أخذوا خطهم من الخط الحميري (المسند) مستدلين
على ذلك بالآثار التي عثر عليها في بلادهم وعليها خطوط حميرية ، ويشرح
ذلك أن النبط كانوا متصلين باليمن تجارياً وكانت اليمن على جانب كبير من
المضارة .

وعن النبط وعن كندة التي ترجع إلى أصل حميري أخذ أهل الحيرة
والأنبار خطهم المعروف بالخط الحميري وعنه أخذ الحجازيون خطهم وهو
الخط العربي وعن الخط الحجازي أو العربي أخذ الخط الكوفي مع شيء
من التحسين .

فلسلسلة الخطوط المعروفة على هذا الرأي هكذا :

الخط المهرى — الفنيقي — الأرامي والحميري — النبطي وهو مأخوذ
من الخط الحميري — الحميري — الحجازي فالكوفي . وعلى هذا الرأي يسير

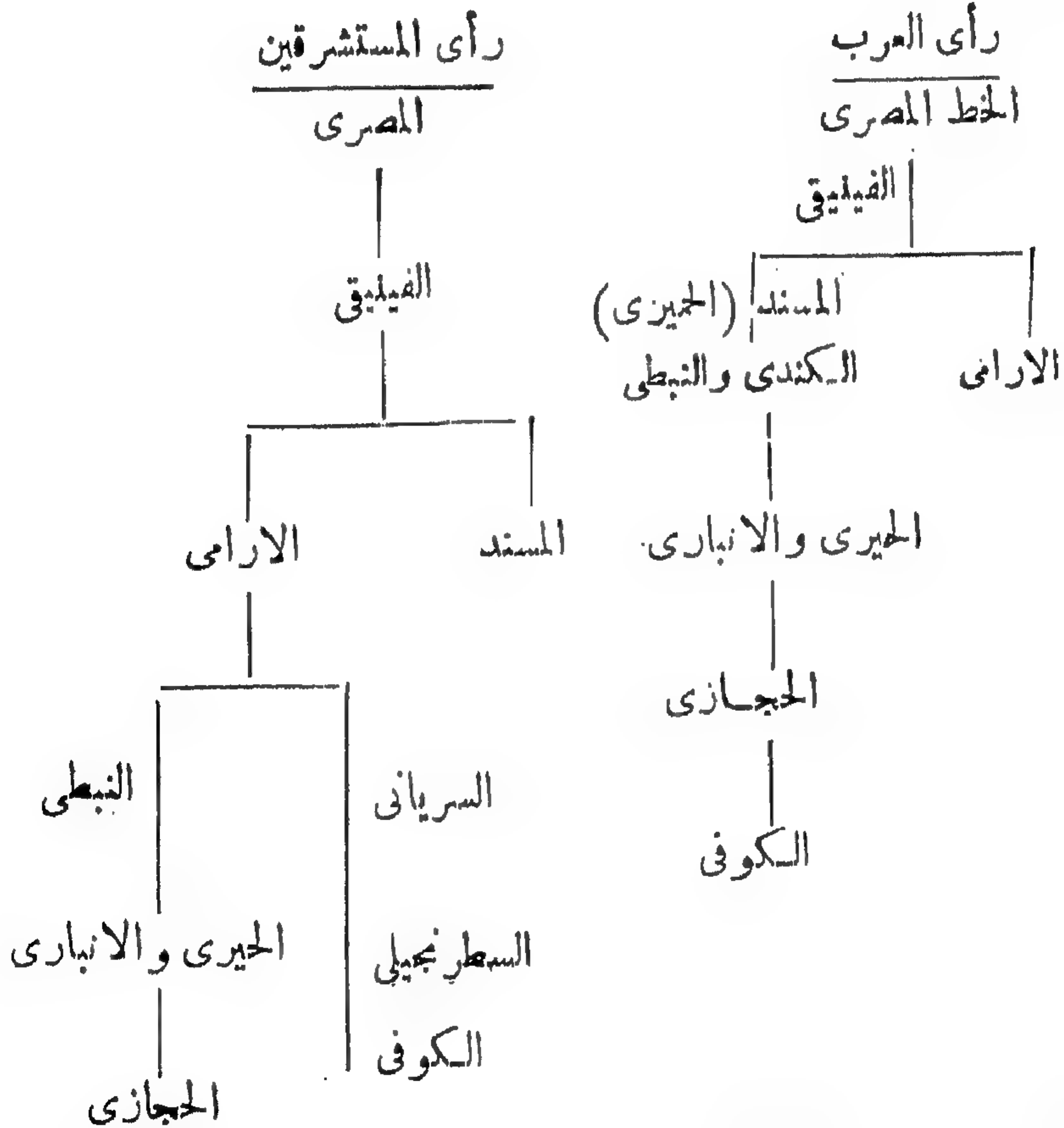
(١) عنهر سامي ظهر في شبه جزيرة طور سينا وامتد إلى صحراء سوريا حتى
شملت دولتهم دمشق وتوغلوا في بلاد الحجاز نحو عام ٨٠ ق م ثم استولى الرومان
علي بلادهم عام ١٠٦ ب م (راجع ١٣٤ تاريخ اللغات السامية ط ١٩٢٩)
ويرى المستشرقون أن النبط ليسوا آرمين خالصين وهناك ميل عند طائفة من
المستشرقين إلى أن النبط من سلالة العرب وكانوا يستعملون الكتابة الآرامية في
النقوش وسائر الشؤون العمرانية

الأستاذ محمد هاشم عطية في كتابه تاريخ الأدب الجاهلي (١)

ب — والمستشرقون :

يرون أن النبط أخذوا خطهم من الخط الآرامي لقرب بلادهم بعضها من بعض ، والخط الكوفي في رأيهم متولد من نوع من الخط السرياني يسمى السطر نجيلي قبل الإسلام . وسلسلة الخطوط على هذا الرأي هكذا :

المصري — الفينيقي — المسند والآرامي — النبطي وهو مأخوذ من الآرامي — الحيري — الحجازي وعلى هذا يرى يسير الزيات في كتابه تاريخ الأدب العربي (٢) .



(١) مقتبساً ذلك عن تاريخ الأدب احفني ناصف (٤٢ ط ١٩٣٦ محمد هاشم)

(٢) ص ٧٦ ط ١٩٣٥

٣ - وجاء الإسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر رجلاً (١) وفي غزوة بدر جعل الرسول فداء الأسير تعلم عشرة من صبيان المدينة وشجع الرسول ﷺ الكتاب واتخذ كتابه ، وكان زيد بن ثابت يعرف الفارسية والحديثة والقبطية والرومية (٢) ، وكان عدد كتابه ثلاثة وأربعين كتاباً وكان العرب يكتبون في الرق والعظام والاحجار حتى انتشر بينهم الورق عام (٣) ١٢٠ هـ والظاهر أن انتقال الخط الحيري إلى الحجاز كان على يد التجار من الحيرة .

ويروى أن الذي نقل الخط الحيري إلى الحجاز هو حرب بن أمية وأنه كان قد صادق في رحلاته التجارية بشر بن عبد الملك أخا أكيدر صاحب دومة الجندل واستصحبه إلى مكة وزوجه بولته الصهباء فأقام بشر بمكة مدة علم فيها نفراً من أهلها الكتابة منهم حرب وقيل إن الذي علمه هو عبد الله بن جدعان وقيل غير ذلك . ويقول بعض الشعراء : من دومة الجندل من كندة يمن على قریش بذلك :

ولا تجحدوا نعماء د بشر ، عليكم فقد كان ميمون النقيبة أزهر
أناكم بخط الجزم (٤) حتى حفظتم من المال ما قد كان شتى مبعثراً

(١) ص ٤ : ٣ العقد

(٢) (راجع ص ٦ ج ٣ العقد الفريد ط ١٩٣٥) . وفي العقد يروى أن ثلاث نفر من طيء اجتمعوا ببقرة وهم : مرامر بن مرة . واسلم بن سدر . وعامر بن جدرة ، فوضعوا الخط وقاموا هجاء العربية على هجاء السريانية فنقله قوم من الانبار (٢ ج ٣ العقد) وذلك رأى جد خطير

(٣) أسس أمير سمرقند العربي مصنعا للورق في سمرقند اشرف عليه بعض الاسرى الصينيين وذلك سنة ٧٥١ م . وفي سنة ٧٩٣ م استقدم الرشيد بعض صناع سمرقند إلى بغداد فأسسوا مصنعا آخر للورق . وانتقلت الصناعة إلى دمشق التي صارت تورد إلى العالم العربي الورق

(٤) سمي بالجزم لانه مقتطع من الخط الحيري

فأجريت الأقلام عوداً وبداة . وضاهيتموكتاب كسرى وقيصر
ونخط الجزم هو الخط الذي تفرع من الخط المسند الحميري (١)
أو قل هو الخط الحميري ؛ وبشر هو بشر بن عبد الملك الذي ذكرنا قصته
فيما سبق آنفا .

(١) سمي بالجزم لأنه مقتطع من الخط الحميري

أيام العرب^(١) وأثرها في الأدب

- ١ -

١ - كانت العرب تعيش قبائل وشعوبا متنافرة متخاصمة ، تمتاز كل قبيلة بشرفها وكرامتها وعصبيتها ، ونحاول أن نقيم على مواقع الغيث ومنايات السكلا ولو اغتصبته بالرماح والسيوف من قبيلة أخرى ، وكانوا يقدسون الحرية ويعيشون في ظلال الفوضى . وكما يقول حافظ :

ولذيذ الحياة ما كان فوضى ليس فيه مسيطر أو أمير
وأسباب الحرب عند العرب كثيرة : ترجع إلى التنازع حول الرئاسة ، وعلى أما كن المياه والعشب ، أو إلى الاعتزاز بالعصبية والانتصار لها . أو إلى المحافظة على الشرف والكرامة والذود عنهما . أو إلى الأخذ بالتأروحية الجار ومساعدة الحليف أو إلى الدفاع عن الملك والتعصب لذي سلطان أو إلى التنازع في مفاخرة من المفاخرات أو منافرة من المنافرات . أو إلى الفقر الذائع الذي يدفع إلى النهب والعدوان .

ونفس العربي وما فطرت عليه من شجاعة وإباء وشتم وفروسية كانت تجعل الحرب قريبة منه مألوفة لديه بل محبوبة عنده في كثير من الأحيان . وكانوا يغيرون على أعدائهم فإن لم يجدوا لهم أعداء أغاروا على الأقرباء :

(١) راجع في ذلك كتب التاريخ العامة وراجع العقدا الفريد (٣٠٣ - ٣٧٨ : ٣ ط ١٩٢٨ م) والجزء الأول والثاني من تاريخ ابن الاثير ، وأمثال الميداني والجزء الأول والثاني من تاريخ الطبري ، والاعاني . وبلوغ الأرب وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان . ومعجم البلدان في الكلام على أسماء البلدان . والنقائض وقصة الأدب الحجاز في العصر الجاهلي

أغرّن (١) من الضباب على حلال وصبة إنه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا إذا مالم نجد إلا أخانا

وأيام العرب كثيرة جدا (٢) ، منها ما كان بين العرب والفرس كيوم
ذى قار . ومنها ما كان بين التزاريين واليمنيين كيوم خزازى (٣) وما كان
بين اليمنيين بعضهم مع بعض كبعثات بين الخزرج والأوس . وما كان بين
التزاريين ربيعة ومضر . ومنها ما كان بين الربيعيين بعضهم مع بعض كحرب
البسوس بين بكر وتغلب ، وما كان بين المضريين كحرب داحس والغبراء
بين عيس وذبيان .

٣ - وهذه الأيام كانت أكبر ميدان تتسابق فيه العقول والبلاغات
والمملكات .

فشعراء القبائل المختلفة طالما نظموا الشعر للتمدح بشجاعة الأبطال
وظفرهم في الحرب . ووصفوا الممارك المختلفة وأحوالها . والقتال وأدواته
وأسلحته . والأسرى وذلمهم . ورثوا القتلى .

كما كانوا ينظمونه طلبا للأخذ بالثأر : أو دعوة إلى السلام ومدحا
لدعاة السلم والعاملين على إنهاء الحرب كما فعل زهير ، مع ما اتصل بذلك من
صلح ووفاء ومغامرم ومحامل في الديات .

(١) الضمير يعود إلى الافراض المذكورة في بيت سابق ، والابيات للقطامي .
وهي في الحماسة ١٣٥ - ١ : الضباب عذة قبائل منهاضبة وحشل ، الحلول : الذين
يكونون في مكان واحد

(٢) ويروى أن أبا الفرج الأصفهاني صاحب الاغانى ألف كتابا في أيام العرب
يشمل ألفا وسبعمائة يوم . وأن أبا عبيدة ألف فيها كتابا صغيرا حوى خمسة
وسبعمين يوما ، وآخر كبير أجمع فيه ألفا ومائة يوم . وقد ألف جماعة من الأدباء
المعاصرين كتابا في أيام العرب

(٣) هو أسم جبل ما بين البصرة إلى مكة

فليس بمعجيب إذا أن نقول إن شعر الحماسة وهو أغلب فنون الشعر عند العرب في جاهليتهم وكذلك جزء كبير من شعر الرثاء والنحر والمدح كان أثرا لهذه الأيام التي اشتعلت فيها الحروب وتصاروات الأبطال من شتى القبائل في الجاهلية . كما يشغل ذلك جزءا كبيرا من النثر الجاهلي أيضا ، كما تجد في خطبة هانيء بن قبيصة في قومه يحرضهم على الحرب يوم ذي قار (١) وسواها .

وغناية العرب بأنسابهم وبمخيلهم وأسلحتهم وبأنواع الحيوان المشهورة بالبطش والقوة كالأسد والذئب ؛ كل ذلك من آثار شعورهم بالحاجة إليها حين الخصام والنضال وفي المعارك والحروب .

- ٢ -

وبعد فسننتحدث عن أهم هذه الأيام وأكثرها أثرا في اللغة والأدب والشعر بما يكون قد اشتمل على خطبة بليغة أو قصيدة رائعة أو حكمة سائرة أو شعر قيل في أثناء النضال والخصام :

١ - حرب داحس والغبراء (٢)

وكان السبب الذي هاجمها أن قيس بن زهير وحمل بن بدر ، تراهما على فرسيهما : « داحس » و « الغبراء » أيهما يكون له السبق . وكان داحس لقيس وكانت الغبراء لحمل بن بدر وجعلا الرهان مائة بعير وجعلا منتهى

(١) ١٦٩ : ١ الأما

(٢) راجع ٣٨ : ٢ الميداني . و ٢٠ ح ١٦ الأغاني . والجزء الثالث من خزنة الأدب . ومعجم البلدان . والنقائض . والجزء الثاني من العقد . ٤٥٣ : ١ أماري المرتضى ، والجزء الأول من ابن الأثير . والروض الانف . وتاريخ ابن كثير . وقد كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان من مضر

الغاية مائة غلوة (١) .

ثم قادوهما إلى رأس الميدان بعد أن أضمر وهما أربعين ليلة وفي طرف الغاية شعاب كثيرة فأمكن حمل بن بدر في تلك الشعاب فتيانا على طريق الفرسين وأمرهم إن جاء داحس سابقا أن يردوا وجهه عن الغاية فأرسلاهما فلما جرى سبقت الغبراء فقال حمل بن بدر : سبقتك يا قيس ، فلما أو غلا في الجرد (٢) وخرجوا إلى الوعث (٣) برز داحس عن الغبراء فقال قيس : جرى المذكيات غلاء (٤) ، فذهبت مثلاً ، فلما شارب داحس الغاية ودنا من النخلة وثبوا في وجه داحس فردوه عن الغاية ففى ذلك يقول قيس بن زهير :

كما لا قيت من حمل بن بدر وإخوته على ذات الأصاد
همو نخروا على بغير نخـر وردوا دون غايته جوادى

وثارت الحرب بين عبس وذبيان ابني بغيض أربعين سنة لم تلتج لهم ناقة ولا فرس لاشتغالهم بالحرب . بعث حذيفة بن بدر ابنه مالكا إلى قيس بن زهير يطلب منه حق السبق ، فقال قيس : كلا . لا مطلتك به ، ثم أخذ الرمح فطعن به فوق صلبه ، ورجعت فرسه غائرة فاجتمع الناس فاحتملوا دية مالك مائة عشراء ، وزعموا أن الربيع بن زياد حملها وحده فقبضها حذيفة وسكن الناس ، ثم أن مالكا بن زهير أخا قيس نزل اللقطة من أرض الشربة فأخبر حذيفة بمكانه فعدا عليه فقتله . ففى ذلك يقول عنبرة الفوارس :

فلله عينا من رأى مثل مالك فقيرة قوم إن جرى فرسان
فليتتهما لم يجريا قيـد غلوة وليتهما لم يرسلـا لرهـاب
فقال بنو عبس : مالك بن زهير بمالك بن حذيفة وردوا علينا مالنا ،

(١) توازى أربع مائة ذراع

(٢) الغضاء لانبات به (٣) الطريق تغرق فيه الاقدام

(٤) ويرى غلاب والمذكية من الخيل المسنة

فأبى حذيفة أن يرد شيئاً . وكان الربيع بن زياد القيسي عم قيس مجاوراً
لبنى فزارة ولم يكن فى العرب مثله ومثل إخوته وكان يقال لهم السكلة .

وكان بينه وبين قيس بن زهير بغضاء ونخصام ، فلما قتل مالك بن زهير
قامت بنو فزارة يسألون ويقولون : ما فعل حماركم قالوا صدناه ، فقال
الربيع : ما هذا الوحى ؟ قالوا : قتلنا مالك بن زهير ، قال : بئس ما فعلتم
بقومكم ، قبلتم الدية ثم رضيتم بها وغدرتم ، قالوا : لولا أنك جارنا لقتلناك
وكانت خفرة الجار ثلاثاً ، فقالوا له : بعد ثلاث ليال أخرج عنا ، فخرج
واتبعوه فلم يلحقوه حتى لحق بقومه ، وأتاه قيس بن زهير فعاقده وفى ذلك
يقول الربيع :

فإن تك حربكم أمست عواناً فإنى لم أكن بمن جناها
ولكن ولد سودة أرثودا وحثوا نارها لمن اصطلاها
فإنى غير خاذلكم ولكن سأسعى الآن إذ بلغت مداها

ورثى الربيع مالك بن زهير فقال :

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار
ثم نهضت بنو عبس وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غطفان إلى بنى فزارة
وذبيان ورئيسهم الربيع بن زياد ورئيس بنى فزارة حذيفة بن بدر واستمرت
الحرب بين الفريقين وظلت أربعين سنة . ومن أشهر أيامها :

يوم المريقب : لعبس على ذبيان ، وفيه قتل عنبرة ضمضم المرى فتوعدده
وقال فى ذلك عنبرة من معلقته :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمى عرضى ولم أشتهمما والناذرين إذا لقيتهما دى
إن يفعلوا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم

ويوم ذى حسا : وهو لذبيان على عبس

في يوم الهبالة: لعيس على ذبيان ، وقتل فيه حمل بن بدر وأخوه حذيفة .
ولما اشتد الكرب بحمل قال : ناشدتك الله والرحم يا قيس ، فقال : لبيكم
لبيكم ، فعرف حذيفة أنه لن يدعهم ، فانهز حملا وقال : إياك والمأثور
من الكلام ، فذهبت مثلا ، وقال لقيس : لئن قتلتني لا تصلح غطفان بعدها
فقال قيس : أبعدها الله ولا أصلحها ؛ ولما قتلا قال قيس يرثي حمل
ابن بدر :

تعلم ان خير الناس ميت	على جفر الهبالة ما يريم
ولولا ظلمه ما زلت أبكي	عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر	بغى والبغى مرتعه وخيم
أظنّ الحلم دل على قومي ؟	وقد يستضعف الرجل الحليم
وما رست الرجال وما رسوني	فموج على ومستقيم

ومثلوا بحذيفة .

فما أصيب أهل الهبالة واستعظمت غطفان قتل حذيفة تجمعوا ،
وعرفت بنو عيس أن ليس لهم مقام بأرض غطفان . فخرجوا إلى
اليامة ، فنزلوا بإخوانهم بني حذيفة ، ثم رحلوا عنهم فنزلوا ببني سعد بن
زيد مناة .

وقال قيس أيضاً يرثي حذيفة وأخاه :

شفتيت النفس من حمل بن بدر	وسيفني من حذيفة قد شفاني
فإن أن قد بردت بهم غليلي	فلم أقطع بهم إلا بنائي

يوم الفروق : ولما امتد لطيب الحرب وطال أمدّها ، سعى الحارث بن
عوف وهرم بن سنان المريان في الصلح وتحملا ديات القتلى ، وفي ذلك قال
زهير معلقته .

أمن أم أو في دمنة لم تكلم بمحمانة الدراج فالمثلم
ومنها :

لعمري لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سخييل ومبرم
تداركنما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا يدينهم عطر ملشم (١)

(١) ويروى أن الحارث بن عوف قال لصديق له : أتراني أخطب إلى أحد
فيردني قال ، نعم قال ومن ذلك قال : أوس بن حارثة بن لام الطائي فقال الحارث
لغلامه ارحل بنا ففعل فركبنا حتى أتيا أوس بن حارثة في بلاده فوجداه في منزله
فلما رأى الحارث بن عوف قال مرحباً بك يا حارث وراك ربك ما جاء بك يا حارث
قال جئتكم خاطباً قال لست هناك فأنصرف ولم يكلمه . ودخل أوس على امرأته
مغضباً وكانت من عبس فقالت : من رجل وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه قال ذلك
سيد العرب الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري قالت فما لك لا تستنزه قال : إنه
استحمق قالت وكيف ؟ قال جاءني خاطباً قالت أفتريد أن تزوج بناتك قال نعم ،
قالت فإذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ قال قد كان ذلك قالت فتدارك ما كان منك قال
فإذا ؟ قالت تلحقه فترده قال وكيف وقد فرط مني ما فرط إليه قالت تقول له إنك
لقيتني مغضباً بأمر لم تقدم مني فيه قولا فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعت
فأنصرف ولك عندي كل ما أحببت فانه سيفعل فركب في أثرهما . قال خارجة بن
سنان والظاهر إنه غلام الحارث) : فوالله إني لأسير إذ حانت مني التفاتة فرأيت
فأقبلت على الحارث يكلمني غماً فقلت له : هذا أوس بن حارثة في أثرنا . قال وما
نصنع به امض فلما رأنا لا نقف عليه صاح : يا حارث ، اربع على ساعة فوقفنا
له فكلمه بذلك الكلام فرجع مسروراً فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته
ادعي لي فلانة لا كبر بناته فأتته ، فقال يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد من
سادات العرب قد جاءني طالباً خاطباً وقد أردت أن أزوجه منه فما تقولين ؟
قالت : لا تفعل ، قال : ولم ؟ قالت : لأنني امرأة في وجهي ردة وفي خلقي بعض
العمدة ولست بأبنة همه فيرعى رحي وليس بجارك في البلد فيستحي منك ولا آمن
أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون على في ذلك ما فيه ، قال : قومي بارك الله فيك
وادعي لي فلانة لا بنة الوسطى فدعتها ثم قال لها مثل ما قال لاختها ، فأجابته بمثل
جوابها وقالت إني خرقاء وليست بيدي صناعة ولا آمن أن يرى مني ما يكره
فيطلقني فيكون على في ذلك ما تعلم وليس بابن عمي فيرعى حق ولا جارك في بلدك
فيستحييك ، قال قومي بارك الله فيك ادعي لي بهية يعني الصغرى فأتى بها فقال لها

كما قال لها فقات أنت وذاك فقال لها إني قد عرضت ذلك على أختيك فابتاه ولم يذكر لها مقالةيهما فقالت : لكني والله الجميلة وجها الصنيع يدا الرفيعة خلقا الحسبية أبا فان طلاقني فلا أخلف الله عليه بخير فقال بارك الله عليك . ثم خرج إلينا فقال قد زوجتك يا حارث بهية بنت أوس قال قد قبلت فأمر أمها أن تهيتها وتصلح من شأنها ثم أمر بيوت فضرب له وأنزله إياه فلما هيئت بعث بها إليه فلما أدخلت إليه لبث هنيئة ثم خرج فقلت أفرغت من شأنك؟ قال لا والله قلت وكيف ذلك؟ قال لما مددت يدي إليها قالت مه أعند أبي واخوتي هذا والله ما لا يكون قال فأمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا فسرنا ماشاء الله ثم قال لي تقدم فتقدمت وعدل بها عن الطريق فإلبث أن لحق بي فقلت أفرغت قال لا والله . قلت ولم؟ قال : قالت لي أكما يفعل بالامة الجليلة أو السبية الاخيذة؟ لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلي قلت والله إني لأرى همة وعقلا وأرجو أن تكون المرأة منجبة إن شاء الله فرحلنا حتى جئنا بلادنا فاحضر الإبل والغنم ثم دخل عليها وخرج إلى فقلت أفرغت قال لا والله قالت لي لقد ذكرت لي من الشرف ما لا أراه فيك قلت وكيف قالت أفرغ لنسكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضا وذلك في أيام حرب عبس وذبيان قلت فيكون ماذا قالت اخرج إلى هؤلاء القوم فاصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك فقلت والله إني لأرى همة وعقلا ولقد قالت قولا . قال فاخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا فيما بينهم بالصلح فاصطلحوا على أن يحتسبوا القتلى فيؤخذ الفضل من هو عليه فحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين فانصرفنا بأجل الذكر ، قال محمد بن عبد العزيز : قدح بذلك وقال فيه زهير ابن أبي سلمى (راجع ٢٩٤ : ١٠ الأغاني ، ٢٣٢ : ٢ المستطرف) :

آمن أم أوفى دمنة لم تسلم

ومنها :

تداركتما عبساً وذبيان بعدما تغانوا ودقوا بينهم عطر ونشم
فأصبح يحرق فيهم من تلادكم مغانم شتى من إقال مزنم
ينجمها قيوم لقوم غرامة ولم يهريقوا بينهم ملء محجم

٢ — حرب البسوس بين بكر وتغلب من ربيعة

١ — مجد كليب (١) :

لم تجتمع معد كلها إلا على ثلاثة رهط من رؤساء العرب ، وهم : عامر
وربيعة ، وكليب ، فالأول عامر بن الظرب ، والثاني ربيعة بن الحارث ،
والثالث كليب بن ربيعة ، وقاد معدا كلها يوم خزازى فقتل جموع اليمن
وهزمهم . فاجتمعت عليه معد كلها ، وجعلوا له قسم الملك وتاجه ونجييته ،
وأطاعته معد بذلك حينئذ من دهره ، ثم دخله زهو شديد ، وبغى على قومه
لما هو فيه من عزة وانقياد معد له ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع
السحاب فلا يرعى حماءه ، ويحير على الدهر فلا تخفر ذمته ، ويقول : وحش
أرض كذا فى جوارى فلا يهاج ، ولا توردا بل أحد مع إبله ، ولا أوقد
نار مع ناره ، حتى قالت العرب : أعز من كليب وائل . وكانت بنو جشم
وبنو شيبان فى دار واحدة بتهامة ، وكان كليب قد تزوج بنت مرة بن ذهل بن
شيبان ، وأخوها جسساس . وكانت البسوس بنت منقذ التميمية خالة جسساس ،
وكانت نازلة فى بنى شيبان مجاورة لجساس ، وكان لها ناقة يقال لها سراب ،
ولها تقول العرب أشأم من سراب وأشأم من البسوس فمرت إبل لكليب
بسراب ناقة البسوس وهى معقولة ، فلما رأت سراب الإبل نازعت دقاها
حتى قطعتة وتبعته الإبل ، واختلطت بها ، حتى أتت إلى كليب وهو على

وذكر قيامهم فى ذلك فقال :

صحا القلب عن سلى وقد كاد لا يسلو

وفى قصيدة يقول فيها :

تداركتما الأحلاف قد ائل عرشها وذبيان قد ذلت بأقدامها النعل
وهذا لهم شرف إلى الآن . ورجع فدخل بها فولدت له بنين وبنات

(١) اسمه وائل ، وكليب لقبه (٤٤٠ - ٤٩٤ م)

الحوض معه قریش وكنانة ، فلما رآها أنكرها فشد عليها بسهم فخرم
ضربها ، فنفرت الناقة وهي ترغو ، فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن
رأسها وصاحت : واذلاء واجاراه .

٢ - مقتل كليب :

فأحسست جساسا ، فركب فرسا له مغرور أبه ، وأخذ آلتة ، وتبعه عمرو
ابن الحرث بن ذهل على فرسه ومعه رمحه ، حتى دخلوا الحى على كليب فقال
له : يا أبا الماجدة . عمدت إلى ناقة جارتى فعقرتها ، فقال له : ما مانعى من
أن أذب عن حمائى ؟ فأحسسه الغضب ، فطعن جساس فقصم صلبه ، وطعنه
عمرو بن الحارث من خلفه فقطع بطنه ، فوقع كليب وهو يفحص برجله ،
وقال لجساس : أغثنى بشربة ماء فقال : تجاوزت شبيثا والأحص ، وأجهز
عليه . وفى ذلك يقول الشاعر :

المستجير بعمره عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالدار

فلما قتل كليب ارتحلت بنو شيبان حتى نزلت بماء يقال له النهى ، وتشمر
المهاهل أخو كليب واسمه عدى بن ربيعة ، واستعد لحرب بكر ، وترك النساء
والغزل وحرم القمار والشراب على نفسه ، وجمع إليه قومه فأرسل
رجلا منهم إلى بنى شيبان يعذر إليهم فيما وقع من الأمر . فأتوا مرة بن
ذهل وهو فى نادى قومه ، فقالوا له : إنكم أتيتم عظيمًا بقتلكم كليبًا بناب
من الإبل ، فقطعتم الرحم ، وانتهكتم الحرمه ، وإنا كرهنا المعجلة عليكم دون
الإعذار إليكم ، ونحن نعرض عليكم خلا لا أربع . لكم منها مخرج ، ولنا
فيها مقنع ، فقال مرة : وما هى ؟ قال : تحي لنا كليباً ، أو تدفع إلينا جساسا
قاتله فنقتله به ، أو هما ما فإنه كفء له ؟ أو تمكثنا من نفسك فان فيك
وفاء من دمه .

فقال : أما إحيائى كليباً فهذا ما لا يكون ، وأما جساس فإنه غلام
طعن طعنة على عجل ثم ركب فرسه فلا أدرى أى البلاد احتوت عليه ، وأما

همام فانه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة وكلهم فرسان قومهم فلن يسلموه
لى فأدفعه اليكم يقتل بجزيرة غيره . وأما أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل
جولة غداً فأكون أول قتيل فيها فما أتعجل من الموت ؟ ولكن لكم عندي
خصلتان : أما إحداهما فهؤلاء بنى الباقون فعلقوا في عنق أيهم شئتم نسمة
فانطلقوا به إلى رحالك فاذبحوه ذبح الجزور ، وإلا فألف ناقة سوداء
المقل أقيم لكم بها كفيلاً من بنى وائل فغضب القوم وقالوا : لقد أسأت ،
تبذل لنا ولدك وتسو منا اللين من دم كليب .

٣ - اشتعال الحرب :

ووقعت الحرب بينهم ، ولحقت جليلة زوجة كليب بأبيها وقومها واندثرت
قبائل بكر بن وائل وكرهوا معاونة بنى شيبان ومساعدتهم على قتال إخوتهم
وأعظموا قتل حساس كليبا بناب من الإبل ، وانقبض الحارث بن عباد
في أهله ، وهو أبو بحير وفارس النعامة ، وقال المهلهل يرثي كليبا :

بت ليلى بالأنعمين طويلاً أرقب النجم ساهراً أن يزولا
كيف أهدا ولا يزال قتيل من بنى وائل ينسى قتيلاً

إلى أن قال :

قتلوا ربهم كليبا سفاهاً ثم قالوا : ما إن نخاف عويلاً
كذبوا والحرام والحل حتى يسلب الخدر بيضته المحجولا
ويموت الجنين في عطف الرحم وتروى رماحنا والخيول

وقال أيضاً يرثيه :

كليب لا خير في الدنيا ومن فيها إذ أنت حليتها فيمن يخليها ؟
نعم النعامة كليبا لى فقلت لهم مالت بنا الأرض أوزالت رواسيمها
الحزم والعزم كانا من طبيعته ما كل آلائه يا قوم احصيهما
القائد الخيل تردى في أعنتها زهواً إذا الخيل لجت في تعاذيمها

من خيل تغلب ما تلقى أسلتها إلا وقد خضبوها من أعاديها
ليت السماء على من تحتمل وقعت وانشقت الأرض وانجابت بمن فيها
لا أصلح الله منا من يصلحكم ما لاحت الشمس في أعلى مجاريها

٤ - يوم النهي (لتغلب على بكر) :

وأول وقعة بينهم كانت على ماء يقال له النهي كانت بنو شيبان نازلة
عليه ، ورئيس تغلب المهلهل ، ورئيس شيبان الحارث بن مرة ، فكانت
الدائرة لبني تغلب وكانت الشوكة في شيبان ، واستمر القتل فيهم إلا أنه لم
يقتل في ذلك اليوم أحد من بني مرة - وكان هذا اليوم لتغلب على بكر .

٥ - يوم عنيزة :

ثم التقوا بعنيزة فظفرت بنو تغلب . ثم كانت بينهم معارك ووقائع
كثيرة وكانت الدائرة لبني تغلب على بني بكر فيها كلها . وقال مهلهل يصف
هذه الأيام وينعى على بكر في قصيدة طويلة أولها :

أَلَيْتَنَا بِذِي حُسَمٍ أَنْيَرِي إِذَا أَنْتِ انْقَضَيْتِ فَلَا تَحْوَري
وإن يكُ بالذَّنَابِ طَال لَيْلِي فَقَدْ أَبْكَى مِنْ اللَّيْلِ الْقَصِيرِ
وفيه يقول :

فلو نبش المقابر عن كليب لأنخبِر بالذَّنَابِ أَى زِيرِ
كَانَتْ غُدْوَةً وَبَنَى أَيْنَا بِجَنْبِ عُنَيْزَةٍ رَحِيًّا مُدِيرِ
وإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ بَوَارِدَاتِ بُجَيْرًا فِي دَمٍ مِثْلِ الْعَبِيرِ
هَتَكْتُ بِهِ بِيُوتَ بَنَى عِبَادِ وَبَعْضَ الْقَتْلِ أَشْفَى لِلصَّدُورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلًا مِنْ كَلِيبِ إِذَا بَرَزَتْ مَخْبِئَاتُ الْخَدُورِ
وَلَوْلَا الرِّيحُ أَسْمَعُ مِنْ بُحْجَرِ صَلِيلِ الْبَيْضِ تُقْرِعُ بِالذِّكُورِ
وقال مهلهل لما أسرف في الدماء :

أَكْثَرْتُ قَتْلَ بَنَى بَكْرِ بِرَبِّهِمْ حَتَّى بَكَيْتُ وَمَا يَبْكِي لَهُمْ أَحَدُ

آيَةُ بِاللّٰهِ لَا أَرْضَىٰ بِقَتْلِهِمْ حَتَّىٰ أُبْرِجَ بَكْرًا أَيْنَمَا وَجَدُوا
 قَالَ أَبُو حَاتِمٍ : ابْرِج : ادْعُهُمْ بِهَرَجَا ، لَا يَقْتُلُ فِيهِمْ قَتِيلًا ، وَلَا يُؤْخِذُهُمْ
 دِيَّةً ، وَقَالَ : الْبَهْرَجُ مِنَ الدَّرَاهِمِ مِنْ هَذَا . وَقَالَ الْمُهَلِّهَلُ :
 يَا لَ بَكْرٍ أَنْشِرُوا لِي كَلْبِيًّا يَا لَ بَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الْفَرَارِ ؟
 وَقَالَ :

قَتَلُوا كَلْبِيًّا ثُمَّ قَالُوا أَرْبَعُوا كَذَبُوا وَرَبَّ الْحُلِّ وَالْإِحْرَامِ
 حَتَّى تَبِيدَ قَبِيلُهُ وَقَبِيلُهُ وَيَعَضُّ كُلُّ مَثَقَفٍ بِالْهَامِ
 وَتَقُومُ رَبَاتُ الْخُدُورِ حَوَاسِرًا يَمْسَحُنْ عَرَضَ ذَوَائِبِ الْآيَتَامِ
 حَتَّى يَعَضَّ الشَّيْخُ بَعْدَ حَمِيمِهِ مِمَّا يَرَى نَدْمًا عَلَى الْإِبْرَامِ

٦ - يَوْمُ قَضَةِ :

ثُمَّ إِنْ مَهْلَهْلًا أَسْرَفَ فِي الْقَتْلِ وَلَمْ يَبَالِ بِأَيِّ قَبِيلَةٍ مِنْ قَبَائِلِ بَكْرٍ ، وَكَانَ
 أَكْثَرَ بَكْرٍ قَعْدَ عَنْ نَهْرَةِ بَنِي شَيْبَانَ لِقَتْلِهِمْ كَلِيبَ بْنِ وَائِلٍ ، فَكَانَ الْحَارِثُ
 ابْنُ عِبَادَ اعْتَزَلَ تِلْكَ الْحُرُوبِ حَتَّى قَتَلَ ابْنَهُ بِحَيْرٍ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْحَارِثُ قَتْلَهُ قَالَ :
 نَعَمْ الْقَتِيلُ قَتِيلًا أَصْلَحَ بَيْنَ ابْنِي وَائِلٍ ، وَظَنُّ أَنَّ الْمَهْلَهْلَ قَدْ أَدْرَكَ بِهِ نَارَ
 كَلِيبٍ وَجَعَلَهُ كَفَرًا لَهُ فَقِيلَ لَهُ إِنَّمَا قَتَلَهُ بِشَسْعٍ نَعَلَ كَلِيبٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَهْلَهْلَ
 لَمَّا قَتَلَ بِحَيْرًا قَالَ : دَبُّوشَسْعٍ نَعَلَ كَلِيبٍ ، فَغَضِبَ الْحَارِثُ بْنُ عِبَادَ ، وَكَانَ
 لَهُ فَرَسٌ يُقَالُ لَهَا النَّعَامَةُ . فَرَكَبَهَا ، وَتَوَلَّى أَمْرَ بَكْرٍ ، فَقَتَلَ مَنْ تَغْلَبَ حَتَّى
 هَرَبَ الْمَهْلَهْلُ ، وَتَفَرَّقَتْ قَبَائِلُ تَغْلَبَ ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ الْحَرْثُ بْنُ عِبَادَ :

قَرَّبًا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنِّي كَلِمَةً حَتَّى حَرَبُ وَائِلَ عَنْ حِيَالِ
 لَمْ أَكُنْ مِنْ جَنَانِهَا عِلْمَ اللَّهِ وَإِنِّي بِحَرِّهَا الْيَوْمَ صَالِي
 قَرَّبًا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنِّي إِنَّ قَتْلَ الْكَرِيمِ بِالشَّسْعِ غَالِي
 وَكَانَ الْيَوْمَ الَّذِي شَهِدَهُ الْحَارِثُ بْنُ عِبَادَ يَوْمَ قَضَةِ وَهُوَ يَوْمُ تَحْلَاقِ اللَّحْمِ (١)

(٢) سَمِيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ بَنِي بَكْرٍ حَلَقُوا فِيهِ جَمِيعًا رُؤُسَهُمْ وَكَانَ لِبَكْرٍ عَلَى تَغْلَبَ .

وفيه يقول طرفة :

سائلوا عنا الذى يعرفنا بقوانا يوم تحلاق اللمم
وفيه أسر الخارث بن عباد المهلهل وهو لا يعرفه ، فقال الخارث له :
دائى على عدى (اسم المهلهل) وأخلى عنك فقال له عدى : عليك العهود بذلك
إن دلتك عليه ، قال نعم ، قال فأنا عدى . فجز ناصيته وتركه .

ثم إن المهلهل فارق قومه ونزل فى بنى مذحج فخطبوا إليه ابنته فمنهم ،
فأجبروه على تزوجها وساقوا إليه فى صداقها جلوداً من آدم ، فقال فى ذلك :

أعزز على تغلب بما لقيت أخت بنى الأكرمين من جشم
وعاش مهلهل باليمن (١) حيناً . ثم ملت تغلب الحرب فاصطلحت هى
وبكر على ترك القتال ولم يحضر المهلهل صلحهم ، ثم اشتاق إلى دياره فعاد
إليها ومات بعد قليل .

٧ - وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس زوجا لكليب (٢) بن ربيعة ،
فلما قتل جساس (٣) كليباً اجتمع نساء الحى للمأتم ، فقلن لأخت كليب :
رحلى جليلة عن ماتمك ؛ فإن قيسامها فيه شمانة وعار علينا عند العرب ؛

(١) راجع أخذ المهلهل بشار أخيه كليب وقصيدته (اليلتنا بذى حسم أنيرى)
فى الامالى ٢ : ١٢٩ .

(٢) كان كليب بن ربيعة سيد ربيعة ، ينزلهم ويرحلهم ، ولا يصدرون فى
شئ إلا عن أمره ، ولا يجير أحد من بكر وربيعة إلا بأذنه ، وكان يحمى الصيد
وحياض الماء . وضرب به المثل فقالوا : أعز من كليب .

(٣) كان لجساس خاله من بنى سعد جاورت بنى مرة ، فنزلت على جساس
ابن أختها ، ومعهما ناقة فنذت الناقة يوماً ، فدخلت فى إبل كليب ترعى فى حماء ،
فنظر إليها فأسكرها ورماها بسهم فى ضرعها ، فولت حتى بركت بفناء صاحبها
وضرعها يشخب دماً ، فصاحت : واذا لاه : فقتل جساس كليباً لذلك ، وقتل
جساس نحو سنة ٨٥ ق . هـ

فقات لها : يا هذه اخرجى عن مأتمنا ، فأنت أخت واثرا ، وشقيقة قاتلنا .
فخرجت وهي تجر أعطافها ، فلقبها أبوها مرة ، فقال لها : ما وراءك يا جليمة ؟
فقات : نكل العدد ، وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل وبين
ذين غرس الأحقاد ، وتفتت الأكباد . فقال لها : أو يكف ذلك كرم الصفع
وإغلاء الديات ؟ فقات جليمة : أمنية مخدوع ورب الكعبة ! أبا لبدن (١)
تدع لك تغلب دم ربها !

ثم بلغ جليمة أن أخت كليب قالت حين رحلت : رحلة المعتدى وفراق
الشامت ، ويل غدا لآل مرة من الكرة بعد الكرة ! فقات . وكيف
تشتت الحرة بهتك سترها ، وترقب وترها ! أسعد الله جد أختي . أفلا قالت :
نفرة الحياء ، وخوف الاعتداء ! ثم أنشأت تقول :

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا	تعجلي باللوم حتى تسألى
فإذا أنت تبيننت الذى	يوجب اللوم فلو مى واعذلى
إن تكن أخت امرئ ليمت على	شفق منها دليه فافعللى
جل عندى فعل جساس فيا	حسرتى عما انجملت أو تنجلى
فعل جساس على وجدى به	قاطع ظهري ومـدن أجلى
تحمل العين قذى العين كما	تحمل الأم أذى ما تفتلى (٢)
يا قتيلا قوض الدهر به	سقف بيتى جميعاً من عل
هدم البيت الذى استحدثته	وانثنى فى هدم بيتى الأول
يا نسائى دونكن اليوم قد	خصنى الدهر برزء معضل
خصنى قتل كليب بلظى	من ورأى ولظى مستقبـل
ليس من يبكى ليومين كن	إنما يبكى ليوم ينـجلى
يشتنى المدرك بالشار وفى	دركى تأرى نكل المشكل (٣)

(١) البدن : جمع بدنه تكون من الإبل والبقر .
(٢) تفتلى : تربي (٣) المشكل : التى لازمها الحزن

ليته كان دمي فاحتلبوا بدلا منه دماً من أكلحلي (١)
إنني قاتلة مقتولة ولعل الله أن يرتاح لي (٢)

٣ - يوم بعث (٣)

وبعث اسم موضع في ديار بني قريظة من اليهود ، وكان بنو النضير
وبنو قريظة يساعدون الأوس على الخروج وذلك حينما قتل عمرو بن النعمان
رهائن اليهود التي كانت عند الخزرج .

والتقت الأوس وحلفاؤها من اليهود بالخزرج في بعث ، وعلى رأس
الأوس حمير الكتائب ، وعلى رأس الخزرج عمرو بن النعمان ؛ فمزمت
الخزرج ، ومات حمير بسبب جراح أصابته ، وفي رثائه يقول خفاف
ابن ندبة :

فيا عين بكئي حمير الندي حمير الكتائب والمجاس

٤ - يوم حليلة (٤)

كثرت الحروب بين ملوك الحيرة وملوك غسان تبعاً للتصومات
السياسية التي كانت بين الفرس والروم .

ومنها يوم حليلة ، وحليمة هي بنت الحرث بن أبي شمر الغساني وكانت

(١) الاكلحلي : عرق في الذراع يفصد

(٢) راجع ٦٣ : الاغانى ، ٢١٤ : ٥ نهاية الارب ، ٢١٦ : ١

ابن الاثير .

(٣) وهو بين الأوس والخزرج - وكان قبل الهجرة بنحو خمس سنوات .

(٤) كان بين المناذرة والغسانيين

من أجل النساء ، أمرها أبوها أن تطيب فرسان الغسانيين الذين أرسلهم ليقتكوا بالمنذر بن المنذر بن ماء السماء ، وكان لتحميمس حليلة لهم أثره في حماسهم وقتلهم المنذر ملك الحيرة في مدينته اغتيالاً ، فنسب هذا اليوم إلى حليلة . وقيل سمي هذا اليوم يوم حليلة لأنه كان في مكان اسمه « مرج حليلة » ، ويضرب المثل بهذا اليوم . قالوا : « ما يوم حليلة بسر » . وقال النابغة يصف سيوفاً :

تخيرن من أزمان يوم حليلة إلى اليوم قد جربن كل النجارب

٥ - يوم الزويرين (١)

سببه اعتداء بكر على أرض تميم وعيثرهم ببلادهم وهتكهم لعوراتهم فتحمس بنو تميم ، والتقوا ببني بكر ، وكان على بكر عمرو الأصم سيدها وكانت تميم قد أقبلت بحملين مقرونين مقيدتين وقالت : لا نبرح حتى يبرح هذان الزويران .

ودارت الدائرة على بني تميم ، وأخذت بكر الزويرين ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

يا سلم إن تسألني عنا فلا كشف عند اللقاء ولستنا بالمقاريف (٢)
نحن الذين هزمنا يوم صبحنا جيش الزويرين في جمع الأحاليف
ظلموا وظلمنا نكر الخيل وسطهم بالشيب منا وبالمرء الغطاريف

٦ - يوم شعب جبلة (٣)

وهو أعظم أيام العرب وأكثرها جميعاً ، كان قبل الإسلام بنحو سبع وخمسين سنة .

(١) كان بين ربيعة ومضر

(٢) مقاريف جمع مقرف وهو : من أمه عربية وأبوه غير عربي والكشف جمع أكشف وهو : من ينهزم في الحرب .

(٣) كان لعمرو وغيس على ذبيان وتمام

أب لقيط بن زرارة الكلابي جموع العرب على بني عامر وبني عيس ،
وكان في جيشه : أبا الجون الكلابي ملك هجر ، وحسان أخو النعمان بن المنذر
لأمه ، وسنان بن أبي حارثة ، وسواهم من سادة العرب .

وكان الأحوص بن جعفر سيد هوازن وشيخها وبطلها ، فأظماً إبلاً
لقومه ومنعها المرعى وحبسها في الشعب . فلما اقتحم لقيط ومن معه عليهم
فهم الشعب أطلق الإبل من عقالها فانطأقت نائرة إلى الماء والمرعى تحطم
كل شيء أمامها ، فهزم لقيط وأحلافه ، وقتل في هذا اليوم ، وأسر أخوه
حاجب بن زرارة كما قتل معاوية بن الجون الكلابي ، ورثت بنت لقيط
دختنوس - أباهما :

فرت بنو أسد فرا ر الطير عن أربابها
عن خير خندف كلما من كملها وشبابها
وأتمها حسبا إذا ضمت إلى أحسابها
ويقول جرير :

ويوم الشعب قد تركوا لقيطاً كأن عليه حلة أرجوان

٧ - يوم خزازي (١)

ولي أبرهة الحبشي زهير بن جناب الكلابي على العدنانيين فامتنعوا عن
دفع الاتاوات له ، ووقع بعض العدنانيين أسرى عنده ، فذهب وفد من
وجوه معد إليه ليطلق سراحهم ، فأطلقهم ولكنه احتجز بعض أعضاء
الوفد ، فثارت معد ، وقادهم كليب وسار بهم إلى خزازي وهو جبل بين البصرة
ومكة فأوقد عليه النار ، وأقبلت مذحج إلى خزازي ، فأقبل الفريقان قتالا
شديداً هزمت فيه مذحج وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

ونحن غداة أوقد في خزاز رفدنا فوق رفد الرافدين

(١) كان بين زرار واليمن

وكننا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو (يئنا)
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فأبوا يا لنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

٨ - أيام الفجار (١)

وهي أربعة أيام ، وكانت قریش ومعهما بكر على هوازن في هذه الأيام
وأهم هذه الأيام هو الفجار الرابع والذي أشعل الحرب فيه أن البراض
الكناني قتل عروة الرحال الذي أجار لطيمة النعمان بن المنذر ، وكان عروة
سيداً شجاعاً شريفاً ، والبراض خليعاً ماجناً ، فثارت الحرب .

وكان البراض بن قيس الكناني رجلاً فاتكاً خليعاً (٢) ، يجنى الجنايات
على أهله . نخلعه قومه ، وتبرءوا من صليعه ، ففارقهم ، وقدم مكة ، لخالف
حرب بن أمية ، ثم نبا به المقام بمكة أيضاً . ففارق أرض الحجاز إلى أرض
العراق العراق ، وقدم على النعمان بن المنذر الملك ، وكان النعمان يبعث كل
عام بلطيمة (٣) للتجارة إلى عكاظ (٤) تباع له كل عام هناك . فقال يوماً ،
وعنده البراض وعروة بن عتبة بن جعفر المعروف بالرجال (٥) : ومن
يجيز لي لطيمتي هذه حتى يبلغها عكاظ ؟ فقال البراض : أبيت اللعن ! أنا
أجيزها على كنانة ، فقال النعمان : إنما أريد من يجيزها على كنانة وقيس ،
فقال عروة : أكلب خليع يجيزها ! أبيت اللعن ؟ أنا أخيزها على أهل
الشيخ والقيصوم (٦) من أهل تهامة وأهل نجد ! فقال البراض : في غضب -

(١) الاغانى ج ١٩ ، والجزء الثاني من العقد ، واديان العرب ومعجم البلدان

(٢) كان يضرب المثل بفتكه ، فيقال : دأفتك من البراض .

(٣) اللطيمة : العير التي تحمل الطيب وبز التجارة (٤) عكاظ موضع كان

بين نخلة والطائف (٥) لقب بالرجال لكثرة رحلته إلى الملوك (٦) الشيخ

والقيصوم : نباتان مما يطلع في السهل .

وعلى كثافة (١) تجيزها يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم !

فدفع النعمان اللطيمة إلى عروة الرحال ، وأمره بالمسير بها ، وخرج البراض يتبع أثره ، وعروة يرى مكانه ولا يخشى منه ، حتى إذا كان عروة بين ظهري قومه أدركه البراض بن قيس ، فأخرج قداحه يستقسم (٢) بها في قتل عروة ، فربه عروة فقال ما تصنع يا براض ؟ فقال : استقسم في قتلك ، أيؤذن لي أم لا ؟ فقال عروة : همتك أضعف من ذلك ، فوثب إليه البراض بالسيف فقتله .

فلما رآه الذين يقومون على العير والأحمال قتيلا انهمزوا ، فاستاق البراض العير ، وسار على وجهه إلى خيبر ، وتبعه رجلان ليأخذهما : أحدهما غنوى والآخر غطفاني ، وسارا حتى لقيهما البراض بخيبر ، فقال لهما : من الرجلان ؟ قالا من قيس قدمنا لنقتل البراض ، فأنزلهما وعقل راحلتيهما ، ثم قال : أيكما أجراً عليه وأجود سيفاً ؟ قال الغطفاني : أنا ، فأخذه ومشى معه ليدله - بزعمه - على البراض ، ثم قال للغنوى : احفظ راحلتيكما ففعل .

وانطلق البراض بالغطفاني حتى أخرجه إلى خربة (٣) في جانب خيبر ، وقال له : هو في هذه الخربة يأوى إليها ، فأمهلني حتى أنظر أهو فيها ؟ فوقف ، ودخل البراض ، ثم خرج فقال : هو فيها وهو نائم ، فأرني سيفك حتى أنظر إليه أضراب هو أم لا ، وأعطاه سيفه ، فضربه به حتى قتله ، ثم

(١) كثافة هم قوم البراض .

(٢) الاستقسام : كانوا إذا أراد أحدهم سفراً أو تزويجاً أو نحو ذلك من المهم ضرب بالقداح وكان على بعضها مكتوب : أمرني ربي ، وعلى بعضها الآخر : نهاني ربي ، والباقي غفل ، فان خرج أمرني ربي مضى شأنه ، وأن خرج نهاني ربي ، أمسك ، وأن خرج الغفل أجهلها ، وضرب بها أخرى إلى أن يخرج الأمر أو النهي .

(٣) الخربة : موضع الخراب

أخفى السيف وعاد إلى الغنوى ، فقال له : لم أر رجلاً أجبن من صاحبك ، تركته في البيت الذي فيه البراض وهو نائم فلم يقدم عليه ا فقال : انظر لي من يحفظ الراحلتين حتى أمضى إليه فأقتله ، فقال : دعهما وهما على ، ثم انطلقا إلى الخربة ، فقتله وسار بالعبير إلى مكة (١)

وسميت حرب الفجار ، لأنها حدثت في الأشهر الحرام : ذى القعدة والحجة ومحرم ورجب ، التي كان القتال فيها محرماً .

وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحرب واشترك فيها مع قومه وسنة أربع عشرة سنة ، وكان يذبل على أعماه .

٩ - يوم ذى قار (٢)

كان عدى بن زيد العبادي أستاذاً للنعمان بن المنذر ، ثم التحق عدى بخدمة أنوشروان ، فمات المنذر (٣) فأشار على كسرى بتولية النعمان على الحيرة مكان أبيه ، ثم وشى خصوم عدى به إلى النعمان فأرسل إليه يطلب أن يزوره في الحيرة فقدم عدى عليه فأمر بحبسـه . وفي ذلك يقول عدى يستعطفه بشعره :

أبلغ النعمان عني مالكا أنه قد طال حبسى وانتظاري
لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري
فأمر بإطلاقه ثم خاف منه فقتله ، واحتل زيد مكان أبيه عدى في خدمة

(١) راجع ١٠١ : ١ المضاف والمنسوب ، ٢٣ : ٢ بجمع الامثال ، ٣١٠ : ١ ابن الاثير

(٢) راجع ٣٧٤ : ٣ العقد الفريد ط ١٩٢٨ - وكان هذا اليوم بين العرب والفرس (٣) راجع خبر المنذر بن ماء السماء وقتله ندييه وجعله لنفسه في كل سنة يوم بؤس ويوم نعيم وقتله عبيد بن الأبرص يوم بؤسه (١٩٥ النوادر ملحق الأمالى) .

كسرى ، ثم أخذ زيد يحرض كسرى على النعمان فاستدعاه من الحيرة فلبجأ إلى هانيء بن قبيصة مستنجيراً به ووضع عنده أمواله وسلاحه وبنته حرقلة ، وذهب إلى كسرى فحبسه حتى مات في السجن ، وولى مكانه على الحيرة إلياس ابن قبيصة الطائي ، وأمره أن يأخذ أمانات النعمان من هانيء ، فطلبها منه فرفض ، فثار كسرى وانتظر على بني شيبان حتى أنزلهم الحر بذي قار وأرسل إليهم جيشاً كثيفاً يحاربهم به ، ولكن بني شيبان وأحلافها من العرب صمدوا لجيش الفرس وهزموه هزيمة منكرة . وانتصر العرب انتصاراً مؤزراً .

وفي هذا اليوم خطب هانيء خطبته المشهورة (١) : يا معشر بكر ، هالك معذور خير من ناج فرور الخ ، . وكان هذا اليوم في مبعث الرسول صلوات الله عليه ، وقال فيه : « إن هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبني نصر » .

وقد افتخر الشعراء بهذا النصر العظيم ، قال الأعشى :

لو أن كل معد كان شاركننا في يوم ذي قار ما أخطأهم الشرف
وقال العديل العجلي :

ما أوقد الناس من نار لمكرمة إلا أعطينا وكما موقدى النار
وما يعدون من يوم سمعت به للناس أفضل من يوم بذي قار
وقال أبو تمام :

وأنتم بذي قار أمالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

اللغة العربية (١)

أصل اللغة العربية :

١ - هي إحدى اللغات السامية المشهورة الباقية إلى يومنا هذا ، وهي لغة الجلس العربي الذي تحدثنا عنه وعن موطنه وحياته العامة وصفاته وأخلاقه في العصر الجاهلي .

واللغات السامية هي - حسب ترتيبها ترتيباً زمنياً مطابقاً لانتشار آدابها - كما يأتي :

- ١ - اللغة البابلية والآشورية (من ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠ ق م)
- ٢ - د العبرية ظهرت من ١٥٠٠ ق م) واستمرت إلى يومنا هذا
- ٣ - د السبئية أو الحميرية أو العربية الجنوبية (٢) وجدت منها نقوش يرجع تاريخها إلى القرن الثاني بعد ميلاد المسيح وقد تلاشى السبئيون نهائياً من صفحات التاريخ حينها أخذ العدنانيون في الظهور والقوة

(١) راجع الكلام على أصلها وخصائصها وعوامل نموها في :
الخصائص - الماهر - الصحاحي - كتب فقه اللغة - الأدب العربي للرافعي
وراجع نشأة اللغة في : ٤٣٣ : ٤ شرح نهج البلاغة ، و ٨٠ : ٣ بلوغ الأرب ،
والميسر والقداح لابن قتيبة ، وكتاب الأدب للرافعي .

(٢) راجع الكلام عليها في ٢٢٧ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية
لإسرائيل ولفنسون ط ١٩٢٩ القاهرة . ويرجع ولفنسون معلوماً عن اليمن
ولغاتها إلى : القرآن وكتب السيرة وكتاب الأكليل للهمداني ، وبعض مصادر
عبرية يهودية ، ومصادر تاريخية يونانية ورومانية لهرودوت وسترابو الروماني
وسواهما ، ونقوش وكتابات جمعها الرواد الأوربيون خلال القرن التاسع عشر

٤ — اللغة الآرامية وهي كاللغة الحيرية (نقوش وجدت منها منذ سنة ٨٠٠ ق م)

٥ — اللغة الفينيقية وترجع النقوش التي عثر عليها منها إلى القرن السابع قبل المسيح .

٦ — اللغة الحبشية (٣٥٠ ق م حتى يومنا هذا)

٧ — اللغة العربية العدنانية (١) ، وهي لغة الشعر والنثر الجاهليين ولغة القرآن الكريم . وهي من أحدث اللغات السامية عهدا وأقربها ظهورا ، وكل ما ألف ودون عنها وما روى من آثارها فهو ليس بعيدا عن البعثة المحمدية بأكثر من مائة عام تقريبا .

والعدنانية هي أقرب لغات الساميين إلى اللغة السامية القديمة (٢) لأن الجندس العربي عاش في عزلة تامة بعيدا عن العالم ولم يختلط بغيره اختلاطا كاختلاط الأجناس الأخرى بسواها ولم تخضعهم أمم أخرى لحكمهم (٣) فلم تتأثر لغتهم تأثرا كبيرا بغيرهم .

ب — وتمتاز اللغات السامية عن أنواع اللغات الأخرى (٤) بميزات

(١) راجع تاريخ الأدب العربي للمستشرق الانجليزى رينولد نيكلسون .
وص ١٠٧ الشهاب الراصد للطفي جمعه ط ١٩٢٩ .

(٢) راجع ٧ : ٢ من كتاب تاريخ اللغات السامية طبع القاهرة ١٩٢٩ .
(٣) وقد يكون السبب في قرب اللغة العربية من الأصل الأول للغات السامية أنها كانت موجودة في مهد اللغات السامية أو في ناحية قريبة منه أو أن العناصر التي نزحت إلى بلاد العرب كانت من أقدم الأمم السامية .

(٤) اللغات الأخرى تشمل مجموعتين : اللغات اليافثية أو الآرية ، واللغات الحامية :

أما الآرية فقد انتشرت في الهند وسارت منها إلى الافغان وفارس ثم الى أوروبا . وهي قسمان :

وخصائص (١) منها :

(ا) كثرة عدد حروفها

(ب) أغلب الكلمات فيها يرجع في اشتقاقه إلى أصل ثلاثي الحروف وهذا الأصل هو الفعل ، والرأى الذى يذهب إليه بعض علماء العربية من أن أصل الاشتقاق هو المصدر مخالف لأصل الاشتقاق فى باقى اللغات السامية ولعله تسرب إلى اللغة العربية من العلماء الفرس الذين بحثوا فى اللغة العربية بعقليتهم الآرية إذ الأصل فى الاشتقاق عند الآريين هو المصدر الاسمي .

(ج) ليس فى اللغات السامية أثر لإدغام كلمة فى أخرى حتى تصير الكلمتان كلمة واحدة تدل على معنى مركب من معنى كلمتين مستقلتين كما هى الحال فى غير اللغات السامية .

(د) إقتصارها فى الكتابة على الحروف دون حركاتها .

(هـ) كثرة اشتقاق صيغ متعددة من المادة الواحدة

(و) اشتراكها فى كثير من الكلمات مع اختلاف قليل أحيانا ويظهر ذلك من التشابه بين العربية والعبرية ، فبعض الكلمات بالسين فى العربية وهى بالشين فى العبرية ، والألف فى العربية واو فى العبرية ، فسلام فى العربية هى شلوم فى العبرية . وكذلك الثاء فى العربية شين فى العبرية كثور وشور ؛ وما كان فى العربية بالصاد فهو فى العبرية بالصاد كأرض وأرض وهكذا .

١ - الآرية الشمالية وهى لغات أوروبا القديمة والحديثة .

ب - الآرية الجنوبية وهى السنسكريتية (الهندية القديمة) وفروعها : الهندية الحالية والفارسية والآرمينية والافغانية .

وأما الحامية فقد انتشرت شمالى افريقية وتشمل الزنجية والبربرية (لغة سكان المغرب) والمصرية القديمة (قبل فتح الهكسوس لمصر)

وأما اللغات السامية فقد انتشرت غربى آسيا .

(١) راجع ص ١٤ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية ط ١٩٢٩

وهذا الاشتراك دليل على أن اللغات السامية من أصل واحد (١) .
وأوجه الشبه بين أغلب اللغات السامية تظهر في بعض أسماء الأشياء التي
كانت معروفة لهم جميعاً كأسماء أعضاء الجسم وكالضمائر فانها متقاربة
فيها جميعاً .

ج - وتنقسم اللغة العربية بوجه عام - لا اللغة العدنانية خاصة -
إلى لهجتين :

أ - لهجات القبائل العدنانية شمالى الجزيرة .

ب - لهجات القبائل القحطانية جنوب الجزيرة وتسمى اللغة الحميرية (٢)
وهى أقدم من لغة الشمال ، وقد عثر في اليمن على نقوش مكتوبة بهذه اللغة
ولها حروف تخالف الحروف العربية المعروفة كما أن لها صيغاً في التنوين
وجمع المذكر السالم وجمع التكسير وأداة التعريف وغيرها تخالف لغة أهل
الحجاز وكذلك في حروف الكلمات فهمزة أفعل في بعض الكلمات
الحميرية هاء .

(١) يختلف الباحثون في ذلك : فالبعض يذهب إلى أن اللغات السامية تفرعت
من أصل واحد مجهول ، والبعض يذهب إلى أن إحداهن أصل لأخواتها ، فقليل
البا بلية هى الأصل ، وقيل العربية ، والراجح أن اللغات السامية تفرعت من أصل
واحد مجهول ، وأيد ذلك جورجى زيدان فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية .

واللغات السامية من الوجهة الجغرافية تنقسم إلى ثلاث مناطق :

أ - شرقية وتشمل البابلية والاشورية .

ب - غربية وتشمل الكنعانية والعبرية والآرامية .

ج - جنوبية وفيها اللهجات العربية فى جميع بلدان الجزيرة العربية واللهجات
الحبشية .

(٢) وتشمل اللغة الميعينية واللغة السبئية واللغة الحميرية ولغة قتيبان وحضرموت
وفى تاريخ اللغات السامية لـو لغنسون حديث طويل عنها (٢٢٧-٢٥٢ ط
القاهرة ١٩٢٩)

أما لغة الشمال أو لغة الحجاز أو اللغة العدنانية فهي أحدث من لغة الجنوب ، وما روى إلينا من شعر جاهلي فهو بها ، لأن الشعراء الذين نظموا هذا الشعر : إما من ربيعة أو مضر وهما فرعان عدنانيان : وإما من قبائل يمنية رحلت إلى الشمال كطى وكندة وتنوخ .

واللغة العدنانية هي التي يعيننا البحث عنها ، وهي التي ينصرف إليها الحديث عند إطلاقنا لفظ « اللغة العربية » .

نشأتها :

١ - اللغة العربية الباقية - التي هي العدنانية - هي مزيج من لهجات مختلفة اختلطت ببعضها ببعض وصارت لغة واحدة بعد أن فني أصحاب اللهجات الأولى وبادوا بالحروب والمهاجرة والامتزاج بغيرهم (١) .

على أن امتزاج هذه اللهجات وتدخل بعضها في بعض لم يتم مرة واحدة أو في زمن واحد بل حدث شيئاً فشيئاً وسار تدريجياً أزمنة طويلة أثناء الجاهلية إلى ما قبل الإسلام بقليل وهكذا كانت لغة الشمال اللغة العدنانية ذات سلطان قوى ونفوذ واسع في العصور القريبة من ظهور الإسلام فابتلعت اللهجات الجنوبية والتمتها الواحدة منها تلو الأخرى ، وسادت هي في أغلب أقاليم الجزيرة العربية ، وكونت لنفسها أدباً جديداً وشعراً فنياً .

وأخذت اللهجات في بلاد اليمن تتدهور وتتلاشى حتى كادت تفنى في القرن السادس الميلادي ، وخاصة لفقدان اليمن لحريتها بخضوعها للأحباش طوراً ثم للفرس طوراً آخر فتدهورت حضارتها ، وتقاوص ظل اللهجات اليمنية .

ويسر ذلك السبيل أمام اللغة العدنانية للنهر في المعركة ، وبقي من اللهجات

(١) راجع ص ١٦٦ وما بعدها من تاريخ اللغات السامية ط ١٩٢٩

اليمنية في اللغة العربية صدى قليل لا يكاد يكون شيئاً مذكوراً (١) .

٢ — ووجود بعض ألفاظ عبرية ، وآرامية ويونانية (٢) ، اندمجت في العربية بواسطة السريانية ، وفارسية (٣) ، من الخطأ أن تستدل به على إفادة اللغة العربية من هذه اللغات في طور نشأتها ، لأننا لا نعلم متى دخلت هذه الألفاظ في اللغة العربية ، ولو سلمنا أنها دخلت في العصر الجاهلي فيكون المعقول أن تعد أثراً من آثار تهذيب اللغة العربية أو طوراً من أطواره .

٣ — ولا شك أن اللهجات التي امتزجت باللغة العربية قسماً :

- أ - لهجات سكان شمال الجزيرة كشمود (٤) وغيرها من القبائل العربية القديمة البائدة ؛ ومنها قبائل معين (٥) التي استوطنت في شمال الجزيرة العربية .
- ب - ولهجات سكان جنوب الجزيرة وتمثل في اللغة المعينية القديمة

(١) وفي ص ٢٤ من المزهري للسيوطي أن بعض لهجات عربية حميرية كانت شائعة في اليمن للقرن الثامن الهجري .

(٢) مثل : انجيل وانطوانه ، وأسقف وناموس وميل وبستان وصراط وخندريس وفرذوس

(٣) مثل : مجرس وجيش وأستاذ (راجع في ذلك ١٥ : ١ من تاريخ آداب اللغة لمحمد دياب)

(٤) راجع موطنها وأخبارها في ١٧١ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية .

(٥) راجع ص ١٧٦ وما بعدها تاريخ اللغات السامية

القديمة (١) ، واللغة السبئية التي خلفت اللغة المعينية (٢) ، أما اللغة الحميرية فهي السبئية مع خلاف قليل وقد نشأت مع اللغة العدنانية في وقت واحد (٣) ثم تغذت بها العدنانية ثم التهمتها وقضت عليها . ومن المرجح أن ظهورهما بدأ قبل الميلاد بقرن واحد أي قبل البعثة بسبع مائة عام (٤) .

٤ - ورحل ابراهيم بابنه اسمعيل إلى الحجاز وأقام بمكة ونحاط قبيلة جرهم الثانية اليمنية وصاهرها وتعلم لغتها فكان لهذا العنصر الذي يرجع إلى العبرية أثر في اللغة العربية العدنانية (٥) .

٥ - ثم بدأت عوامل تهذيب اللغة العربية العدنانية تعمل عملها : باختلاط القبائل العربية بعضها ببعض ، ورحلات القرشيين في البلاد واتصالهم بالأمم الأخرى ، ثم نزل القرآن الكريم فأضفى على العدنانية ثوب القوة والخلود (٦) .

وهكذا نشأت اللغة العدنانية ونضجت .. وقبل أن نختم هذا البحث نعرض هذا النص : قال الأستاذ محمد لطفي جمعة ، في كتابه الشهاب الراصد (٧) :

(١) والمعينيون قدموا من العراق إلى اليمن ولغتهم بابلية وباقاتهم في اليمن أخذت تتباعد عن أصلها شيئاً فشيئاً حتى صار لغة مستقلة (راجع ١٢٤ الشهاب الراصد) .

(٢) والسبئيون أو القحطانيون قدموا إلى جنوب شبه الجزيرة من الحبشة أو من العراق في القرن الثامن قبل الميلاد واقتبسوا لغة المعينيين (١٢٤ الشهاب الراصد) وأولهم هو قحطان رأس العرب العاربة وابنه يعرب هو الذي نطق بلغة المعينيين وبدأ يهذبها .

(٣) ١٢٥ الشهاب الراصد . (٤) ١٣٣ المرجع

(٥) وراجع ما كتبه الجاحظ في البيان والتبيين عن اسماعيل ونطقه بالعربية

دون تلقين (١٦٨ : ٣)

(٦) راجع ٢١٥ تاريخ اللغات السامية

(٧) ١٢٥ الشهاب الراصد

ومن المجمع عليه لدى علماء أصول اللغات وعلماء المشرقيات أن هذه العربية المحضنة - العدنانية - هي الغاية التي انتهت اليها تلك اللغات وكانت جميعها روافد تغذى نهرها العظيم ، فالحبشية والسبئية والحيرية والعبيرية والنبطية وما تخلف عنها من لهجات متنوعة خدمت كلها تلك المضربة الفصحى الخالصة ،

أطوار تهذيب اللغة :

١ - سبق (١) أن ذكرنا أن المعينين بعد هجرتهم من العراق إلى اليمن انحرفت لغتهم البابلية ثم استقلت فسميت اللغة المعينية ، وتوارثها السبئيون وتحولت فصارت لغة جديدة هي اللغة السبئية ، وكانت هي لغة الحيريين إلا أنها اكتسبت صفات جديدة بفعل الزمن وتبدل الحياة والمعيشة ؛ ثم هاجر اسماعيل إلى مكة وأقام بها وكان لسانه عبرانيا ، وجاور جرهم الثانية القحطانية وخالطها وصاهرها وتكلم بلغتها - وهي اللغة القحطانية أو السبئية - وتكلم بهذه اللغة أحفاده ، وبذلك نشأت اللغة العدنانية ، وكانت نشأتها هي واللغة الحيرية في وقت واحد على الأرجح وذلك قبل الميلاد بقرن واحد أو قبل البعثة بسبعمئة عام ، ثم أفادت العدنانية من الحيرية وصارعتها حتى طورتها وتغلبت عليها ، وذلك هو الدور الأول من أدوار تهذيب اللغة العربية .

٢ - ثم كان لاجتماع القبائل واختلاطهم بعضهم ببعض أثر في تهذيب اللغة ورقيتها .

ولاشك أن : الحروب ، والتجارة ، والحج ، كان لها أثر كبير في اختلاط القبائل بعضها ببعض وتفاهمها وتقارب لغاتها ، مما يشبه الأثر الذي أحدثه سيل العرم - الذي حدث حوالي ميلاد المسيح (٢) - وأدى إلى هجرة القبائل

(١) راجع ١٣١ الشهاب الراصد .

(٢) راجع ١١٩ الشهاب الراصد . ويخطئ الزيات في جعل تاريخ سيل العرم هو عام ٤٧٤ م (راجع ص ١٣ تاريخ الادب العربي الزيات)

واختلاط القحطانيين بالعدنانيين وتأثرت لغاتهم بذلك الاختلاط .

والحنج له - من بين هذه العوامل - أثر كبير في تهذيب اللغة . فقد كان العرب يحجون إلى الكعبة وكانت قریش تتصل بهم ويتصلون بها ، وكان القرشيون على قسط من المعرفة والرقى الفكري ، وفيهم ذوق ولهم ملكات ناضجة في النقد اللغوي ، فسكانوا يميزون بين اللهجات والألفاظ ، ويقتبسون من لهجات القبائل أعذبها ومن ألفاظهم أسهلها وأفصحها ، ويضيفون ذلك إلى لغتهم : فهدبوا لغتهم حتى نخلت من السقيم والمستبشع من الألفاظ واللهجات . كما كانوا في رحلاتهم التجارية إلى الشام واليمن وفارس والحبشة يأخذون من لغات هذه الأمم بعض ألفاظها ويدخلونها في لغتهم بعد أن ينطقوا بها نطقاً عربياً فصيحاً - وهو ما نسميه التعريب - وبذلك زادت ثروة اللغة العدنانية القرشية ، وقلدت القبائل الأخرى قریشاً في ذلك وحاكته في لغتها وأخذت عنها فكان بذلك لقریش أثر كبير في تهذيب اللغة ، بل كانت تقوم بما تقوم به مجامع اللغة الآن ، وصارت لغة قریش أعذب اللغات لنظراً وأبلغها أسلوباً وأوسعها مادة .

أثر الأسواق (١) : ومن العوامل الأخرى - التي ظهر فيها اختلاط العرب وكان لها أثر في تهذيب اللغة - الأسواق .

والأسواق العربية كانت ميداناً لاجتماع العرب وتبادلهم التجارة ، كما كانت سبباً في دعم الوحدة والتفاهم بينهم وفي مزجهم بعضهم ببعض ، وفي التقريب بين لغاتهم ولهجاتهم وكانت مع ذلك مجمعا أدبياً كبيراً حيث كان يجتمع فيها الشعراء والخطباء فيلشدون ويخطبون .

(١) راجع الكلام على عكاظ والمربد في الرسالة العدد ١٢ و ١٣ و ١٥ و ١٦ ، وفي بلوغ الأرب ٢٦٤ : ١ ومعجم البلدان والكلام على عكاظ في العقد الفرید ص ٣٦٩ ج ٣

يقول سيديو : « أنشأ العرب أسواقاً عامة يتعارفون فيها ويتحابون فلم تكن هذه الأسواق في عكاظ ومجنة وذى المجاز سوى مؤتمرات للشعر في الحقيقة خالية من التحكم على النفوس ، ولا شيء أروع من تلك الأسواق على ما كان يسودها من البساطة فقد كانت تشابه الألعاب الأولمبية ، فكان ينهض مقاتل شجاع متزن الخطأ أمام جمهور صامت جامع لحواسه ، لم يكن عليه من الزينة ما يشير إلى أنه من طبقة عالية ؛ فكانت الأبصار تشخص إليه فيلشد بصوته الرخيم من فوق مرتقى قصيدة بأسرها ، فتراه يترنم بأعماله السامية وشرف عشيرته أحياناً ، وتراه يمدح القوة والشجاعة أحياناً ، وتراه يصور عجائب الطبيعة وعزلة الصحراء والمهاهل المبتغاة ويصف الغزال أحياناً ، وذلك على حين يسير الجمهور مع المشاعر التي يود الشاعر أن يوحى بها إليه ، فيشاهد على وجهه المتلبه علام الإعجاب بالبطل الصابر في الضراء كما تشاهد علام احتقار الجبان النذل ، وما كان المستمعون ليخفوا عواطفهم ، والشاعر كلما توسم اعتراف الجمهور بقدرته عاد إلى نشيده بحماسة جديدة . وقصائد الشعراء إذا ما تقيلتها مؤتمرات عكاظ بقبول حسن ، كتبت بحروف من ذهب على فسج ثمينه وعلقت في الكعبة لتحفظ للحفدة ، ويستمتع العرب تحت الخيام مساء لتلك الأشعار العجيبة بلذة وهى التي تجمع بين سحر القصة المؤثرة المحزنة ومحاسن الترنم وحلاوة التوقيع وعذوبة اللحن ، فيجدونها شاملة لما يثيرهم من العواطف والشجون والحماسة ، فكانت لها وضعت بلغة معبرة عما يجيش في صدورهم ، وتجد في شعر الشعراء الذين اشتهروا في هذا الدور وصفاً دقيقاً لحياة عرب البادية الذين لم يفسد الزمن طبائعهم . وليس من النادر أن كانت تحدث بعد الوقائع الدامية مباريات نحر وكرم عرفت بالمنافرات ويقع التحكم فيها من حكم يرضونه ، وأحكام كهذه لا بد أن تصدر في احتفال كبير فتؤثر في النفوس تأثيراً جليلاً .

وإذا كان الخطباء والشعراء ، وكل ذى كلام - يريد له سعة فهم وكثرة ذبوع ، ولا بد أن يريد - يرون لغة قريش أوفى اللغات بهذا ، فقد انتسبوا إليها جميعاً يستوحدون فصاحتها وبيانها ، ويستمدون قوتها وسلطانها حتى غطت على جميع اللهجات ، فأصبحت العلم الذى بنوره يهتدى ؛ والإمام الذى به يقتدى . عرف العرب لها ذلك واعتقدوه فى المحاكاة والتقليد ، فأخذوا يتقربون بلغاتهم إليها ؛ وكانت الأسواق من أقوى العوامل على هذا التقريب ، حتى قارب توحيد اللهجات التمام ، واستعد العرب لفهم القرآن الكريم الذى نزل بلغة قريش ، ولمعرفة مواطن الإعجاز فيه . وما زال القرآن الكريم هو الحفيظ على هذه الوحدة والدرع لهذه اللغة يهونها من أن تمحوها النوازل أو تلشع منها لهجات مختلفة تنقطع صلتها بالنبع الأول فينضب ويحذف .

ومن أهم هذه الأسواق : عكاظ ومجنة وذو المجاز :

١ - أما عكاظ : فهى قرية بين نخلة والطائف ، كانت تقام بها سوق تجارية عامة ، وتاريخ إقامة هذه السوق يبدأ من عام ٥٤٠ م ، وكانت تعقد فى أول ذى القعدة إلى العشرين ، وبقيت فى الإسلام ، إلى أن نهى الخوارج عام ١٢٩ هـ . وكانت ميداناً للمنافرة والمماخرة والتجارة وفداء الأسرى وإنشاد القصائد ، وجاء ذكرها فى الشعر العربى ، قال طريف بن تميم :

أوكلا وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى عريفهم يتوهم
وقال النابغة :

أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني تحت المعجاج فاشققت غباري
وقال حسان :

سأنشر إن بقيت لهم كلاما يفرق فى الجامع من عكاظ

وسوق عكاظ سوق عامة كان يحضرها العرب جميعا ، أما الأسواق الأخرى فكانت أسواقا محلية. وعكاظ سمي عكاظا لأن العرب كانت تجتمع فيه فيمكنظ بعضهم بعضاً بالفخار ، وكانوا يتفاحرون في سوق عكاظ إذا اجتمعوا . وعكاظ نخل في واديينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال ، وبه كانت تقام سوق العرب (١) . وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سنة ويتفاحرون فيها ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتنرقون ، وكان هناك صخور يطوفون بها ويحجون إليها ، ولم يكن عندهم أعظم من عكاظ ، قالوا : كانت العرب تقيم بسوق عكاظ شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق بجنة فتقيم فيه عشرين يوما من ذي القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذي الحجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج (٢) . وهذا رأى آخر في زمان انعقادها .

ويروى أن المملكات أنشدت في عكاظ ، ويقول أحمد أمين من مقالة له : كان لعكاظ أثر كبير لغوي وأدبي ، فقد رأينا قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها ، وملك الحيرة يبعث تجارته إليها ، ويأتي التجار إليها من مصر والشام والعراق (٣) ، فكان ذلك وسيلة من وسائل تفاهم القبائل ، وتقارب اللهجات ، واختيار القبائل بعضها من بعض ما ترى أنه أليق بها وأنسب لها ، كما أن التجار من البلدان المتمدنة كالشام ومصر والعراق كانوا يطلعون العرب على شيء مما رأوا من أحوال تلك الأمم الاجتماعية . وفوق هذا كانت عكاظ معرضا للبلاغة ومدرسة بدوية يلقي فيها الشعر والخطب وينقد ذلك كله ويهذب ، قال أبو المنذر : وكانت بعكاظ

(١) وقال الواقدي : عكاظ بين نخلة والطائف وراجع كتاب « قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي الخفاجي وعبد الجبار .

(٢) ٢٠٣ : ٦ معجم البلدان

(٣) يروون أن عبد الله بن جعدان أتى مصر فباع ما معه وعاد إلى سوق عكاظ انظر الأكليل للهمداني جزء ٨ ص ١٨٤ وما بعدها .

منابر في الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعد مآثره وأيام قومه
من عام إلى عام فمنها أخذت العرب أيامها ونفخها ، وكانت المنابر قديمة
يقول فيها حسان :

أولاء بنو ماء السماء (١) نوارثوا دمشق بملك كابر بعد كابر
يؤمنون ملك الشام حتى تمكنوا ملوكا بأرض الشام فوق المنابر (٢)

(١) ماء السماء لقب عامر بن حارثة الأزدي أبو عمرو مزيقياء الذي خرج من
اليمن لما أحس بسيل العرم ، وسمى ماء السماء لأنه كان إذا أجذب قومه ما منهم - أي
كفاهم مؤونتهم - حتى بأنيهم الخصب فكانه خلف من ماء السماء وقيل لولده بنو ماء
السماء وهم ملوك الشام ، والعرب يسمون أيضا بني ماء السماء لأنهم يعيشون بماء السماء
قال الأزهري : السماوة ماء بالبادية وكان اسم أم المنذر ماء السماء فسمته العرب ابن
ماء السماء وهو المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى وأمه ماء السماء وهي
امراة من النمر بن قاسط سميت بذلك لجمالها . ولما ملك كسرى قباذ بن فيروز
خرج في أيامه مزدك فدعا الناس إلى الزنادقة وإباحة الحرم وإن لا يمنع
أحد أخاه ما يريد فدعا قباذ المنذر ليدخل في هذا المذهب فأنف وأبي المنذر هذا
الفعل فطرده قباذ من مملكته ونفاه عن الحيرة ودعا الحرث بن عمرو بن
حجر آكل المرار فأجابه وكان الحرث شديد الملك فشدد له ملكه ، وكانت أم
أنوشروان بين يدي قباذ بما فدخل عليه مزدك فلما رآها قال لقباذ ادفعها إلى لا قضى
حاجتي منها فقال له قباذ دونكما فوثب إليه أنوشروان فلم يزل يسأله أن يهب له أمه
حتى قبل رجله فتركها له فلما هلك قباذ وتولى أنوشروان جلس في مجلسه وأقبل
المنذر إليه وأذن للناس فدخل عليه مزدك ودخل عليه المنذر فقال أنوشروان
كنت أنمى أمنيتين أرجو أن يكون الله تعالى قد جمعهما لي فقال مزدك : وما هما
أيها الملك ؟ قال تمنيت أن أملك فاستعمل هذا الرجل الشريف يعني المنذر وأن أقتل
هؤلاء الزنادقة فقال له مزدك أو تستطيع أن تقتل الناس كلهم فقال إنك لهمنا وأمر
به فقتل وصاب وقتل في ضحوة واحدة من الزنادقة مائة ألف وصابهم وطلب
الحرث فخرج هاربا بجميع ما معه وأخذ المنذر في طلبهم فأخذ من بني آكل المرار
ثمانية وأربعين رجلا فضرب رقابهم ، وألح في طلب امرئ القيس فلمحق بالسموأل

فيقف أشراف العرب يفخرون بمناقبهم ومناقب قومهم في عكاظ .
قام عمرو بن كلثوم خطيباً بسوق عكاظ وأنشد قصيدته المشهورة :
ألا هي بصحنك فاصبحينا (١)

وكان الأعشى يوافي سوق عكاظ كل سنة ، وفيها أنشد هم قصيدته في مدح
المحلق (٢) .

وكان النابغة الذبياني تضرب له قبة آدم بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها
الشعراء ، فيدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى والخنساء ، فيلشدونه جميعاً
ويفاضل بينهم ونقد فيما زعموا قول حسان :
لنا الجنات الغريلمن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجد دما
قال لحسان : قلت العدد ولو قلت الجنان لكان أكثر ، وقلت يلعبن
بالضحى ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل
أكثر طروفاً (٣) .

وفي عكاظ مدح دريد بن الصمة ابن جدعان بعد أن هجاه فقال : إليك
ابن جدعان أعملتها (٤) الخ . وخطب قس بن ساعدة الناس خطبته المشهورة
فذكروهم بالله والموت ورسول الله يسمع له (٥) وكانت الخنساء تشهد الموسم
بعكاظ وتعاظم العرب بمصيبتها في أبيها عمرو بن الشريد وأخوينها صخر
ومعاوية ، وتلشد في ذلك القصائد (٦) ، وعلى الجملة فكانوا في عكاظ يتبايعون
ويتماعون ويخافون ويتفخرون ويتعاجون ، وتلشد الشعراء ما تجد لهم ، فمن هذا
كله نرى كيف كانت عكاظ مركزاً لحركة أدبية ولغوية واسعة النطاق ،
كما كانت مركزاً لحركة اجتماعية واقتصادية .

-
- | | |
|--------------------------|---------------------------|
| (١) الأغاني ٩ ص ١٨٢ | (٢) الأغاني ٨ ص ٧٩ ، ٨٠ |
| (٣) المرجع ٨ : ١٩٤ و ١٩٥ | (٤) الأغاني ٩ ص ١٠ |
| (٥) أغاني ١٤ ص ٤١ و ٤٢ | (٦) صفة جزيرة العرب ص ٣٦٣ |

وكانت القبائل - كما أسلفنا - تنزل كل قبيلة منها في مكان خاص بها ، تتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشراء أو في الحلقات المختلفة . فكان الناس يجتمعون على سرحة ، أو حول الخطيب يخطب على منبر ؛ أو في قباب من آدم تقام هنا وهناك ، ويختلط الرجال بالنساء في الجامع ، وقد يكون ذلك سببا في خطبة أو زواج أو تنادر (١) وكانت تحضر الأسواق - وخاصة سوق عكاظ - أشراف القبائل وكان أشراف القبائل يتوافون بتلك الأسواق مع التجار من أجل أن الملوك كانت ترضخ للأشراف ، لكل شريف بسهم من الأرباح ، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده ، إلا عكاظا فإنهم يتوافون بها من كل أوب (٢).

وكان الأشراف يمشون في هذه الأسواق ملثمين ؛ مخافة أن يؤسروا يوما فيكبر فداؤهم فكان أول من رفع اللثام طريف العبدي ، لما رآهم يطالعون في وجهه ويتفحصون في شمائله قال : قبح من وطن نفسه إلا على شرفه ، وحسر عن وجهه وقال : « أوكلسا وردت عكاظ قبيلة ، إلى آخر الأبيات (٣) ».

وكان على سوق عكاظ كلما رئيس إليه أمر الموسم وإليه القضاء بين المتخاصمين ، قال أبو المنذر : وتزعم مضر أن أمر الموسم وقضاء عكاظ كانت في بني تميم وكان ممن اجتمع له ذلك منهم عامر بن الظرب العدواني وسعد بن زيد بن مناة من تميم ، وقد نخر الخيل بذلك في شعره :

ليالي سعد في عكاظ يسوقها له كل شرق من عكاظ ومغرب

حتى جاء الإسلام فكان يقضى بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع (٤) .

(١) أنظر الأغاني ج ١٠ ص ١٤٥ وما بعدها وج ١٣ ص ١٤٠ وما بعدها

(٢) الأغاني ٤ ص ١٣٦ وما بعدها (٣) الأزمينة والامكنة ٢ ص ١٦٦

(٤) أنظر تعداد من ولي عكاظ في الأزمينة والامكنة ٢ ص ١٦٧ .

ومن العسير جداً أن نحدد بدء عكاظ ، فلم نجد في ذلك خبراً يصبح التعمويل عليه ، يقول الألوسي في بلوغ الأرب : « إنها اتخذت سوقاً بعد الفيل بخمسة عشرة سنة » ، ولكن إذا بحثنا في الأحداث التي رويت في عكاظ وجدنا ذلك غير صحيح ، فهم يروون - كما قدمنا - أن عمرو بن كلثوم أنشد قصيدته في عكاظ ، وعمرو بن كلثوم كان قبل ذلك .

وقد عد المرزوقي في الأزمعة والامكنة من رؤساء عكاظ قبل الإسلام عشرة ، أولهم : عامر بن الظرب العدواني . وهذا - من غير شك - يجعل تاريخ عكاظ أبعد مما يحكى الألوسي بزعمه أن طويل

وظلت سوق عكاظ تقوم كل سنة ، وكانت فيها قبيل الإسلام حروب الفجار وهي حروب أربع ، وكان سبب الأولى المفاخرة في سوق عكاظ ، وسبب الثانية تعرض فتية من قريش لامرأة من بني عامر بن صعصعة بسوق عكاظ ، وسبب الثالثة مقاضاة دائن لمدينه مع إذلاله في سوق عكاظ ، وسبب الأخيرة أن عروة الرحال ضمن أن تصل تجارة النعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ آمنة فقتله البراض في الطريق (١) .

فكلمها تدور حول سوق عكاظ ، وهذه الحروب كانت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بست وثمانين سنة ، وشهد بها النبي وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه ، وقال : كنت يوم الفجار أنبل على عمومي (٢) . واستمرت هذه الحروب نحو أربع سنوات .

واستمرت عكاظ في الإسلام ، وكان يعين فيها من يقضى بين الناس ، فعين محمد بن سفيان بن مجاشع قاضياً لعكاظ ، وكان أبوه يقضى بينهم في

(١) أنظر العقد الفريد ٣ ص ١٠٨ والأغانى

(٢) النهاية لابن الأثير مادة فجر

الجاهلية وصار ذلك ميراثاً لهم (١) :

ولكن يظهر أن هذه الأسواق ضعف شأنها بعد الفتوح فأصبحت البلاد المفتوحة أسواقاً للعرب خيراً من سوق عكاظ ، وصار العرب يغشون المدن الكبيرة لقضاء أغراضهم ، فضعفت أسواق العرب ومنها عكاظ ، ومع ذلك ظلت قائمة وكان آخر العهد بها قبيل سقوط الدولة الأموية . قال السكابي : « وكانت هذه الأسواق بعكاظ ومجنة وذى المجاز قائمة في الإسلام ، فأما عكاظ فأنما تركت عام خرجت الحرورية بمكة مع أبي حمزة المختار ابن عوف الأزدي الأباضي في سنة تسع وعشرين ومائة ، خاف الناس أن ينهبوا ، وخافوا الفتنة فتركتم حتى الآن ، ثم تركت مجنة وذو المجاز بعد ذلك ، واستغنوا بالأسواق بمكة وبمكة وبمكة وآخر سوق خربت سنة ١٩٧ أشار فقهاء أهل مكة على داود بن عيسى بتخريبها وتخريبها وتركتم إلى اليوم (٢) »

فعكاظ عاصرت العصر الجاهلي الذي كان فيه ما وصل إلينا من شعر وأدب ، وجرت فيها أحداث بحياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، ومهدت السبيل قبيل الإسلام لتوحيد اللغة والأدب ، وعملت على إزالة الفوارق بين عقليات القبائل ، وقصدها النبي صلى الله عليه وسلم يثبت فيها دعوته ، وعاصرت الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموي ولكن كانت حياتها في الإسلام أضعف من حياتها قبله ، وبدأ ضعفها من وقت الهجرة لما كان من غزوات وحروب بين مكة والمدينة وبين المؤمنين والمشركين ، فلما فتحت الفتوح رأى العرب في أسواق المدن المتحضرة في فارس والشام والعراق ومصر عوضاً عنها ، ثم كانت ثورة أبي حمزة

(١) الأزمينة والامكنة ج ٢ ص ١٦٧ وما بعدها

(٢) أخبار مكة للأزرق ص ١٢١ و ١٢٢

الخارجى بمكة فلم يأمن الناس على أموالهم فخربت السوق ، وختمت صحيفة
لحياة حافلة ذات أثر سياسى واجتماعى وأدبى (١).

٢ - بحنة : موضع بمهر الظهران ، وكانوا يتنقلون إليها من عكاظ
فيقيمون إلى غاية ذى القعدة .

٣ - ذو المجاز : خلف عرفة وكانوا يقيمون فيها ثمانية أيام من ذى الحجة
ثم يقفون بعرفة في اليوم التاسع .

وبعد فقد كان لهذه الأسواق عملها اللغوى فى الفهم والنقد والإيثار
والاختيار ، ثم فى التبادل اللغوى بين القبائل عامة ، مما كان له أثر كبير فى
تهذيب اللغة .

ثم أنزل القرآن بلغة قريش فجمع العرب عليها وهذبها وجعلها
أفصح اللغات ونشرها فى الدنيا وجعلها لغة عالمية بعد أن كانت لغة العرب
وخدمهم ، وبالقراآن الكريم تمت سيادة لغة قريش على لغات جميع القبائل
العربية الأخرى ولهجاتهم .

اختلاف اللهجات العربية :

١ - كانت اللهجات كثيرة لأن العرب شعوب وقبائل وبطون وأنفاذ
وعشائر وفصائل متشعبة ، وكان لكل قبيلة لهجة تميزها ، وبذلك كثرت
اللهجات العربية وظهر الاختلاف بينها (٢) ، ولكنه كان فى الفروع واللهجات

(١) راجع عكاظ فى اللسانى ٣٢٧ : ٩ ، والعقد الفريد ٣٦٠ : ٣ ، ومجمع
البلدان ٢٠٣ : ٦ .

(٢) واختلاف اللغات - أو اللهجات - يرجع إلى أمور ثلاثة :

١ - تباين اللهجات وتنوع المناطق كاختلافهم فى صيغة اللفظ أو كيفية النطق
وهو المراد هنا .

لا في أصل اللغة ذاتها وكان أثراً للبيئة والمعيشة والحياة والجو . ولم تدون جميع هذه اللهجات (١) ، ولكن بقي ظلمها في اللغة العربية .

ويقول أبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ هـ : « ما لسان حمير وأقصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعريقتنا » ، وكذلك يقول ابن خلدون في مقدمته : « ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر كما هي لغة للعرب لعهدنا » .

وهذا طبعاً تصوير للخلاف الواسع بين العربية والحيرية على عهد ابن العلاء وعهد ابن خلدون ، وهما يقصدان إلى اختلاف اللهجات . وذلك بدى بما ذكرناه .

ب - ومن صور اختلاف اللهجات العربية ما يبدو لك (٢) من :

١ - الكشكشة في لهجة ربيعة ومضر ، وهي : زيادة شين بعد كاف الخطاب المؤنثة في الوقف ، أو في الوقف والوصل جميعاً ، أو جعل الشين مكان هذه الكاف مع كسرها في الوصل وإسكانها وقفاً .
فيقولون في رأيتك : رأيتكش ، أو رأيتش .

٢ - الكسكسة في لهجة ربيعة ومضر أيضاً ، وهي : أن يجعلوا بعد الكاف أو مكانها في خطاب المذكر سينا فيقولون في عرفتك : عرفقس أو عرفتكس ونسبها الحيرى لبكر لالرببعة ومضر ، وجعلها مثل الكشكشة (زيادة شين بعد خطاب المؤنثة) ، ونسبها القاموس لقيم وفسرها بما فسر بها بالحيرى .

٣ - اختلاف الدلالة للفظ الواحد باختلاف اللغات التي تنطق به ومن هذا النوع المترادف والأضداد .

٣ - ما يكون قد انفرد به عربي مع إطلاق العرب على النطق بخلافه وهذا يجوز أن يكون قد دفع لذلك الاعرابي من لغة قديمة طال عليها العهد وبادت آثارها .
(١) وبقيت اللغة مسماة منسوبة إلى أصحابها من العرب عند الرواة والعلماء .
إلى آخر القرن الثالث (١٢٩ الشهاب الراصد)

(٢) راجع ص ٩ وما بعدها ج ١ من تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد دياب

٣ - شلشنة اليمين ، وهى : إبدال الكاف شينا مطلقا ، فيقولون فى لبيلك : لبيش ، وفى كلنى : شلمنى .

٤ - القُطعة فى لغة طىء ، وهى قطع اللفظ قبل تمامه فيقولون : يا أبا الحكا ، فى : يا أبا الحكم .

٥ - الخنازية الشجر و عمان ، وهى حذف بعض الحروف اللينة فيقولون : مشا الله ، فى : ما شاء الله .

٦ - طمطمائية حمير : والطمطممة أن يكون الكلام مشبها لكلام المعجم . والطمطمائية هى : إبدال لام التعريف يما ، ومن ذلك : ليس من أمبر أمصيام فى أمسفر ، وفى اللغة : الطمطم والطمطمائى : الذى فى لسانه عجمة والعبي الذى لا يفصح .

٧ - لفحفة هذيل وهى قلب الحاء عينا مثل : عتى ، فى : حتى .

٨ - عجمة قضاة (١) وهى قلب الياء المتطرفة بعد عين جيا مثل : الساعج ، فى : الساعى .

٩ - غممة قضاة وهى إخفاء الحروف عند الكلام فلا تكاد تظهر

١٠ - عننة تميم وقيس وهى جعل الهمزة المبدوء بها عينا مثل : عننت كريم ، فى : أنت كريم ، والفرنج يعكسون فيقلبون العين همزة فيقولون فى على : إلى .

١١ - الاستنطاء فى لغة سعد والأزد وقيس والأنصار وهو قلب العين الساكنة نونا قبل الظاء نحو : أعطى ، فى : أعطى .

١٢ - تلتلة بهراء من تميم وينسبها ابن فارس إلى أسد وغيرهم وهى كسر أحرف المضارعة ، وقيل كسر تاء تفعلون .

١٣ - وهم كلب وهو كسر هاء الغيبة إذا لم يكن قبلها ياء ساكنة ولا كسرة مثل منهم وعنهم .
١٤ - وكم رببعة وهو كسر كاف الخطاب في الجمع قبل ياء أو كسرة مثل « عليكم » .

١٥ - وتم النين : وهو إبدال السين المهملة تاء مثل النات في الناس .

ج - على أن هناك اختلافات أخرى في اللهجات منها :

١ - إبدال التاء هاء وعكسه في الوقف عند طىء فيقول في فاطمة « فاطمت ، وفي نعمت « نعمه » .

٢ - إبدال الياء ميماً وعكسه مثل « باسمك » مكان « ما اسمك » و « مكر » مكان « بكر » وهو لغة « مازن » ومنها آثار في لهجة أهل مديرية الدقهلية وبعض الغربية حديثاً في مصر .

٣ - وإبدال الحاء هاء مثل « مدهته » في : مدحته .

خصائص اللغة العربية :

تمتاز اللغة العربية بما يأتي :

١ - ثروتها اللغوية ، ففيها أسماء لكل ما تقع عليه العين أو تسمعه الأذن أو يحول في خاطر .

٢ - صيغ المشاركة ، كتناسلوا وتناجوا ، فهي خاصة باللغة العربية ولا توجد في اللغات الأخرى .

٣ - الإعراب ويشاركها فيه كما يقول جورجى زيدان الحبشية والألمانية وكادت الألمانية تتخلص منه ، ويلاحظ أن العربية العامية تخلصت من الإعراب .

٤ - الإيجاز فهو فيها أوضح .

م المجاز والاشتقاق وهما كذلك ظاهران في اللغة العربية .

٦ — الاشتراك وهو دلالة اللفظ الواحد على أكثر من معنى كالعين للماء والذهب والفضة وللبصر ، وهو خاص باللغة العربية . ومشوؤه على الأرجح تعدد القبائل فيكون اللفظ بمعنى عند قبيلة وهو بمعنى آخر عند قبيلة أخرى . وقرائن الكلام والأسلوب توضح المراد من اللفظ .

٧ — التضاد : وهو أن يدل اللفظ على معنيين متضادين كجمال للعظيم والحقير (١) . ومشوؤه كذلك تعدد القبائل ، فتضع قبيلة اللفظ بمعنى ؛ وتضعه أخرى لخصه .

والقرينة فيه أيضا هي التي ترشد إلى المراد .

عوامل نمو اللغة :

وأسباب نمو اللغة كثيرة منها :

١ - الاشتقاق : وهو أخذ كلمة من أخرى مع تشابه في المعنى واتفاق في الأحرف الأصلية وفي ترتيبها . وذلك كأكرم يكرم الخ وهو قياسي .

وأصل الاشتقاق المصدر أو الفعل على خلاف في ذلك ، ويشق من أسماء الأجناس كتذاب الرجل واستأسد . وهذا النوع من الاشتقاق سماعي .

والمراد بالاشتقاق هنا الاشتقاق الصغير طبعاً .

(١) وكلفظ الجون للابيض والاسود ، ولفظ الوئب للعود في لغة حمير . ويروى في أصل المثل « من دخل ظفار حمير ، أن اعرابيا دخل على ملك من ملوك حمير فقال له الملك : « ئب ، يريد : اقمع بلغة حمير ، فوئب الاعرابي ، فسأل الملك عن ذلك فقليل له إن الوئب بلغة العرب هكذا ، فقال أما إنه ليست عندنا عربية ، من دخل ظفار حمير ، أى تكلم بلغة حمير ، وهذا المثل صار يضرب لمن يدخل في القوم فيأخذ برؤسهم .

٢ - المجاز ، وبه يتسع التعبير ، وتظهر البلاغة ، ويتنوع البيان .

٣ - التعريب ، وهو نقل اللفظ من العجمية إلى العربية (١) . وفي القرآن ألفاظ معربة كسجيل ومشكاة وأباريق واستبرق ويم وطور ، وأنكر ذلك أبو عبيدة . وجمع آخرون بين الرأيين بأن الألفاظ أعجمية بحسب الأصل ثم صارت عربية .

وقد نشأ التعريب في اللغة العربية بمجاورة العرب في الجاهلية لسواهم من الأمم كالفرس والروم ، وباختلاطهم بهم في التجارة والحروب والبعوث الدينية وغير ذلك .

٤ - النحت :

وهو أخذ كلمة من كلمتين فأكثر للدلالة بها على معنى ما نحتت منه كحمدل في « الحمد لله » ، « وبسم » في « بسم الله » وعبشمى في « عبد شمس » وفائده الاختصار وزيادة ثروة اللغة وسهولة النطق .

وهو غير قياسي إلا عند ابن فارس ، ومن الألفاظ المنحوتة المولدة : الفذلكة

٥ - التزادف (٢) :

وهو توارد لفظين أو أكثر على معنى واحد كالبر والقمع والليث والأسد ، وينكر بعض الباحثين التزادف في اللغة العربية بدعوى أن كل لفظ من المترادفات يفيد مالا يفيد الآخر والصحيح أنه ورد في اللغة .

والتزادف وسيلة للتعبير والإيضاح والبلاغة وهو ثروة في اللغة وسهولة في النطق .

وسبب التزادف قد يكون تعدد القبائل فتضع قبيلة اسما للشيء وتضع أخرى

(١) ص ٣ شفاء الغليل للخفاجي ط ١٢٨٢

(٢) راجع ٣٠٣ : ١ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ط ١٩٣٥

اسماً آخر له ؛ وقد يكون اختلاف صفات الشيء ، ويرى ابن جنى أنه لا مانع من أن تضع القبيلة للمعنى الواحد ألفاظاً كثيرة . و يروى أن الرسول (ص) قال لأبي هريرة - وكان من قبيلة دوس - : ناولني السكين ، فلم يفهم أبو هريرة ، حتى أشار إليها الرسول (ص) فقال : ألمدية تريد ؟ فقبل له نعم فقال : أو تسمى عندكم سكيناً ؟ ثم قال : والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ .

٦ - الإبدال :

وهو جعل حرف مكان حرف يقرب منه مخرجاً غالباً .
وهو عظيم الأثر في زيادة ثروة اللغة . كمدح ومدح .
ومشوة تعدد اللغات ووضع القبائل ، أو تعدد الوضع من القبيلة الواحدة .
ومن أمثلته : لطم ولد ، ولثم أنف نفسه ورثمه . فاللطم : الضرب بالكف مفتوحة ، واللطم : الضرب بشيء ثقيل يسمع صوته . ولثم أنفه : لثمه .
ورثمه : كسره .

٧ - القلب :

وهو تقديم حرف أو تأخير من حروف اللفظ الواحد مع المحافظة على معناه أو انجرافه قليلاً عن أصله .
وهو الاشتقاق الكبير . ومثاله : سبك وسكب ، وجذب وجبذ وهكذا .
وسببه التحريف أو اختلاف اللهجات أو استعمال القبيلة لها فيما لها مصدر واحد .

فالقلب وروده في اللغة مسلم ، وهو رأى اللغويين والكوفيين ، ويرى ابن درستويه أن مثل هذا لا يسمى قلباً لأن كل لفظ موضوع على حدة وذلك بسبب تعدد وضع القبائل .

ويرى آخرون أن ما كان له أفضل واحد كان من القلب مثل أيس ويثس

وما كان له أصلان معروفان فهو من تعدد اللغات مثل جذب وجذب وهو
مذهب البصريين .

فصاحة لغة قريش :

وبعد فاللغة العدنانية كما سادت على جميع لهجات العرب ، كذلك
سادت لهجة قريش على جميع اللهجات العدنانية ، بما كانت تضيفه إلى لغتها
دائماً من ثروة لغوية بفضل ما أفادته من ذوق لغوي في رحلاتها التجارية
وفي مواسم الحج وفي الاجتماعات العربية في الأسواق وسواها .
ثم جاء القرآن الكريم بلغة قريش فتم لها السيادة على جميع لهجات
العرب .

وقال معاوية يوماً لجلسائه : أي الناس أفصح ؟ فقال رجل من السباط
يا أمير المؤمنين : قوم قد ارتفعوا عن رئة العراق ، وتيامروا عن كسكسة
بكر ، وتيامنوا عن قشقة تغلب ، ليس فيهم غممة قضاة ، ولا طمطمانية
حمير . قال : من هم ؟ قال : قومك يا أمير المؤمنين قريش . قال : صدقت ،
فمن أنت ؟ قال من جرم . قال الأصمعي : جرم فصحاء الناس . وبحق كانت
قريش أفصح العرب كما يقول الجاحظ (١٢٧ / ٣ البيان والتبيين) .

وكانت قريش تسمى آل الله وجيران الله وسكان الله واكتسبوا
منزلة دنيوية وسياسية واجتماعية وأدبية كبيرة مما جعل في العصر الجاهلي للغة
السيادة والغلبة والذوق .

ويقول عبد المطلب بن هاشم :

نحن آل الله في ذمته لم نزل فينا على عهد قدم
لم نزل لله فينا حرمة يدفع الله بها عنا النقم

ويقول عمر بن عتبة : « إن كلامنا كلام يقل لفظه ويكثر معناه ويكتفى
بأولاه ويستشفى بأخراهم ، يتحذر التحذر الزلال على الكبد الحراء ، والله قوم

أدركتهم كما بما خلقوا لتحسين ما قبحت الدنيا ، سهلت ألفاظهم كما سهلت عليهم أنفاسهم .

وقال أبو الحسن : أسرع الناس جواباً عند البديهة قريش ثم بقية العرب .

اللغة العربية ومنزلتها بعد نزول القرآن :

وقد انتشرت اللغة العربية بعد نزول القرآن والفتح الإسلامي في جميع أرجاء العالم ، وأصبح يلجج بها بعد قرن سكان سوريا ومصر وفلسطين وأفريقية الشمالية . وكان الاغريق قد سيطروا من قبل على الشرق الأدنى ، لكن سكانه ظلوا يتكلمون لغاتهم الأصلية منذ فتوح الاسكندر إلى الفتح العربي . ولم تعد اللغة اليونانية خلال عشرة قرون أن تكون لغة الطبقة المثقفة التي تبحث في السياسة والعلوم والآداب .

وحدث بعد مرور قرنين على الفتح العربي أن أعرضت كل هذه الشعوب عن لغاتها الوطنية واعتنقت العربية ، حتى إن المتكلمين بالعربية زاد عددهم عن عدد المتكلمين بالسيرانية في القرن الثالث الهجري .

وقال الدكتور طه حسين في محاضرة له : إن اللغة العربية ميزة لا توجد في اللغة اليونانية ، وهي قوتها وجاذبيتها وقدرتها على زحزحة اللغات الوطنية والمركز محلها ، وهي في العالم الشرقي تشبه اللاتينية في أوروبا الغربية . وقد فعلت في الشرق الأدنى وأفريقيا الشمالية وأسبانيا ما فعلته اللاتينية في أوروبا الغربية ، فللغتين إذا القوة نفسها والمهمة نفسها .

ثم قال . إن أثر الثقافة اليونانية يومئذ لم يكن عميقاً ، وأن أولى الخدمات التي أدتها اللغة العربية للمدنية العالمية ، ولعلمها أعظمها ، هي أنها سهلت للثقافة اليونانية الاتصال بمختلف طبقات الشعب في الشرق الأدنى . ولهذا التعمق في الثقافة اليونانية أهميته الخاصة نظراً إلى أثر هذه الثقافة في العالم . فاللغة العربية لغة عالمية عملت على التعاون بين الأمم والشعوب وهذه اللغة التي

تسكمت بها شعوب الشرق الأدنى في أقل من قرنين انتشرت أيضا في إيران والهند والشرق الأقصى ، وهي وإن لم تتمكن من زحزحة لغات هذه البلاد إلا أنها تركت فيها الأثر البين وهي لغة السياسة كما أنها بصفة خاصة لغة الدين والعلوم والآداب .

وفي خلال ثلاثة قرون أعرض الإيرانيون عن أدبهم الإيراني ونادبوا بالأدب العربي وكثيرون من كبار شعراء العربية هم من أصل إيراني أمثال بشار وأبو العتاهية وسواهما . وهكذا تمكنت العربية ، هذه اللغة البدوية ، في بعض الوقت ، من زحزحة لغة عريقة كالإيرانية التي صمدت في وجه اللغة اليونانية .

واللغة العربية لم تقتصر على الزحزحة والاحتلال ، بل إنها أخذت تغني الشعوب التي اعتنقتها عن لغاتها الأصلية ، وقد فتحت صدرها للفلسفة اليونانية وللحكمة الهندية والإيرانية ، وللسياسة الإيرانية ومدنية اليونان والهند وإيران ، وأصبحت العربية لغة تعاون بين الشعوب ، وخاصة بين الذين لم يتمكنوا بغير واسطتها من الاتصال والتفاهم . واللغة العربية هي الأولى في التاريخ التي أوجدت التعاون بين العالمين الشرقي والغربي ، وهذا عمل كبير وجليل .

وقد استطاعت العربية أن تحتفظ مكانها بوصفها لغة مدنية حتى في عالم اليوم ، عالم القرن العشرين .

الأدب العربي ودراساته

أدب اللغة العربية ماثور شعرها الجميل ونثرها البليغ المؤثر في النفس المثير للعواطف ، وما يتصل به مما يعين على فهمه وتذوقه ونقده من لغة وأخبار وأيام وأنساب ونحو ذلك مما قد تمس الحاجة إليه في فهم الأدب ، كالإلمام بأطراف من الفلسفة ومذاهبها والملك والعقائد والنحل ، فإن مثل هذه الألوان من المعارف تتردد كثيراً في النصوص الأدبية كما نجد ما في شعر أبي العلاء والمتنبي وغيرهما ، والأدب صورة الحياة ومرآتها . تتمثل فيه جوانب النهضة ، ومظاهر المدنية ، وأدوات الحضارة ، وألوان الثقافة ، ومرافق الحياة ، ونوازع النفوس . لكل أمة من الأمم في كل عصر من العصور ، ولهذا يقول ابن خلدون : « الأدب حفظ أشعار العرب وأخبارها والآخذ من كل فن بطرف (١) » . ويقول ابن قتيبة : من أراد أن يكون عالماً فليلزم فناً واحداً ومن أراد أن يكون أدبياً فليتسع في العلوم .

وعلى هذا النحو تجد أمهات الكتب الأدبية كالآغاني والأمالى والكمال والعقد الفريد والبيان والتبيين .

ولقد كان منهج المؤلفين من أدباء العربية في كتبهم ترجمة الأدباء والشعراء والعلماء ، ورواية آثارهم الأدبية ونقدها أو شرحها وتحليلها ، وقد يوازنون بينها وبين غيرها من الآثار ، مع الإلمام ببعض أصول الأدب والشعر ،

(١) المقدمة ٤٨٨ - ويلاحظ أن هذا ليس تعريفاً للأدب بمعنى هذه النصوص التي ندرسها وننشرها ، وإنما هو في الواقع تعريف لما يسمى التأديب أو تحصيل الثقافة العامة اللازمة لإنشاء الأدب وفهمه ونقده .

ونحو ذلك مما نجده مبثوثاً مفرقاً في كتبهم الكثيرة ، أو مجتمعاً قليلاً في بعض الكتب . وقد برزوا في هذه النواحي تبرزاً قوياً ظهر في كتبهم ، كوفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات للكتبي ، وبغية الوعاة للسيوطي ، ومعجم الأدباء إياقوت ، والأغاني لأبي الفرج ، وقيمة الدهر للثعالبي ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ، ونفح الطيب للمقري ، والعمدة لابن رشيق ، والمثل السائر لابن الأثير ، والمقدمة لابن خلدون ، والموازنة للأمدى وغيرها .

غير أن ما في هذه الكتب لا يعدو - في الجملة - أن يكون أخباراً مفردة غير مرتبطة ، لا تحدد عصرأ من العصور . ولا تصور الحياة الأدبية قوة وضعفاً في زمن من الأزمنة ، ولا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة في الصنعة والمذهب ، ولا تذكر ماعرا النثر والنظم من تحول وتقلب ، فهي أدب لا تاريخ أدب .

وجاء المستشرقون فجمعوا هذه المسائل المفرقة ، واستمدوا منها أصولاً أعانتهم على بحث تاريخ أدب العرب على ضوء بحوثهم في تاريخ أدبهم فقد بحثوا عصور الآداب العربية ، وردوا إلى كل عصر آثاره الأدبية ، وحلوا المؤثرات العامة التي أثرت في كل فترة قوة أو ضعفاً ، وعنوا بدراسة أعلام الأدب وبيان مذاهبهم ، وما يكون من تأثير القديم في المحدث ، وما يكون من المشابهة والفروق التي تباعد بين الشعراء والكتاب أو تقربهم ، وغير ذلك من الدراسات التي لم يعهد لها أدباء العرب والتي نسميها نحن الآن « تاريخ الأدب العربي » .

فتاريخ أدب اللغة إذن علم يبحث عن أحوال اللغة وآدابها ، ويصور ما يختلف عليها من رقي وانحطاط في مختلف العصور والأطوار ، ويعنى بتاريخ النابهين من أهل الصناعتين ونقد مؤلفاتهم وتأثير بعضهم في بعض بالفكر والصناعة .

وهو إذن علم حديث الدشاة ، ابتدعه الإيطاليون في القرن الثامن عشر ،
وعنى به المستشرقون في القرن التاسع عشر ، وقد ظل مجهولاً في الشرق حتى
اشتد خلطه بالغرب ، فكان أول من نقله إليه المرحوم الأسناذ حسن
توفيق العدل على أثر عودته من ألمانيا وقيامه بتدريسه في دار العلوم ،

ثم تتابع المؤلفون على هذا المنهج كالإسكندري في الوسيط وجورجي
زيدان في (تاريخ آداب اللغة العربية) والرافعي في (تاريخ آداب العرب)
والزيات في (تاريخ الأدب العربي) وغيرهم من أساتذة الجامعة والأزهر .

أما كتابا « الوسيلة الأدبية للرصفي » و « المواهب الفتحية » لمحة
فتح الله ، فهما على نهج الكتب القديمة ، وهى كما ذكرنا من كتب الأدب
لا من كتب تاريخ الأدب . لأن الأدب كما رأينا هو نفس النصوص الشعرية
والنثرية ، وتاريخه هو العلم الذى يبحث فى أحوال هذه النصوص وأطوارها
والعوامل السياسية والاجتماعية والإقليمية التى أثرت فيها ،

وهكذا نرى تاريخ الأدب يتصل بالتاريخ العام من حيث حاجة كل
منهما إلى الآخر ، فالتاريخ السياسى يحتاج إلى تاريخ الأدب فى استظهار بعض
الصور الأدبية التى تتصل بالأخلاق بما يعينه على تحليل التقلبات السياسية
ونحوها . والتاريخ الأدبى يحتاج إلى التاريخ السياسى فى استنباط الصورة
الأدبية الصحيحة بما يعرضه الأخير من النظم السياسية والاجتماعية
المؤثرة فى الأدب وفى حياة الأديب أو الشاعر ، فكلاهما متأثر بالآخر
مؤثر فيه ،

هذا ومؤرخو الأدب يقسمون عصور تاريخ الأدب العربى إلى أقسام ، حسب
الخصائص الفنية لكل مجموعة من الآثار الأدبية متأثرة بمؤثرات خاصة من
النظم الاجتماعية والسياسية والدينية . وهذه الأقسام هى : العصر الجاهلى
ويقدرونه بقرن ونصف قبل الإسلام ، وعصر صدر الإسلام من البعثة
إلى سنة ٤١ هـ والعصر الأموى من ولاية معاوية سنة ٤١ هـ إلى سنة ١٣١ هـ

والعصر العباسي من سنة ١٣٢ هـ إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، ثم عصر الدول المتتابعة حتى بدء حكم محمد علي سنة ١٢٢٠ ثم عصر النهضة الحديثة من محمد علي إلى اليوم .

وهذان الواقعان تقسيم تقريبي مبني على مسايرة اللغة العربية للانقلابات السياسية والاجتماعية ، إذ الواقع أن هذه العصور متداخلة ، نظراً لأن هذه المسايرة تكون بطيئة ، وتأثر الأدب بهذه الانقلابات يكون تدريجياً ، بعد أن تشبع نفوس الأدباء بالأحداث الجديدة .

- ٣ -

وينقسم الأدب إلى إنشائي ووصفي ، فالأدب الإنشائي هو ما تعبر به من شعر أو نثر عما تحس به من الخواج والعواطف والخواطر نحو الطبيعة سواء أكانت هذه الطبيعة داخلية تحسها في نفسك وتجدها في قلبك ؟ متمثلة في عواطفك وميولك وأهوائك ، أم خارجية تراها في الجبال والبحار والسماء والنجوم والرياض والأحداث المختلفة . فإذا هزك منظر من مناظر الطبيعة بأوراقك مشهد من مشاهدنا ، أو اختلجت نفسك بعاطفة من عواطف الحب أو البغض أو الرناء أو الازدراء ، وصورت ما أحسسته وشاهدته تصويراً ملائماً للموضوع ، فإن هذا التصوير الذي يتمثل في شعرك أو نثرك يسمى أدباً إنشائياً ، لأنك أنشأته بعد أن لم يكن ، وارتجلته مقلداً به الطبيعة التي يظهر ابتسامها وغضبها مثلاً في غصف الريح وقصف الرعد واضطراب البحر ، ويتجلى ابتسامها ورضاها في ضوء الشمس وعرف الزهرة وتغريد الطائر . وإذن فموضوع الأدب الإنشائي الطبيعة داخلية أو خارجية .

أما الأدب الوصفي فهو ما يتناول القصيدة أو الرسالة من الأدب الإنشائي بالوصف والنقد والتقرير ، فيثني عليها ويظهرها إن رضى عنها ،

وينقدها ويعيها إن بخط عليها . فهذا النقد أو التقرير لا يصور الطبيعة تصويراً مباشراً ، ولا يصور تأثير صاحبه بها ، وإنما يصف الكلام الذي قيل في تصوير الطبيعة ، فموضوعه إذن هو الكلام لا الطبيعة : القصيدة التي تصور البحر لا البحر نفسه .

فالآدب الوصفي إذن هو الذي نسميه نقداً ، ولا شك أنه وجود بعد الآدب الإنشائي ، وتستطيع أن تدخل فيه تاريخ الآدب ، إذ كان يعالجه هذا التاريخ الموازنة والخصائص الفنية ونحوها .

وبهذا تستطيع أن تقسم الآدب الوصفي إلى قسمين : أحدهما النقد الذي يبين ما يمتاز به الآدب الإنشائي من المحاسن والعيوب ، والآخر تاريخ الآدب ، وقد عرفت مهمته في بيان أحوال الآدب وأطواره .

- ٤ -

وينقسم الآدب كذلك إلى ذاتي وموضوعي .

فالآدب الذاتي هو الذي يعبر فيه الأديب عن خواطره ومشاعره وآرائه وأحاسيسه وتأملاته ، فالشعر الغنائي - وهو قسم التمثيلي والقصصي - من الآدب الذاتي لأن الشاعر يتغنى فيه بعواطفه الذاتية وخواجله النفسية وآماله وآلامه ، وليس معنى هذا أنه مجرد من الصبغة الموضوعية ، بل معناه أن الصبغة الذاتية هي الراجحة فيه .

والآدب الموضوعي هو ما لا يعبر به الأديب عن عاطفته أو ميوله الخاصة ولا ينطق بلسان نفسه ، وإنما يعبر به عما يحول عما يحول بخواطر غيره فالآدب التمثيلي والقصصي من الآدب الموضوعي ، لأن الشاعر أو الكاتب إنما يعبر فيهما عما يحول بخواطر الأشخاص الذين يتحدث عنهم ويعبر عن آرائهم وينطق بلسانهم ، فهو كالمؤرخ يسرد الحادث التاريخي في أسلوب بليغ دون أن يصيغ عباراته بنزاهته وميوله وآرائه الخاصة .

الباب الثاني

النثر الجاهلي

معنى الجاهلية :

يسمى العهد الذى كان قبل بعثة الرسول صلوات الله عليه العصر الجاهلى .
وقد وردت نصوص إسلامية كثيرة فيها لفظ « الجاهلية » . من ذلك قول
عمر رضى الله عنه : إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة ، وقول عائشة
رضى الله عنها : كان النكاح في الجاهلية على أربعة أتحاء ، وقولهم : يا رسول الله
كننا في جاهلية وشر ، وقالوا : شاعر جاهلي ، وقال رسول الله صلوات الله عليه
أربعة في أمي من أمر الجاهلية . كل ذلك من الجهل ، ضد العلم والمعرفة ، أو بمعنى
السفه والطيش والإثم ، أو بمعنىهما جميعاً ، ثم قيل جاهل بهذا المعنى أو ذاك أو
ذلك ونسب إليه ، وأصبح ذلك علماً على العصر الذى كان في شبه الجزيرة
العربية قبل مبعث محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا الاسم حدث في
الإسلام كما يقول ابن خالويه (١) .

وسنتحدث هنا عن الأدب العربي في العصر الجاهلي وما كان عليه شعراً
ونثراً ، وعن أعلام الأدب وحياتهم وأدبهم .

الشعر والنثر :

والأدب الجاهلي ، أرقل الأدب على الإطلاق قسمان : شعرونثر :
فالشعر هو الكلام الموزون المقفى ، والنثر هو ما خلا من الوزن والتقفية

(١) راجع ص ١٥ من كتاب عادات العرب في جاهليتهم ط القاهرة ١٩٢٤
وراجع في هذا البحث الشباب الراصد ص ٤٩ ط ١٩٢٦ .

والشعر يعتمد على الخيال والعاطفة ، ويشير الشعور والوجدان ، والنثر غالباً ما يعتمد على الحقائق ويركن إلى صدق التعبير ، وقد يعتمد على الخيال ويعتمد إثارة العواطف ، ويصاغ في أساليب شبيهة بأساليب الشعر فيسمى شعراً منشوراً .

والنثر نوعان : أحدهما ما يدر في كلامنا المألوف إذا تحدث الناس بعضهم إلى بعض في حاجاتهم ومصالحهم فيرسلونه إرسالاً على سجيتهم وعلى ما تدعو إليه الحاجة والمصلحة ، وهذا ما نسميه لغة التخاطب ، وهذا لا يعنى به الأدب وليس قسماً منه ، فليس شعراً ، وهو في الوقت نفسه ليس هو النثر الذي يحفظ ويروى ويتأدب به الذي هو أحد قسمي الأدب ، وإنما هو كلام عادي لم يقصد أصحابه فيه غالباً إلى الإجادة ولا إلى جمال فني وإنما أرادوا تأدية ما في نفوسهم من المعاني وتحقيق ما تقتضيه منافعهم من الأغراض .

والثاني هو ما يسمى نثراً فنياً وهو ما حوى أفكاراً منظّمة ، في عرض جميل جذاب وصياغة جيدة السبك فصيحة الأسلوب ، وهذا هو الذي يعد قسماً للشعر في باب الأدب ، وأهم أنواعه : الخطابة ، والكتابة الفنية . والكتابة عند الأوروبيين : وصف أو قصص ، وعند العرب : رسائل وقصص ومناظرة وجدل وتاريخ . وسنتكلم على مظاهر الأدب في العصر الجاهلي بالتفصيل .

ولكن هل الشعر هو السابق في الدشأة الأدبية أو النثر الفني ؟

يرى الدكتور طه حسين ومن اتبعه مقلدين في ذلك بعض المستشرقين كالمسيو مرسيه الفرنسي أن الشعر أسبق في الوجود من النثر الفني (١) . ويستدلون على ذلك بما يأتي (٢) :

(١) راجع ص ٣٣ : ١ النثر الفني لذكى مبارك

(٢) ص ١٠ - ١٢ - ١٧٢ وما بعدها التوجيه الأدبي ط ١٩٤٠ - الباب السابع

(ا) الشعر في آداب الأمم الأوربية سابق على النثر فعند اليونان كانت قصائد هوميروس تلشد ويتغنى بها قبل أن يؤلف كتاب أو يظهر نثر فني ، وفي الأدب الإنكليزي ترى أن أقدم الآثار الأدبية عند الإنكليز القدماء القصائد التي تصف أعمال دييواف ، وهي ترجع إلى القرن السادس أو السابع الميلادي . فقد ظلت الأمم تتمتع بأدب الشعر قبل أن يلشأ فيها أدب النثر .

(ب) كثرة الشعراء في العهد الأول لأدب أي أمة من الأمم وزيادتهم زيادة بيّنة على كتاب النثر .

(ج) ومن أقوى الأسباب التي قدمت نشأة الشعر على نشأة النثر في رأيهم أن الأدب المنشور يتطلب معرفة بالكتابة والكتابة متأخرة في تاريخ كل أمة فقصاصد هوميروس انتشرت وذاعت وتناقلها الناس قبل أن تذيع الكتابة وكذلك روى الرواة الشعر العربي القديم قبل أن تذيع الكتابة ، وملشىء الأدب المنشور لا بد له من تدوين ما يخطر له .

(د) الشعر يعتمد على الخيال في حين يعتمد النثر الفني على المنطق والتفكير والخيال يسبق التفكير في حياة الأفراد والجماعات (١)

(هـ) الجماعات الساذجة نجد عندها كلاماً موزوناً دون أن نجد عندها نثراً فنياً صحيحاً .

(و) الشعر متصل بالغناء فالناس يغنون شعراً قبل أن يغنوا نثراً لأنهم

= من كتاب أصول النقد الأدبي للشايب ، ٣٦٤ - ٣٦٨ من كتاب الأدب الجماهلي لطف حسين . وراجع في ذلك البحث : الطبع والصعقة للهياوى ٣٧ : الحيوان للجاحظ .

(١) ويبدو لي أن نظرية سبق الشعر للنثر أخذها المستشرقون من كتاب الشعر لأرسطو ، ففي الشفاء - فن الشعر - ما نصه : التخيل أسبق في الزمن من التصديق فالناس أول ما يسمعون إنما يسمعون الأمثال الشعرية التي فيها مشاكلة للاقوال التخيلية ثم يتدرجون إلى الخطابة ثم إلى البرهان (الشفاء فن الشعر)

يحددون في الشعر أوزاناً تلائم تقطيع الغناء وأنغامه (١)

أما الدليل الأول فلا يدل على شيء ، بل إن دل فإنما يدل على ضياع النثر لعدم تدوينه وبقاء الشعر لأنه يعلق بالحافظة ويمتد بالرواية .

ومن أجل ذلك بقي الشعر وأخبار الشعراء معروفة لم يحذف عليها النسيان وهو السبب في كثرة الشعراء في العصور الأولى من عصور آداب الأمم كثرة كبيرة وفي زيادتهم على الكتاب ورجال النثر ، وبذلك نجد الدليل الثاني منهاجراً .

والعدم وجود الكتابة في العصور القديمة التي هي وسيلة لتخليد النثر الفني ضاع أغلب ما لدى الأمم من نثر فني ، فكيف إذا استدلون على سبق الشعر للنثر باحتياج الأدب المنشور للكتابة في تدوينه ، وبذلك نجد الدليل الثالث لا يكاد يسير نحو الهدف خطوة واحدة .

وزعمهم أن الشعر يعتمد على الخيال والنثر على المنطق والتفكير صحيح في الأول مبالغ فيه في الثاني ، فلم لا يكون النثر الفني في بدء نشأته قد اعتمد على الخيال أيضاً كالشعر ، ولم لا يكون هذا النثر قد اعتمد على المنطق والتفكير على حسب عقلية الأمة وثقافتها ومقدار تفكيرها في هذه العصور القديمة ، وبذلك نجد الدليل الرابع لا يؤدي إلى غاية .

وأما أن الأمم التي لم تصعد درجة في الحضارة لها شعر وليس لها نثر فني خطأ في الرأي ، فإن هذه الجماعات الساذجة يوجد بجانب ما لديها من شعر نثر ملائم لعقلياتها ومظهره الأمثال والحكم والتجارب والنصائح ، وذلك

(٢) ويرى المستشرقون أن كلمة شعر مأخوذة من اللغة العبرية من كلمة « شير » بمعنى الترتيلة أو التسيبحة القدسية ويرجحون ذلك بأنه لم يرد في العربية شعر بمعنى القصيدة وكل ما فيها : شعر أي قال الشعرو في اللغة الانجليزية كلمة Bozd معناها الشاعر المغنى وكان الأعشى صناجة العرب لأن شعره كان يتغنى به (٦٩) لجر الاسلام ٢٧٧ الزيات والتوجيه الأدبي

يشاهد كثيرا في بيئةنا المصرية العامة التي يمثل بها هؤلاء تأييدا لرأيهم من سبق الشعر للنثر وبذلك لا يمكننا التعويل على الدليل الخامس .

وأما أن الشعر غنى به من قديم قبل أن يغنوا نثرا فمما ذلك أن الشعر أصلح للغناء من النثر لموسيقاه وقافيته ، فكيف يتركونه ويغنون بنثر فنى لا يلائم الغناء .

والحق أن النثر وجد أولا ثم تحول إلى النثر الفنى ، ثم نشأ بعد ذلك الشعر ، ويؤيد هذا الرأي إجماع كثير من المستشرقين على أن السجع كان المرحلة الأولى التي عبرها النثر إلى الشعر فى الأدب العربى القديم .

ويؤيده أيضا وجود السكتب الديلية السماوية من قديم الأجيال فى الأمم التى أنزلت لها ، وذلك قبل أن نسمع بالشعر والشعراء . ولعل هذه السكتب هى التى أدت إلى نشأة النثر الفنى فى العصور القديمة البعيدة قبل أن يوجد الشعر بزمان طويل .

ويؤيده أيضا إجماع الباحثين أو شبه إجماعهم على أن النثر أسبق من الشعر (١)

* * *

وبعد فالنثر مرسل ومزدوج ومسجوع .

فالمسجوع كما فى سورة الكوثر ، والسجع هو ما اتحدت فاصلته أو فواصله فى الحرف الأخير مثل : من عاش مات ، ومن مات فات .

والمزدوج هو ما اتحدت فواصله فى وزنها لافى الحرف الأخير منها - بما نسميه تقفية ، مثل قوله تعالى : ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة . ويسمى هذا الموازنة عند علماء البديع ، فإن اتحدت الفواصل وزناً وتقفية عد من السجع فى الراجح وعده بعضهم من المزدوج .

والمرسل هو ما خلت فواصله من الاتحاد فى الوزن والقافية معا مثل :

(١) راجع ١٧ تاريخ الأدب العربى للزيات وسواه .

وإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت . الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف ،

هذا وينكر بعض المستشرقين ومن تابعهم وجود نثر فني جاهلي لأن عيشة العرب الأولين لم تكن توجد النثر الفني لأنه لغة العقل ، على حين سمعت بالشعر لأنه لغة الخيال والعاطفة ، وهذا الرأي خطأ ، بدليل ما يأتي :
(أ) كان عند كثير من الأمم القديمة كالفرس والهنود وقدماء المصريين نثر فني قبل الميلاد بكثير فلم لا يكون للعرب نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون ؟
(ب) وجود الكتب يستدعي وجود نثر فني .

(ح) بقاء بعض من النثر الجاهلي في مصادر الأدب العربي وأهماته كنبه كالإغاني والأمالى وسواهما ، أما الكثير منه فقد ضاع لعدم تدوينه بالكتابة التي لم تكن معروفة في الجاهلية إلا للقليل النادر من الناس (١)

* * *

هذا والنثر الجاهلي ينقسم إلى أمثال وحكم ووصايا ، وخطب ، ومنافرات ، ومفاخرات ، ومحاورات ، ونثر الكهان .

وسلتكم عن هذه الألوان الأدبية إن شاء الله تعالى (٢)

(١) هذا وينكر طه حسين كل ما يضاف إلى عرب الجنوب من نثر في الجاهلية ، لأن النثر المروي لنا إنما جاء بلغة قريش التي لم يكن لهم بهلم علم ولأنه كان لهم لغة معروفة كتبوها وتركوا لنا فيها نصوصا منثورة كشفها المستشرقون وهي لا توافق لغة قريش غنى شيء فكل ما يضاف إلى اليمنيين عنده من نثر مرسل أو مسجوع أو خطابة في الجاهلية منتحل . أما عرب الشمال فيرى رفض ما يضاف إلى ربيعة وغيرها من عرب العراق والبحرين والجزيرة من نثر ، ويتردد فيما ينسب إلى مضر وهذا هو موقفه بالنسبة للشعر الجاهلي أيضا

(٢) راجع ٣٦٤ - ٣٧٥ الأدب الجاهلي طه حسين في الكلام على النثر الجاهلي . ومن ٨٦ - ١١٣ من كتاب الأسلوب للشايب في الكلام على أساليب النثر . والباب السابع في النثر من كتاب النقد الأدبي للشايب .

مميزات النثر الجاهلي

- ١ -

يمتاز النثر الجاهلي في معانيه بما يأتي :

- ١ - الصدق والسذاجة والبساطة وعدم المبالغة أو الغلو
- ٢ - عدم التعمق في المعاني أو تعقيدها أو التركيب والمزج بينها ، لأنهم كانوا في بداءة تامة في حياتهم وتفكيرهم وكل شئون معيشتهم .
- ٣ - معانيهم مستمدة من بيئتهم وحياتهم ، ومنطلقة مع الحرية التي ألفتهم وألفوها ، وهي بدوية كلون حياتهم ، تنطق عن فطرة البداءة وتفكيرها وإحساسها .
- ٤ - كثرة الحكيم والأمثال في نثرهم
- ٥ - تفكك المعاني وكثرة الانتقال بينها

- ٢ -

ويمتاز النثر الجاهلي في أغراضه بأنه كان يلقي في :

- ١ - الدعوة إلى الانتقام والأخذ بالثأر وإشعال نار الحرب . أو الدعوة إلى الصلح والسلام .
- ٢ - المفاخرة والمنافرة والمحاوره والسكھانة ،
- ٣ - وصف مشاهد الحياة ومظاهرها في الصحراء .
- التوصية بفعل خير أو إسداء معروف أو سلوك نهج محمود أو بعد عن خطئة مذمومة .
- ٥ - الوفاة علي الأمراء والملوك الي غير ذلك من شتي أغراض النثر

في العصر الجاهلي : كالتبشير بلبي جديد ، أو النهي عن الرذائل والآثام .

- ٣ -

أما ألفاظ النثر الجاهلي فيبدو عليها السذ والبداوة ، فأحيانا سهلة رقيقة . وأحيانا وحشية وغريبة ، ولم يكونوا يتأنقون في اختيار اللفظ ذي النعمة المتشابهة أو الجرس المتآلف ، ويندر استعمالهم للألفاظ الأعجمية في نثرهم إلا قليلا منهم من اتصلوا بالفرس وسواها من الأمم القديمة .

وأسلوب النثر الجاهلي يمتاز : بالخلو من اللحن والإيجاز ، وقلة المترادف ، وإيثار الكتابة القرينية على التصريح ، وبقصر الجمل غالبا ، وخاصة في الحكم والأمثال وسجع السكهان ، كما يمتاز بعدم التكليف في الصياغة والأسلوب ، وإهمال الربط بين الجمل وعدم قصد المحسنات البديعية أو تعمدتها ، وكلامهم يخلو منها إلا نادرا وعن غير عمد أو قصد . وفي أسلوبهم الجزالة والقوة وشدة الأسر ، والوضوح : والقرب إلى الذوق الأدبي المطبوع .

أمثلة للنثر الماثور في العصر الجاهلي

- ١ -

من النثر الفني في العصر الجاهلي هذه القطعة التي رواها القسالي عن ابن السكبي عن أبيه قال (١) :

كان قيل من أقيال حمير منع الولد دهرأ ، ثم ولدت له بنت ، فبنى لها قصرأ منيفأ بعيدأ من الناس ، ووكل بها نساء من بنات الأقيال يخدمنها ويؤدبنها ، حتى بلغت مبلغ النساء ، فلشأت أحسن ملشأ وأتمه في عقلها وكملها ، فللبس مات أبوها ملكها أهل مخلافها (٢) . فاصطنعت اللسوة اللواتي ريبنها وأحسنن إليهن وكانت تشاورهن ولا تقطع أمرأ دونهن . فقلن لها يوما : يا بنت السكرام لو تزوجت لثم لك الملك ، فقالت : وما الزوج ؟ فقالت إحداهن : الزوج عز في الشدايد ، وفي الخطوب مساعد ، إن غضبت عطف ، وإن مرضت لطف . قالت : نعم الشيء هذا . فقالت الثانية : الزوج شعاري حين أصرد (٣) ؛ ومتكئ حين أرقد ، وأنسى حين أفرد ، فقالت : إن هذا من كمال طيب العيش - إلى آخر هذه القطعة الطويلة الجميلة الساحرة .

- ٢ -

وعن أبي عبيدة قال (٤) :

كان قيس بن رفاعه يقد سنة إلى النعمان اللخمي بالعراق وسنة إلى الحارث ابن أبي شمر الغساني بالشام ، فقال له يوما وهو عنده : يا ابن رفاعه ، بلغني أنك تفضل النعمان على ، قال : وكيف أفضله عليك أبيت اللعن ؟ فوالله لقفاك أحسن من وجهه ، ولأملك أشرف من أبيه ، ولأبوك أشرف من قومه ، ولشمالك أجود من يمينه ، ولحرمانك أنفع من نداه ؛ ولقليلك أكثر

(١) ١: ٨٠ الأمل (٢) المخلاف : السكورة (٣) أي أبرد (٤) ١: ٢٥٧ الأمل

من كثيره ، ولكرسيك أرفع من سريريه ، ولجدولك أخضر من بحوره ،
وليومك أفضل من شهوره . ولزندك أوري من زنده ، ولجندك أعز من
جنده ، وإنك لمن غسان أرباب الملوك ، وإنه لمن لحم الكثيرى النوك (١) ؛
فكيف أفضله عليك ؟ .

— ٣ —

وعن العباس بن هشام عن أبيه قال (٢) :

كان قس بن ساعدة ينفذ على قيصر ويؤره ، فقال له قيصر يوما :
ما أفضل العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه ، قال : فما أفضل العلم ؟ قال :
وقوف المرء عند علمه ، قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء
وجهه ، قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحقوق .

— ٤ —

ومن المثل كذلك ما قالته وفود العرب في تعزية سلامة ذى فائش
بأبيه (٣) ومنها :

قال الملقب : أيها الملك ، إن الدنيا تجود لتسلب ، وتعطى لتأخذ ، وتجمع
لتشتت ، وتحمل لتمر ، وتزرع الأحزان في القلوب بما تفجأ به من استرداد
الموهوب . وقد تناهت إليك أنباء من رزى فصبر ، وأصيب فاغتر الخ .

— ٥ —

واجتمع (٤) عامر بن الظرب العدواني وحممة بن رافع الدوسي (٥)
عند ملك من حمير فقال : تساءلا حتى أسمع ما تقولان ، فقال عامر لحممة :

(١) أى الحق (٢) ٢:٣٧ الأماي (٣) ٢:٩٩ الأماي

(٤) ٢:٢٧٦ الأماي

(٥) وكان أبوه صمرو أحد من تتحاكم اليه العرب (٢:١٤٣ الأماي)

من أجدر الناس بالصدقة ؟ قال : من إذا أعطى شكر ، وإذا منع عذر ،
وإذا موطن صبر ، وإذا قدم اليهود ذكر ، قال : من أكرم الناس عشرة ؟
قال : من إن قرب منح ، وإن بعد مرج ، وإن ظلم صفح ، وإن ضيق سمح
قال : من أحكم الناس ؟ قال : من صمت فادكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ
فازدجر الخ .

وكان هوزة بن علي الحنفي يهجر لطيمة كسرى في كل عام (والطيمة عير
تجمل الطيب والبر) فوفد على كسرى ، فسأله عن بنيه ، فسمى له عددا . فقال :
أيهم أحب إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يرجع ، والمريض
حتى يفيق ، فقال له : ما غذاؤك في بلدك ؟ قال الخبز . فقال كسرى لجلسائه :
هذا عقل الخبز ، فيفضله على عقول أهل البوادي الذين غذاؤهم اللبن والتمر (١) .

ويروى (٢) أنه لما بلغ الحارث (٣) بن عمرو ملك كندة جمال ابنة عوف
ابن محم الشيباني ، وكما لها قوة عقلها ، دعا امرأة من بنى كندة يقال لها عصام
ذات عقل ولسان وأدب وبيان ، وقال لها : اذهبي حتى تعلمي لي علم
ابنة عوف .

فحضت حتى انتهت إلى أمها ، فأعلمتها ما قدمت له ، فأرسلت إلى ابنتها ،
وقالت : أي بلية ؛ هذه خالتك أتت لتنظر إليك ، فلا تستري عنها شيئا
أرادت النظر إليه من وجهه وخلق ، وناطقها إن استنطقتك .

(١) ص ٩٧ مختار المقدم الفريد ١٩١٠

(٢) مجمع الأمثال ص ١٩٢ ج ٢ ، المقدم الفريد ص ٢٢٣ ج ٣ ، ٣٢٧ مختارات

المقدم (٣) من أشرف العرب في الجاهلية ، كانت مطاعاً في قومه ، قوياً في
عصبية ، وكانت تضرب له قبة في عكاظ ، توفي نحو ٤٠ ق . هـ

فدخلت عصام إليها ، فنظرت إلى ما لم تر عينها مثله قط بهجة وحسناً
وجمالات ؛ فإذا هي أكمل الناس عقلاً ، وأفصحهم لساناً ، فخرجت من عندها
وهي تقول : ترك الخداع من كشف القناع .

ثم أقبلت إلى الحارث ، فقالت لها : ما وراءك يا عصام ؟ قالت : صرح المخض
عن الزبد (١) . قال : أخبريني . قالت : أخبرك صدقاً وحقاً :

رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة ، يزينها شعر حالك كأذ ناب الخيل المضفورة ،
إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد كرم جلاها الواابل (٢) ،
وحاجبين كأنهما خطا بقلم ، أو سودا بحمم (٣) ، قد تقوسا على عين الطيبة
المهيرة (٤) ، التي لم يرعها قانص ، ولم يذعرها قسورة (٥) ، بينهما أنف
كحد السيف المصقول ، لم يخلس (٦) به قصر ، ولم يعض به طول ، حفت به
وجنتان كالأرجوان (٧) في بياض محض كالجمان (٨) ، شق فيه فم كالخاتم ،
لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غر ، ذوات أشر (٩) ، وأسنان تبدو كالدرر ، يتقلب
فيه لسان ذو فصاحة وبيان ، يحركه عقل وافر ، وجواب حاضر (١٠) . . .
إلى أن قالت :

فأما ما سوى ذلك فتركك أن أصفه ، غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنظم
أو نثر ؛ فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها ، فزوجه إياها .

(١) مخض اللبن : أخذ زبده ، والتصريح : التبيين . وهو مثل يضرب للامر
إذا انكشف وتبين .

(٢) الواابل : المطر الشديد (٣) الحمم : الفحيم .

(٤) المهيرة : الرقيقة البشرة الناصعة البياض (٥) القسورة : الرماة من

الصيدان (٦) خنس : تأخر ، والخنس تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في
الأنفة (٧) الأرجوان : صبيغ أحمر (٨) الجمان : اللؤلؤ (٩) أشر الأسنان :
التحزين الذي فيها .

(١٠) انظر بقية الوصف في مراجع القصة .

فلما حملت إلى زوجها ، قالت لها أمها - أمانة بنت الحارث :

أى بلية ؛ إن الوصية لو تركت لفضل أدب . تركت لذلك منك ، ولكنها
تذكرك للغافل ومعونة للعاقل ؛ ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبيها ،
وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء خلقن للرجال ،
ولهن خلق الرجال .

أى بلية ؛ إنك فارقت الجوالذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه
درجت ، إلى وكر لم تعرف فيه ، وقرين لم تألف فيه ، فأصبح بملكك عليك رقيباً
ومليكاً ، فسكونى له أمة يكن لك عبداً وشيكاً (١) .

يا بلية ؛ احملى عني عشر خصال تكن لك ذخراً وذكرأ : الصحبة
بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ؛ والتعهد لموقع عينه ، والتفقد
لموضع أنفه ؛ فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح ،
والسكرع أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ،
والهدو عنه عند منامه ؛ فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة ،
والاحتفاظ ببيتته وماله ، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله ؛ فإن الاحتفاظ
بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تفشى
له سرأ ، ولا تعصى له أمراً ؛ فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وإن عصيت
أمره أو غرت صدره ؛ ثم اتقى مع ذلك الفرع إن كان ترحاً ، والاكتساب عنده
إن كان فرحاً ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ؛ وكونى
أشد ما تكونين له إعظماً يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له
موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة .

واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه
على هواك فيما أحببت وكرهت ، والله يخبر لك .

(١) الوشيك : السريع .

وذكروا أن هند بنت عتبة قالت لأبيها : لا تزوجني من أحد حتى
تعرض علي أمره وتبين لي خصاله ، فخطبها أبو سفيان وسهيل بن عمرو فدخل
عليها أبوها يقول :

أتاك سهيل وابن حرب وفيهما رضا لك يا هند الهنود ومقنع
وما منهما إلا يواسي بفضله وما منهما إلا يضر وينفع
وما منهما إلا كريم مرزأ وما منهما إلا أغر سميدع
فدونك فاختاري فأنت بصيرة ولا تخدعي إن المخادع يخدع

قالت : يا أبت والله ما أصنع بهذا شيئاً ، ولكن فسر لي أمرهما ، وبين
لي خصالهما ، حتى أختار أشدهما موافقة لي ، فبدأ بذكر سهيل ، فقال : في
ثروة وسعة من العيش إن تابعتته تابعك ، وإن مات عنه حط إليك ، تحكمين
عليه في أهله وماله . وأما الآخر : فوسع عليه ، منظور إليه في الحسب
الحسيب ، والرأي الأريب . مدره أرومته ، وعز عشيرته ، شديد الغيرة ،
كبير الطهرة . فقالت : يا أبت الأول سيد مضياع للحررة فما عست أن تلين
بعد إبانها ، وتضيق تحت جناحه ، إذا تابعها بعلمها فأشرت ، وخافها أهلها
فأمنت ، فساء عند ذلك حالها ، وقبح دلالها ، فإن جاءت بولد أحقت ، وإن
أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عني ، ولا تسمه علي بعد . وأما
الآخر فيعمل الفتاة الخريدة ، الحررة العفيفة ، وإنى لأخلاق مثل هذا موافقة :
فزوجنيه ، فزوجها من أبي سفيان (١) .

أقسام النثر الجاهلي

١- الحكم والأمثال ، ونماذج لهما :

١ - من حكماء العرب أكثم بن صيفي التميمي ، ومن حكمه :
رب عجلة تهب ريثا . رضا جميع الناس غاية لا تدرك آفة الرأي الهوى .
من يزر غبا يزدد حبا . من سأل فوق قدره استحق الحرمان ، لم يذهب من
مالك ما وعظك ويل للشجي من الخلى . مقتل الرجل بين فكيه . قبل الرماء
تملا الكنان (١) .

٢ - ومن حكمائهم : ذو الاصبع العدواني ، وعامر بن الظرب وقس بن
ساعدة ، وحاجب بن زرارة ، وهاشم بن عبد مناف ، وعبد المطلب بن هاشم
وهند بنت الحنن . وسواهم ، ولا داعي لذكر أمثلة لحكمائهم . ومن أقدم
حكمائهم لقمان المشهور (٢) ومن حكمه : رب أخ لك لم تلده أمك . الصمت
حكم وقليل فاعله ، آخر الدواء الكي .

وكان عمرو بن حممة الدوسي أحد من تتحاكم العرب (٣) .

٣ - ومن حكمهم : العتاب قبل العقاب . تكلم اللسان أنكى من كلم
اللسان . أول الحزم المشورة . أنجز حر ما وعد . أترك الشر يتركك . رب
ملوم لا ذنب له . من مأمنه يؤتى الخذر .

(١) راجع ص ٢١٦ معراج البيان . وراجع أمثال أكثم بن صيفي وبزرجمهر

في العقد ص ٦٢ ج ٢

(٢) يتنازع العرب والجيشة والمصريون واليهود وراجع الحديث عنه في

الجزء الثاني من الشريشي ، وكتاب الذكر الحكيم في تفسير سورة لقمان ، ص ٧٨

و ٧٩ : ١ فجر الإسلام (٣) ٢ : ١٤٣ الأمالى

(٢٠)

٤ - ومن أمثالهم :

إن العوان لا تعلم الخمرة (١)

إن البلاء موكل بالمنطق (٢)

إن أخاك من أساك .

سبق السيف العذل (٣)

عينك عبرى والفؤاد فى دد . والدد : اللهو (٤) .

عند جبهة الخبر اليقين .

ما يوم حليلة بسر (٥)

أحشفاً وسوء كيلة - ويضرب لمن يجمع بين خصلتين مكر وهتين .

نفس عصام سودت عصاما (٦) .

الضيف ضيعت اللبن .

كالمستجير من الرمضاء بالنار .

رجع بخفى حنين .

اليوم خمر وغدا أمر (٧)

إلى غير ذلك (٨) .

٥ - وقد يتمثل بالأمثال على لسان طائر أو حيوان أو نبات أو جماد

(١) العوان : النصف التى بلغت مبلغ النساء ، والخمرة : لبس الخمار . يضرب للعالم بالامر المجرب له .

(٢) ينسب لأنى بكر قاله حين أمر الرسول أن يعرض نفسه على القبائل ويضرب لمن يتورط بقوله فيها يؤذيه .

(٣) يضرب فى الخطأ يلام فاعله بعد وقوعه .

(٤) يضرب لمن يظهر خلاف ما يبطن ،

(٥) حليلة بنت ملك غسان . يضرب للامر المشهور الذى لا يكاد يحمل .

(٦) يضرب فى سؤدد الرجل بنفسه

(٧) يضرب فى تقلب الايام

(٨) راجع ٢٢٤ وما بعدها معراج البيان ، وراجع كتاب الامثال البيداني

تسليية وفكاهة أو خوفا وحذارا من استبداد مستبد أو استطرافا وروعة
أو وضعاً للحكمة في موضع الأمر المشهور المسلم به من كل شيء . ويمثل ذلك
كليلة ودمنة وفاكهة الخلفاء وسواهما .

ومن ذلك :

في بيته يؤتى الحكم (١) .
كيف أعادك وهذا أثر فأسك (٣)
إلى غير ذلك . . .

٦ - وفي النثر الجاهلي ألوان من القصص تتمثل في سير أيام العرب ، وفي
القصص المروية عن الفرس ، وفي أحاديث الهوى والشباب (٣) .

ما هي الحكمة :

والحكمة قول بليغ موجز صائب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة
بالحياة ويتضمن حكماً مسلماً في أمر بخير أو نهى عن شر . وقد كثرت الحكم
والحكما في الجاهلية (٤) وكان في كل قبيلة حكميم تفرع اليه في الشدائد
والمعضلات والمنافرات والخصومات .

والحكم من البلاغة يمكن كبير لإيجازها ووضوحها وفصاحتها ودقة
معناها وجلال هدفها .

(١) قالوا : إن الأرنب النقطة ثمرة فاختلسها الثعلب وأكلها فانطلقا يتخاصمان
إلى الضب فقالت الأرنب يا أبا الحسل . قال : سمعنا دعوت . قالت : أتيتناك
لنختصم اليك . قال : عادلاً حكماً . قالت : فأخرج إلينا . قال : في بيته يؤتى
الحكم . قالت : إني وجدت ثمرة . قال : حلوة فكلها . قالت فاقتلسها الثعلب
قال : لنفسه بغى الخير . قالت . فليطعمته . قال : بحقك أخذت . قالت : فاطممني
قال : حر انتصر . قالت : فاقض بيننا . قال : قد قضيت . فذهبت أقواله كلها أمثالا
(٢) يضرب لمن لا يفي بالعهد . وهو مقول على لسان حية .

(٣) راجع ٨٢ - ٨٥ : ١ فجر الإسلام

(٤) وكانت هند بنت الحنيس من حكميات العرب (راجع حديثها مع أبيها
في ص ١٠٧ ذيل الأمل)

وهي تكسب الكلام سحرا وحلاوة ، وتجعله مقبولا في الذوق ، قريبا إلى القلب ، مسلما به من العقل والشعور والوجدان .
وإذا اشتهرت الحكمة صارت مثلا .

ما هو المثل ؟ (١)

المثل مأخوذ من قولك هذا مثل الشيء ومثله أى شبهه ، ثم جعلت كل حكمة سائرة مثلا ، وفي العبرية كلمة مشمل بمعنى الحكمة السائرة والحكاية القصيرة ذات المغزى والأساطير .

والمثل يعرف بأنه قول سائر شبه مضر به بمورده ، أو قل شبه فيه حال المقول فيه ثانيا بحال المقول فيه أولا ، وهذا هو رأى المبرد . وقال المرزوقي : هو جملة من القول تنسم بالقبول وتشتهر بالتداول فتنتقل عما وردت منه إلى كل ما يوضح قصده منها من غير تفسير يلحقها في لفظها وقد جمع هذا التعريف بين المثل والحكمة .

ويمتاز المثل بشهرته وإيجازه ودقة معناه وإصابة الغرض المنشود منه وصدق تمثيله للحياة العامة ولأفكار الشعب على وجه الخصوص ، وهو يكسب الكلام سحرا وروعة وجمالا وبلاغة . وتقال الأمثال الفرضية للحد من استبداد المستبدين وطغيانهم ، وهي وسيلة للنقد والسخرية حقا .

والأمثال أصدق شيء يتحدث عن أخلاق الأمة وتفكيرها وعقليتها وتقاليدها وعاداتها ، ويصور المجتمع وحياته وشعوره أتم تصوير ، وهي مرآة للحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية .

والأمثال يصعب عليك تمييز الجاهلي منها من الاسلامي ، لاختلاطهما ببعض عند الرواة والمؤلفين ولكن ما يشير إليه المثل من حادث أو قصة

(١) جمع العسكري والميسداني الأمثال العربية في كتابيهما : جمهرة الأمثال للعسكري ، وجمع الأمثال للهيداني ، وراجع ٧٤ - ٨٢ : ١ فجر الإسلام

أو خبر مما يتصل بالجاهلية قد يساعد على معرفة الجاهلي منها وتمييزه من الإسلامي .

والأمثال إما حقيقية أو فرضية ، فالحقيقية لها أصل وقائلها غالبا معروف . والفرضية ما كانت من تخيل أديب ووضعها على لسان حيوان أو جماد أو ماشاكل ذلك .

والأمثال إما شعر وإما نثر ، ومثالها من الشعر :

تمتع من شميم عرار نجيد فما بعد العشية من عرار (١)
أن ترد الماء بماء أوفق لا ذنب لي قد قلت للقوم استقوا (٢)
لا تقطعن ذنب الأنعمى وترسلها إن كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا (٣)
كناسطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل (٤)
وكذلك الحكم : إما نثر أو شعر . وقد سبقت أمثلة لها والأمثال من النثر
أما الحكمة الشعرية فمن مثلها :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواء بخزان
ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب ؟
إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
ومن لم يزد عن عرضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

-
- (١) للصمة بن عبد الله القشيري . ويضرب في التمتع بالزائل . والعرار :
نبت طيب الرائحة وهو النرجس البحري .
(٢) يضرب لمن لا يقبل الموعظة .
(٣) هو لابي أذينة اللخمي يحرض الأسود بن المنذر على قتلى بعض أسارى
غسان يضرب في التحريض على استئصال شأفة الشر
(٤) يضرب لمن يحاول مالا يستطيع فيتعب نفسه دون فائدة

ب - الوصايا والنصائح ، ونماذج لها :

١ - ذو الأصبع العدواني حكيم شاعر وأحد المعمرين في الجاهلية . قال
لما احتضر يوصي ابنه أسيدا :

يا بني إن أباك قد فني وهو حي ، وعاش حتى سئم العيش ، ولاني موصيك
بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغت ، أن جانبك لقومك محبوبك ، وتواضع
لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك
وأكرم صغارهم ، كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك
صغارهم ، واسمع بمالك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم
ضيفك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا ، فبذلك يتم سؤددك .

٢ - ونصح أوس بن حارثة ابنه مالك حين حضره الموت فقال (١) :
يا مالك المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلد لا التبلد ، واعلم أن
القبر خير من الفقر ، ومن كرم الكريم ، الدفاع عن الحریم ، ومن قل ذل ،
وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة الخ .

٣ - وأوصت أعرابية ولدها فقالت :

أى بنى إياك والنميمة ، فانها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين ، وإياك
والتمرض للعيوب فتتخذ غرضا . وخلق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام
وقلما اعترضت السهام غرضا إلا كلبته حتى يهوى ما اشتد من قوته ، وإياك
والجود بدينك والبخل بمالك ، وإذا هزرت فاهزركريما يلدن لهزتك ، ولا تنز
لثيها فان الصخرة لا ينفجر ماؤها .

٤ - وأقرأ وصية زهير بن جناب السكبي لبنيه ، وإلى يقول منها :

يا بني قد كبرت سنى ، وبلغت حرسا (٢) من دهرى ، فأحكمتني التجارب

(١) ١٠٢ : ١ الأمالى .

(٢) أى أمرا طويلا منه .

والأمور تجربة واختبارا ، فاحفظوا عني ما أقول وعوه ، إياكم والخور عند
المصائب ، والتواكل عند النوائب ، فان ذلك داعية للغم ، وشماتة للعدو ،
وسوء ظن بالرب الخ .

٥ - وأوصى النعمان بن ثواب العبدى ابنا له فقال :

يا بني إن الصارم يذبو ، والجواد يكبو ، والأثري عفو ، فإذا شهدت حربا
فرأيت نارها تسهر ، وبطلها يخطر ، وبحرها يزخر ، وضعيفها ينصر ، وجبانها
يجسر ، فأقلل المكث والانتظار ، فإن الفرار غير عار ، إذا لم تكن
طالب ثار .

٦ - واقرا وصية امرأة عوف بن محلم الشيباني لابنتها أم إياس ، وكان
عمرو بن حنبل جد امرئ القيس تزوجها ، ثم نخرج بها من نادى قومها ،
فأوصتها أمها قالت :

أى بنية إنك فارقت الجو الذى منه خرجت وخلفت العش الذى فيه
درجت ، إلى وكر لم تعرفه ، وقرين لم تألفه ، فاحلى عني عشر خصال
تكن لك ذخرا :

اصحبيه بالقناعة ، وعاشريه بحسن السمع والطاعة ، وتمهدى موقع عينه
فلا تقع عينه منك على قبيل ، ثم اعرفى وقت طعامه ، واهدنى عند منامه ،
فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مبغضة ، ثم اتقى مع ذلك الفرح
أمامه إن كان ترحا ، والا كتب عند إن كان فرحا ، فإن الخصلة الأولى
من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد الناس له إعظاما ، يكن
أشدهم لك إكراما ، واعلمى أنك لاتصلين إلى ماتمحين حتى تؤثرى رضاه
على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت أو كرهت . والله يخبرك .

٧ - وصية لأكرم بن صيفى :

تباروا فإن البر يبقى عليه العدد ، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين
فكيه ، إن قول الحق لم يدع لى صديقا ، الصدق منجاة ، لا ينفع التوفى ما هو

واقع ، في طلب المعالي يكون العنا ، الاقتصاد في السعى أبقى للجمام ، أصبح عند رأس الأمر أحب إلى من أن أصبح عند ذنبه ، لم يهلك من مالك ما وعظك ويل لعالم أمر من جاهله ، يتشابه الأمر إذا أقبل ، وإذا أدبر عرفه السكيس والأحق ، البطر عند الرخاء حمق والعجز عند البلاء أمن ، لا تغضبوا من اليسير فإنه يجنى الكثير ، لا تجيبوا فيما لا تسألون عنه ، ولا تضحكوا بما لا يضحك منه ، حيلة من لا حيلة له الصبر ، إن تعش تر ما لم تره ، المكثار كحاطب ليل من أكثر أسقط ، لا تجعلوا سراً إلى أمة .

إلى ما سوى ذلك من بليغ وصاياهم ، وفصيح نصائحهم المأثورة .

ما هي الوصايا :

والوصايا جمع وصية ، والوصية ما توجهه إلى إنسان أثير لديك من ثمرة تجربة وحكمة وإرشاد وتوجيه ، وكذلك النصيحة ، فمنها ما متقاربان أو متحدان .

والوصية لون من ألوان الخطابة قاصرة على الأهل والأقارب والأصدقاء ، والفرق بينهما أن الوصية تكون من الرجل لقومه أو أبنائه ، ومن الأم لابنتها ، والخطابة تكون في المشاهد والمجامع والحروب والمعارك وفي المفاخرة والمحسرة والمنافرة وفي الوفادة على ملك أو أمير وفي المواسم والاجتماعات العامة .

والوصايا كثيرة في النثر الجاهلي ، وتمتاز بجمالها وتناسب جملها وأساليبها ورقة ما يشيع فيها من حكمة وصدق تعبير ونفاذ فكر وثقوب نظر .

جـ - الخطابة في الجاهلية ونماذج لها :

١ - خطب هانيء بن قبيصة الشيباني في قومه يوم ذى قار وهو يحرضهم ؛ قال :

يا معشر بكر ، هالك معذور خير من ناج فرور ، إن الحذر لا ينبجى من

القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، استقبال الموت خير من استدباره . الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الاعجاز والظهور : يا آل بكر قاتلوا فما للنيايا من بد (١) .

٢ - خطبة المأمون الحارثي في نادى قومه :

قعد المأمون الحارثي في نادى قومه . فنظر إلى السماء والنجوم ، ثم فكر طويلا ، ثم قال :

أرعونى أسماعكم ، وأصغوا إلى قلوبكم ، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد . طمع (٢) بالآهواء الأشر (٣) ، وران (٤) على القلوب الكدر ، وطنطنخ (٥) الجهل النظر ، إن فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسما مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب ، ونجوم تسرى فتعرب ، وشاب مخضر (٦) ويفن (٧) قد غبر ، وراحلون لا يؤوبون ، وموقوفون لا يفرطون ، ومطر يرسل بقدر ، فيحيى البشر ، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر ، وينبت الزهر ، إن فى ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر ، البارى المصور (٨) .

٣ - خطباء العرب يعزون قبلا من أقيال حمير فى ابنه :

نشأ لسلامة ذى فائش ابن كأكل أبناء المقاول (٩) ، وكان به مسرورا يرشحه لموضعه ، فركب ذات يوم فرسا صعبا ، فكب به فوقه (١٠) ، فجزع عليه أبوه جزعا شديدا ، وامتنع عن الطعام ، واحتجب عن الناس ، واجتمعت وفود العرب ببابه ليعزوه ، فخرج إلى الناس ، فقام خطيباؤهم يؤسونه (١١) . فقام الملبب بن عوف الجعفي ، فقال :

- | | | |
|---|-----------------------------|-----------|
| (١) ١٦٩ : ١ الأمالى | (٢) ارتفع وعلا | (٣) البطر |
| (٤) غلب | (٥) أظلم | |
| (٦) أى مات حدثا صغيرا | (٧) الشيخ الكبير | |
| (٨) راجع ٢٧٣ : ١ الأمالى ، والمأمون بالنون فى الأمالى ، وبالراء (المأمور) | (٩) من هم دون الملوك العظام | |
| (١٠) كسره | (١١) يعزونه | |

أيها الملك ، إن الدنيا تجود لتسلب ، وتعطي لتأخذ ، وتجمع لتشتت ،
وتحلى لتمر ، وتزرع الأحزان في القلوب ، بما تفجأ به من استرداد الموهوب ،
وكل مصيبة تخطأتك (١) بجلال (٢) ، مالم تدن الأجل ، وتقطع الأمل ؛
وإن حادثاً ألم بك ، فاستبِد (٣) بأفلك وصفح عن أكرهك لمن أجل النعم
عليك . وقد تناهت إليك أنباء من رزى فصر ، وأصيب فاغتفر . فاستشعر
اليأس عما فات إذ كان ارتجاعه بمنعاً ، ومرامه مستصعباً . فلشى ما ضربت
الأسى (٤) ، وفزع أولو الأبواب إلى حسن العزاء (٥) .

٤ - خطبة قس بن ساعدة الإيادي (٦) في عكاظ :

قدم وفد إياد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيكم يعرف قس
ابن ساعدة الإيادي قالوا : كنا نعرفه ، قال فما فعل ؟ قالوا : هلك ، قال : ما أنساه
بسنوق عكاظ في الشهر الحرام على جمل له أحمر وهو يخطب الناس ويقول :
داسمعوا ، وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، إن
في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لهدى ، سحائب تمور ، ونجوم تغور . في
فلك يدور ، ويقسم قس قسماً إن لله ديناً هو أَرْضِي من دينكم هذا ، ثم قال :
مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاهوا أم تركوا
فناموا ؟ أيكم يروى من شعره ، فأنشأ بعضهم :

في الزاهيين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قسومى نحوها تمضى الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضى ولا يبقى من الباقيين غابر

(١) أخطأتك (٢) صغير (٣) استبِد به : أى جعله نصيبه

(٤) جمع أسوة . وهى القدوة (٥) ٩٩ : ٢ الأمالى

(٦) تجدها في البيان والتبيين ٢٠٣ : ١ ، وفي العقد ص ٣٨٥ ج ٢

أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائرا (١)

هـ - وراجع ما قيل من خطب في :

أ - وفود العرب على كسرى (٢) .

ب - وفود أبي سفيان على كسرى (٣) .

ج - قریش على سيف بن ذى يزن (٤) .

د - العرب على النعمان (٥) .

٦ - ومن خطبة مرثد الخير (٦) - وكان قبلا من أقبال اليمن - في سبيع ابن الحارث وميثم بن مثوب بن ذى رعين . حين تنازعا الشرف وتخاصما ، وخيف أن يقع بين حبيبهما شر فيتفانى جذماهما (٧) :

« إن التخبيط (٨) ، وامتطاء الهجاج (٩) ، واستحقاب (١٠) اللجاج ، سيقفكما على شفا هوة ، في توردها بوار (١١) الأصيلة (١٢) ، وانقطاع الوسيلة ، فتلافيها أمر كما قبل انتكاث العهد ، وانحلال العقد ، وتشئت الألفة ، وتباين السهمة (١٣) ، وأنتم في فسحة رافهة (١٤) وقدم واطدة (١٥) ، فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ، بمن عصى النصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى إلى التقاطع ، ورأيت ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان صيور (١٦) أمورهم .

(١) ٢٦٩ و ٢٧٠ مختار العقد الفريد ط ١٩١٠ .

(٢) ١٦٦ : ١ العقد الفريد ط ١٩٢٨ (٣) ١٧٤ : ١ المرجع

(٤) ١٧٥ : ١ المرجع (٥) ٢٥٦ - ١ المرجع (٦) راجع ٩٢ : ١ الأمالى

(٧) الجذم الأصل (٨) ركوب الرجل رأسه في الشر خاصة

(٩) ركب الرجل هجاجة إذا لجأ أى ركب رأسه

(١٠) استفعال من الحقيقة وهى ما يجعل الرجل فيه متاعه . وهذا مثل يريد أنه

احتزم باللجاج أو جعله فى وعائه (١١) هلاك (١٢) الأصيلة والأصل واحد

(١٣) القرابة (١٤) ناعمة (١٥) ثابتة (١٦) الصيور : الأمر الذى يرجع إليه

٧ - وخطب أبو طالب حين تزوج النبي صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة ، فقال :

« الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع اسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما ، وبيتنا محجوجا . وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا ، وكرما وعقلا ، ومجدا ونبلا ، وإن كان في المال قل ، فإنما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتهم من الصداق فعلى » .

٨ - خطبة هاشم بن عبد مناف يحث قريشا على إكرام زوار بيت الله الحرام :

« روي أن هاشم بن عبد مناف كان يقوم أول نهار اليوم الأول من ذي الحجة ، فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فيخطب قريشا ، فيقول :
« يا معشر قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوها ، وأعظمها أحلاما وأوسطها أنسابا ، وأقربها أرحاما » .

« يا معشر قريش ، أنتم جيران بيت الله . أكرمكم بولايته ، وخصكم بحواره دون بني اسماعيل ، وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه ، وزوار بيته ، فإنهم يأتونكم شعنا غبرا من كل بلد . فو رب هذه البنية : لو كان لي مال يجعل ذلك لكفيتكموه ، ألا وإنني مخرج من طيب مالي وحلاله ، مالم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام ، فواضعه ؛ فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج رجل منكم من ماله لإكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيبا ، ولم يؤخذ ظلما ، ولم يقطع فيه رحم ، ولم يغتصب » .

٩ - خطبة هاشم بن عبد مناف في قريش وخزاعة :

تباشرت قريش وخزاعة إلى هاشم بن عبد مناف ؛ فخطبهم بما أذن له

الفرقان بالطاعة ، فقال في خطبته :

« أيها الناس ، نحن آل إبراهيم ، وذرية اسماعيل ، وبنو النضر بن كنانة ،
وبنو قصي بن كلاب ، وأرباب مكة ، وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ،
ومعدن المجد ، ولكل في كل حلف ، يجب عليه نصرته ، وإجابة دعوته ، إلا
مادعا إلى عقوق عشيرة ، وقطع رحم .

يا بني قصي ، أنتم كغصني شجرة ، أيهما كسر أو حش صاحبه ، والسيوف
لا يهتان إلا بعمده ، وراعي العشيرة يصيده سهمه ، ومن أحكم اللجاج أخرجه
إلى البقي .

أيها الناس ، الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمروءة كنز ، والجود
سودد ، والجهل سفه ، والأيام دول ، والدهر غير ، والمرء منسوب إلى فعله
وما خوذ بعمله ، فاصطبهنوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول تجانبكم
السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديتكم ، وحاموا الخليط يرغب في جواركم ،
وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم
والأخلاق الدنية ، فإنها تضع الشرف ، وتهدم المجد ، وإن نهضة الجاهل
أهون من جريرته ، ورأس العشيرة يحمل أنقالها ، ومقام الخليم عظة
لمن انتفع به .

فقلت قریش : رضينا بك أبا نضلة اوهى كنيته .

١٠ - وراجع خطبة البرجسي أمام حاتم الطائي في وفادته عليه في
دماء حملا (١) .

ما هي الخطابة ؟ : (٢)

الخطابة فن من فنون النثر ، وهي فن مخاطبة الجمهور الذي يعتمد على

(١) ص ٢١ ذيل الأمل .

(٢) راجع : الخطابة لأبي زهرة - جمهرة الخطابة لصفوت - ٢٣٥ و ٩٩ ج ١ =

الاقناع والاستمالة . أو هي كلام بليغ يلقي في جمع من الناس لإقناعهم بما فيه الخير لهم في دنياهم وآخرتهم .

والخطابة قديمة نشأت مع الإنسان ، وتروى للأمم القديمة نخطب كثيرة كقدماء المصريين واليونان والرومان .

والخطابة ضرورية للأمة في سلمها وحربها ، وهي أداة الدعوة إلى الرأي والعقيدة في شتى نواحي الحياة والمجتمع ، وهي وسيلة الدعاة والمصلحين ، والمهذبين والمرشدين ، وعماد القادة والزعماء ، وأداة الأحزاب السياسية ، والجمعيات الأدبية والاجتماعية ، وعليها الاعتماد في كثير من شئون الحياة ، في السياسة وفي التربية والتعليم ، والوعظ والإرشاد ، وفي محافل الأنس ، وما تم الحزن .

والخطابة تقوى عند ما تكون الأمة متمتعة بقسط من الحرية ، شاعرة بما هي فيه ، طامحة إلى آمال واسعة في الحياة ، وحينما تتصارع الخصومات ، وتختلف الأفكار والمبادئ والمذاهب .

والخطابة إما سياسية أو اجتماعية أو دينية ، وفي العصر الحديث نشأت الخطابة القضائية والبرلمانية .

الخطابة عند العرب في العصر الجاهلي :

ويروي للعرب في جاهليتهم خطب كثيرة ، ونبغ فيهم خطباء مشهورون وكانت الخطابة لسان الأشراف والرؤساء والنابيين من القبائل ، يفضلون على الشعر الذي غرض من قدره تكسب الشعراء به (١) ، ويعبرون بها عما

و ١٩ و ٢١ و ٢٦ ج ٢ و ٣ و ٦ و ١٥ و ٦٦ و ٥٢ ج ٣ البيان والتبيين ، والعقد الفريد - مواسم الأدب - بلاغات النساء لابن طيفور - بلوغ الأرب

(١) : اجمع ١٧٠ ج ١ و ٢٥٩ ج ٣ من البيان والتبيين .

يبحث في صدورهم من أفكار وآراء ، ويصرفون بها ملكة البلاغة المتأصلة في أعماق نفوسهم وطوايا قلوبهم ، ويصورون بها جميع ما يطوف بمقولهم في شئون السياسة والاجتماع .

وكانت الخطابة عندهم منتشرة ذائعة ، لها مكانتها في النفوس ، وسحرها في الألباب ، وأثرها في الشدائد والمشكلات ، وكان لكل قبيلة شاعر . وبالجملة فان الخطابة في العصر الجاهلي كان لها حظ من القوة والنهضة والازدهار . ويرجع ذلك إلى ابتذال الشعر بالتكسب به ، وإلى أن الخطابة كانت مهنة القادة والزعماء والحكام ، وإلى أهميتها لاستعمالها في الدفاع عن القبيلة .

دواعي الخطابة في العصر الجاهلي :

وكانت دواعيها كثيرة متشعبة عندهم ، فأذواقهم الأدبية وتأصل ملكات البلاغة في نفوسهم وتملكهم زمام الفصاحة . ثم كثرة الحروب والخلافات بينهم ، ثم تفرقهم قبائل وأحياء مع أميتهم الغالبة عليهم والتي ألجأتهم إلى الاستعانة باللسان دون الكتابة . ثم ضعف شأن الشعر ؛ ومكانته في نفوس أشرافهم بتكسب الشعراء به . ثم سعة مجال الخطابة فيهم ؛ وكثرة أسبابها لديهم .

كل ذلك كان داعياً لذيوع الخطابة فيهم ، وانتشارها بينهم .

أغراض الخطابة في العصر الجاهلي :

وأغراض الخطابة كثيرة عند العرب في العصر الجاهلي . من ذلك :

١ - التعريض على القتال أو الدعوة للسلام والوثام . وهذا كثير عند العرب في جاهليتهم لكثرة حروبهم ، وكثرة ما كان بينهم من خلافات وخصومات .

٢ - التبشير بدين جديد . ومحاربة الفوضى والردائل والوثنية التي كانت سائدة في العصر الجاهلي . كما نرى في خطبة المأمون الخارثي في نادى قومه (١) . وخطبة أكتهم بن صيفي التميمي في قومه (٢) ، بعد أن بعث الرسول وبعث أكتهم ابنه حبيشا ليأتيه بخبره ، وكما في خطبة قس في سوق عكاظ .

٣ - التعزية في عظيم من عظمائهم أو رئيس من رؤسائهم :

٤ - الوفادة على الملوك والرؤساء للتهنئة أو الاستنجاد أو لتأمين سبيل أو إجازة تجارة أو التعزية أو سواها . والخطب المأثورة فيها الكثير من ذلك .
٥ - الدعوة إلى الصلح وفض الخصومات وجمع الكلمة كما في خطبة مرثد الخير .

٦ - الخطب في المحافل حين الإملاك (٣) أو الولادة أو ما شاكل ذلك .

٧ - المفاخرة والمنافرة والمباهاة بعز العشيرة وشرف المحتد وجمال الأصل .

٨ - التوصية بفعل جميل أو أدب حميد .

وهكذا تعددت أغراض الخطابة وتشعبت مناحيها .

أسلوب الخطابة :

وأما أساليبها فقد كانت مركبة من جمل قوية ضعيفة الربط يغلب عليها

(١) ٢٧٣ : ١ الأماي

(٢) ٢٤٧ : ٢ أمثال العسكري ، وجمع الأمثال للبيداني الجزء الثاني . ومنها :
إن ابني شافه هـ ذا الرجل مشافهه ، وأتاني بخبره وكتابه ، يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، وياخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان وترك الحلف بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأي ترك ما ينهى عنه ، إن الذي يدعو إليه محمد ، لو لم يكن ديننا كان في أخلاق الناس حسنا . أطيعوني واتبعوا أمري

(٣) الإملاك : التزويج .

الحكمة والسجع ، وفيها جلاله الجزالة والفصاحة .

المأثور من خطب الجاهليين :

والمأثور من خطب الجاهليين قليل ، أقل من الشعر المروى عنهم .
ذلك أن الخطابة يصعب حفظها لطولها وعدم تقييدها بوزن أو قافية ، وعدم
تدوينها إلا في القرن الثاني الهجري ، مما أدى إلى ضياع كثير منها لطول
العهد بها .

الخطابة والخطيب :

وكانوا يلزمون أنفسهم الوقوف في الخطبة إلا في خطب إملاكم^(١)
وكثيرا ما كانوا يؤثرون أن يخطبوا وهم واقفون على نشز من الأرض .
أو على شيء من تفسع : كظهر الراحلة وسواها . وذلك لظهور الخطيب
واشدة تأثيره .

كما كانوا يقبضون بأيديهم على عصا أو رمح أو سيف أو قوس . ويعصب
الخطيب عمامته .

والخطيب يلتزم رباطة الجأش وجهارة الصوت^(٢) وبلاغة القول وقوة
الحجة . قليل الحركة . قليل الإشارة . ينطق بالصدق . ويتكلم بالحق . في
مظهر نبيل وزى جميل ، وهو غالبا رئيس قومه أو من أشرفهم .

هذا ويهون طه حسين من الخطابة الجاهلية : لفقدان الحضارة والتنازع
السياسي والديني ؛ وهذا غير صحيح لكثرة الخصومات والمعرفتهم بالكتابة ، ووجود
بعض ألوان من الحضارة . ولكثرة كلام الرواة عن الخطابة الجاهلية .

(١) الإملاكم : التزويج

(٢) ويشيدون بالعباس بن عبد المطلب في جهارة صوته (٩٥ ج ١ البيان
والتهيين) كما أشادوا بجهارة الصوت (٩٤ ج ١ المرجع ، ويقولون خطيب اشدق
أى بليغ . وهو من الشدق بفتح الدال وهو سعة في الشدق . (١١)

أشهر خطباء العرب في العصر الجاهلي

- ١ -

قس بن ساعدة الإيادي (١)

من إياد يضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة والحكمة والخطابة .
ويعدونه خطيب العرب كافة .

اعتنق النصرانية فآمن بها . وكان يدعو في خطبه إلى التوحيد ونبذ
الأوثان والأصنام وعبادة الله . وكان أسقف نجران ، وكان يقد على
قيصر ويحادثه .

وهو أول من قال : « أما بعد » ، والسابق إلى الإنكاء على العصاة والسيف
حين يخطب ، وهو القائل هذه الحكمة : « البينة على من ادعى واليمين
على من أنكر » .

وكان الناس يتحاضرون إليه في خصوصياتهم . فيقضي بينهم بالحق والخير ،
وكان معدوداً من حكماء العرب وأعقلمهم .

وكثيراً ما كان يقف في سوق عكاظ ، وقد سبقته خطبة له
منعها النبي صلى الله عليه وسلم في عكاظ قبل البعثة .

عاش قس طويلاً نحو ثمانين ومائة سنة ، ومات قبل البعثة نحو عام ٦٠٠ م ،
ويعده الجاحظ من الخطباء والشعراء (٢) ورسول الله (ص) هو الذي روى
كلامه بعكاظ (٣) .

(١) راجع ٥١ و ٥٦ و ٢٠٣ ج ١ البيان والتبيين نشر السندوني ط ١٩٢٧ .
وراجع حديث قس بن ساعدة مع قيصر (١٧ ج ٢ الأمالى) و راجع ٥١ و ٥٦
و ٢٠٣ ج ١ البيان والتبيين و ٣٨٥ ج ٢ العقد .
(٢) ٥١ ج ١ البيان والتبيين (٣) ٥٦ ج ١ المرجع .

وكان بليغ القول . سهل الأسلوب . متخير اللفظ . كثير الحكمة والمثل ،
سجده تفسير غالب على خطابه ، وكلامه على إيجازه بعيد عن اللغو والفضول
والحشو . مطبوع على الخطابة واللفظ الشريف ، والقول الرائع الحكيم .
وله شعر فيه جزالة مع رقة تعبير ودقة تصوير وقوة تأثير .

ومن حكمه : إذا نهيت عن الشيء فابدأ بنفسك . من عيرك شيئاً ففيه
مثله . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر .

ويقول فيه الأعشى :

وأفصح من قس وأجرى من الذي بذى العين من خفان أصبح خادرا

ولما قدم وفد بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألهم عن رجل
كان فيهم فإزلاً يقال له قس بن ساعدة الإيادي ، قالوا هلك ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : لقد رأيته بعد كاظ يخطب على نجل له أورك ، وهو
يقول : أيها الناس ، اجتمعوا واستمعوا وغيوا ، من عاش مات ، ومن مات
فات وكل ما هو آت آت ، ليل موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ،
وبحر يمحور ، أما بعد : فإن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعبراً ، مالي أرى
الناس يمشون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا ؟ أم تركوا كاهم فناموا ؟
أقسم بالله قس قسماً حقاً فما حنث ولا أثم ، إن لله ديناً هو أَرْضَى من ديننا هذا
الذي نحن عليه . ثم قال أبياتاً ما أحفظها ، فقال رجل من الأنصار : أنا شاهد
يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، قال فأنشدنا ، قال سمعته يقول :

في الزاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوماً تمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقيين غابر

أيقنت إني لا محالة حيث صار القوم صائر

وقال صاحب الأغاني فيه : هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك من إباد ، كان يفد على قيصر زائراً فيكرمه ويعظمه فقال له قيصر : ما أفضل العلم ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه ، قال فما أفضل العقل ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ، قال فما أفضل الأدب ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه ، قال فما أفضل المروءة ؟ قال قلة رغبة المرء في إخلاف وعده ، قال فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحق .

وفي الشريشي عن ابن عباس : وفد الجارود بن عبد الله في وفد عبد القيس ، وكان سيداً في قومه ، معظماً في عشيرته ، فآمن وآمن قومه ، فسر النبي صلى الله عليه وسلم بهم ، ثم قال : يا جارود هل في جماعة عبد القيس من يعرف لنا قساً ؟ قال كلنا نعرفه يا رسول الله ، وأنا كنت من بينهم أقفوا أثره ، وأطلع خبره ، كان قس سبطاً من أسباط العرب ، صحيح النسب ، فصيحاً ذا شعبة حسنة ، عمر طويل ، يتقفر القفار ، ولا تكنه دار ، ولا يقره قرار ، يتحسى في تقفوره بعض الطعام ، ويأنس بالوحوش والهوام ، يلبس المسوح ويتبع السياح ، على منهج المسيح ، لا يغير الرهبانية ، مقر بالوحدانية ، تضرب بحكمته الأمثال ، وتكشف به الأحوال ، أدرك رأس الحواريين ، فهو أول من تأله من العرب ، وأعبد من تعبد في الحقب ، وآمن بالبعث والحساب ، وحذر سوء المنقلب والمآب ، ووعظ بذكر الموت ، وأمر بالعمل قبل الفوت ، الحسن الألفاظ ، الخاطب بسوق عكاظ ، العارف بشرق وغرب ، ويابس ورطب ، وأجاج وعذب ، كائن أنظر إليه ، والعرب بين يديه ، يقسم بالرب ، ليبلغن الكتاب أجله ، وليوفين كل عامل عمله ، ثم أنشأ يقول :

هاج للقلب من هواه أذكار وليال خلاهن نهار
ونجوم يحثها قمر الاله ليل وشمس في كل يوم تدار
ضوءها يطمس العيون وإرعا د شديد في الخافقين مشار

وغلام وأشمت ورضيع كلهم في التراب يوما يزار
وقصور مشيدة حوت الخ ير وأخرى خوت فمن قفار
والذي قد ذكرت دل على الله نفوسا لها هدى واعتبار

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على رسلك يا جارود فاست أنساه بسوق
عكاظ على جبل له أورق وهو يتكلم بكلام موق ما أظن أحفظه ، فهل فيكم
يا معشر المهاجرين والأنصار من يحفظ لنا منه شيئا ؟ فوثب أبو بكر فأنما
وقال : يا رسول الله أنا أحفظه وكنت حاضرا بعكاظ حين خطب فأطنب ،
ورهب ورغب ، وحذر وأنذر ، وقال في خطبته : أيها الناس ، اسمعوا وعوا ،
واذا دعيتم فانتفعوا ، فإنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت
آت ، مطر ونبات ، رأزاق وأقوات ، وآباء وأمهات ، وأحياء وأموات ،
وجمع وشتات ، وآيات بعد آيات ، إن في السماء خبرا ، وإن في الأرض
لعبرا ، ليل داج ، وسما ذات أبراج ، وأرض ذات رجاج ، وبحار ذات أمواج .
مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا
هناك فناموا ؟ أقسم قس بالله ، قسما حقا لا آثما فيه ولا حاشا ، إن لله ديناً
هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه ، ونبيا قدحان حينه ، وأظلكم أوانه
وأدركم إبانته ، فطوبى لمن آمن به فهداه ، وويل لمن خالفه وعصاه ، ثم
قال : تبأ لأرباب الغفلة ، من الأمم الخالية ، والقرون الماضية ، يامعشر إباد
أين الآباء والأجداد ، وأين المريض والعواد ، وأين الفراعنة الشداد ، أين من
بنى وشيد وزخرف ونجد ، وغره المال والولد ، أين من بغى وطغى ، وجمع
فأوعى ، وقال أنا ربكم الأعلى ؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالا ، وأطول
منكم آجالا ، طعنهم الثرى بكلكله ، ومزقهم بتطاوله ، فتلك أعظامهم بالية
وبيوتهم خاوية ، عمرتها الذئب العاوية ، كلا بل هو المعبود ، ليس بوالد
ولا مولود ، ثم أنشأ يقول : في الداهيين الأولين - الآيات المتقدمة .
فقال رسول الله (ص) رحم الله قسا إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وخدمه .

ويروى (١) عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال : حضرت مجلس المأمون ، فقلت يا أمير المؤمنين : ألا أحدثك عن الفضل بن يحيى ؟ قال : بلى ! فقلت : دخلت دار الرشيد ، وإذا الفضل بن يحيى وإسماعيل بن صبيح وعبد الملك بن صالح في بعض تلك الأروقة يتحدثون ، فلما بصر بي الفضل أوماً إلى ، وقال : يا إسحاق ، انتظرناك منذ الغداة ، لتساعد على ما نحن فيه من المذاكرة ! فقلت يا سيدي ، أنا السكيت (٢) إذا أجريت الجياد ، وفاز السابق والمصلي ! فقال عبد الملك : مدحت نفسك ، ولما تكذب .

ولما فرغ عبد الملك من حديثه قال الفضل : إن لقس (٣) حديثاً سمعته من الخليل بن أحمد ، فهل عند واحد منكم له ذكر ، فسكت القوم ، فقلت : يا سيدي ، ما نعرف له حديثاً إلا حديث خطبته بعكاظ ! قال : ذاك شيء قد فهمته العامة واختيرته الخاصة . ثم أطرق ساعة ، فقلنا : إن رأيت أن تحدثنا ؟ فقال :

حدثني الخليل بن أحمد : أن قيصر ملك الروم بعث إلى قس بن ساعدة أسقف نجران - وكان حكيماً طيباً بليغاً في منطقه - فلما دخل عليه ، ومثل بين يديه حمد الله وأثنى عليه ، فأمر بالجلوس ، فجلس ورحب به ، وأدنى مجلسه ، وقال : ما زلت مشتاقاً إليك لما سمعت من مناظرتك في الطب .

فكان أول ما سأله عن الشراب ، فقال : أي الأشربة أفضل عاقبة في البدن ؟ قال : ما صفا في العين ، واشتد على اللسان ، وطابت رائحته في الأنف من شراب السكرم . قال : فما تقول في مطبوخه ؟ قال : مرعى ولا

(١) المحاسن والمساويء طبع ليبزج ص ٣٥١

(٢) السكيت : الذي يحيى في الحلبة آخر الخيل (٣) هو قس بن

ساعة خطيب العرب قاطبة ، كان يدين بالتوحيد ، ويؤمن بالبعث ، وبدعو إلى نيل الأوثان ، في المحافل العامة ، ومواسم الأسواق وسمعه النبي قبل البعثة يخطب بعكاظ ، فعجب من حسن كلامه وأثنى عليه وعمر طويلاً ومات قبيل البعثة

كالسعدان (١) قال : فما تقول في نبيذ الزبيب ؟ قال : ميت أحي ، وفيه بعض المتعة ، وما كاد يقوى شيء بعد الموت ! قال : فما تقول في نبيذ العسل قال : نعم شراب الشيخ للمعدة الفاسدة ! قال : فما تقول في أنبذة التمر ؟ قال : أوساخ يطيب مذاقها في اللهايات ، وتسوء عاقبتها في البدن ، وتولد الأرواح في البطن لورقتها .

قال : فمن أي شيء يكون التمل الذي يذهب الغم ويطيب النفس ؟ قال : زعموا أن العقل تصعبه سورة الشراب إلى الدماغ ، فإذا صعبت السورة إلى الدماغ الذي هو أصله ، احتجب البصر بغير عمنى ، والسمع بغير صمم ، واللسان بغير خرس ، فلا يزال العقل كذلك محتجباً حتى تفك الطبيعة من لسان السكر ، إما بقوة فيعجل ، وإما بضعف فيبطئ .

قال : فمن أي شيء الخمار (٢) من بعد صحو السكران ؟ قال : من إعياء الطبيعة عن مجاهدة السورة في افتكك العقل وتخلصه ، حتى يردّها النوم إلى هدوء وما أشبهه . قال : الصرف أفضل أم الممزوج ؟ قال : الصرف سلطان جائر والجائر مذموم . والممزوج سلطان عادل والمادل محود .

قال : فصف لي الأطعمة . قال الأطعمة كثيرة مختلفة . وجملة ما أمرك به الإمساك عن غاية الإكثار ، فإن ذلك من أفضل ما بلوناه من الأدوية ، ورأس ما نأمر به من الحمية . قال له : عمن حملت الحكمة ؟ قال : عن عدة من الفلاسفة . قال : فما أفضل الحكمة ؟ قال : معرفة المرء بقدره . قال فما تقول في الحلم ؟ قال : حفظ الإنسان ماء وجهه . قال : فما تقول في المال وفضله ؟ قال : أفضل المال ما أعطى منه الحق . قال : فما أفضل العطية ؟ قال : أن تعطى قبل السؤال .

قال : فأخبرني عما بلوت من الزمان وتصرفه ، ورأيت من أخلاق أهله ؟

(١) السعدان : نبت ذو شوك ، وهو من أنجح المرعى ، وهذا مثل يضرب للشيء يفضل على أقرانه وأشكاله (٢) الخمار : بقية السكر .

قال : بلونا الزمان فوجدناه صاحباً يخون صاحبه . ولا يعتب من عاتبه ،
ووجدنا الإنسان صورة من صور الحيوان ؛ يتفاضلون بالعقول ، ووجدنا
الأحساب ليست بالإباء والأمهات ، ولكنها في أخلاق محمودة ، وفي ذلك
أقول :

لقد جلبت الزمان أشطره ثم خفضت (١) الصريح (٢) من جلب
فلم أر الفضل والمعالى في قول الفتى : إني من العرب
حتى رى سامياً إلى خلق يزود محموده عن المسب
ما ينفع المرء في فكاهته من عقل جد مضى وعقل أب
ما المرء إلا ابن نفسه فيها يعرف عند التحصيل للثوب
ووجدنا أبلغ العظات النظر إلى محل الأموات وأحمد البلاغة الصمت ،
ووجدنا لأهل الحزم حذاراً شديداً ، وبذلك نجوا من المكروه ، والكرم
حسن الاصطبار ، والعز سرعة الانتصار ، والتجربة طول الاعتبار .

قال : خبرني هل نظرت في النجوم ؟ قال : ما نظرت فيها إلا فيما أردت به
الهداية ، ولم أنظر فيها أردت به الكهانة ، وقد قلت في النجوم :

علم النجوم على العقول وبال وطلاب شيء لا ينال ضلال
ماذا طالبك علم شيء أغلقت من دونه الأفلاك ليس ينال
هيمات ما أحد بغامض قدره يدرى كم الأرزاق والآجال
إلا الذي فوق السماء مكانه فلوجه الإكرام والإجلال

قال : فهل نظرت في زجر (٣) الطير ؟ قال : نحن معاشر العرب مولعون
بزجر الطير . قال فما أعجب ما رأيته منه ؟ قال : شخصت أنا وصاحب لي من
العرب إلى بعض الملوك ، فألفيناه يريد غزو قوم كانوا على دين النصرانية ،
فخرج حتى إذا كان على فراسخ من مدينته أمر بضرب فساطيطه وأروقه

(١) خفض اللين : أخذ زبده (٢) الصريح : الخالص . (٣) الزجر :
ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان .

لتتواني إليه جنوده ، وضرب له فسطاط على شاطئ نهر ، وأمر بخباء
فضرب لي ولصاحبي ، فبينما نحن كذلك إذ أقبل طائران : أسود وأبيض ، وأما
وصاحبي نرمقهما ، حتى إذا كانا على رأسه رفرفا ثم غابا ، ثم رجعا أيضاً ،
حتى إذا كانا قريباً منه طويأ . ثم أقبلنا نحونا فوقعا ، ثم رتعا (١) ، فقال
صاحبي : ما رأيت كالיום طائرين أعجب منهما ، فأيهما أنت مختار ؟ فقلت :
الأسود . قال : الأبيض - ض أعجبهما إلى ، فما تأولتهما ؟ قلت : الليل والنهار
يطويان هذا الرجل في سفره فيموت ، وتأولت اختيارك الأبيض أنك
تنصرف بيد بيضاء مخفقة من المال . فإذا هو قد غضب .

فلما جن الليل بعث إلينا الملك لئلا نسمعه ، فإذا صاحبي قد أخبره بالخبر
فسألني فأخبرته وصدقته . فغضب ، وقال : هذه حمية منك لأهل دينك !
فقلت : أما أنا فقد صدقتك : فأمر بحبسي ومضى لوجهه ؛ فلم يتجاوز إلا
قليلاً حتى مات فأوصى لي بعشرين ناقة ، وقال : قاتل الله قسا ! لقد محضني
النصيحة . فأنصرفت من سفرى ذلك بعدة من الإبل ، وأنصرف صاحبي
مخفقا من المال .

قال الملك : وما رأيت أيضاً من الزجر أعجب ؟ قلت . ما رأيت مرة
عند الملك الهمام أبي قابوس ، وقد خرج عليه خارج من مضر يريد ملكه ،
وقد حشد له ، فبعث إلى بعض عماله في توجيه أربعمائة فارس ، ووجهني مع
الرسول ، وأمرنا بالشد على أيديهم في جمع الخيل والرجال - وكان الرسول
شاعراً - فبينما نحن نسير إذ سنحت لنا ظباء فيها تيس (٢) يقدمها ، وكان أبو
قابوس يواعد للقائه في يوم كذا وكذا ، فنحن نقول : إن كان الملك خرج
في يوم كذا فهو اليوم في موضع كذا ، وقد أقبلنا ، ونحن نقود جيشاً
عرمرماً ، فأنشأ الرسول يقول :

ألا ليت شعري ما تقول السوانح أغاد أبو قابوس أم هو رانح

(١) الرتع : الأكل والشرب رغدا في الريف .

(٢) التيس : الذكر من الظباء والمعز والوعول .

قال : فنظرت إلى التيس عند فراغه من هذا البيت ، فوجدته قد دخل في مكبسه (١) حتى توارى فيه ، فدخلت من ذلك مالم أقدر على أن أمسك نفسي ، حتى استرجعت ، فقال لي رفيقي : مالك ؟ قلت : إن صديق الزجر فصاحبك قد ثوى في التراب ، والتحفت عليه أطباق الثرى ! قال : كيف ذلك ؟ قلت : وافق فراغك من البيت دخول التيس في مكبسه ، فأعرض عني ، فلما أصبحت في اليوم الذي واعدنا للقاءه لم يواف ، ولم يكن بأوشك من أن أتانا الخبر بهلاكه وعود ابنه . فأكرمه قبصر وأحسن جائزته .

قلنا : أيد الله الوزير ! لقد بلغت ما بلغت باستحقاق ، ولقد حزت نصيبه الرهان في كل منقبة ، فتبسم وقال : عز الشريف أدبه ، وإذا رسول الرشيد وافاه فتمض نحوه ، وتصدع المجلس وانصرفنا .

فلما مضى من الليل بعضه إذا أنا بطارق قد طرقتي ، وبين يديه غلمان على أعناقهم البدر ، وإذا رسول الفضل وقد حمل إلى مائة ألف درهم ، وقال : الوزير يقرأ عليك السلام . ويقول : عنجرت باستماع الأحاديث ، وأوجبت على بذلك منة ، وهذا عطاء وتمح (٢) في جنب قدرك عندي ، فخذ به ولا تعتد به .

فقلت : سبحان الله الذي خلق هذا الرجل ! أوجبه على كرم بذهبه من مضى ومن غير ، وإذا هو قد وجه إلى أصحابي الذين كانوا معي بمثل الذي وجه به إلي ، فغدوت إليه وأردت أن أشكره ، فقال : والله لئن ذهبت تكشف ماستر الله لأجنونك ! فكأنما ألقمني حجرا . واحتبسني عنده ، فطعمت وشربت ورحلت وقد حملني على عدة أفراس بسروج ولجم مذهبة ، ووجه معي بعشرة نخوت ثياب وعشر بدر .

قال : فقال المأمون : ويحك يا إسحاق ! ثواب حديثك ضعف ما أمرك به الفضل ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم ، فقبضت ذلك وانصرفت !

(١) المكبس : موج الوحش من الظباء والبقر تستكن فيه من الحر .

(٢) وتمح : قليل .

أكثم بن صيفي التميمي

هو حكيم العرب وقاضيا وخطيب من أشهر الخطباء ، أوفده النعمان بن المنذر إلى كسرى أنوشروان بالمدائن ، ومعه رهط من أشرف سادات العرب (١) وخطبائها ، مثل : حاجب بن زرارة التميمي (٢) ، وعمرو بن الشريد السلمي (٣) ، وعامر بن الطفيل العامري (٤) ، وعلقمة بن علاثة العامري (٥) ، والحارث بن ظالم (٦) ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي (٧) ، والحارث بن عبادة البكري (٨) ، وسواهم ، وأعجب به كسرى حتى قال له : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى . وقد أدرك بعثة الرسول وبعث ابنه حبيشاً ليأتيه بخبره ، ودعا قومه إلى الإيمان بمحمد صلوات الله عليه .

وكان أكثم عارفا بالأنساب ، كثير الحكم وضرب الأمثال في خطابه ، مصيب الرأي قوى الحججة ملهما بالصواب وسداد القول ، كما كان عظيم المنزلة عند بني تميم قومه وعند العرب أجمعين ، وجعله الجاحظ من الخطباء البلقاء والحكام الرؤسا (٩) ، وكان في خطبه كثير الإيجاز وضرب الأمثال لا يلتزم السجع ولا يقصده ، عميق الفكر ، دقيق النظر ، قوى الحججة ، كثير الاقتناع ، جميل الأسلوب حلوا الألفاظ .

(١) راجع ١٦٦ و ١٧٤ ج ١ العقد ١٩٢٨ ، وبشك كثير في صدق الرواية التي رواها صاحب العقد .

(٢) سيد من سادات تميم ، وخطيب من أبلغ خطباء العرب .

(٣) أبو الخنساء الشاعرة وكان شجاعا شاعرا خطيبا .

(٤) ابن عم لبيد الشاعر ، فارس شجاع وشاعر .

(٥) خطيب بليغ اشتهر بالعقل الراجح والأخلاق الكريمة

(٦) من مرة ، شجاع شاعر خطيب (٧) فارس شاعر توفي عام ٢١ هـ

(٨) خطيب مؤثر وشاعر بليغ (٩) ١: ٢٣١ من البيان والتبيين

ومن خطبه تعزيتة لعمر بن هند ملك العرب في أخيه ، قال :

أيها الملك إن أهل هذه الدار سفر ، لا يحلون عقد الترحال إلا في غيرها ،
وقد أتاك ما ليس بمردود عنك ، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقام
معك من سيظعن عنك ويدعك . إن في الدنيا ثلاثة أيام : فأمس عظة وشاهد
عدل ، فجمعك بنفسه وأبقى لك وعليك حكمه ، واليوم غنيمة وصديق أتاك
ولم تأته ، طالت عليك غيبته ، وستسرع عنك رحلته ، وغدا لا تدري من أهله ،
وسياأتيك إن وجدك . فما أحسن الشكر المنعم ، والتسليم للقادر . وقد مضت
لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفروع بعد أصولها . واعلم أن أعظم من
المصيبة سوء الخلف منها ، وخير من الخير معطيه ، وشر من الشر فاعله .

-- ٣ --

عمر بن معد يكرب الزبيدي (١)

١ - قحطاني يماني ، وفارس شجاع ، وخطيب مطبوع ، عاش في الجاهلية ،
وأسلم سنة تسع من الهجرة هو وقومه ، ثم ارتد بعد إسلامه بعد وفاة الرسول ،
ثم عاد من جديد إلى الإسلام عقيدة الحق والتوحيد والخير ، وأبلى في القادسية
بلايا عظيما وكان عمره فيها عشراً ومائة سنة ، وتوفي في أواخر خلافة عمر بن
الخطاب عام ٥٢١ هـ - ٦٤٣ . وفيه يقول أبو تمام :

إقدام عمرو ، في سماحة حاتم في حلم أحنف ، في ذكاء إياس

٢ - كان عمرو شجاعا فارسا وخطيباً شاعراً ، شعره صورة لشجاعته
وبطولته وفرر سيته ؟ وحديث عن مواقفه وانتصاراته في غزواته ، وعن نفسه
واقترامها الأهوال ومقامرتها وقت الطعن والنضال ، ويعد في الطبقة الثانية
من الشعراء المخضرمين ، وخطابته تنم عن شخصيته واعتداده ببطولته ونفسه ،
فيها وضوح وقوة وتدفق ومنطق . مع إشراق بيان ، وسهولة عبارة ،

(١) راجع في ص ١٥٠ ذيل الأمل وما بعدها حديث عمرو بن معد يكرب مع امرأة

وقصر فقر ، وقلة سجع ، وكثرة حكمة ومثل :

٣ - قال عمرو أمام كسرى :

إنما المرء بأصغريه . قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطق الدار ، وملاك النجعة
الارتياح ، وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير
من اعتساف الحيرة ، فاجتنب طاعتنا بلفظك ، واكنظم بادرتنا بمحمدك ،
والن لنا كنفك يلمن لك قيادنا .

وروى له صاحب الحماسة عدة قصائد :

١ - منها قصيدته : (١)

ولما رأيت الخيل زوراً كأنها جداول زرع أرسلت فاسططرت
فجاشت إلى النفس أول مرة فردت على مكروهما فاستقرت
ومن شعره قصيدته :

تمناني ليلقاني أبي وددت وأيها مي ودادي
أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد
ومن شعره :

ليس الجمال بمنزور فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا
كم من أخ لي صالح بوائه بيدي لحدا
ما إن جزعته ولا هلمعت ولا يرد بكاي رشدا
ذهب الذين أحبههم وبقيت مثل السيف فردا (٢)

(١) ص ٤٣ : ١. مختصر الحماسة ط ١٩٢٧ الطبعة الثالثة

(٢) ومن شعره أيضا قصيدته :

أمن ريحانة الداعي السميع يورقني وأصعابي هجوع

ومن خطباء العرب : حاجب بن زرارة التميمي ، وهو سيد من سادات تميم ، وفد على كسرى حين منع تميم من ريف العراق فاشتد بهم القحط فأعجب به وببلاغته . ومنحه ما أراد وتعهد له بحسن الجوار ورهقه قوسه على ذلك .

وهاني بن قبيصة الشيباني (١) ، ومرثد الخير الحيري ، والمأمون الحارثي ومن خطبائهم عامر بن الظرب العدواني : وهو أحد حكماء العرب المشهورين ، وخطيب بليغ وشاعر مجيد . ويقول الجاحظ فيه : وهو من الخطباء البلقاء والحكام الرؤساء (٢) ، وهو حكم العرب في الجاهلية (٣) .

وخطب إليه صمصمة بن معاوية ابنته فقال : يا صمصمة إنك أتيتني تشتري مني كبدي ، أبغيتك (٤) أو رددتك . النكاح خير من الأيمة (٥) . والحسيب كف الحسيب ، والزوج الصالح أب بعد أب ، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك ، أفر من السر إلى العلانية ، أنصح ابنا وأودع ضعيفاً قويا . يامعشر عدوان أخرجت من بين أظهركم كريمةكم ، من غير رغبة عنكم ، ولكن من خط له شيء جاءه ، رب زارع لنفسه ، ما حصده غيره ، ولولا قسم الحظوظ ما ترك الأول للآخر ما يعيش به .

ومن خطبائهم قبيصة بن نعيم ، وكان من رجالات بني أسد ، وخطب أمام امرئ القيس بعد مقتل أبيه قال :

(١) راجع ١٢٩ ج ٢ الأغاني ، ١٢٠ ج ٢ منه ، ١٣٢ ج ٣ .

(٢) ٢٣٣ ج ١ البيان (٣) ٢٠ ج ٣ البيان

(٤) أعطاه بغيته (٥) العزوبة

إنك في المحل والقدر ، والمعروفة بتصرف الدهر ، وما تحدثه أيامه ، وتثقل به أحواله ، بحيث لا يحتاج إلى تبذير واعظ ، ولا تذكرة مجرب ، ولك من سؤدد منسبك ، وشرف أعراقك ، وكرم أصلك في العرب ، متحد يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة ، والرجوع عن الهفوة ، وقد كان الذي كان من الخطب الجليل عمت رزقته نزارا واليمن ، ولم تخصص به كندة دونها ، للشرف البارع الذي كان لحجر : التاج والعمدة فوق الجبين الكريم ، وإخاء الحمد وطيب الشيم ، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمها على مثله ببذل ذلك ولقد يناله منه ، ولكن مضى به سبيل لا ترجع أولاه على أخراه ، ولا يلحق أقصاه أدناه ، فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث : إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتا ، وأعلاها في بناء المكرمات صوتا ، فقد ناله اليك بلسعة ، تذهب منعشفرات حسامك بباقي قصرته ، أو فداء بما يروح على بني أسد من نعمها ، فهي ألوف تجاوز الحسبة ، وإما أن توادعنا حتى تضع الحوامل ، ففسد الأزر ، ونعقد الجنر فوق الرايات .

فبكي امرؤ القيس وقال : قد علمت العرب أن لا كفء يلجئ في دم ، وأنى لن اعتاض به ناقة أو جملا فأكتسب بذلك نسبة الأبد وقت المضد ، وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها وإن أكون لعطفا سببا ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ، تحمل في القلوب حنقا ، وفوق الأسنة علقا :

إذا جالت الخيل في مازق تصافح فيه المنايا النفوسا

- ٦ -

ومن خطباء العرب : كعب بن لؤي (١) .

(١) الروض الأنف - صبيح الأعشى ٢١١ ج ١ - ٢٢٦ ج ١ البيان والتبيين للجاحظ . قال الجاحظ : وكان يخطب العرب عامة ويحضر كئانة خاصة على البر

واؤى بن غالب (١) ، وهاشم بن عبيد مناف (٢) ، وأبو طالب (٣) .
وعمر بن كلثوم (٤) ؛ وضمرة بن ضمرة (٥) ، وعمر بن عمار الطائي (٦) ،
ويقول الجاحظ في البيان والتبيين : ومن خطباء العرب في الجاهلية :
خويلد بن عمرو خطيب يوم الفجار (٧) . . ومن الخطباء البلقاء والحمير
الرؤساء : ربيعة بن حذار وليد وهرم بن قطبة (٨) . . ومن القدماء في الحكمة
والخطابة والرياسة : عبيد بن شربة الجرهمي وأسقف نجران وأكيدر صاحب
دومة الجندل ، وجذيمة الأبرش (٩) .

-- ٧ --

ومن خطبائهم من نخصهم بالذكر : هاشم بن عبد مناف ، وهو سيد
قريش وإمامها ، وداعى إلى الخير والشرف والوحدة ، وحامى البيت والدائد
عنه . خطب في قريش وخزاعة حين تنافرا إليه فقال :
يا بني قصي ، أنتم كفصني شجرة ، أيهما كسر أوحش صاحبه ؛ والسيف
لا يصان إلا بغمده ، ورامي العشيرة يصيبه سهمه .

فلما مات أكبروا موته فلم تزل كنانة تؤرخ بؤته إلى عام الفيل (٢٢١ ج ١ البيان)
(١) الروض الأنف و ٢٣٣ ج ١ البيان والتبيين :
(٢) د د و ٤٥٨ ج ٢ ابن أبي الحديد و بلوغ الأرب ٢٢١ ج ١
(٣) د د و ٢١٢ ج ١ صبح الأعشى و ج ٣ من ابن أبي الحديد
(٤) ١٠٤٩ البيان والتبيين
(٥) ٢٥ ج ١ : الأغاني و ١٦٨ ج ١ البيان و ١٨٦ ج ١ الميداني و ١٦٨
و ١٢٨ و ١١٨ ج ٢ .

(٦) ١٥٩ و ٢٢٥ ج ١ البيان ، ٢٣٦ المؤلف ويقول فيه الجاحظ : كان خطيبه
مذبح كلها وحمله النعمان على منادمته ثم قتله (٢٢٥ ج ١ البيان)
(٧) ٢٢٦ : ١ البيان (٨) ٢٣٣ : ١ المربع (٩) ٣ - ٢ - ١ المرجع

يا بني قصي ، أنتم كغصني شجرة ، أيهما كسر أوحش صاحبه ، والسيف
لا يصان إلا بعمده ، وراعى العشيرة يهديه سهمه

أيها الناس : الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سؤدد
والجهل سفة ، والأيام دول ، والذهب غير ، والمرء منسوب إلى فعله ،
وما أخذ بعمله ، فاصنعوا المعروف ، تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول ،
وتجانبوا السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديتكم ، وحاموا عن الخليط
يرغب في جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق
فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنية فإنها تضع الشرف وتهدم المجد .
والعمرى إن هذه لمنحة نبوية ، وحكمة من شريف ملهم ، وسيد مطاع .

-- ٨ --

ومن خطبائهم عبد المطلب بن هاشم ، خطب يهني سيف بن ذي يزن
بظفره على الحبشة (١) ، فقال :

إن الله أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً ، شامخاً باذخاً ، وأنتك نبأ طابت
أرومته ، وعزت جرثومته (٢) ، وثبت أصله ، وبسق (٣) فرعاه ، في أكرم
موطن ، وأطيب معدن ، وأنت - أبيت اللعن - ملك العرب ، وربيها الذي
تخصب به ، وأنت أيها الملك رأس العرب الذي إليه تنقاد ، وعمودها الذي
عليه العباد ، ومعلمها الذي تلجأ إليه العباد . سلفك خير سلف ، وأنت لنا
منهم خير خلف ، فلن يخمل ذكر من أنت سلفه ؛ وإن يهلك من أنت
خلفه ، ونحن أيها الملك أهل حرم الله ، وسدنة بيته ، أشخصنا إليك
الذي أبهجنا بكشف الكرب الذي فدحنا ، فنحن وفد النهضة لا وفد
المرزئة (٤) .

(١) راجع أديان العرب في الجاهلية (٢) الأصل

(١٢)

(٣) علا (٤) الرزء والمصيبة

د - المحاورات - وصور لها:

١ - مفاخرة طريف بن العاصي والحارث بن ذبيان عند بعض
مقاول حمير (١)

قال الملك للحارث : يا حارث ألا تخبرني بالسبب الذي أخرجكم عن
قومكم حتى لحقتم بالنمر بن عثمان ؟

قال الحارث : خرج هجينان منا يرعيان غنما لهما ، فتشاولا (٢) بسيفيهما
فأصاب صاحبهم عقب صاحبتنا فمات ، فسألونا أخذ دية صاحبتنا : دية
الهجين (٣) ، وهي نصف دية الصريح (٤) ، فأبى قومي إلا دية الصريح وأبوا
إلا دية الهجين ، فتفاقم الأمر بين الحيين فتظاهروا علينا حسداً ، فأجمع ذوو
الحجاء منا أن نلحق بأمنع بطن من الأزد ، فلاحقنا بالنمر بن عثمان ، فوالله
ماقت في أعضادنا ، فنأينا عنهم ولقد ائارنا (٥) صاحبتنا وهم راغمون .

فواب طريف من مجلسه ، فجلس بإزاء الحارث فقال : تالله ، ما سمعت
قولا أبعد من صواب ، ولا أقرب من خطل ، من قول هذا . والله أيها
الملك ماقتلوا بهجينهم بذجا (٦) ، ولا رقوابه درجا ، ولقد أخرجهم الخوف
عن أصلهم ، وأجلهم عن محلهم .

فقال الحارث : أسمع يا طريف ؟ إني والله ما إخالك كافا غرب لسانك
ولا منها شرة نزواتك ، حتى أسجلو بك سطوة تكف طماحك ،
وترد جماحك .

فقال طريف : مهلا يا حارث ، لا تعرض لذب (٧) سناني ، وغرب
سبابي .

(١) ٧٢ ج ١ الأمل (٢) تضاربا (٣) هو الذي أبوه عربي وأمه غير عربية

(٤) الخالص (٥) ائارنا : أخذنا بثأره (٦) الخروف

(٧) الذب : الحدة

فقال الحارث : إياي تخاطب بمثل هذا القول . فقال طريف : أما والأصنام المحجوبة ، والأصاب المنصوبة ، أئن لم تقف عند قدرك ، لأدعن حزنك سهلاً ، وصفاك وحلاً .

فقال الحارث : أما والله لو رمت ذلك لمرغت بالحضيض (١) وأغصصت بالجريض ، وضائق عليك الرحاب ، وتقطعت بك الأسباب .
فقال طريف : دون ما ناجت بك به نفسك مقارعة أبطال ، وحياض أهوال .

فقال الملك : أيها عنكما :

٢ - وراجع حديث النسوة اللواتي أشرن على بلى الملك بالتزوج ، ووصفهن لها بحاسن الزوج (٢) وقد سبق ذكره وراجع حديث أوس بن حارثة ووصيحتة لابنه مالك (٣) ، وحديث بعض مقاول حمير مع بنتيه وما دار بينهما وبينهما من الحوار ، حين كبرت سنه ، وهو حديث طريف ممتع (٤) . وما وقع بين عمرو بن براقة الهمداني وحريم المرادي من الأغارة وما قال عمرو في ذلك (٥) ، واجتماع عامر بن الظرب وحممة بن رافع عند ملك من ملوك حمير ، وتماورهما أمامه (٦) ، وحديث ابنة الخنس مع أبيها (٧) ، وما وقع لخاتم مع زوجته ماوية (٨)

٣ - وكان قس يفد على قيصر ويؤوره فقال له قيصر يوماً :

ما أفضل العقل ؟

قال : معرفة المرء بنفسه .

قال : فما أفضل العلم ؟

(١) هو القرار إذا اتصل بالجبل (٢) ٨٠ : ١ الأماي
(٣) ١٠٢ : ١ الأماي (٤) ١٥٢ : ١ الأماي (٥) ١٢٦ : ٢ الأماي
(٦) ٢٧٦ : ٢ الأماي (٧) ١٠٧ : ١ الأماي (٨) ١٥٢ : ١ الأماي

قال : وقوف المرء عند علمه

قال : فما أفضل المروءة ؟

قال : استبقاء الرجل ماء وجهه

قال : فما أفضل المال ؟

قال : ما قضى به الحقوق .

٤ - ومن أمثلة المفاخرة ما وقع من بعض سادات العرب أمام كسرى وقد قال لهم : ليتكلم كل رجل منكم بما أثر قومه ، وليصدق .

فأخذ : حذيفة بن بدر والأشعث بن قيس ، وبسطام بن قيس ، وحاجب ابن زرارة التميمي ، وقيس بن عاصم ، يعدد كل منهم ما أثر قومه ومفاخر أحسابه .
٥ - منافرة خالد والقعقاع التميميين :

نافر خالد القعقاع . إلى ربيعة بن حذار الأسدي فقال : هاتيا مكارمكما . فقال خالد : أعطيت من سأل ، وأطعمت من أكل ، ونصبت قدوري حين وضعت السماك ذيوطها ، وطعمت يوم شوا حظ (١) فارسا فجعلت نخذه بفرسه . فقال : يا قعقاع ما عندك ؟

فأخرج قوس حاجب ، وقال : هذه قوس عمي رهنها عن العرب ، وهاتان نعلا جدي قسم فيها أربعين مربعا ، وهذه زريبة (٢) زرارة لم ير ناره خائف إلا أمن ، ولم يمسك بطنب (٣) فسطاسه أسير إلا فك .

فأدى ربيعة بن حذار : أن السماحة واللاه (٤) والمرباع والشرف الأسبخ للقعقاع ، ألا إنني نفرت من كان أبوه معبدا وعمه حاجبا ، وجده زرارة (٥)

٦ - ومن أمثلة المتافرات منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين . وهي أشهر المتافرات في الجاهلية .

(١) من أيام العرب وكان لبني محارب على بني عامر

(٢) البساط (٣) جبل طويل يشد به السرداق

(٤) جمع لهوة وهي : العطية . (٥) هو القعقاع بن معبد بن زرارة التميمي

قيل لما (١) أسن أبو براء عامر بن مالك ، تنازع في الرياسة عامر بن (٢) الطفيل ، وعلقمة (٣) بن علاثة بن عوف بن الأحوص . فقال علقمة : كانت لجدى الأحوص ، وإنما صارت لعمك بسببه ، وقد قعد عمك عنها ، وأنا أسترجمها ، فأنا أولى بها منك ؛ فشري (٤) الشر بينهما ، وسارا إلى المنافرة ، فقال علقمة : إن شئت نافر تك ، فقال عامر : قد شئت ، والله إنى لأكرم منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول منك قصباً (٥) .

فقال علقمة : والله لأنا خير منك ليلاً ونهاراً ، فقال عامر : والله لأنا أنحر منك للقاح (٦) ، وخير منك في الصباح ، وأطعم منك في السنة الشياح (٧) . فقال علقمة : أنا خير منك أثراً ، وأحد منك بصراً ، وأعز منك نفراً ، وأشرف منك ذكراً .

فقال عامر : ليس لبنى الأحوص فضل على بنى مالك في العدد ، وبهرى ناقص ، وبصر كصحيح ، ولكنى أنا فرك ؛ إنى أسمى منك سمة (٨) ، وأطول منك قمة ، وأحسن منك لمة (٩) وأجمع منك جمعة (١٠) ، وأسرع منك رحمة ، وأبعد منك همة .

فقال علقمة : أنت رجل جسيم ، وأنا رجل قضيف (١١) ، وأنت جميل ،

-
- (١) راجع هذه القصة الأدبية في كتاب الأغاني ص ٥٠ ج ١ ، مذهب الأغاني ص ٦٨ ج ٢ ، نهاية الأرب ص ٢٧٢ ج ٣ ، بلوغ الأرب ص ٢٨٦ ج ٤
- (٢) من بنى عامر بن صعصعة : فارس قومه ، وأحد فتاك العرب وشعرائهم ولد ونشأ بنجد ، كريماً شجاعاً وفد على رسول الله يريد الغدر به ولم يسلم ، فمات في طريقه قبل أن يبلغ قومه سنة ١١ هـ (٣) علقمة بن علاثة : كان في الجاهلية من أشرف قومه ، أسلم ، وارتد في أيام أبي بكر فأنصرف إلى الشام ، ثم عاد إلى الإسلام وتوفي نحو سنة ٢٠ هـ (٤) شري : استطار (٥) يريد طول القامة
- (٦) اللقاح : الإبل (٧) الشياح : القحط (٨) السمة : القرابة
- (٩) الامة : الشعر المجاوز لثجمة الأذن (١٠) الجملة : مجتمع شعر الرأس
- (١١) قضيف : نحيف

وأنا قبيح ، ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى .

فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكن لأنافرك بهم ، لكنى أنافرك ؛ أنا خير منك عقباً ، وأطعم منك جدياً .

فقال علقمة : قد علمت أن لك عقباً ، وقد أطعمت طيباً ، ولكنى أنافرك ، إني خير منك ، وأولى بالخيرات منك .

فخرجت أم عامر - وكانت تسمع كلامهما ، فقالت : يا عامر نافره أيكماً أولى بالخيرات .

قال عامر : والله إني لأركب منك فى الحماة ، وأقتل منك للحماة (١) ، وخير منك للبولى والمولاة .

فقال له علقمة : والله إني لبر ، وإنك لفاجر ، وإني لولود وإنك عاقر (٢) ، وإني لعف ، وإنك لعاقر ، وإني لوفى ، وإنك لغادر ، فقيم تفاخرنى يا عامر ؟ فقال عامر : والله إني لأنزل منك للقفرة (٣) ، وأنحر منك للبكرة (٤) ، وأطعم منك للهبرة (٥) ، وأطعم منك للشجرة .

فقال علقمة : والله إنك لسكيل البصر ، نكد النظر .

فقال بنو خالد بن جعفر - وكانوا يداً مع بنى الأحوص على بنى مالك بن جعفر : لن تطيق عامراً ، ولكن قل له : أنافرك بخيرنا وأقربنا إلى الخيرات . فقال له علقمة هذا القول ؛ فقال عامر : عير وتيس (٦) ، وتيس وعنز ، نعم على مائة من الإبل إلى مائة من الإبل يعطاها الحكم ، أينما نفر عليه صاحبه

(١) الحكمة : جمع كى ، وهو الشجاع (٢) رجل عاقر : لم يولد له ولد

(٣) القفرة : الخلاء من الأرض (٤) البكرة : الفتية من الإبل

(٥) الهبرة : القطعة المجتمعة من اللحم

(٦) العير : الحمار ، وغلب على الوحش ، وهو أقوى من التيس ، أى مثلى وإياك

كالعير والتيس ، أو على الأقل كالتييس والعنز إذ التيس أقوى على النهطاح من العنز .

أخرجها ؛ ففعلوا ذلك ، ووضعوا بها رهناً من أبنائهم على يدى رجل يقال له خزيمه بن عمرو ؛ فسمى الغنمين .

وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد ، وخرج عامر فيمن معه من بنى مالك ، وجعلا منافرتهم إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية ، فلم يقل بينهما شيئاً ، وكره ذلك لحالهما ، وحال عشيرتهما ، وقال : أنتما كركبتى البعير الأدرم (١) . قالا : فأينا اليمين ؟ قال : كلا كما يمين ، وأبى أن يقضى بينهما . فانطلقا إلى أبى جهل بن هشام ؛ فأبى أن يحكم بينهما ، وقد كانت العرب تحاكم إلى قريش ؛ فأتيا عيينة بن حصن بن جذيفة ؛ فأبى أن يقول بينهما شيئاً ؛ فأتيا غيلان بن سلمة الثقفى ، فردهما إلى حرمة بن الأشعر المارى ، فأبى أن يقول شيئاً . ثم تداعيا إلى هرم بن قطبة ليحكم بينهما ، فرحلا إليه ، ومع كل واحد منهما ثلاثمائة من الإبل : مائة يطعمها من تبعه ، ومائة يعطيها للحاكم ، ومائة تعقر إذا حكم ؛ فأبى هرم بن قطبة أن يحكم بينهما مخافة الشر ، وأبى أن يرتحلا ؛ فقال هرم : لعمري لأحكم بينكما ، ثم لأفصلن ، فأعطيانى موثقاً أطمئن إليه أن ترضيا بما أقول ، وتسليما لما قضيت بينكما ، وأمرهما بالانصراف ووعدهما يوماً ، فانصرفا حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليه ، وأقام القوم عنده أياماً .

فجلا هرم بعلقمة ، وقال له : أترجو أن ينفرك رجل من العرب على عامر فارس مضر ؛ أئدى الناس كفا ، وأشجعهم لقاء ، لسان رمع عامر أذكر فى العرب من الأحوص ، وعنه ملاعب الأسنة .

فقال له علقمة : أنشدك الله والرحم أن لا تنفر على عامرا ، اجز ناصيتى ، واحتكم فى مالى ، وإن كنت لابد أن تفعل فسو بينى وبينه ، فقال : انصرف ، فسوف أرى رأيي ؛ فخرج وهو لا يشك أنه سيفضل عليه عامرا . ثم خلا بعامر فقال له : أعلى علقمة تفخر ؟ أنت تناوئله أعلى ابن

(١) درم العظم : وراه اللحم حتى لم يبين له حجم .

عوف بن الأحوص ! أعف بنى عامر ، وأيمنهم نقيبة . وأحلبهم وأسودهم ،
وأنت أعور عافر مشثوم ! أما كان لك رأى يزعمك عن هذا ! أكنت تظن
أن أحدا من العرب ينفرك عليه ؟ فقال عامر : نشدتك الله والرحم أن
لا تفضل على علقمة فوالله إن فعلت لا أولح بعدها أبدا ، هذه ناصيتي
فاجزها ، واحتكم فى مالى ، فإن كنت لابد فاعلا فسو بينى وبينه .
قال : انصرف فسوف أرى رأى ؛ فخرج عامر ، وهو لا يشك أنه
ينفرك عليه .

ثم إن هرما أرسل إلى بنيه وبنى أبيه : إني قاتل غدا بين هذين الرجلين
مقالة ؛ فإذا فعلت فليطرد بعضكم عشر جزائر (١) ، فليمنحرها عن علقمة ، ويظرد
بعضكم عشر جزائر ينحرها عن عامر ، وفرقوا بين الناس لا تكون لهم جماعة ،
فلما اجتمعوا حضر الناس للقضاء قام هرم ، وقال : يا بنى جعفر قد تمأكتما عندى ،
وأنتما كركبتى البعير الأدرم ، تقعان إلى الأرض معاً ، وأيس فيكما أحد إلا وفيه
ماليس فى صاحبه ، وكلاكما سيد كريم .

وعمد بنو هرم وبنو أخيه إلى تلك الجزر ففتحروها حيث أمرهم هرم ، وفرقوا
الناس ، ولم يفضل هرم أحدا منهما على صاحبه ، وكره أن يفعل - وهما ابنا عم -
فيجلب بذلك عداوة ، ويوقع بين الحيين شرا .

فارتحلوا عن هرم لما أعيامهم نحو عكاظ ، فلقبهم الأعشى منحدر من البن -
وكان لما أرادها قال لعلقمة : اعقدلى خيلا ، فقال : أعقدلك من بنى عامر ! قال :
لا يغنى عنى . قال : فمن قيس ! قال : لا . قال : فما أنا برائدك ، فأتى عامر بن الطفيل
فأجاره من أهل السماء والأرض ؛ فقال له : كيف تجيره من أهل السماء ؟
قال : إن مات وديته - فقال الأعشى لعامر : أظهر أنكما حكمتما نى ، ففعل ؛
فقام الأعشى ، ورفع عقيرته (٢) فى الناس فقال :

(١) جزائر : جمع جزور .

(٢) عقيرته : صوته .

حكمتموه فقضى بينكم أبلج مثل القمر الزاهر
لا يأخذ الرشوة في حكمه ولا يبالي خسر الخاسر
علمكم لا، لست إلى عامر النسا قض الأوتار والواتر
واللابس الخيل بخيل إذا نار عجاج السكبة (١) الثائر
إن تسد الخوص فلم تعدم وعامر ساد بني عامر
ساد وأني رهطه سادة وكابرا سادوك عن كابر

وشد القوم في أعراض الإبل المانة فعقروها ، وقالوا : نفر عامر
وذهبت بها الغوغاء ، وجهد علقمة أن يردها فلم يقدر على ذلك ؛ فجعل
ي تهدد الأعشى فقال :

أتماني وعيد الخوص من آل عامر فيا عبد عمرو لو نهيت الأحوصا
فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم وبحرك ساج (٢) لا يوارى الدعامها (٣)
كلا أبويكم كان فرعاً دعامة ولاكنهم زادوا وأصبحت ناقصا
تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى (٤) بيتن خمائصا (٥)
يراقبن من جوع خلال مخافة نجوم العشاء العاتمت الغوامها (٦)
رمى بك في أخراهم تركك الندى وفضل أقواما عليك مراهاها (٧)
فعض حديد الأرض إن كنت ساخطا بفيك وأحجار الكلاب الرواهها (٨)

(١) السكبة : الدفعة في القتال والحيلة في الحرب

(٢) سجي : سكن (٣) الدعموص : دويبة أودودة سوداء تكون في الغدران

(٤) غرث : جاع (٥) الخنائص : جمع خميصة ، ضامرة البطن أي

من شدة الجوع (٦) الغميصاء : إحدى الشعريين ، قال في القاموس : من

أحاديثهم : إن الشعري العبور قطعت المجرة فسميت عبورا وبكت الأخرى على

أثرها حتى غمضت ويقال لها الغموص أيضا (٧) راهص غريمه : راصده ،

قال في القاموس : والمراهص لم يسمع بواحداه (٨) الكلاب : موضع ،

والرواهص من الحجارة : التي تشكب الدواب ، والصخور الثابتة

فبكى علقمة لما بلغه هذا الشعر وكان بكأوه زيادة عليه في العار (١).
هذا والمحاورة : هي التماور والتراجع في الكلام والحديث . وهي من
ضرورات المجتمع والحياة .

والعرب كثيرو المحاورة لكثرة خصوماتهم ومفاخراتهم وتنازعهم على
الشرف وسواه .

وتشمل المحاورات : المنافرة والمفاخرة ، وسواهما من المحاورة العامة .
(أ) فالمنافرة : المحاكمة في المفاخرة ، وأصلها من قولهم : أينما أعز نفرا :
فهى التحاكم إلى الأشراف من حكام العرب ، ليفصلوا بينهما ، ويقضوا
بالشرف لأحدهما .

(ب) والمفاخرة : مصدر فخر ، وهى تفاخر القوم بعضهم على بعض ، وكانوا
يفخرون بالحسب والشرف والأخلاق الكريمة والعز والثروة
والكثرة والعدد .

(ج) والمحاورة العامة فى شئون الحياة بما لا يتصل بمفاخرة أو منافرة وهى
كثيرة ، كثرة مطالب الحياة وشئونها ودواعى اتصال الإنسان
بسواه من المجتمع .

- ٩ -

هـ - سجع الكهان وصور منه :

١ - حديث زبراء الكاهنة مع بنى رثام :

كان ثلاثة بطون من قضاة متجاورين بين الشحر وحضر موت وهم :
بنو ناعب ، وبنو داهن ، وبنو رثام ، وكان بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين

(١) راجع حديث هرم بن قطبة مع عمر بن الخطاب حول هذه المنافرة فى
البيان والتبيين (١٦٨ : ١)

على بنى رثام ، وكانت بنو رثام أقلهم عدداً وأشجعهم لقاء ، وكان لهم عجوز تسمى خويلة ، كان يدخل عليها أربعون رجلاً كلهم لها محرم : بنو إخوة ، وبنو أخوات ، وكانت خويلة عقيماً ، وكان لها أمة من مولدات العرب تسمى زبراء ، وكانت زبراء كاهنة .

فقال زبراء لخويلة : انطلقى بنا إلى قومك أنذرهم ، فأقبلت خويلة تتوكأ على زبراء ، فقاموا إجلالاً لها .

فقال : يا ثمر الأكياد ، وشجا الحساد ، هذه زبراء ، تخبركم عن أنباء ، قبل انحسار الظلماء ، بالمؤبد (١) الشنعاء ؛ فاسمعوا ما تقول ، قالوا : وما تقولين يا زبراء ؟ قالت :

واللوح الخافق ، والليل القاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، إن شجر الوادي ليأدو (٢) ختلاً ، ويحرق أنياباً عَصلاً (٣) ، وإن صخر الطود لينذر ثكلاً ، لا تجدون عنه معلاً (٤) .

وانصرف عنهم ، فانصرف منهم أربعون رجلاً ، وبقي ثلاثون ، فرقدوا في مشربهم ، وطرقتهم بنو راهن وبنو ناعب فقتلوهم أجمعين . وأقبلت خويلة عند الصباح ، فوقفت على مصارعهم ، ثم عمدت إلى خناصرهم فقطعتهم ، وانتظمت منها قلادة وألقته في عنقها (٥) .

٢ - وراجع حديث مصاد بن مذعور وخروجه في طلب الذود ، وما أخبر به الجوارى الأربع الطوارق بالحصا (٦) .

وحديث الرواد الذين أرسلتهم مذجج ووصفهم الأرض لقومهم بعد رجوعهم (٧) .

(١) الداهية والأمر العظيم (٢) أى يختل
(٣) حرق أنيابه : حك بعضها ببعض . والعصل : المعوجة
(٤) أى منجى (٥) راجع ١٢٦ ج ١ الأمالى
(٦) ١٤٢ ج ١ الأمالى (٧) ١٨٠ ج ١ الأمالى

واقراً حديث سواد بن قارب وكهانتة (١) ، وحديث ابنسة الخس
مع أبيها (٢)

ونوفود عبد المسيح - رسول كسرى - على سطيح الكاهن (٣) .

٣ - وكانت هند بنت عتبة زوجا للفاكة بن المغيرة المخزومي ، وكانت
داره ناديا لقومه فاتهمها الفاكة برجل واستلحقها بأبيها ، فخرج بها والدها
إلى بعض الكهان يستخبره عن أمرها ، وأخرج معها نسوة من قومها ، وأقبل
معهن الفاكة في رجال من قومه . فلما شارفوا ديار الكاهن رأى عتبة من
ابنته انكسارا وتغيرا ، فقال لها : يا بنية لا تكتميني من أمرك شيئا ، فإن
كان مابك لريبة نرجع ولا بأس عليك ، فقالت هند : لا والله يا أبت ،
ما ذاك لريبة ولا فاحشة ، ولكنكم تقدمون على بشر يخطئ ويصيب ، وأخشى
أن يسمنى بسمة ، تبقى على وصمة عار آخر الدهر ، قال : سأبلوه لك ، ثم
خبأ خبيثا ، واقبلوا حتى أتوا الكاهن ، فأخبرهم بخبيثهم ، ثم أقبل على هند
فقال : انهضى غير رسحاء ولا زانية . وستلدين ملكا اسمه معاوية .

ماهى الكهانة؟

والكهانة قد سبق الحديث عنها وهى تعرف الغيب من الأمور
المستقبلية أو الماضية .

وكان فى العرب كهان يتلبأون بالحوادث ، وللعرب اعتقاد كبير فيهم ،
فهم ملاذ المريض ، وطماينة الحائر ، والحكم فى الخصومة .

ومن أشهر هؤلاء الكهان : شق وسطيح الذئبي (٤) ، وطريفة الخير امرأة
عمرو بن عامر الحميرية وكانت باليمن وهى التى تلبأت بخراب سد مأرب ،

(١) ٢٨٩ ج ٢ الأمالى (٢) ١٠٧ ذيل الأمالى (٣) ١٧٨ ج ١ العقد ط ١٩٢٨

(٤) كانا متعاصرين فى زمن كسرى أنو شروان وولدا معا

ومتهم: فاطمة الخثعمية وكانت بمكة ، ولها قصة مع والد الرسول صلوات الله عليه وسلم عبد الله بن عبد المطلب قبل أن يتزوج بآمنة بنت وهب ، ومنهم زبراء ، وسواد بن قارب وغير هؤلاء كثيرون .

ويتحدث الرواة بأعاجيب كثيرة لأرائك الكهان وبعجائهم في الإخبار بالغيب ومعرفة الحوادث .

وكانت الكهانة منتشرة في الجاهلية قبل البعثة . وتدور غالباً حول : التبشير بذي يبعث ، وتفسير الرؤى ، ومعرفة ما خفي عنهم من الحوادث . وهي نوع من الفراسة والإلهام وصدق الحدس وصفاء الروح والقدرة على التحليق في جو سماوي مجرد عن حدود المادة ، وكثيراً ما تصدق النبوءات في مثل هذه الأحوال .

ويقول الجاحظ في البيان والتبيين :

(١) كان كهان العرب يتحاكم إليهم أكثر أهل الجاهلية ، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رثيا من الجن ، مثل حازي جهينة ، وشقي ، وسطيج ، وعزى سلبة . وأشباهمهم ؛ وكانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع . وكان ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى يحكمون وينفرون بالأسجاع وكذلك ربيعة بن حذار (١)

(ب) ومن أهل الدماء والنكرام ومن أهل اللسن واللقن ، والكلام الصحيح ، والأمثال السائرة . والمخارج العجيبة : « هند بنت الحنس » ، وهي الزرقاء . « وخمة بنت حابس » . وهما داهيتا نساء العرب كما يقول أبو عمرو ابن العلاء (٢) . ويذكر حوار الالبنة الحنس مع أبيها (٣)

(ج) ويذكر أسماء الكهان والحكام والخطباء والعلماء من قحطان (٤)

(١) ١٩٥ ج ١ البيان والتبيين : (٢) ٢٠٥ ج ١ المرجع

(٣) ٢١٢ ج ١ المرجع (٤) ٢٣٠ ج ١ المرجع

ومنهم - كما يقول - في الجاهلية . عبيد بن شربة ، وشق بن الصعب ،
وربيع بن ربيعة السطيج الذئبي ، والمأمور الحارثي ، والديان الحارثي الشريفيان
الكاهنان (١) .

صور من القمص الجاهلي

إيثار ابن مامة الإيادي (٢) :

خرج كعب (٣) بن مامة الإيادي في قنبل ، معهم رجل من بني النمر
ابن قاسط ، وكان ذلك في حر الصيف ؛ فضلوا وشح ماؤهم ، فكانوا
يتصافنون (٤) الماء - وذلك أن يطرح في القعب (٥) حصاة ، ثم يصب فيه
من الماء بقدر ما يغمر الحصاة ؛ فيشرب كل واحد منهم قدر
ما يشرب الآخر .

ولما نزلوا للشرب ، ودار القعب بينهم ، حتى انتهى إلى كعب ، رأى الرجل
النمرى يحد النظر إليه ؛ فآثره بمائه على نفسه ، وقال للساقى : اسق أخاك النمرى ،
فشرب النمرى نصيب كعب من الماء ذلك اليوم .

ثم نزلوا من الغد منزلهم الآخر ، فتصافنوا ببقية ما معهم ؛ فنظر إليه كنظره
أمس ، وقال كعب كقوله أمس ، وارتحل القوم ، وقالوا : يا كعب ؛ ارتحل
فلم يكن له قوة للنهوض ، وكانوا قد قربوا من الماء ، فقالوا له . رد يا كعب
لأنك وارد ، فمجز عن الجواب ، ولما أيسوا منه نخيموا عليه بثوب يمنعه من
السبع أن يأكله ، وتركوه مكانه ؛ فمات ونجا رفيقه .

(١) ٢٣١ ج ١ المرجع (٢) بلوغ الأرب ص ٨١ ج ١ ، المحاسن والمساوىء
٢٠٥ طبعة ليبزج ، الأمثال ص ١٦٧ ج ١ (٣) هو كعب بن مامة بن همر بن
ثعلبة الإيادي ، الذي يضرب المثل بجوده ، وكان أبوه ملك إياد
(٤) تصافنوا الماء : اقتسموه بالحصص (٥) القعب : القدح يروى الرجل

وفاء السموأل :

لما أراد امرؤ القيس المضى إلى قيصر ملك الروم ، أودع عند السموأل (١) دروعا وسلاحا وأمتعة ، تساوى جملة كثيرة ؛ فلما مات امرؤ القيس ، أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل ؛ فقال السموأل : لا أدفعها إلا إلى مستحقها ، وأبى أن يدفع اليه منها شيئا ، فمادوه ، فأبى ، وقال : لا أغدر بدمتي ، ولا أخون أمانتي ، ولا أترك الوفاء والواجب على .

فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره ، فدخل السموأل في حصنه (٢) ، وامتنع به ، فحاصره ذلك الملك . وكان ولد السموأل خارج الحصن ؛ فظفر به الملك ، وأخذه أسيرا ، ثم طاف حول الحصن ، وصاح بالسموأل ، فأشرف عليه من أعلى الحصن ؛ فلما رآه قال له : إن ولدك قد أسرته ، وهاهو ذا معي ، فإن سلمت إلى الدروع والسلاح ، رحلت عنك ، وسلمت إليك ولدك ؛ وإن امتنعت من ذلك ذهبت ولدك وأنت تنظر ؛ فاختار أيهما شئت .

فقال له السموأل : ما كنت لأخفر ذمامي ، وأبطل وفائي ؛ فاصنع ما شئت !

(١) راجع المستطرف ص ٢٠١ ج ١ ، الثغر ص ١٩ ، بلوغ الأرب ص ١٣٦ ج ١ ، والسموأل : هو السموأل بن غريص بن عادياء شاعر جاهلي حكيم أشهر شعره لاميته التي مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
ويضرب المثل بوفائه . توفي نحو سنة ٦٥ ق . هـ
(٢) هذا الحصن يسمى الأبلق الفرد ، وقد بناء أبوه يتجاوز فيه يقول السموأل :
لنا جبل يحتله من نجيره منيع يرد الطرف وهو كليل
هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره يعز على من رآه ويطول
رسا أصله تحت الثرى وسما به . إلى النجم فرع لا ينال طويل

فذهب ولده ، وهو ينظر . ثم لما عجز عن الحصن رجع خائباً ، واحتسب السوء وأل
ذهب ولده ، وصبر محافظاً على وفاته ؛ فلما جاء الموسم ، وحضر ورثة امرئ
القيس ، سلم اليهم الدروع والسلاح ، ورأى حفظ ذمائه ، ورعاية وفاته أحب
اليه من حياة ولده وبقائه ؛ وقال في ذلك :

وفيت بأدراع الكندي إني إذا ما خان أقوام وفيت

لاحر بوادي عوف (١) :

لما مات ليث بن مالك أخذت بنو عبس فرسه وسلبه (٢) ، ثم مالوا إلى
خبائثه فأخذوا أهله ، وسلبوا امرأته خماعة بنت عوف بن محلم ، وكان الذي
أصابها عمرو بن قارب وذؤاب بن أسما ؛ فسألها مروان (٣) القرظ بن زنباع
من أنت ؟ فقالت : أنا خماعة بنت عوف بن محلم ، فانتزعها من عمرو وذؤاب ،
لأنه كان رئيس القوم ، وقال لها : غطى وجهك ، والله لا ينظر اليه عربى حتى
أردك إلى أبيك ، وضمها إلى أهله ؛ حتى إذا دخل الشهر الحرام أحسن كسوتها
وأخدمها وأكرمها وحملها إلى عكاظ .

فلما انتهى بها إلى منازل بني شيبان قال لها : هل تعرفين منازل قومك ومزل
أبيك ؟ قالت : هذه منازل قومي ، وهذه قبيلة أبي قال : فانظمتي إلى أبيك ،
فانطلقت فخرت بصليح مروان .

ثم إن مروان غزا بكر بن وائل فقصوا أثر جيشه ، فأسرهم رجل منهم ،
وهو لا يعرفه ؟ فأتى به أمه ؛ فلما دخل عليها قالت له أمه : إنك لتبخنال بأسيرك
كانت جئت بمروان القرظ ؛ فقال لها : وماترتحين من مروان ؟ قالت : عظم

(١) راجع الأمثال ص ٢٩٩ ج ٢ ، بلوغ الأرب ص ١٢٥ ج ١

(٢) السلب : ما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه مما يكون معه وعلية من

سلاح ودابة (٣) سمي مروان القرظ . لأنه كان يغزو اليمى وهي منابت القرظ ،

ويضرب به المثل في العز ، فيقال : أعز من مروان القرظ .

فدائه . قال : وكم ترتجبن من فدائه ؟ قالت : مائة بعير ! قال مروان : ذلك لك على أن تؤديني إلى خماعة بنت عوف بن محم !

فمضت به إلى عوف (١) بن محم ، فبعث إليه عمرو بن هند أن يأتيه به . وكان عمرو وجد علي مروان في أمر ، فألى ألا يعفو عنه حتى يضع يده في يده . فقال عوف - حين جاءه الرسول : قد أجارته ابنتي ! وليس إليه سبيل ، فقال عمرو بن هند : قد آليت ألا أعفو عنه أو يضع يده في يدي . قال عوف : يضع يده في يدك علي أن تكون يدي بينهما ! فأجابه عمرو بن هند إلى ذلك .

فجاء عوف بمروان فأدخله عليه ، فوضع يده في يده ، ووضع يده بينهما فمعا عنه . وقال عمرو : لآخر بوادي (٢) عوف .

مصرع الزباء :

كان جذيمة (٣) قد ملك على شاطئ الفرات ، وكانت الزباء ملكة الجزيرة ، وكان جذيمة قد وترها بقتل أبيها ، فلما استجمع أمرها ، وانتظم شمل ملكها ، أحبت أن تغزو جذيمة ، ثم رأت أن تكتب إليه : إنها لم تجد ملك النساء إلا قبحاً في السماع ، وضعفاً في السلطان ، وإنها لم تجد لملكها موضعاً ، ولا لنفسها كفلاً غيرك ، فأقبل إلى لأجمع ملكي إلى ملكك ، وأصل بلادى ببلادك ، وتقلد أمرى مع أمرك .

فلما أتى كتابها جذيمة ، وقدم عليه رسلها استخفه مادعته إليه ، ورغب

(١) من أشرف العرب في الجاهلية ، كان مطاعاً في قومه ، قويا في عصبيته ، وكانت تضرب له قبة في عكاظ توفي نحو سنة ٤٥ ق . هـ

(٢) أي لا سيد به يناوئه .

(٣) مجمع الأمثال ص ٢١٣ ج ١ ، جمهرة الأمثال ص ٦٢

فيما أطعمته فيه ؛ فجمع أهل الحجا والرأى من ثقاته - وهو يومئذ ببقعة من شاطئ الفرات - وعرض عليهم مادعته اليه وعرضت عليه ، فاجتمع رأيهم على أن يسير اليها فيستولي على ملكها .

وكان فيهم قصير - وكان أريبا حازما أثيرا عند جذيمة - فخالفهم فيما أشاروا به ، وقال : رأى فاتر ، وغدر حاضر (١) . ثم قال لجذيمة : الرأى أن تكتب اليها ، فإن كانت صادقة في قولها فلتقبل اليك ، وإلا لم تمكنها من نفسك ، ولم تقع في حبالتها ، وقد وترتها وقتلت أباه . فلم يوافق جذيمة وقال له : رأيتك في المكان لا في الضح (٢) .

ودعا جذيمة عمرو بن عدى ابن أخته فاستشاره ، فشجعه على المسير وقال : إن قومي مع الزباء ولو رأوك صاروا معك ؛ فأجب جذيمة ما قاله ، وعصا قصيرا ، فقال قصير : لا يطاع لقصير أمر (٣) .

واستخلف جذيمة عمرو بن عدى على ملكه وسلطانه ، وسار في وجوه أصحابه ، فأخذ على شاطئ الفرات من الجانب الغربي ؛ فلما نزل دعا قصيرا فقال : ما الرأى يا قصير ؟ فقال قصير : ببقعة خلفت الرأى (٣) . قال : وما ظنك بالزباء ؟ قال : القول رداف ، والحرم عثراته تخاف (٣) .

واستقبلته رسل الزباء بالهدايا والألطاف ، فقال : يا قصير كيف ترى ؟ قال : خطب يسير في خطب كبير (٣) . وستلقاتك الجيوش ، فإن سارت أمامك فالمرأة صادقة ، وإن أخذت جنبتيك ، وأحاطت بك من خلفك فالقوم غادرون بك ، فاركب العصا (٤) فإنها لا يشق غبارها - وكانت العصا فرسا لجذيمة لانبجاري - ولاني راكبا ومسيرا عليها .

فلقيته الخيول والكتائب ، فحالت بينه وبين العصا ؛ فركبها قصير ، ونظر

(١) ذهببت مثلا (٢) الضح : الشمس وضوءها ، والكن : وقام كل شيء .
وستره ، ذهببت مثلا .

(٣) ذهببت أمثالا (٤) العصا : اسم فرس ،

إليه جذيمة على متن العصا مولياً ، فقال : ويل أمه حزماً على متن العصا (١) .
وجرت به إلى غروب الشمس ثم نفقت ، وقد قطعت أرضاً بعيدة .
وسار جذيمة وقد أحاطت به الخيل حتى دخل على الزباء . فلما رآته قالت :
أشوار (٢) عروس ترى ؟ فقال : أمر غدر أرى . ثم دعت بالسيف والنطع ،
وقالت : إن دماء الملوك شفاء من الكلب ، فأمرت بطست من ذهب قد أعدته
له ، وسقته الخمر حتى سكر ، وأخذت منه الخمر مأخذها ، فأمرت
براهشيه (٣) فقطعا ، وقدمت إليه الطست - وقد قيل لها : إن قطر من دمه
شيء . في غير الطست طلب بدمه - فلما ضعفت يداه سقطتا فقطر من دمه في غير
الطست ؛ فقالت : لا تضيّعوا دم الملك . فقال جذيمة : دعوا دماً ضيعه
أهله (٤) ؛ فملك جذيمة .

وخرج قصير من الحى الذى هلكت العصا بين أظهرهم ، حتى قدم
على عمرو بن عدى - وهو بالحيرة - فقال له قصير : أثار أنت ؟ قال : بل
ثار سائر (٤) .

ورافق قصير الناس وقد اختلفوا ، فأصلح بينهم ، ثم قال لعمرو بن عدى :
تهب واستعد ، ولا تطلن (٥) دم خالك . قال : وكيف لى بها وهى أمتع من
عقاب الجو (٤) ؟

وكانت الزباء سألت كاهنة لها عن هلاكها ، فقالت : أرى هلاكك بسبب
غلام مهين غير أمين ، وهو عمرو بن عدى ، وإن تموتى بيده ، ولكن حتفك
بيدك ، ومن قبله ما يكون من ذلك .

فحذرت عمراً ، واتخذت لها نفقا من مجلسها الذى كانت تجلس فيه إلى
حصن لها في داخل مدينتها ، وقالت : إن فاجأنى أمر دخلت النفق إلى

(١) ذهب أمثالا (٢) الشوار : الهيئة والزينة .

(٣) الراهشان : عرقان في باطن الذراعين (٤) ذهب أمثالا

(٥) طل دمه : هدر أو ألا يثار به .

حصنى ؛ ودعت رجلا مصورا من أجود أهل بلاده تصويراً ، وأحسنهم عملاً ، فجهرته وأجسدت إليه ، وقالت : سر حتى أقدم على عمرو بن عدى متذكراً ، فتخلو بحشمه فتنضم اليهم ، وتخالطهم وتعلمهم ما عندك من العلم بالصور ، ثم أثبت لى عمرو بن عدى معرفة ؛ فصوره جالسا وقائما وراكبا ومتفضلا ومتسلحا بهيئته ولبسته ولونه ، فإذا أحسكت ذلك فأقبل إلى .

فانطلق المصور حتى قدم على عمرو بن عدى ، وصنع الذى أمرته به الزباء وبلغ من ذلك ما أوصته به ، ثم رجع إلى الزباء بعلم ما وجهته له من الصورة على ما وصفت وأرادت أن تعرف عمرو بن عدى ، فلا تراه على حال إلا عرفته وحذرتة ، وعلبت عليه .

وقال قصير لعمر بن عدى : اجدع أنفى ، واضرب ظهري ، ودعنى وإياها ، فقال عمرو : ما أنا بفاعل ، وما أنت لذلك مستحقا عندى . فقال قصير : خل عنى إذن وخلاك ذم (١) . فقال له عمرو : فأنت أبصر . فجدع أنفه وأثر آثاراً بظهره ؛ فقالت العرب : لأمر ما جدع قصير أنفه (١) .

ثم خرج قصير كأنه هارب ، وأظهر أن عمرا فعل ذلك به ، وأنه زعم أنه مكر بخاله جديمة وغره ؛ فسار حتى قدم على الزباء ، فقبل لها : إن قصيرا بالباب . فأمرت به فأدخل ، فإذا أنفه قد جدع ، وظهره قد ضرب ؛ فقالت ما الذى أرى بك يا قصير ؟ قال : زعم عمرو أنى قد غررت خاله ، وزينت له المصير إليك وغششته وما لآتك ؛ ففعل بى ما ترين . فأقبلت إليك ؛ فأكرمته وأصابت عنده من الحزم والرأى ما أرادت .

فلما عرف أنها استرسلت إليه ، ووثقت به قال : إن لى بالعراق أموالا كثيرة وطرائف وثيابا . وعطرا فابعثني إلى العراق ؛ لأحمل مالى وأحمل إليك

من بزها (١) وطرائفها وثيابها وطيبها ، لتصيب من ذلك أرباحاً عظيمة ، وبعض ما لا غنى لله سلوك عنه ؛ وكان أكثر ما يطرّفها من الصرفان (٢) ، وكان يعجبها ، فلم يزل يزين ذلك حتى أذنت له ، ودفعت إليه أموالاً ، وجهزت معه عبيداً .

فسار قصير بما دفعت إليه حتى قدم العراق ، وأتى الحيرة متنكراً ، فدخل على عمرو بن عدى ، فأخبره الخبر ، وقال : جهزنى بصنوف البن والأمتعة لعل الله يمكن من الزباء ؛ فتصيب ثأرك ، وتقتل عدوك . فأعطاها حاجته .

فرجع بذلك إلى الزباء . فأعجبها ما رأت وسرها ، وازدادت به ثقة ، وجهزته ثانية . فسار حتى قدم على عمرو . فجهزه وعاد إليها .

ثم عاد الثالثة وقال لعمرو : اجمع لى ثقات أصحابك ، وهبي الغرائر واحمل كل رجلين على بعير فى غرار تين ، فإذا دخلوا مدينة الزباء أقمتك على باب نفقها ، وخرجت الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة ، فمن قاتلهم قتلوه ، وإن أقبلت الزباء تريد النفق جملتها بالسيف .

ففعل عمرو ذلك ، وحمل الرجال فى الغرائر بالسلاح ، وسار يكمّن النهار ويسرى بالليل ، فلما صار قريباً من مدينتها تقدم قصير فبشرها ، وأعلمها بما جاء به من المتاع والطرائف ، وقال لها : آخر البن على القلوص (٣) . وسألها أن تخرج فتتظر إلى ما جاء به وقال لها : جئت بما صاء وصمت (٤) .

ثم خرجت الزباء فأبصرت الإبل تسكاد قوائمها تسوخ فى الأرض من ثقل أحمالها ، فقالت يا قصير :

(١) البن : الثياب (٢) الصرفان : تمر رزين صلب
(٣) ذهبت مثلاً ، والبن : الثياب ، والقلوص : الأثني من الإبل الشابة
(٤) صاء : أراد بما صاء الشاء والإبل . وبما صمت : الذهب والفضة ، وهو يريد أنه جاء بكل شيء ، وقد ذهبت مثلاً

ما للجمال مشيها وتيدا أجنلا يحملن أم حديدا
أم صرفانا تارزا (١) شديدا

فقال قصير في نفسه : بل الرجال قبضا قعودا .

فدخلت الإبل المدينة حتى كان آخرها بعيرا مر على بواب المدينة وكانت
بيده منخسة . فتنخس الغرارة ، فأصابته خاصرة الرجل الذي فيها فسمع له
صوتا . فقال : شر في الجوالق (٢) .

فلما توسطت الإبل المدينة أنيخت ، ودل قصير عمرا على باب النفق الذي
كانت الزباء تدخله ، وأرته إياه قبيل ذلك ، وخرج الرجال من الغرائر ،
فصاحوا بأهل المدينة ، ووضعوا فيهم السلاح ، وقام عمرو على باب النفق
وأقبلت الزباء تريده ، فأبهرت عمرا فعرفته بالصورة التي صورت لها .
فصت خاتمها - وكان فيه السم - وقالت : بيدي لا بيد عمرو (٣) . وتلقاها
عمرو فجلبها بالسيف وقتلها ، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها وانكفا
راجعا إلى العراق .

شاس بن زهير :

ورد شاس بن زهير (٣) من عند النعمان بن المنذر ، وقد حباه أفضل
الحبوة : مسكا وكسا وقظفا (٤) وطنافس ، فأناخ ناقته في يوم شمال وقر (٥)
على ردهة (٦) في جبل رياح بن الأسك الغنوى ، وليس على الردهة غير بيته
بالجبل ، فألقى ثيابه بفنائه ، ثم قعد يهريق عليه الماء ، وامرأة رياح قريبة منه

(١) التارز : اليابس . (٢) ذهب أمثالا .

(٣) راجع الاغانى ص ١٠ ج ٨ ، وابن الاثير ص ٣٣٧ ج ١ ، مذهب الاغانى

ص ٨ ج ٢ (٤) النطيفة : دثار نخل ، جمعه قطف (بضم تين) (٥) الشمال :

الرياح التي تهب بين مطلع الشمس وبنات نعلش ، ويكون اسما وصفة ، والقيح البرد
(٦) الردهة . النقرة يجتمع فيها ماء السماء

وإذا هو مثل الشور الأبيض . فقال رياح لامرأته : أعطيني قوسي ، فمدت اليه قوسه وسهما ، وانتزعت المرأة نصله لئلا يقتله ، فأهوى عجلان اليه ووضع السهم في مستدق الصليب ، بين فقارتين (١) ففصلهما وخر ساقطا ، وحفر له حفرا ، فهدمه عليه ونحر جملة وأكاه ، وأدخل متاعه في بيته .

وفقد شاس وقص أثره ونشد ، وركبوا الى الملك ، فسألوه عن حاله ، فقال لهم : حبوته وسرحته ، فقالوا : وما متعت (٢) به ؟ قال : مسك ونطوع وقطف ، فأقبلوا يقصون أثره ، فلم تتضح لهم سبيله ؛ فكثروا كذلك ما شاء الله ، حتى انقطع ذكره .

قال الراوى : ثم إن الناس أصابتهم جائحة وجوع ، فنهحر زهير (٣) بن جذيمة - أبو شاس - ناقتة ، فأعطى امرأة من شحمها وسنامها ، وقال اشترى لي الهدب والطيب ، فخرجت بذلك الشحم والسنام تبيعه حتى دفعت إلى امرأة رياح . فقالت : إن معي شحمي أبيعه في الهدب والطيب ، فاشترت المرأة منها ، ثم أتت المرأة زهيرا بذلك ، فعرف الهدب ، وذهب إلى غنى ، فقالوا نعم ؛ قتله رياح بن الأسك ونحن برآء منه ، وقد لحق بخاله من بنى الطماح .

ولما تبين لزهير أن رياحا ناره قال يرثى شاسا :

بكيت لشاس حين خبرت أنه بماء غنى آخر الليل يسلب
لقد كان ما ناه الرداة (٤) لحتفه وما كان لولا غرة الليل يغلب
قتيل غنى ليس شـكل كشـكاه كذاك لعمرى الحين (٥) للبرء يحلب
سأبكي عليه إن بكيت بعبرة وحق لشاس عبرة حين تسكب

(١) الفقرة والفقارة : ما انتضد من عظام الصاب (٢) متع الرجل جاد .
(٣) هو زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي ، أمير عبس ، وأحد سادات العرب الممدودين في الجاهلية ، قتله خالد بن جعفر العامري نحو سنة ٥٠ ق . هـ
(٤) الرداة : الصخرة (٥) الحين : الهلاك

وحزن عليه ما حيدت وعولة على مثل ضوء البدر أو هو أعجب
إذا سيم ضيما كان للضميم منكرا وكان لدى الهيجاء (١) يخشى ويرهب
وإن صوت الداعي إلى الخير مرة أجاب لما يدعو له حين يسكرب
ففرج عنه ثم كان وليه فقلبي عليه لو بدا القلب ملهب

ثم انصرف إلى قومه من بني عبس ، فكان لا يقدر على غنوى إلا قتله ،
وتجهز بنو عبس لغزو غنى قبل أن يطلبوا قودا أو دية ، وتولى رياستهم
الحصين بن زهير أخو شاس ، والحصين بن أسيد بن جذيمة ابن أخى زهير ،
فقبل ذلك لفتى ، فقالت لرياح : انج لعننا نصالح على شيء أو نرضيهم
بدية وفداء .

فخرج رياح رديفاً لرجل من بني كلاب ، فبينما هما سائران إذا هما بالقوم
أدنى ظلام (٢) ، وقد كانا يظنان أنهما خالفاً وجهة القوم ، قال صاحبه لرياح :
اذهب فإنى آتى القوم أشاغلم عنك ، وأحدثهم حتى تعجزهم ، ثم أنا ما ضر إن
تركونى ، فانهدر رياح عن عجز الجمل فأخذ أدارجه ، وعدا إثر الراحلة حتى
أتى صفة ، فاحتفر تحتها مثل مكان الأرنب فوج فيه ، ثم أخذ نعليه ، فجعل
إحداهما على سرتة ، والآخرى على صفة (٣) ، ثم شد عليهما العمامة ، ومضى
صاحبه حتى لقي القوم فسألوه ، فحدثهم وقال : هذه غنى كاملة ، وقد دنوت
منهم ، فصدقوه وخلوا سربه ، فلما ولى رأوا مركب الرجل خلفه ، فقالوا :
من هذا الذى كان خلفك ؟ قال : لا مكذبة ذلك رياح فى الأول من السمرات ،
فقال الحصينان لمن معهما : قفوا علينا حتى نعلم عليه ، فقد أمكننا الله من ثأرنا
ولم يريد أن يشركهما فيه أحد ، فمضيا ووقف القوم عنهما ، فلما رآهما رياح
رمى الأول منهما فبتر صلبه ، وطعنه الآخر قبل أن يرمى به ، وأراد السرة
فأصاب الريلة (٤) ومر الفرس يهوى به ، فاستدبره رياح بسهم ، رشق به صلبه

(١) الهيجاء : الحرب ، (٢) أدنى ظلام : أدنى شيء
(٣) الصفن : وعاء الخصية (٤) الريلة : أصول الأنثاء

فانفق منحنى الأوصال ، وندت فرسهما فلاحقتا بالقوم . وانطلق رياح حتى
ورد ردهة ، عليها بيت أنمار بن بغيض ، وفيه امرأة ولها ابنان قريبان منها ،
وجمل لها راتع في الجبل ، وقد مات رياح عطشاً ، فلما رآته يستدعى طمعت
فيه ، ورجت أن يأتيها ابناها فقالت له : استأسر ، فقال لها : دعيني ويحك
أشرب ! فأبت ، فأخذ حديدة فجذم بها رواهشها (١) ، وعب في الماء حتى نهل
ثم قال فيها وفي الحصينين :

قالت لي استأسر لتكنفني (٢) حيناً ويعلو قولها قولي
ولأنت أجزاً من أسامة أو منى غداة وقفت للخييل
إذ الحصين لدى الحصين كما عدل الرجاجة (٣) جانب الميل

خالد بن جعفر بن كلاب :

لما (٤) قتل خالد بن جعفر بن كلاب زهير بن جذيمة العبدي ضاقت به
الأرض ، وعلم أن غطفان غير تاركيه ، فخرج حتى أتى النعمان فاستجار به
فأجاره ، ومعه أخوه عتبة بن جعفر .

ونقض قيس بن زهير فتياً لمحاربة بني عامر ، وهجم الشتاء ، فقال الحارث
ابن ظالم : يا قيس أنتم أعلم وحربكم ، وأنا راحل إلى خالد حتى أقتله ! قال قيس :
قد أجاره النعمان ! قال الحارث : لأقتله ولو كان في حجره !

وكان النعمان قد ضرب على خالد وأخيه قبة ، وأمرهما بحضور طعامه
ومداهمه (٥) .

(١) جذم : قطع ، الرواهش : عروق ظاهر الكف (٢) كنفه : أحاط به وآواه
(٣) الرجاجة : شيء يكون مع المرأة في هودجها فإذا مال أحد الجانبين وضعت
في الناحية الأخرى ليعتدل .

(٤) الأمثال ص ٢٣٤ ج ٢ ، عيون الأخبار ص ١٨٣ ج ١

(٥) المدام : الخمر .

فأقبل الحارث ومعه تابع له من بني محارب فأتى باب النعمان ، فاستأذن فأذن له النعمان وفرح به . فدخل الحارث ، وكان من أحسن الناس وجهاً وحديثاً ، وأعلم الناس بأيام العرب ؛ فأقبل النعمان عليه بوجهه يحدّثه ، وبين أيديهم تمر ياكلونه .

فلما رأى خالد إقبال النعمان على الحارث غاظه ذلك ، فقال : يا أبا ليلى ؛ ألا تشكرني ؟ قال علام ؟ قال : قتلت زهيراً فصرت بعده سيد غطفان . وفي يد الحارث تمرات ، فاضطربت يده ، وجعل يردد ويقول : أنت قتلتني ! ! ! والتمر يسقط من يده .

ونظر النعمان إلى ما به من الزمعة (١) ، فنخس خالداً بعصاه وقال : هذا يقتلك ، فقال : أبيت اللعن ! فوالله لو كنت نائماً ما أيقظني ! وافترق القوم ، وبقي الحارث عند النعمان ، وأشرح (٢) خالد قبته عليه وعلى أخيه وناما .

وانصرف الحارث إلى رحله ، فلما هدأت العيون خرج بسيفه حتى أتى قبة خالد فهتك شرجهم (٣) بسيفه . ودخل فرأى خالداً نائماً وأخوه إلى جنبه ، فأيقظ خالداً ، فاستوى قائماً ، فقال له الحارث : يا خالد أظننت أن دم زهير كان سائغاً لك ؟ وعلاه بسيفه حتى قتله ، وانقبه عتبة . فقال له الحارث : لن نبست (٤) لألحقنك به !

وانصرف الحارث ، وركب فرسه ومضى على وجهه ، وخرج عتبة صارخاً حتى أتى باب النعمان فنادى : يا سوء جواره ! فأجيب : لا روع عليه ! فقال : دخل الحارث على خالد فقتله ، وأخفر (٥) الملك .

فوجه النعمان فوارس في طلبه فلاحقوه سحراً فمطف عليهم ، فقتل جماعة منهم وكثروا عليه ، فجعل لا يقصد جماعة إلا فرقها ، ولا لفارس إلا قتله .

(١) هو شبه الرعدة تأخذ الإنسان (٢) أشرح الخيمة : أدخل بعض عراها في بعض بين أشراجها (٣) الشرج : عرا الخيمة (٤) نبس : أقل الكلام (٥) أخفر الملك : نقض عهده وغدره .

فارتدع القوم عنه ، واهصرفوا إلى النعمان . فقال عمرو بن الإطابة :

علماني وعلملا صاحبيا واسقياني من المروقي ربا
إن فينا القيان يعزفن بالضر ب لفتياننا وعيشاً رزيا
يتناهين في النعيم ويضربون خلال القرون مسكاذكيا
أبانا الحارث بن ظالم الرء (١) ديد والناذر الذور علميا :
إنما تقتل النيام ولا تق تل يقظان ذا سلاح كميا (٢)

وكان عمرو قد آلى ألا يدعوه رجل بليل إلا أجابه ، ولم يسأله عن اسمه
فأتاه الحارث ليلاً فتهتف به ، فخرج إليه ، فقال : ما تريد ؟ قال : أعني على لابل
لبني فلان ، وهي منك غير بعيد ، فإنها غنيمة باردة !

فدعا عمرو بفرسه ، وأراد أن يركب حاسرا ، فقال له : البس عليك
سلاحك ، فإنني لا آمن امتناع القوم ، فاستلأم وخرج معه ، حتى إذا برزا
قال له الحارث : أنا أبو ليلي نخذ حذرك يا عمرو ، فقال له : امنن علي . فجوز
ناصيته ، وقال :

علماني بلذتي قيلتيا قبل أن تبكي العيون علميا
قبل أن تذكر العواذل أني كنت قدما لأمرهن عصيا
ما أبالي إذا اصطبحت ثلاثاً أرشيدا دعوني أم غويا
غير ألا أسر لله إثميا في حياتي ولا أخون صفيا
بلغتني مقالة المرء عمرو بلغتني وكان ذاك بديا
فخرجنا لموعد فالتقينا فوجدناه ذا سلاح كميا
غير ما نائم يروع بالليل معدا بكفه مشرفيا
فرجعنا بالمن منا عليه بعد ما كان منه منا بديا
وهذه القصص كلها مع أنها بأسلوب الرواة فيها ملامح جاهلية وشبهه
بأسلوب الجاهليين في النثر .

(١) الرعيد : الجبان (٢) السكي : الشجاع ،

الباب الثالث

الشعر الجاهلي

-- ١ --

تمهيد : ماهو الشعر ؟

عرفه أرسطو بأنه كلام مخيل مؤلف من أقوال موزونة متساوية والمخيل هو الكلام الذي يتفعل له الإنسان انفعالا نفسانيا غير فكري (١). وعرفه قدامة وابن رشيق بأنه كلام موزون مقفى يدل على معنى (٢). ويقول المعري : الشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحسن (٣). ويقول ابن خلدون : الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارات والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة (٤)، والشاعر من شعر يشعر وإنما سمي شاعرا لأنه يشعر من معاني القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره، فكل من كان خارجا عن هذا الوصف فليس بشاعر وإن أتى بكلام موزون (٥) فإذا لم يكن عند الشاعر تأكيد معنى ولا اختراعه أو استظراف النظر وابتداعه كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ولم يكن له إلا فضل الوزن (٦). ويعرفه المحدثون بأنه الكلام المنظوم الذي يعتمد فيه صاحبه على الخيال

(١) راجع الفن التاسع - الشعر - من الشفاء لابن سينا

(٢) ١٣ نقد الشعر ، ١ : ٩٩ العمدة (٣) ٥٥ رسالة الغفران للمعري

(٤) ٥٧٣ مقدمة ابن خلدون (٥) ٧٧ نقد النثر (٦) ٩٦ : ١ العمدة

ويقصد فيه إلى الجمال الفني (١)، وبأنه الكلام الموزون المقفى الذى يهور
العاطفة (٢) ويعرفه الرصافى بأنه مرآة من الشعور تنعكس فيها صور
الطبيعة بواسطة الألفاظ انعكاسا يؤثر فى النفوس (٣)، ويقول آخر : هو
الحياة باكية وضاحكة ناطقة وصامتة (٤)، ويقول أرتولد : هو كمال اللغة
البشرية فيه يقرب الإنسان من الحق ويجسر على أن يفوه به (٥) ويقول
كارليل : الشعر الحقيقى هو الموسيقى الأزلية التى يسمعها الشاعر من وراء
الوجود (٦)، ويقول غيره : هو المحاولة الخالدة للتعبير عن روح الأشياء (٧)

وبعد فالشعر إلهام يفيض على القلب من عالم الروح ويلبس ثوبا من
الخيال الساحر وينطق بلغة العاطفة الشاعرة ويحدث آثارا بعيدة فى المشاعر
والوجدان ويستشف معانى الحياة فى كل شىء نفسكر فيه ونحس به فى هذا
الوجود، والشاعر ملك يغنى على قيثاره الفن الخالدة ليعبث معانى الطفولة
السامية والصوفية المتبلة فى الحياة وليشرق بفننه مع الفجر روحية وطهرا
ومع الصبح نورا وسحرا ومع الضمى قوة وحرارة ومع الأصيل هدوءا
وجمالا ومع الليل رهبة وروعة، وهو منذ الأزل يغنى وسيعيش فى سرحة
الفن يملأ الوجود شذوا وغناء، فى سبيل أداء الرسالة التى حملها والتى نبط
بها بعث الجمال وإيقاظ الشعور وتحديد الأخلاق والسمو بالعواطف ليصل
حيوان الأرض الناطق إلى مستوى ملك السماء الطاهر العظيم.

(١) ٣٢٧ الأدب الجاهلى

(٢) أصول النقد الأدبى للشايب، ويقول وردزورث : الشعر هو الحقيقة
الرائمة التى تصل إلى القلب بواسطة العاطفة، ويقول رسكن : هو عرض البواعث
النبيهة للمواطن النبيلة بواسطة الخيال (٩٦ مملكة الجمال لمحمود قراطة ١٩٣٧)

(٤) ١٦٩ ج ١ المرجع

(٣) ٨٥ ج ١ سحر الشعر

(٦) ٢١ ج ١ المرجع

(٥) ١٦٧ ج ١ المرجع

(٧) ٩٦ مملكة الجمال

آراء في الشعر :

١ - الشعر عند بعض الأدباء الكلام البليغ المؤثر ، الذي يصور الشعور والإحساس والعاطفة ، وينطق عن حسن تخيل ودقة معان وجمال إلهام ، فهو على هذا لا يجب أن يكون موزوناً ، فالنثر قد يكون شعراً إذا اشتمل على لطف التخيل وروعة الشعور ، ولقد قال حسان لابنه عند ما وصف له ذنبوراً لسمعه فأحسن الوصف وسماه به إلى درجة جميلة من جمال الخيال والتخيل ، قال : قد قلت الشعر ورب الكعبة يا بني ، وروى عن الأصمعي أنه قال : قلت لبشار بن برد إني رأيت رجال الرأي يتعجبون من أبياتك في المشورة فقال : أنا علمت أن المشاور بين إحدى الحسينيين بين صواب يفوز بشمرته ، أو خطأ يشارك في مكروهه ، فقلت له : والله أنت في كلامك هذا أشعر منك في أبياتك ، فقد جعل الأصمعي وناهيك به من إمام في الأدب كلام بشار شعراً ، إذ قال له « أنت في هذا الكلام أشعر » ، واسم التفضيل يقتضي المشاركة والزيادة ؛ فهذا أيضاً يدل على أنهم لا يخلصون الشعر بالمنظوم وأن الشعر قد يكون منشوراً . ولم يسم المنظوم شعراً لكونه ذا وزن وقافية ، بل لكونه في الغالب يتضمن المعاني الشعرية . أو لأن العرب في الغالب لا تنظم الكلام إلا شعراً . ويؤيد ذلك أن العرب عدوا القرآن شعراً لسحره وروعة تصويره وبليغ أثره .

٢ - وجمهور الأدباء على اشتراط الوزن في الشعر . ويقتصر بعضهم على الوزن مع الخيال والعاطفة والشعور والإحساس والإلهام الفني الخاص ، وهؤلاء لا يشترطون في الشعر أن يكون مقفى بل هم يزدرون القافية ويدعون إلى اطراحها لأنها وإن تعددت في القصيدة الواحدة - بحمل كل قسم من أقسامها على قافية - هي قيد للشاعر وعبة ثقيل عليه إذ لا تدع الشاعر حراً في إظهار ما يريد من معنى أو شعور ، وهي عند السبب الأكبر في تأخر

الشعر العربي عن الشعر في الآداب الغربية ، ويرون أنها د عضو أثرى قد
بقي من كلمات كان يكررها في آخر كل بيت النادب في المناحات والمتحمس
في الحرب والصدام ، يوم تولد الشعر في عصور الجاهلية الأولى ، ولا بد من
زواله بالتام لعدم فائدته اليوم ولتقييده الشعر فلا يتقدم حراً كبقية الفنون ،
فإذا حرر الشعر من قيد القافية انصرف الشعراء إلى المعاني التي يريدونها
لا إلى الألفاظ ، وإلى إظهار الشعور الحقيقي الذي تجيش به نفوسهم لا إلى
الشعور الكاذب الذي تضطرم إلى تصنعه ضرورة القافية وضرورة كونها
على صورة خاصة من صور الأعراب في آخر كل بيت (١) .

ويرى الآخرون تعدد القوافي ، ويقولون : إنه إذا اتسعت القوافي
لشتى المعاني والمقاصد ، وانفرج مجال القول بزغت المواهب الشعرية على
اختلافها ، ورأينا بيننا شعراء الرواية وشعراء الوصف وشعراء التمثيل .
وما كانت العرب تذكر القافية المرسلة فقد كان شعراؤهم يتساهلون
في التزام القافية (٢) كما في قول الشاعر :

ألا هل ترى إن لم تكن أو مالك بملك يدي أن الكفاء قليل
رأى من رقيقه جفاء وغلظة إذا قام يبتاع القلوص ذميم
فقال أقلا واتركا الرجل انى بمهلك والعاقبات تدور
فبيناه يشرى رحله قال قائل لمن جمل دخو الملاط نجيب
وكقول غيره :

بنات وطاء على خد الليل لا يشكين عملا ما أيقين

(١) من مقال للشاعر جميل صدقي الزهاوي نشره في السياسة الأسبوعية

عدد ٣ - ٩ - ١٩٢٧

(٢) قد يكون ما ذكره من ذلك ليس إلا بقايا من آثار التطور الفني في
الشعر العربي في عصور نشأته الأولى . كما أن اختلاط الوزن في قصيدة عبيد بن
الأبرص كان أثرا من آثار التطور الفني في الشعر العربي في عصور نشأته الغابرة .

وقول الآخر :

جارية من ضبّة بن أد كأنها في درعها المنعط

فعندهم القافية ليست من الشعر لان الشعر بالوزن وحده فهو الموسيقى التي تميزه من النثر . وما الحرص على بقاء القافية المشتركة في القصيدة إلا نتيجة الإلف والعادة فإذا ألفت الاسماع الشعر المرسل استهجنتم القوافي كما تستهجن الأذواق اليوم السجع في النثر .

ويرى هؤلاء أنه ليس في الاوزان القديمة كبير ضرر وهي في الأغلب أرقى من الاوزان العربية لأن أكثر البحور مركب من تفاعيل مختلفة بخلاف ما تألف من مقاطع متشابهة ؛ والتركيب دليل الرقي . نعم قد لا يوافق في رأيهم أكثر هذه الاوزان ضروب الغناء العصري والذنب في ذلك كما يقولون على العربية نفسها فهي لا تلائم الأغاني الحديثة .

وهؤلاء لا يتقيدون بأوزان الخليل المأثورة ، فعندهم الاوزان العربية ليست ستة عشر وزناً كما هو الشائع بل هي مع تفرعاتها قد تزيد على الخمسين ومن الميسر إكثار هذا العدد .

ويدعو بعضهم إلى التجديد في أوزان الشعر الحديث وفق ما يقتضيه الذوق وروح العصر ؛

٣ - والجمهور على جعل القافية شرطاً أساسياً في الشعر ، ولا مانع عند بعضهم من تسهيل صعوبات القافية بتعدد القوافي في القصيدة الواحدة حسب أغراضها أو على نهج الخمسات والمربعات والموشحات والاراجيز وما شاكل ذلك ؛

٤ - ولكن هل الشعر لفظ ووزن وقافية فحسب ، يرى النقاد أنه لا يكفي فيه ذلك وأنه لا بد أن يشتمل على معنى لطيف أو حكمة بارعة أو تشبيه جميل أو خيال بارع ، فالمعنى عنصر من أهم عناصره

وهذا حق وصدق ، فالشعر لا بد أن يحتوى مع الوزن والقافية على إلهام
فنى رائع وشعور بالجمال مرهف وإحساس بالسكون والطبيعة والبيئة دقيق .
لا بد فيه من المعنى والخيال والعاطفة والشعور بالجمال وروعة التصوير له
وعمق النفوذ إلى أسرار المشاعر الإنسانية العامة ، ليسكون شعرا وليسكون له
أثره ومكانته فى الشعر .

ولو كان الشعر هذه الألفاظ الموزونة المقفاة . فحسب لكان لغوا من
الكلام والشعور والإحساس .

يقول الإمام محمد عبده : « لو سألوا الحقيقة أن تختار لها مكانا تشرف
منه على السكون لما اختارت غير بيت من الشعر ، وقديما قال كعب الأحبار :
الشعراء أنا جيلهم فى صدورهم تنطق ألسنتهم بالحكمة » .

نشأة الشعر

-- ١ --

الشعر الجاهلى لا يعقل أن يكون قد بدأ كما وصل إلينا فى هذه
القصائد الطويلة المهدية التى يظهر فيها أثر الفن والجمال ، بل لا بد أن يكون قد
قطع مراحل كثيرة خلال الأجيال ، حتى وصل إلينا على هذه الصورة
الفنية الكاملة .

وليس من المعقول أن يكون امرؤ القيس أو مهلهل هو أول من ابتكر
الشعر ونظمه وقلده فيه الشعراء ، أليس هو الذى يقول :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خنّام

وابن خنّام هذا شاعر جاهلى قديم ، قبل امرئ القيس طبعاً ، ولا يعرف
عنه ولا من أخباره شيئاً (١) .

ويقول زهير :

ما أرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من قولنا مكروراً

ويقول عنتره :

هل فادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

إننا لا نعرف شيئاً عن نشأة الشعر ، ومن غير شك أنه سار في مراحل كثيرة حتى صار فناً مستقلاً مقصوداً وانفصل عن الغناء ، ثم أولاه الشعراء عناية فنية كبيرة ، وقالوا في أغراض الحياة الجديدة التي لم يقولوا فيها من قبل .
ويهمنا أن نبحث عن التدرج الفني في نشأة الشعر ، ثم نعرض للأراء في تاريخ نشأته ، ثم نعرض لذكر قدامى الشعراء الجاهليين .

- ٢ -

ولو صف التدرج الفني في نشأة الشعر نقول :

مر على كلام العرب ثلاثة أدوار انتقل فيها بهر الزمان من طور إلى طور :
فأولها دور البساطة وهو الدور الذي كان الكلام فيه بسيطاً ساذجاً خالياً من كل تفنن في أسلوبه وتصنع في ألفاظه .

ثم ارتقى مع الزمان بالتدريج حتى وجدت فيه القافية فانتقل بها إلى دوره الثاني وهو دور السجع . والسجع هو الكلام المقفى أو موالاته الكلام على روى واحد . ولا شك أن هذا السجع إنما وجد بادية بدء في كلام بعض الأفراد وربما كان وجوده بطريق المصادفة إذ قد يتفق للمتكلم أن يأتي في كلامه بمجملتين متفقتين في الآخر في حرف واحد من غير قصد ، وسواء كان وجود أول سبعة في كلام العرب ناتجاً عن قصد أو غير قصد فلا بد أنها قد أعجبت السامعين ، وكان لها وقع في نفوسهم لكونها شيئاً جديداً في الكلام لم تطرق أسماعهم من قبل . ولا عجابهم بها صاروا يقلدون قائلها ويبارونه في النطق بما يماثلها حتى كثر السجع وفشا في كلامهم .

كان السجع فاشياً في كلام العرب الأولين من أهل الجاهلية ؛ وكانوا

يلتزمون السجع في أكثر كلامهم ، لاسيما في خطبهم ومنافراتهم
ومناخراتهم سواء في ذلك رجالهم ونسأؤهم حتى ولدانهم وجواريتهم الصغار ؛
وكتب الأدب مشحونة بأسجاعهم فإذا رجعت إليها وتدبرتها علمت أن العرب
مارسوا السجع وذاولوه في أزمنة طويلة حتى طبعوا عليه ، فأصبح لهم طبيعة
تثقل فيهم بالإرث الطبيعي من الآباء إلى الأبناء .

ثم إن الكلام بعد أن دخل في دور السجع أى القافية واستمر فيه قروناً
عديدة ارتقى منه إلى دوره الثالث وهو دور الوزن . وبما لا يستراب فيه أن
الوزن في الكلام قد تولد من السجع .

ومن الجائز أن يكون الكلام قد أتى موزوناً من غير قصد كما نراه واقعاً
في كلام الناس ومخاوراتهم كل يوم ، وقد وقع ذلك في القرآن أيضاً ، فتأتى
قربلتان من الكلام المسجع متعلقتين في الحركات والسكنات ، وذلك
هو الوزن .

وساعد على الوصول إلى الوزن : الغناء ، والسجع فالمسافة بين الكلام
والوزن قد قصرت بالسجع وازدادت قصراً باقتران السجع بالغناء فاقتران
السجع بالغناء يزيد احتمال وقوع الوزن فيه بطريق الاتفاق والمصادفة ، كما
ساعد على ذلك الرقص ، واحتمال وقوع الوزن في الكلام بطريق
المصادفة يختلف قوة وضعفاً باختلاف الأوزان الشعرية ببساطة وتركيبها فما
كان من الأوزان أبسط كان ذلك الاحتمال فيه أكثر وأقوى والعكس بالعكس ،
ونعني ببساطة الوزن هنا سهولته على القريحة وخفته على الطبع وقرب مأخذه
من الكلام المنثور ، بحيث يكون انطلاق اللسان به سهلاً وجري الطبع
عليه هيناً .

وإذا نظرنا في أوزان الشعر وجدنا أبسطها الرجز إذ هو أسهلها على القريحة
وأخفها على الطبع وأقربها إلى النثر ، وما الفرق بينه وبين الكلام المسجوع
سوى وزن قريب المأخذ سهل التناول ، حتى يصح أن يقال إن كل شاعر

تبدأ شاعريته بالرجز ، وما ذلك إلا لسهولة وقرب مأخذه .
ويؤيد كون الرجز أول ما ظهر من الشعر ما ذكرناه من أن الرجز
أقدم الشعر .

وقد كان الشعر كله عندهم اسمان : الرجز والقصيد . فكل ما لم يكن رجزاً
سموه قصيداً من أى بحر كان ، ويدل على ذلك قول الأغلب الراجز العجلى لما
استنشدته المغيرة بن شعبه وهو على الكوفة :

أرجزا تريد أم قصيدا لقد سألت هينا موجودا

فالشعر عندهم إما رجز وإما قصيد ولا ثالث لهما . والقصيد اسم جلس
جمعى واحده قصيدة . وإذا كان الرجز أقدم من القصيد لزم أن يكون هو
أول وزن تولد من الكلام المسجع وذلك ما يؤيده .

والخلاصة أن السجع حلقة اتصال بين النثر والنظم وإن الوزن متولد
من السجع وإن أول ما وجد من أوزان الشعر هو الرجز وإن الشعر نشأ عن
المصادفة وساعد على ظهوره الغناء والرقص .

يقول الرصافي : الرجز مأخوذ من توقيع سير الجمال فى الصحراء بحجة
أنه أول ما استعمله العرب لسوق الجمال فى الحداة هكذا قال كثير ، ومن
الغريب أن صاحب هذا رأى قد ادعى أن تقطيع الرجز يوافق وقع خطى
الجمال مع أن فى تقطيعه من سرعة الانحدار والتسرد وتدارك المقاطع مليناً فى
كل المنافاة وقع خطى الجمال ، لما فى تلك الخطى من التؤدة والزانة بسبب
انفساح مواقعها وطول القوائم المرتمية من تحت تلك الجثة العالية الضخمة .
ولو سلمنا أن تقطيع الرجز يوافق وقع خطى الإبل لما سلمنا أنه يلزم
من ذلك كون الرجز مأخوذاً من وقع تلك الخطى إذ لو لزم منه ذلك
للزم أن يكون وزن السكامل ولا سيما مجزؤه مأخوذاً أيضاً من وقع
خطى الجمال بطريق الأولى لأنه يوافق وقع تلك الخطى أكثر من الرجز
ويطابقها تمام المطابقة ، حتى إنك لو امتطيت جملاً وجعلت وهو سائر بك

سيراً وتبدأ تلمس عليه شعراً من الكامل أو مجزوءه لرأيت عند تمام كل جزء من تفاعيله وقع يد من يدي جملك كما هو ظاهر للتأمل .

فألفاظ الشاعر كانت سجعاً ثم صارت رجزاً ثم صارت شعراً، والآنقص من الأشعار والإقصر هي المتقدمة في المشاة لأن الطباع أسهل وقوعاً عليها . ومن ذلك النوع القصير : الأبيات السائرة والأمثال والحكم القهيرة .

يقول الأستاذ لطفي جمعة (١) : إن العربي سمع أصوات النواير (٢) وحنيف أوراق الأشجار وخرير الماء وبكاء الحائم ، لذلك صوت تلك الطبيعة المترنمة ، ولذلك أن يبكي ليكائها وأن يكون صداها الحاكى لنغماتها ، فإذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم أنه خيال قريحته ولا يدرك من أوزانه وضروبه إلا أنها صورة من حركات ناقته .

وقال كليمان هيوار - المشرق الفرنسي ١٨٥٤ - ١٩٢٧ م - : إن الأسفار الطويلة على ظهور الإبل حبت إلى العربي نشيد الألحان يتلمى بها ويشفى ما يصيبه من أوصاب ، ثم أدرك العربي الممشد أو الحادى أنه كلما سارع في الإنشاد رفعت الناقة رأسها وأوسعت خطاها كأن بين خطاها وأوزان الشعر ارتباطاً فظهرت تلك الضروب عفواً لأنها ثمرة طبيعية من ثمار العبقرية البدوية .

- ٣ -

ومن الناحية التاريخية لنشأة الشعر الجاهلى نقول :

كتب مؤرخ يونانى هو «سوزومين» ٢٣٥ - ٤٠٠ م قبيل مطلع القرن الخامس الميلادى يقول : إنه فى الربع الأخير من القرن الرابع للمسيح تغلبت ملكة العرب مافيا على جيوش الرومان وهزمتها فى فلسطين وفيليقيا ، فنظم شعراء العرب الأناشيد والأغاني وحفظوها ورددوها وتغنوا بها تخليداً للانتصار .

(١) الشهاب الراصد ص ٢٧٧

(٢) هذا غريب من القول فأين النواير وخرير الماء فى الصحراء والبادية؟

وأثبت سانت تيلوس أحد حكام القسطنطينية وقد عرّهب في آخر القرن الرابع الميلادي أنه سمع أناشيد العرب الجميلة من صحراء سيناء (١) ، فالشعر العربي المحكي قديم يرجع عهده إلى القرن الرابع للميلاد .

ويقول ابن سلام (٢) : « ولم يكن لأوائل العرب من الشعراء إلا الأبيات يقولها الرجل في الحاجة تعرض له كقول دويد بن زيد حين حضره الموت وهو جاملي قديم :

اليوم يبني لدويد بيتيه لو كان الدهر بلي أبلية
أو كان قرني واحداً كفيته

ولما قصدت القصائد على عهد عبد المطلب أو هاشم بن عبد مناف ، وكان أول باديء لهذه النهضة الشعرية وسائر في اتجاهها المهمل بن ربيعة . ثم جاء امرؤ القيس ، ورفع اللواء . فكان أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى ووصف النساء بالظباء والمها والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصى وفرق بين القصيد وما سواه من الشعر ، وقرب مأخذ الكلام وقيد أوايده وأجاد الاستعارة والتشبيه والكتابة ، ورقق الأسلوب وجعله عذبا جزلا . وأول من يروى له قصيدة تبلغ ثلاثين بيتا من الشعر : مهمل (٣) ، ويقال : بل ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم ضمرة السكناني ، وكان بين هؤلاء وبين

(١) ٢٧٨ الشهاب الراصد .

(٢) ٢٩٤ ج ٢ المزهري ، ١٧ طبقات الشعراء لابن سلام

(٣) هو مهمل بن ربيعة ، ومهمل لقب له سمي به لأنه أول من أرق المراثي ، واسمه عدي ، وقيل سمي مهمل لقوله : « تهللت أثار جابرا أو صنبلا ، (راجع ١٢٩ ج ٢ الأمازي) وفيه يقول الفرزدق : « ومهمل الشعر ذك الأول ، . ويقول ابن سلام في طبقات الشعراء : وأول من قصد القصائد وذكر الوقائع : المهمل بن ربيعة التغلبي (٢١ طبقات الشعراء ، ٢٩٥ ج ٢ المزهري للسيوطي)

الإسلام أربعاً مائة سنة . وجاء امرؤ القيس بعد هؤلاء بمائتين وخمسين سنة تقريباً .

-- ٤ --

وبعد فإن الباحثين يختلفون في أول من أحدث هذه النهضة الفنية في الشعر فمذهبه وأطال فيه ، وأسماء مهلهل وامرؤ القيس والأفوه الأودى واقيط بن يعمر الإيادي وعمرو بن قيس تتردد في هذا المجال . ويقول السيوطي في مظهره نقلاً عن عمر بن شبة م ٢٦٢ هـ : « للشعر والشعراء أول لا يوقف عليه وقد اختلف في ذلك العلماء وادعت كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ولم يدعوا ذلك لقائل البيتين والثلاثة لأنهم لا يسمون ذلك شعراً ، فادعت النماية لامرؤ القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص ، وتغلب لمهلهل ، وبكر لعمر بن قيس والمرقش الأكبر ، وإياد لأبي دؤاد ، وزعم بعضهم أن الأفوه الأودى أقدم من هؤلاء ، وأنه أول من قصد القصيد ، وهؤلاء نفر متقاربون ، ولعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها (١) . » وقد ضاع من الشعر الجاهلي الكثير « ولم يحفظ من الموزون عشرة (٢) » ، ولا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب كما يقول ابن سلام (٣) « وكان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته فصار ذلك إلى بني مروان (٣) » . وروى أن الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من جمع شعر العرب الجاهليين . ويقول أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وأفر الجاهل علم وشعر كثير (٤) » .

(١) ٢٩٦ ج ٢ المزهرة طبع صبيح (٢) ٢٩٢ ج ٢ المرجع
(٣) ٢٩٣ ج ٢ المرجع ٢ و ص ١٦ طبقات الشعراء لابن سلام طبع
المطبعة المحمودية .
(٤) ١٦ طبقات الشعراء .

الشعر في الجاهلية

- ١ -

تمهيد :

كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب ، والمصور لآمالهم وآلامهم وحياتهم ومشاهد الوجود بينهم ، أودعوه وقائهم ومفاخرهم وأحسابهم وأنسابهم وأيامهم وآثارهم وذكرياتهم وأوصاف بيئتهم .

وكان له سحره وروعة تأثيره في نفوسهم ، إذ كان صوت القبيلة ، ولسان القوم ، والذائد الحامي الذمار ، والمدافع عن الأحساب والأنساب والشرف ، والناطق بالحجة ، والداعي إلى الخير . وكان الشعراء ذوي مكانة كبيرة بينهم فهم الذين ينطقون بمجد القبيلة ، ويفخرون بجلالها وماضي أيامها ، وحسبك من مكانة الشعر عند العرب أنه لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن المعجز نظم المحكم تأليفه وأعجب قريشاً ما سمعوا منه قالوا : ما هذا إلا سحر ، وقالوا في النبي : شاعر نربص به ريب المنون . ويقول الأصمعي : الشعر جزل من كلام العرب ، تقام به المجالس ، وتستنتج به الحوائج ، وتشفى به السخائم .

ونبغ في الشعر كثير من الشعراء والشاعرات ، فمن خلدت ذكرهم كتب الأدب والشعر ومصادرهما الأولى .

ولا تزال مصادر الأدب والشعر الجاهلي صورة ناطقة ببلاغتهم وسحرهم وشدة تأثيرهم وقوة بلاغتهم وجلال أثرهم في حياة العرب في جزيرتهم طول هذا العصر الجاهلي الغابر .

ومن قدر الشعر عندهم أن كانت القبيلة إذا نبغ فيها الشاعر أتت القبائل

فهناك وبذلك ووضعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالزاهر كما يصنعن في الأعراس ، وكانوا لا يهنتون إلا بغلام يولد أو شاعر يلبخ أو فرس تلتج . وكانت البنات ينفقن إذا شرب بهن الشعراء .

ولم يترك العرب شيئاً مما وقعت عليه أعينهم أو وقع إلى آذانهم أو اعتقدوه في أنفسهم إلا نظموه في سبط من الشعر حتى إنك ترى في مجموع أشعارهم ديواناً فيه من عوائدهم وأخلاقهم وآدابهم وأيامهم وما يستحسنون ويستبجنون ، ولذلك قالوا : كان الشعر ديوان العرب ومعدن حكمتها وكنز أدبها .

وقال دعبيل : « كان امرؤ القيس من أدباء الملوك ، وكان من أهل بيته وبنى أبيه أكثر من ثلاثين ملكاً فبادوا وماذا ذكرهم وبقى ذكره إلى يوم القيامة ، وإنما أمسك ذكره شعره ، ، »

— ٢ —

تأثير الشعر في النفوس :

كان الشعر في الجاهلية هو المقيد لأيامها ، والشاهد على أخبارها والناطق بمجدها والمصور لمفاخرها ، وكان لكل قبيلة شاعرها الذي يذود عنها ويناضل عن شرفها ويساجل خصومها وينازلهم في كل مجال . وكانت العرب أممة يسحرها البيان وتروعها البلاغة ويستبد بإعجابها الشعر الجيد البليغ .

كان الشعر قوة فعالة في الحياة الجاهلية ، وكان له تأثيره في نفوس العرب وسلطاته في حياتهم وقدره وخطره فيما بينهم ؛ يرفع الخامل ويضع الفذ العظيم ، وينوء بشأن القبيلة ، ويزري بأعدائها وخصومها ، ويحفظه الناس ويروونه ويلشدونه في كل مكان .

وقصة المخلق الكلابي مع الأعشي حيث استضافه وأكرمه وكان

فقـيراً عـلقـاً و كانت له بنات عوانس ؛ فمدحه الأعشى بقصيدته :
أرقت وما هذا السهاد المؤرق؟ وما بي من سقم وما بي نعش
يقول فيها :
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب المقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحاق
فسارت القصيدة في كل مكان ، وخطب بنات المحلق الكثير من
سادات العرب .

وذعب الأعشى قاصدا رسولا ليذحه ويعلم إسلامه وكان قد
نظم قصيدته :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبت كما بات السليم مسمدا
فتصدت له قریش وحالت بينه وبين ذلك خوفا من تأثير شعره وأهدت
له هدية سالية فرجع .

والذين هجوا فوضعوا من قدر من هجوه ، ومدحوا فرفعوا من قدر
من مدحوه ، كثيرون مشهورون في الجاهلية وبعدها (١) .

منزلة الشاعر :

كان للشاعر في الجاهلية منزلة كبيرة وشأن خطير لأنه هو الذي
ينطق بمجد القبيلة ويشيد بمآثرها ومفاخرها وأحسابها وأبطالها ، ويرد على
خصومها ويزود عنها أعداءها ، وكانت القبيلة في الجاهلية تفرح إذا نبغ فيها
شاعر فرحا عظيما ؛ قال ابن رشيق :

و كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك

(١) راجع من رفعه الشعر ووضعه الهجاء ١٤ ج ٣ العقد

وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأفراح
وتتباشر الرجال والولدان لآله حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد
لمآثرهم وإشادة بذكورهم وكانوا يمتأون بغلام يولد أو شاعر يلبس أو
فرس تلتج

وكان للشاعر مكانته الكبيرة في الحياة الاجتماعية في الجاهلية فهو
لسان القبيلة وحكمها ، فلا يعارض ، ويستشفع فيشفع ، ويقول فيصفي
لقوله ، ويشير فلا يرد له رأى .

وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب فلما كثر الشعراء وكثر
الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر (١) ويقول أبو عمرو بن العلاء :
كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي
يقمده عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر
مكسبة وراحوا إلى السوق وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب
عندهم فوق الشاعر (٢) .

- ٤ -

التكسب بالشعر :

ولما كانت الشعر في الجاهلية وعظمة شأن الشاعر كان الشعراء يأفون أن
يمدحوا إنساناً إلا لأغراض شريفة ومقاصد نبيلة . حتى وجدت طبقة من
الشعراء قصدت بشعرها الملوك والأمراء وانتجعت الرؤساء والأشراف
وأزرت بالشعر ومكانته والشاعر ومنزله إزراء شديداً . ومن هؤلاء
الشعراء الذين تكسبوا بالشعر :

(١) الباطنة الذبياني ، فقد قصد بشعره ملوك الحيرة وغسان يمدحهم

(١) ٣/٢٥٩ البيان والتبيين للجاحظ

(٢) ١٧٠ ج ١ المرجع

ويثني عليهم ويشيد بأعمالهم فأغدقوا عليه المال وكانوا له على ذلك مكافأة كبيرة، ولكنه مع ذلك كان يعتز بنفسه كثيراً، فيقول عن ملوك بني غسان يخاطب النعمان بن المنذر ويعتذر إليه :

ملوك وإنخوان إذا ما أتيتهم أحكم في أموالهم وأقرب
(ب) وزهير، فقد مدح هرم بن سنان والحرث بن عوف؛ وأشاد
بهرم إشادة البليغ الشاعر الساهر .
(ج) وكذلك أمية بن أبي الصلت، وهو القائل بمدح عبدالله بن جدعان
وكان سيداً جواداً مضيافاً :

كريم لا يغيره صباح عن الخلق الجميل ولا مساء
يباري الريح مكرمة ومجدا إذا ما الكلب أجحره الشتاء
فهل تخفى السماء على بصير وهل بالشمس طالعة خفاء؟
(د) وكذلك الأعشى فقد جاب البلاد ومدح الرؤساء وسواهم وتكسب
بشعره تكسباً شديداً، وقالوا إنه أول من سأل بشعره (١) :
(هـ) ثم جاء بعد هؤلاء الخطيئة فاتخذ الشعر تجارة ومكسباً وحرفة
بين الناس . وذلك مما غض بالشعر . وأزرى به عند الخاصة .

شاعرية العرب

الشعر الجاهلي كثير كثرة هائلة، والشعراء المعروفون بالشعر في قبائلهم وعشائرهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم باحث، أو يقف على عددهم واقف . ولو أفنى عمره في التنقيب عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال، ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة

(١) طبقات الشعراء لابن سلام، ويروى أن المرقش الأكبر هو أول من أطلال المدح ٢١٩ ج ٢ المزهري،

حتى لم يفتته منها شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها (١) ، ويذكر ابن قتيبة أن أبا ضمضم أنشد شعرا لمائة شاعر كلهم اسمهم عمرو (١) .

فما السر في هذه الشعارية التي لم تعرف لأمة من الأمم من قبل ولا من بعد ؟

١ - أول أسباب شعارية العرب هو الصحراء وجوها الذي يوحى بالشعر ويلهم الخيال ويذكى العاطفة ويشير الشعور .

٢ - وثانيها هو حياة العرب أنفسهم في الجاهلية ، هذه الحياة الحماسية التي دفعتهم إليها وعافهم الثائرة ، ووجدتهم في قلب هذه الصحراء الواسعة المترامية الأطراف ، ويضاف إلى ذلك رجوع العربي إلى عاطفته أكثر مما يرجع إلى عقله ، وثقله في بطن الصحراء على جملة أو فرسه وسط الرمال والجبال والماناهات ، وحاجته إلى الغناء في هذه الوحدة الشاملة ليسلى هموم نفسه وأحزانها وآلامها .

٣ - هذا عدا الاستعداد الفطري للشعر في نفس كل عربي وعربية ، ما كان يذكى به الخيال ، ويولده التأمل وتلك الحياة الشبيهة بالحياة الصوفية المتنبلة .

٤ - ونجد كذلك ظروف الحياة الاجتماعية في الصحراء وكثرة حروبهم وغاراتهم وحاجتهم إلى الترنم بمذاخرهم ومآثرهم وأحسابهم وأنسابهم ، مما لا بد فيه من نوع جميل من الأدب يخلده ويرويه ويذيعه بين الناس ، وليس هذا النوع سوى الشعر .

٥ - قوة حافظه العرب وأنهم أمة أمية تعتمد على الذاكرة لا على التدوين ، والشعر أسهل في الحافظة رواية وأبقى تعلقا بالخطار .

٦ - يضاف إلى ذلك اللغة العربية نفسها فإنها بإقرار الباحثين في أصول اللغات لغة شعرية برنين مفرداتها وأسايلها وروحها ومعانيها .

٧ - إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة ، التي من أهمها هذا الفراغ

الكثير الذي كان يتمتع به العربي لعدم اشتغاله بصناعة أو تدبير ملك وسياسة أو إدارة مرافق دولة .

وبعد فقد كان العرب شعراء بالفطرة ، نظم الشعر كل عربي وعربية ، كما نظمته الملوك والأمراء والسادة والحكام والفرسان والصالحين (١) والعبيد وسواهم من شتى الطبقات مما بلغ حد الكثرة الهائلة لولا أن ضاع أغلبه على مر الأجيال حتى قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم : ما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وأفرا لجاءكم علم كثير وشعر كثير (٢) » .

لون الشعر العربي الجاهلي

ينقسم الشعر عند الإفرنج إلى : غنائي وقصصي وتمثيلي ، وقد ظهرت هذه الأنواع في الشعر اليوناني ، الذي قلده الرومانيون بالنظم في شتى هذه الألوان ، كما بنى الشعر الأوربي الحديث على الأصول اليونانية اللاتينية من حيث الأقسام الثلاثة المعروفة .

أما الشعر القصصي : فهو الذي يصور الوقائع والعادات وأحوال الشعوب ويصف الاجتماع وسير الأبطال ، ويستوحى الآلهة والأساطير .

وأما الشعر التمثيلي : فيعتمد على الحوار وتمثيل الحوادث والأشخاص وإظهار حركاتهم وما في خواطرهم من مشاعر ونزعات .

وأما الشعر الوجداني أو الغنائي فيصور المواقف الإنسانية ومشاعر الشعراء وأفكاره ونزعاته ويتحدث عن الجمال والطبيعة حديث المتأمل المفكر فهو يعبر عن الشاعر وخواطره وآماله وآلامه وأحلامه وتأملاته ومشاعره تعبيراً صادقا واضحا قويا مؤثرا .

(١) منهم تالط شيرا وعروة بن الورد وسواهما .

(٢) ٢٩٤ ج ٢ المزمع .

والشعر العربي أو الجاهلي بصفة خاصة شعر غنائي لا أثر للون القصصي أو التمثيلي فيه ، فهو يمثل عواطف الشاعر وشاعره ، ويلبس من المطرقة والوجدان والخيال والحياة العامة .

لم يكن الشاعر الجاهلي قاصدا ، فلم ينظم الشعر القصصي ، وإنما كان ينطق بما يمليه عليه شعوره ووجدانه ويتحدث عن نفسه ومجتمعه وبيئته . ذلكم أن الشعر القصصي يحتاج إلى نفس طويل وفراغ كثير ، وروح فنية متحضرة أو هو لون من ألوان الحضارة لأنه تدوين وتاريخ قصة من قصص الأبطال أو فترة من تاريخ الأمة وحياتها ، والعربي لم يكن يعرف أسباب الحضارة ولا وسائلها من الكتابة والتدوين والتأريخ . وإن كان بعض الشعراء الجاهليين قد أجاد في القصص الشعرية الصغير ، كقول امرئ القيس :

سموت إليها بعد ما دام أهلها سموت حباب الماء حالا على حال
فقلت سباك الله إنك فاضحى ألت ترى السمار والناس أحوالى
فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولوقطعوا راسى لديك وأوصالى

وقول الأسود بن يغمر :

ماذا أو مل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إباد
جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميماد
فأرى النعيم وكل ما يلهم به يوما يصير إلى بلى ونفاد

إلى غير ذلك من الكثير من ألوان هذا القصص الشعرية الصغير (١) ، وإن كان مهما كان فلا نجد في الشعر الجاهلي شعرا قصصيا بلمنى المعروف ، إذ

(١) يقول الدكتور طه حسين : لست واثقا كل الثقة من أن الأدب العربي يخلو من القصص ، فالذين يقرأون الشعر الجاهلي والشعر الأموي كشعر جرير والفرزدق والأخطل يلاحظون أن مزاي كثيرة من خصائص الشعر القصصي موجودة في الشعر العربي (١٤١٥ من حديث الشعر والنثر) .

لا نجد قصائد تصور حياة الأبطال مثلاً في عدة آلاف من الأبيات ، ونفس العربي لا يساعده على هذا الطول ، فوق قيود الوزن والقافية ؛ فضلاً عن أن شدة تعلق العربي بالحرية ونزوعه إليها وإلى الاستقلال بذاته عن عداه ، دعت به إلى أن يوجه همهته إلى وصف عواطفه وتحليل مشاعره وذكر ما يعيش فيه من سلام وحرب وشوق وحزن ، إلى ما سوى ذلك من شتى ألوان شعوره ، مما صبغ شعره بصبغة غنائية وجدانية خالصة ، وإن كان لا ينفي ذلك أن الشعر الجاهلي أشد ما يكون تمثيلاً للبيئة الجاهلية وللحياة العربية فيها ، لأن كل ذلك كان وثيق الصلة بنفس الشاعر ووجدانه .

كذلك لم ينظم الشاعر الجاهلي شعراً تمثيلاً ، لأن هذا لون من الشعر يحتاج إلى لون من ألوان المعيشة المتحضرة وإلى قبس من روح الفلسفة والتفكير العميق والنظرات البعيدة للأشياء والحياة ، وذلك مالم يكن له وجود عند العرب في جاهليتهم .

وإن كان بعض الشعراء الجاهليين قد أكثر من الحوار العادي الساذج القصير في شعره ، مما نجد في بعض القصائد الجاهلية (١) ، فإن هذا اللون ليس هو ما نعنيه بالشعر التمثيلي .

وهذا لا يعيب الشعر الجاهلي ولا ينقص من قيمته ، فهو وإن كان شعراً غنائياً جال في كل ميدان وتحدث في كل ناحية ، ووصف مشاهد البيئة ومناظر الطبيعة ومشاعر النفس البشرية واحساساتها ، مما لا يزال شاهد صدق ومؤرخ حق للحياة في الجاهلية وما كان فيها من أحداث وما كان يختلج بنفس الشاعر فيها من عواطف وآمال .

(١) مثل قول الأعشى :

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به في جهنم ، كمزيم الليل ، جرار
إذ سامه خطي خسف ، فقال له قل ما تشاء ، فاني سامع ، حار
إلى آخر هذه الأبيات .

تنقل الشعر في القبائل

تختلف النظريات بين القدامى والمحدثين حول هذا الموضوع اختلافاً كثيراً ونحن نعرض هنا الآراء المختلفة ، ونناقشها مناقشة هادئة ، منهضة .

١ - يقول ابن سلام :

« كان شعر الجاهلية في ربيعة ، وأولهم : الملهل ، والمرقشان ، وسعد ابن مالك ، وطرفة . وعمر بن قتيبة ، والحارث بن حلزة ، والمتلبس ، والأعشى ، والمسيب بن علس .

ثم تحول في قيس ، فمنهم : الباغلة الذبياني ، وزهير ، وابنه كعب ، وأبيد ، والجمدي ، والحطيئة ، والشهاخ ومزرد ، وخداش بن زهير .

ثم آل إلى تميم . فم يزل فيهم إلى اليوم (١) . . .

وخلال سنة ذلك أن الشعر كان في اليمن ثم انتقل إلى ربيعة فظهر في قبائلها وعلى السنة شعرائها ، ثم انتقل إلى قيس من مضر ، ثم استقر في تميم ومنهم أوس بن حجر ، (٢) .

٢ - ويذهب طه حسين في الأدب الجاهلي كما سيأتي إلى عكس ذلك ، فيرى أن الشعر كان في مضر ثم انتقل إلى ربيعة فالين ثم إلى شعراء الموالى (٣) وهذا بناء على نظريته في انتقال الشعر وسيأتي تفصيل ذلك .

ورأي طه حسين لا سند له من الواقع والتاريخ ، ويرد عليه الأستاذ محمد لطفي جمعة في كتابه « الشهاب الراصد » (٤) .

(١) ٢٢١ و ٢٢٢ طبقات الشعراء لابن سلام طبع المطبعة المحمودية ، ٢٢٩٥ ر

المزهر للسيوطي (٢) وكان زهير راويته ٢٩٦ ج ٢ المزهر ،

(٣) ٢٠٦ الأدب الجاهلي (٤) راجع ٢٩٦ وما بعدها من الشهاب الراصد

٣ - والواقع أن الشعر كان في القبائل اليمنية ، ومنهم : امرؤ القيس (١) وسواه . ثم انتقل إلى ربيعة (وهي قبائل كثيرة منها بكر وتغلب وعبد القيس والنمر بن قاسط ويشكر وشيبان وذهل وسدوس) ، وكانوا قديما يقيمون في اليمن ثم رحلوا إلى نجد ، وهذا يفسر سر ورائتهم الشعر عن اليمن ، وظهر منهم في نجد شعراء كثيرون : ومنهم المهلهل ، والمرقشان ، وطرفة ، والمتلس ، وعمرو بن قميثة ، وسعد بن مالك ، والمسيب ، والأعشى ، والحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم . ثم تحول الشعر في قيس من مضر ، (والمتلس بطون كثيرة منها : عبس وذبيان وخطفان وسليم وهو اذن وعدوان وثقيف وعامر بن صعصعة وعقيل وقشير وجعدة ونمير) ، وكانت مساكن هذه القبائل في نجد وأعلى الحجاز ، وظهر منهم كثير من الشعراء : كالتابعين ، وزهير ، وابنه كعب ، ولبيد ، والخطيئة ، والشماخ ، ومزدد ، وعنترة . ثم استقر الشعر في تميم وهي من كبرى قبائل مضر ، (ولها بطون كثيرة منها : مارن ودارم ويربوع ومجاشع ومالك) ، وكانت تميم تقيم في تهامة ونزحت إلى بادية العراق وما يليها جنوبا قبل الإسلام بنحو خمسين ومائة سنة ، ومن شعرائها أوس . ثم ظهر الشعر في بطون مدركة بعد ذلك : من هذيل وأسد وكنانة وقريش والدئل .

أما المدن فشعراؤها قليل ومن أشهرهم : حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلوات الله عليه .

شياطين الشعراء

١ - كان العقل البشري في العصر الجاهلي لم يستحكم فوضوه الفسكرى والاجتماعى ، وكان الناس كثيرا ما يعيشون على الأوهام . وللعرب أوهام

(١) والمهلهل خال امرئ القيس . وكان امرؤ القيس وطرفة وعبيد وعمرو ابن قميثة والمتلس في عصر واحد ، ٢٢ طبعات الشعراء لابن سلام ،

كثيرة نزلت عندهم منزلة الحقائق .

فقد كانوا يمتقدون بوجود الغول وأنها تتشكل وتتلون في ضروب
الشياطين والصور ، يقول نابط شرا :

ألا من مبلغ فتیان فهم بما لا قيت عند رحي طهان
بأنى قد لقيت الغول تاونى بمرت كالصحيفة صحف محان

إلى آخر هذه الأبيات .

وكانوا يلبسون إلى الجن أساطير وخرافات (١) ، ويذكرون أن من
مدنهم وعبقر ، التي يلبسون إليها كل فائق الصفة من الأشياء وكل غريب
الشكل من الناس بل كل ما أرادوا تمييزه عن أنواعه من المماني ، قال أعرابي :
« ظلمني والله ظالما عبقر يا ، والرسول (ص) في عمر : « فلم أر عبقر يا يفري
لربيه ، « وأكثر سمائك العرب من التحدث عن الجن : كعمرو بن براق ،
والشعري والسمائيك بن السلكة ونابط شرا وسوام .

ويروي أبو اسحاق النظام - كما رواه الجاحظ في الحيوان - أن أصل ذلك كله
هو الأوهام الناشئة عن الحياة في أرض مقفرة بعيدة عن العمران قليلة المسالك
والمعالم مما يحدث للسائر فيها ألوانا من الخوف النفسى ، ويقول عبيد بن أيوب
وكان جواها في جاهل الأرض يشرح أسباب الخوف وما يلبس من الوهم :

الله در الغول أى رقيقة لصاحب قفر خائف منتظر

وقد كثر في الشعر الجاهلي ذكر الجن والغيلان والسمالى وسوى ذلك .

٢ . وأدى ذلك إلى أن جعل العرب للشياطين شعراء ياهمونهم الشعر
والخيال ، وسموهم بأسماء ، وافتخر كل شاعر بشيطانه ، ولاشك أن كل ذلك
ناشئ عن تصورهم للجن ، لحين رأوا الشاعر إنسانا يختلف في أطواره عن
مشابهيه وينزل بفكره إلى أودية لم يعتادوا الخوض فيها ؛ وحين رأوا لكلامه

(١) راجع حديث سواد بن قارب لعمر بن الخطاب حول كلام جنى لسواد

في صدق الرسول صلوات الله عليه ، ٢٦٣٥ الجهرة ،

فعل الخمر وتأثير السحر وأنه إذا أراد قبح الحسن وحسن القبيح فأدخل على النفوس الوهم بقبحه أو حسنه فبان رائقا مبعجا وجميلا فاتنا ، وأنه إذا شاء أوغر الصدور ، ثم إذا شاء أطفأ هذه النار التي ألهبها ، وأتأم هذه الفتنة التي أيقظها ، وأنه هو الذي جمع في قلب واحد بين الفتك واللسك والعمر والظاهر ، فمكان عابدا متخشعا ثم طامعا متطلعا وقائعا متعففا ثم جبارا متسلطا ، وأنه هو رب الحكمة يرسلها نور هدى ، والكلمة الفاجرة يجعلها شرك غواية ، وأنه القادر على ما شاء من برهان وبهتان . لما كان هذا شأن الشاعر وكار فيه إنسانا كشيطان توهموا أن روح ذلك الشيطان لا يسته فنطق بهواها وأدى لخوامها . ومن شياطين الشعراء الشيصبان ، ولافظ شيطان امرئ القيس ، وهبيد شيطان عبيد ، وهاذر صاحب النابغة ، ومسجل صاحب الأعشى ، إلى ما سوى ذلك من شياطين الشعراء .

٣ - وصور الجاهليون عقيدتهم حول شياطين الشعراء ، في شعرهم فقال شاعر :

فان شيطاني أمير الجن يذهب بي في الشعر كل فن
وقال حسان :

ولي صاحب من بنى الشيصبان فطورا أقول وطورا هوه
وقال الأعشى في شيطانه مسجل :
دعوت خليلي مسجلا ودعوا له جهنم ، جعدا للجهين المذمم
وجهنم : شيطان عمرو بن قطن .

ويقول أيضا : إذا مسجل يسدى لي القول أعلق . وراجع أسطورة عن هبيد صاحب عبيد في الجهرة (١) وفي الجهرة : « شعراء العرب شياطين تنطق به على ألسنتها (٢) » .

ومن أسماء شياطين الشعراء : هياب ، وهاذر صاحب النابغة ، ولافظ صاحب امرئ القيس (٣) ، وسوى ذلك .

(١) ص ٢٠ و ٢١ الجهرة ط ١٩٢٦ (٢) ص ٢٢ المرجع (٣) راجع ٢٣ و ٢٤ من المرجع

٤ - ويرد ابن حزم (١) عقيد فالعرب في شياطين الشعراء إلى ما ألقى في روعهم من أن الجن مظلة القوة والتفوق على الإنس فلبسوا اليهم كل عظيم يعجز عنه البشر .

طبقات الشعراء الجاهليين

— ١ —

الطبقة كل جماعة عاشوا متقاربين في الزمان وجرت عليهم أحكام واحدة من تأثير البيئة وإن لم يتحدوا في المنزع أو يدخلوا في مناقضة أو يتزاحوا على باب ملك (٢) ومعنى الطبقة أنهم نظراء (٣) وأنهم قريبون من بعض في ميزانهم الأدبية العامة وإن اختلفوا في اتجاهاتهم الفنية وإنتاجهم الفني .

والشعراء أربع طبقات : جاهليون ومخضرمون وإسلاميون ومولدون وهم الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعاجرها بالصناعة وهم شعراء بني العباس (٤) . ويضيف إليهم الشباب الخفاجي : المحدثون ثم المتأخرون والمصريون (٥) . والمخضرمون هم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام وقالوا فيه الشعر كالجعدى والخطيئة وحسان ، أما لبيد فجاهلي لأنه حرم الشعر على نفسه بعد إسلامه ولم يقل إلا بيتا أو بيتين فيه (٦) .

(١) ٢٢ ج ٥ الممل والنحل (٢) ٤٠١ الأدب العباسي لمحمود مصطفى (٣) ٨٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب (٤) ٥٠ تاريخ الأدب العربي للزيات ، و ٣١٠ الريحانة للشهاب الخفاجي (٥) ٣١٠ والريحانة للشهاب الخفاجي .
(٦) يقول ابن سلام : كان لبيد فارسا شاعرا شجاعا وكان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام وكتب عمر إلى عاملة أن سل لبيدا والأغلب ما أحدثا من الشعر في الإسلام ، فقال الأغلب :

أرجزا سألت أم قصيدا فقد سألت هينا موجودا

وقال لبيد : قد أبداني الله سورة البقرة وآل عمران فزاد عمر في عطائه . وكان في الجاهلية خير شاعر لقومه يمدحهم ويرثيهم ويعدد أيامهم ورقائهم وفرسانهم (٨ طبقات الشعراء)

أما الإسلاميون فهم الذين نشأوا في الإسلام إلى آخر عهد الدولة الأموية والمحدثون بعد ذلك وهم العباسيون ، وقال ابن رشيقي : طبقات الشعراء أربع جاهلي ومخضرم وإسلامي ومحدث ، ثم صار المحدثون طبقات أولى وثانية على التدرج إلى وقتنا - ٣٠٤ ج ٢ مزره .

- ٢ -

ويقسم ابن سلام في كتابه « طبقات الشعراء » شعراء الجاهلية إلى عشر طبقات ، وهي :

- ١ - الطبقة الأولى : امرؤ القيس ، والنابعة ، وزهير ، والأعشى .
- ٢ - الثانية : كعب والخطيئة .
- ٣ - الثالثة : الجعدى وأبو ذؤيب والشمخ ، ولبيد .
- ٤ - الرابعة : طرفة وعبيد وعلقمة وعدى .
- ٥ - الخامسة : خدّاش ، والأسود بن يعفر ، والمخبل ، وتميم بن أبي بن مقبل .
- ٦ - والطبقة السادسة : عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وعنترة ، وسويد بن أبي كاهل .
- ٧ - والطبقة السابعة : سلامة بن جندل ، والحسين بن الحمام المري ، والمتلمس ، والمسيب .
- ٨ - والطبقة الثامنة : عمرو بن قيس ، والنمر بن تولب ، وأوس بن علفاء ، وعوف بن عطية .
- ٩ - والطبقة التاسعة : ضابئ بن الحارث ، وسويد بن كراع بن الحويدرة ، وسحيم .
- ١٠ - والطبقة العاشرة : ابن الأسكر وابن مخنف وعمرو بن شاس .
- ١١ - ويضيف إليهم أصحاب المرائي وهم : متمم والخنساء وأعشى باهلة وكعب بن سعد . ثم شعراء القرى العربية وهي :

(أ) المدينة وشعراؤها حسان وكعب بن مالك وابن رواحة وقيس بن الخطيم وابن الأسلت ، ويهودها الشعراء : السموأل والربيع بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف وشريح بن عمران وشعبة بن غريص وأبو قيس بن رفاعة وأبو الذيال ودرهم بن زيد .

(ب) مكة وشعراؤها : ابن حذافة وهيب بن الزبيري وأبو طالب وأبو سفيان ومسار وضرار بن الخطاب وأبو عزة الجهمي .

(ح) الطائف وشعراؤها : أبو الصلت ، وأميرة بن أبي الصلت ، وغيلان وكنانة بن عبد يا ليل ،

(د) البحرين وشعراؤها : المثقب والممرك العبدى والمنفضل .
ونلاحظ أنه يفتح الشعراء المخضرمين مع الجاهليين ، لأنهم أدركوا جانباً من الجاهلية .

وقال أبو عبيدة :

أشعر الناس أهل الوبر خاصة وهم :

(أ) امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة

(ب) وفي الطبقة الثانية : الأعشى ، ولبيد ، وطرفة .

(ح) وفي الطبقة الثالثة : المرقش ، وكعب بن زهير ، والخطيئة ، وخداش ، ودريد بن الصمة ، وعنزة ، وعروة بن الورد ، والفر بن تواب والشماخ ، وعمرو بن أحر .

قال صاحب الجهرة : والقول عندنا ما قال أبو عبيدة :

امرؤ القيس ثم زهير والنابغة والأعشى ولبيد وعمرو وطرفة (١)

(١) هـ الجهرة . ويلاحظ أن فيمن عددهم أبو عبيدة في الطبقة الثالثة شعراء

وأما أشعر الشعراء الجاهليين فقد اختلفوا فيه ، قال عمر بن شبة في
« طبقات الشعراء » : وادعت كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ، فادعت النخيلة
لامرئ القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص وتغلب لمهل ، وبكر لعمر و
ابن قيس والمرقش الأكبر ، وإباد لأبي دؤاد (١) ،

وحكى الأصمعي عن ابن أبي طرفة : كفاك من الشعراء أربعة : زهير إذا
رغب والنابعة إذا رهب والأعشى إذا طرب وعنترة إذا كاب ، وقيل لاثير
أو انصيب : من أشعر العرب ؟ فقال امرؤ القيس إذا ركب وزهير إذا
رغب والنابعة إذا رهب والأعشى إذا شرب (٢) .

وقال أبو عمر : أشعر الناس : امرؤ القيس والنابعة وطرفة ومهل .

وروى عن رسول الله (ص) في امرئ القيس : أنه أشعر الشعراء
وقالهم إلى التار ، وقال العباس بن عبد المطلب عن امرئ القيس هو سابق
الشعراء (٣) ؛ وقدمه كذلك الفرزدق (٤) وقتيبة بن مسلم (٥) ومروان بن
أبي حنيفة (٣٨١ ج ٣ العقد) .

وقدم خلف الأعشى ، وكذلك سوى خلف من العلماء (٣٠٠ ج ٢
المزهر) وكذلك الأخطل (٤٥ الجهرة)

مخضرمون ، والمخضرمون مشتق من المخضمة وهي القطع يقال بعير مخضرم
إذا قطع طرف أذنه فسمى الشاعر مخضرمًا لانقطاعه عن الجاهلية إلى الإسلام أو
لأن رتبة المخضرمين في الشعر قد نقصت في الإسلام ، وقيل هو من المخضمة
بالحاء وهي الحنطة لأنه خلط الجاهلية والإسلام (٣٠٤ و ٣٠٥ : ٢ المزهر)

(١) ٢٩٦ : ٢ المزهر .

(٢) ٢٩٧ : ٢ المزهر (٣) ٢٩٦ : ٢ المزهر (٤) ٢٩٧ : ٢ المزهر . وكان

الفرزدق أروى الناس لأخبار امرئ القيس وأشعاره (٣٥٣ : ٤ العقد) ،
وراجع يوم دارة جليجل فيه (٣٤٢ : ٤)

(٥) ٢٩٨ : ٣ المرجع

وقدم جرير زهيراً ، وكذلك قدمه ابن أحر (١) ، ويروى أن جريراً
قدمه على الشعراء (١) .

وكان علماء البصرة يقدمون امرأ القيس وأهل الكوفة يقدمون الأعشى
وأهل الحجاز والبادية يقدمون زهيراً والناطقة وكان أهل العالية لا يعدلون
بالناطقة أحداً وأهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحداً (١)

والخلاف في تقديم شاعر من هؤلاء الشعراء على الآخرين كثير ولا
داعى للإفاضة فيه (٢) .

والذين يقدمون امرأ القيس يقدمونه لكثرة ما ابتكر من معان
وخلق من أساليب في الغزل وسواه (٣) .

والذين يقدمون الناطقة يقولون هو أوضحهم معنى وأبعدهم غاية
وأكثرهم فائدة (٤) .

والذين يقدمون الأعشى يقولون هو أمدحهم للملوك وأصفهم للخمر
وأغزرهم شعراً وأحسنهم قريضاً (٥) .

والذين قدموا لبيداً قالوا هو أفضلهم في الجاهلية والإسلام وأقلامهم
لغوا في شعره (٥) .

والذين قدموا عمر بن كاثوم قالوا هو من قدماء الشعراء وأعزهم نفساً
وأكبرهم امتناعاً وأجودهم واحدة (٦) .

والذين قدموا طرفة قالوا هو أشعرهم إذ بلغ بمداثة سنه ما بلغ القوم
في طول أعمارهم ، نخب ورخص معهم (٧) .

(١) ٢: ٢٩٩ المرجع (٢) راجع في ذلك ٣١ - ٤٦ من الجهرة

(٣) راجع ٢: ٢٩٧ المزهرة وراجع ٣١ الجهرة و ٣٤ الشعر والشعراء

(٤) ٢٣ الجهرة وما بعدها

(٥) ٣٨ الجهرة وكانت عائشة رضي الله عنها تروى ألف بيت للبيد

(٦) ٤٠ الجهرة (٧) ٤١ المرجع (٢: ٣٨٢ المقدم)

ويقسمون الشعراء إلى أربعة : شاعر خنذيد وهو الذى يجمع إلى جودة الشعر رواية الجيد من شعر غيره ، وشاعر مفلق وهو الذى لا رواية له إلا أنه مجيد كالخنذيد فى شعره ، وشاعر فلق وهو فوق الردى بدرجة ، وشعرور وهو لا شئ له . قال بعض الشعراء :

يا رابع الشعراء كيف هجوتنى وزعمت أنى مفهم لا أنطق
وقيل هم : شاعر مفلق وشاعر مطبق وشويعر وشعرور (١)

رواية الشعر

لم تكن العرب تدون شعرها فى الجاهلية فى ديوان أو سفر وإنما كانت محفوظاً فى الصدور تميمه حافظتهم وقلوبهم وأذواقهم وملكاتهم الأدبية الفطرية .

وقد تعجب مما تقرأ من رواة العرب بعد الإسلام وكثرة ما كانوا يحفظون ؛ ولكن لا عجب ؛ فملكات الذكاء والحفظ قوية عند العرب وكانت تعينهم على تخليد الشعر العربى حتى لا يضيع ؟

ولقد كان الأصمى يقول : ما بلغت الحلم حتى رويت اثنتى عشرة ألف أرجوزة ، وكان خلف أروى الناس للشعر وأعلمهم بحجده ، وكان خلف مع روايته وحفظه ، يقول الشعر فيحسن وينحله الشعراء ويقال إن القصيدة :

إن بالشعب الذى دون سبلع لقتيلاً دمه ما يطل

لخلف الأحمر تحملها ابن أخت تأبط شرا . وكذا كان يفعل حماد يحقق الشعر القديم ويقول : ما من شاعر إلا قد حقت فى شعره أبياتاً لجازت عنه

(١) ٢: ٣٠٥ المزهى ، وراجع ٢: ٢٢٤ البيان والتبيين للجاحظ

إلا أعشى بكر فإني لم أزد في شعره غير بيت (١) . ويقول المفعل : سلب
على الشعر من حماد ما أفسده .

ورغم هذه الرواية والحفاظة القوية فقد ضاع الكثير من الشعر العربي
الجاهلي وغيره ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : وما انتهى إليكم ، ما قالت العرب
إلا أقله ولو جاءكم وافراً اجأكم علم وشعر كثير (٢) .

وأصيب الشعر العربي مع الضياع بالافتراء والاختلاق عليه من بعض
الرواة لأسباب كثيرة منها العصبية أو الرغبة في تفادي الإحراج أو
سوى ذلك .

ولكن النقاد اهتموا بتمييز الصحيح من المنحول ونهبوا على الكثير
من المختلق ، وألفوا كتباً كثيرة جمعوا فيها ما صبح من الشعر الجاهلي والآثار
الأدبية الأخرى .

وكان لكل شاعر رواية يحفظ شعره ويلبسه ويأخذ من الشعراء
الشعر ومذهبه في القريض :

فكان امرؤ القيس رواية أبي داود الأيادي ، وزهير رواية أوس بن
حجر ، والأعشى رواية المسيب ، كما كان الحطيئة رواية زهير .

رواة الشعر الجاهلي (٢)

- ١ - أبو عمرو بن العلاء البصري م ١٥٤ . له روايات ولم يترك مؤلفات (٤)
- ٢ - حماد الراوية (٧٥ - ١٥٦ هـ) ، كوفي وليس له مؤلفات (٥)

(١) راجع ٤٠٢ : ٣ المقدم (٢) ٢ : ١٩٤ المأزهر

(٣) راجع : بغية الوعاة - طبقات الأدباء لابن الأنباري - معجم الأدباء
لياقوت - رفيات الأعيان - فوات الوفيات - الأغاني - الفهرست .

(٤) ٤٢ فهرست (٥) ١٣٤ فهرست . ويقول ابن سلام فيه : وكان أول

٣- الخليل بن أحمد بصرى (١٠٠ - ١٧٤ هـ) وهو مخترع علم العروض.
٤- خلف الأحمر بصرى (م ١٨٠ هـ) وليس له مؤلفات ، ونقل عن
السيوطى أنه ألف كتاب ، الجبال وما فيها من شعر ، وله ديوان خاص ،
وقيل إنه صاحب لامية العرب (١) المنسوبة للشنفرى .

٥- يونس بن حبيب البصرى م ١٨٢ هـ .

٦- المفضل الضبي م ١٨٩ هـ ، كوفى ، وهو أقدم من جمع المختار من شعر
العرب فى كتاب (المفضليات) . وأول من فسر الشعر بيتا بيتا ، ويقال إنه
أول من جمع أشعار الجاهليين .

٧- أبو عبيدة بصرى م ٢٠٩ هـ . وله مؤلفات فى اللغة ، ومجاز
القرآن ، والنقائض .

٨- الأصمعى البصرى م ٢١٦ هـ ، وله مؤلفات فى اللغة ، وكتاب
الأصمىات طبع أوربا وكتاب فى الكروم والنخيل .

٩- محمد بن سلام الجمحى م ٢٣١ هـ له طبقات الشعراء ، وغريب
القرآن (٢) .

١٠- النضر بن شميل م ٢٠٤ هـ

١١- مؤرج السدوسى م ١٩٥ هـ

١٢- ابن الكلبى هشام بن محمد م ٢٠٤ هـ

١٣- الهيثم بن عدى كوفى رواية أديب وله مؤلفات وتوفى سنة ٢٠٦ هـ

١٤- أبو زيد الأنصارى م ٢١٦ هـ ، ثقة وله مؤلفات .

١٥- أبو عبيد بن القاسم م ٢٢٣ هـ .

١٦- ابن الأعرابى م ٢٣١ هـ ، كوفى ثقة ، وله مؤلفات .

من جميع أشعار العرب وساق أجاديثها حماد الرواية وكان غير موثوق به ،
ويقال إن خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من جمع شعر العرب
(١) & الصنائع
(٢) ١٦٥ فهرست

الشعر الجاهلي بين التجديد والتقليد

- ١ -

لم يعرض النقاد لبحث الشعر الجاهلي ومظاهر التجديد والتقليد فيه ، ولا يسلم القدماء منهم خاصة بمحدث التقليد في الشعر الجاهلي ، لأنه كله عندهم جديد بكر ، ومظاهر التشابه الفني بين القصائد الجاهلية لا يصح أن يعرض لها أو يتحدث عنها حتى لا نسلم بالتقليد في شعر كله جديد وكله روعة وجمال ، وإذا أخذ الشاعر الجاهلي من شاعر قبله بيتاً أو أبياتاً فلنقل إن ذلك من توارد الخواطر وانفاق الشعاعية ، أو لنذهب إلى ما ذهب إليه ابن رشيق في عمدته : من أن ذلك استلحاق ، والاستلحاق عنده أخذ الشاعر بيتاً من شاعر سبقه على جهة المثل ، وكان أبو عمرو بن العلاء وغيره لا يرون ذلك عيباً وقد يصنع المحذون مثل هذا . وقد يسلم المنصفون من النقاد القدامى بأن الشاعر الجاهلي يخطئ ، كما يخطئ غيره ، ولكنهم لا يسلمون بأنه يلبس قصيدته على نهج قصيدة أخرى لشاعر سبقه ، ولم يبحث أحد منهم مذاهب الشعراء الفنية ، وأثر كل طبقة في شعر الطبقة التي تليها . ونحن نعلم أن ابن سلام قسم الشعراء الجاهليين عشر طبقات ، وأضاف إليهم شعراء المراثي وشعراء المدن العربية ، وجعل في الطبقة الأولى امرأ القيس وزهيرا والأعشى والنابغة ، وأن أبا عبيدة قسم الجاهليين ثلاث طبقات ، ووضع في الأولى امرأ القيس وزهيرا والنابغة ، وفي الثانية الأعشى وطرفة وليدة . ووافقه على ذلك صاحب الجهرة أبو زيد الأنصاري ، ولكنك تعلم أن شعراء كل طبقة لم يجمعهم تصور واحد ، مما يؤدي إلى أن يكون في كل طبقة شعراء تأثر بهم إخوانهم في الطبقة نفسها ، ومع ذلك كله فإن النقاد لم يبحثوا الصلات الفنية بين الشعراء الجاهليين ، ولا بين طبقاتهم المختلفة ، بل إن قصيدتين مثل قصيدة علقمة الفحل م ٥٦١ والتي مطلعها :
ذهب من الهجران في غير مذهب ، ، وقصيدة امرئ القيس :

خليلي مرا بن علي أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد الممذّب

رغم تشابههما في شتى مظاهر الشعاعية والخيال ، ورغم أن علقة متأثر
بامرئ القيس في قصيدته وناسج على دنوالمها ؛ لا يذكّر النقاد شيئاً عن مظاهر
التشابه الفني بين القصيدتين . وهناك قصيدتان أخريان هما : معلقة عمرو بن
كثوم : « ألا هبي بصحنك فاصيحيننا » ، وبجهرية أمية بن أبي الصمات :
« عرفت الدار قد أقوت سدينا » ، والتي نسج فيها أمية على منوال قصيدة عمرو
واحتذاء فيها ؛ ومع ذلك فإن النقاد لا يتحدثون عن شيء ، ولا يلبون بمحدث
هذا التقليد الفني الغريب ؛ وهناك الكثير من أبيات الشعر تجدها نفسها مكرورة
في شعر كثير من الشعراء ، وقد لا نستطيع أن نشك في روايتها ، ومع ذلك
فالرأي السائد عندهم أن ذلك أثر لاتفاق الشعاعية .

وعلماء الأدب يعرفون أن الشعر كان في اليمن ثم انتقل إلى ربيعة ثم تحول
في قيس من مضر ثم صار إلى تبهم ، ولا يخالف في ذلك إلا الدكتور طه حسين
الذي رأى أن الشعر كان في مضر ثم انتقل إلى ربيعة فاليمن .
فالمرادى ؛ ومع ذلك فعلماء الأدب القدماء لم يبالوا ببحث آثار هذه الوراثة
الشعرية المختلفة .

ويقولون : إنه كان لكل شاعر في الجاهلية راوية يروي له ويأخذ عنه
نهمجه في الشعر ويتلمذ عليه ويتأثر بشعره ، فكان امرؤ القيس راوية
أبي دؤاد الأيادي ، وطرفة راوية المتلبس ، والأعشى راوية المسيب بن
علس ، وزهير راوية أوس وطفيل الغنوي معاً ، والحطيئة راوية زهير ،
كما كان الفرزدق وهذبة راويتان للحطيئة ، وأبو حية النخيري راوية
للفرزدق ، وجميل راوية لهذبة ، وكثير راوية لجميل ، في العصر الإسلامي .
ومع ذلك كله فلا تزال هذه الأستاذية في الشعر في حاجة إلى بحث كثير
للكشف عن مظاهرها وآثارها الفنية . ولا نرى لذلك أثراً يذكر في بحوث
النقاد القدماء .

ومدرسة ، المصنوعين ، من الشعراء الجاهليين كزهير ونابغة ،
وكالنامة وأوس ، طهيل الغنوي والجرير تواب . لا تزال في حاجة ملحّة
إلى الكشف الدقيق عن خصائص مذهبهم الفني ونشأته وأثره في الشعر
العربي ، وإن كان الدكتور طه حسين قد ألم بجوانب من هذا البحث في
« الأدب الجاهلي » .

وإذا كان المقاد القديمة قد قسموا الشعراء الجاهليين إلى طبقات ،
وأغفلوا أثر الوراثة الشعرية بين هذه الطبقات ، ولم يذكروا شيئا عن
مظاهر الاستاذية والتأثير بين هؤلاء الشعراء ، تخالف بنا أن نقسمهم من
جديد تقريبا أدبيا إلى طبقات متفاوتة ، بحيث نستطيع أن نعكم على
عمل كل طبقة ومدى تأثيرها بمن قبلها وأثرها في الطبقة التي تليها ، ليستطيع
الباحث أن يفهم الشعر الجاهلي فهما جيدا على أسس جديدة ، كما يفهم
كل ما يتصل بطبقة بشار وطبقة أبي نواس وطبقة أبي تمام والبحتري مثلا
من الشعراء المحدثين ، وكما يفهم مذهب البشارودي ومذهب شوقي ومذهب
غيرهما في الشعر الحديث .

- ٢ -

وبعد فنحن لا نجد بدا من أن نقسم الشعراء الجاهليين إلى هذه الطبقات
الأدبية :

١ - طبقة مهمل م ٥٣١ ؛ ومن شعرائها : الشنفرى م ٥١٠ ، وتأبط
شرام م ٥٢ ، وأبو دؤاد الأيادي م ٥٤٠ ، وسواهم . وزعيم هذه الطبقة
مهمل ، وهو أول من نقل الشعر العربي من طور التراجيز والمقطعات الصغيرة
إلى مرحلة القصيد فهو أول من قصد القصائد وقال فيها الغزل ، وأول من
هلمل نسج الشعر وخاصة الرثاء أى رقة ومذهب ، وشعره من أعلى طبقات
شعر المتقدمين كما يقول ابن نباتة ، وهو من شعراء نجد ، وله رثاء كثير في أخيه
كليب زعيم ربيعة والعرب بعد مقتله عام ٤٩٤ م ، وقصيدته القافية : « جارت

بنو بكر ولم يعدلوا ، إحدى القصائد السبع « المنتقيات » ، وكانت العرب تسميها « الداهية » .

ولا شك أن هذه الطبقة هي التي مهدت سبيل التجديد في الشعر أمام امرئ القيس ، كما أنها جددت ولا شك فيه بنقله إلى هذه النهضة الفنية الكبيرة .

٢ - والطبقة الثانية طبقة امرئ القيس م ٥٦٠ ؛ ومن شعرائها :
علقمة م ٥٦١ ، والمرقس الأكبر م ٥٥٢ وهو أول من أطاح المدح ،
والمرقس الأصغر م ٥٦٠ ، وعبيد م ٥٥٥ ، والأفوه الأودي م ٥٧٠ ،
والمتلبس م ٥٨٠ ، والمثقب العبدى م ٥٨٧ ، والحارث بن حلزة م ٥٨٠ ،
وطرفة م ٥٦٥ .

وزعيم هذه الطبقة هو ولا شك امرؤ القيس ، وقد تنبذ في الشعر على
أبي ذؤاد الأيادي وعلى خاله الماهل ، وهو أول من وقف واستوقف وبكى
واستبكى ووصف النساء بالظباء والمها والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى
وقرب مأخذ الكلام وقيد أوايده ، وأجاد الاستعارة والتشبيه والكناية
ورقق الأسلوب وجعله عذبا في جزالة وجها ، وأول من شرع للناس مذهب
هذا الغزل القصصى الحلو ، وهذا الطرد الجميل القوى ، ولا تزال كلماته
« قيد الأوايد » ، « ونؤوم الضحى » وسواهما ذات رنين بعيد ، والذي في
شعر امرئ القيس - كما يقول الأمدى في الموازنة - : من رقيق المعاني
وبديع الوصف ولطيف التشبيه ، وبديع الحكمة فوق ما استعمار سائر الشعراء
في الجاهلية والإسلام ؛ وهذه الطبقة على أى حال ورثت الشعر عن الطبقة
التي سبقتها وأثرت في الطبقة التي تليها .

٣ والطبقة الثالثة طبقة النابغة م ٦٠٤ ، وزهير م ٦٢٣ ، والأعشى م
٦٢٩ وهو أول من تسكسب بشعره ؛ وعنترة م ٦١٥ ، وحاتم م ٦٠٥ وعمر
ابن كاثوم م ٦٠٠ ؛ ولبيد م ٦٦٢ ؛ وأمية بن أبي الصلت م ٦٢٤ .

وزعيم هذه الطبقة هو النابغة ولا شك ، فهو أستاذهم وحكمهم في سوق

عكاظ ، والذي تأثر به الكثير من الشعراء كحسان وسواه .
وزهير من أعلام هذه الطبقة وهو زعيم طبقة « المصنعين » ، وأستاذ
الخطبة وسواه من الشعراء .

٤ - والطبقة الأخيرة هي طبقة حسان وقيس بن الخطيم وسواهما من
الشعراء الذين عاشوا في الجاهلية وشاهدوا زمن النبوة ، وهم الذين يسميهم
النقاد « المخضرمين » .

ولا غنى لنا بعد ذلك من أن نقول إنه كان لكل طبقة من هذه الطبقات
مذهب فني خاص ، وكانت هذه المذاهب أثر لوراثات كثيرة وعوامل سياسية
 واجتماعية أخرى ، كما يبدو فيها أثر التقليد والتجديد جميعاً .

ولا شك أن قيام الأسواق الأدبية ، وحكومة النقاد بين الشعراء ،
وتقرب الشعراء بشعرهم إلى الملوك والأمراء واتخاذهم وسيلة للثراء ، وأداة للغناء
ولساناً لإذاعة مفاخر القبيلة ومحامدها وهجاء خصومها ، وهذه النهضة الفنية
الكبيرة التي بلغها الشعر في نجد حيث الهجرات العربية والحروب المستمرة ،
كل هذه الأمور وسواها كانت تدفع بالشعر الجاهلي دائماً إلى الأمام ، وتدعو
إلى تجزيده وتهذيبه والتجديد فيه .

وقد تتاح لنا فرصة أخرى للحديث عن هذه المذاهب الفنية المختلفة ،
وأثرها في الشعر الجاهلي خاصة والعربي عامة .

الشعر الجاهلي بين الطبع والصنعة

١ - المطبوع من الشعراء كما يقول ابن قتيبة من سمح بالشعر واقتدر على
القوافي وأراك في صدر البيت يحجزه وفي فاتحته قافيته وتبدلت على شعره رونق
الطبع ووشى الغزيرة (١) . والمصنوع هو المنقح المثقف من الشعر الذي قومه

صاحبه بالثقاف ونقحه بطول التفتيش ولم يذهب فيه مذهب المطبوعين (١) ،
يظهر للنقاد مهما كان محكما (٢) رتجد البيت فيه مقرونا بغير جاره ومضموما إلى
غير لقفه (٣) ، على أن أئمة الصنعة في الشعر العربي كانوا يعملون قصائدهم
نمطا واحدا بما يجعلها مستوية الشاعرية كالخطيئة وسواه ، ولذلك قال
الأصمعي : الخطيئة عيب الشعر . قال الجاحظ : عاب شعره حين وجده كاه
متخيرا مستويا لمكان الصنعة والتكاف والقيام عليه (٤) ، وقال الأصمعي
أيضا : زهير والخطيئة وأشباههما عيب الشعر وكذلك كل من يوجد في جميع
شعره ويقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى تخرج أبيات القصيدة كما
مستوية في الجودة (٥) ، قال ابن زشيق : يريد الأصمعي أنهما يتكفان إصلاحه
ويشغلان به حواسهما وخواطرها (٦) ، وكان الأصمعي يقول : وإنما الشعر
المحمود كشعر الجعدي ورؤية ولذلك قالوا في شعره : مطرف بألاف وخمار
بواف (٧) ، وكان الأصمعي يفضل من أجل ذلك (٨) ، قال الجاحظ : وكان
يخالف في ذلك جميع الرواة والشعراء (٩) : وأرى أنه مسبوق بذلك الرأي ،

(١) المرجع ١٦ (٢) المرجع ٢٢

(٣) المرجع ٢٣ ولذلك أخذ النقاد القدماء كالصاحب والشعالي والبديعي على
المتنى كثرة التفاوت في شعره .

(٤) ٢٥ ج ١ البيان والتبيين .

(٥) ٢٥ ج ٢ المرجع وتروى كلمة الأصمعي برواية أخرى هي : زهير والنابعة
وكان النقاد يعدون النابعة من المصنمين ويروى عن أبي عبيدة قال سمعت أبا عمرو
يقول : زهير والخطيئة عيب الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب
المطبويعين (١٠٥ إعجاز القرآن)

(٦) ١١٢ ج ١ البيان والتبيين .

(٧) ٢٥ : ٢ البيان .

(٨) ١٥٠ ج ١ البيان

(٩) ٢٦ ج ٢ البيان . وكان الأصمعي مع كراهته للصنعة يستحسن التفاوت
في الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار الصناعة .

فقد روى أنه قيل الرماح : لو أصابحت شعرك لذكرت به ، فقال : إنما الشعر كنبيل في جفرك ترمى به الغرض فظالع وواقع وقاصد (١) ، ورد بشار على من عابه بالتفاوت في شعره بأن الشاعر المطبوع كالبحر يقذف مرة صدفة ويقذف طوراً خريزة (٢) . وعلى هذا الرأي يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت في شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه وهو الآية الناطقة على شاعرية المتنبي عنده (٣) . وإذا كان الشاعر مصنفاً بأن جيده من سائر شعره كآبى تمام وإذا كان الطبع غالباً عليه لم يبن جيده كل البيئونة وكان قريباً من قريب كالبحترى ومن شا كله (٤) .

ويرى بعض المحدثين أن الشعر إذا كان صادراً عن ذات نفس الشاعر كان هو شعر الطبع أو شعر الفطرة (٥) فأينما وجدت النفس المتأثرة بما يزحمها من بواعث الشعور فقد وجدت هنالك شعر الفطرة (٦) ، ويذهب إلى ذلك العقاد حيث يرى أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والتمكف فإذا كان الشعر صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع وإلا فهو متمكف (٧) ، ويرى أن الأديب المطبوع من كان غير مقلد في معناه أو في لفظه وأن يكون صاحب هبة في نفسه وعقله لا في لسانه فقط (٨) وكذلك ذهب صاحب تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، الذي ذكر رأى ابن قتيبة وحمله بأنه يريد من الطبع في الشعر معنى الارتجال لا الطبع والشعور والملكة الشعرية الموهوبة ثم بنى على ذلك نقده لابن قتيبة ورأيه (٩) .

ورأى المحدثين إصلاح جديد في الطبع والصنعة ومعناها ، وهو لا ينقض الرأي الأول الذي ذهب إليه القدماء . بل لعل القدماء قد لا حظوه واكتفوا

-
- | | | |
|--------------------|--------------------------------------|------------------------|
| (١) ٨٨ ج ٢ الأغاني | (٢) ٢٧٥ ج ١ زهر | (٣) ٢٧٦ مطالعات العقاد |
| (٤) ١١١ ج ١ العمدة | (٥) ص ٧ الطبع والصنعة في الشعر | |
| (٦) ١٦ المرجع | (٧) ٢٧٧ مطالعات | |
| (٨) ٢٢٦ مطالعات | (٩) ١٣١ تاريخ النقد الأدبي عند العرب | |

في تعريفهم للطبع والصنعة بآثارهما الفنية في الأدب والشعر .

ونحن نرى أن الأولى في تحديد معنى الطبع والصنعة أن نجتمع بين الرأيين، فالطبع هو الملكة القادرة في نفس الشاعر والأديب التي توحى إليه بفننه وأدبه وحي الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره دون تكلف ودون تعب في الصوغ أو استجداء لترف الأسلوب والصناعة ، وإذا جاء شيء من آثار هذا التكلف الفني في شعر المطبوعين من الشعراء فانما يحىء عفواً وعن غير قصد إليه وتعمد له وإنما طلبه الذوق واستدعاء المعنى ، ونطقت به الشاعرية دون قصد ودون عناء ودون أن يطغى شيء على نفس الشاعر وشعوره وخلجات قلبه ونزعات عقله وإحساسه . والصنعة هي : إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفني وترف الأداء ، وزخرف الأسلوب ، وحبه لهذا الجمال والترف والزخرف ، وهيامه الفني بها وقصده إليها وتعنده لها في شعره وأدبه ، حتى لا يطلب الفن للفن ، ويستلهم الجمال للجمال ، ويستوحى الشعر من ملكاته الفنية التي غلبت عليها هذه النزعة واستبد بها هذا الأسلوب ، وكادت تكون فناً خالصاً يطغى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه وإحساسه بالحياة ، ويستبد بالظهور والغلبة عليها في الفن ، أو يشاركها في تراث الشاعر والأديب الفني فيقلل من ظهور نزعاته ووجداناته فيه ، ولذلك غاب القدماء من النقاد الصنعة والتصنيع ، وكرهوا الصانعين والمصنعين ، وراوا مذهبهم يخالف مذهب القدماء من الشعراء في الجاهلية والإسلام .

٢ - ولقد كان الشعر العربي أثراً للفطرة والقريحة ، واستجابة لشاعر بالشاعر وشعوره بالحياة في الجاهلية ، وكان أكثره ارتجالاً أو ما يشبه الارتجال ، ينظمه الشاعر على البديهية ويأني به عفواً الخاطر ، ترد إلى ذهنه المعاني وتتابع فتدخال عليه الألفاظ انشياً ، وتأنيه الأساليب شعراً وشعوراً وسحراً وجمالاً ، كل ذلك في سهولة وتدفق وفطرة ودون تثقيب وتهذيب وتنقيح ، وقد يتغنى للشاعر منهم في شعرة من آثار الصنعة التي لم يقصدها البيت

والبيتان في القصيدة ، وربما قرئت ، من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً . ويزداد حظوة بين الكلام المرسل (١) ، وليس متكافئاً تكليف أشعار المولدين ، وإنما وقع لهم عن غير قصد ولا تعمل لكن بطباع القوم عفوا . فلم تكن العرب تنظر في أعطاف شعرها بأن تجلس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة لللفظة أو معنى للمعنى كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالة وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر وإحكام عقد القوافي وتلاحم الكلام ببعضه ببعض (٢) ، فكل شئ للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكرة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذهب والعمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني إرسالا وتمثال عليه الألفاظ انثيالاً (٣) .

وفي العصر الجاهلي بدأ لون جديد من ألوان التشويق والهنعة في الشعر على يد أوس وزهير وتلاميذهما ، كان أوس من أصحاب التنقيح ، وكان يسمى بحبراً لحسن شعره (٤) وتتلذذ عليه زهير (٥) وكان طفيل كذلك وقد قيل إن زهير روى له (٦) وتتلذذ عليه ، وكذلك كان النمر بن تواب من أصحاب التشويق والتعذيب وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيس (٧) ، ومن أبرز رجال هذه المدرسة زهير ، وكان زهير يصنع الحوايات على وجه التشويق والتنقيح ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب ، بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أوليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك (٨) ، وكان يعمل القصيدة في ستة أشهر ويهذبها في ستة أشهر ثم يظهرها فتسمى الحوايات (٩) ، وعمل سبع قصائد في سبع سنين

(١) البديع (٢) ١٠٨ ج ١ العمدة (٣) ١٥ ج ٣ البيان

(٤) ١١٢ ج ١ العمدة (٥) ١٧٢ ج ١ المرجع

(٦) ١١٢ و ١٧٤ و ١٧٥ ج ١ العمدة (٧) ١١٢ ج ١ العمدة

(٨) ١٠٨ ج ١ العمدة (٩) ١٣٤ صناعتين

وكان يسميها الحوليات (١) ، وقيل كان ينظمها في شهر ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها الحول (٢) ، قال الجاحظ : ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمسكت عنده حولاً كريناً (٣) ، وزمنا طويلاً يردد فيها نظره ويقلب فيها رأيه اتها ما لعقله وتقبها على نفسه وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمنقعات والمحركات والمقلدات (٤) ، وقال : وكان زهير وهو أحد الثلاثة المتقدمين يسمى كبار قصائده الحوليات (٥) ، وأعل رأى النقاد في أنه كان يدع القصيدة عنده حولاً يهذبها ويقوم ثقافها ويصبغها بصبغة من الصنعة والتنقيح وبالغة في إطالة نظره فيها وصنعتة لها . وقد احتج أصحاب مذهب الصنعة بأن امرأ القيس كان يشقف شعره ويعيد فيه نظره ويسقط رديته ويثبت جيده (٦) وكان امرؤ القيس راوية أبي داود الأيادي مع قوة غريزة . وكان يلوذ به في شعره ويتوكأ عليه كثيراً (٧) ، وقد سار تلامذة زهير على نهج أستاذهم فكان الحطيفة صانعاً حاذقاً يقوم على شعره وينقحه (٨) ، وكان يعمل القصيدة في شهر وينظر فيها ثلاثة أشهر ثم يبرزها (٩) ، وكان يقول خير الشعر الحولى المنقح (١٠) أو المحكك (١١) ، ويشبهون طريقة الحطيفة في الشعر بطريقة زهير (١٢) وكان الأصمعي يعيبه من أجل (١٣) صنعتة ، وكان الحطيفة رواية زهير (١٤) ، وكان الفرزدق يروي للحطيفة كثيراً وكان أبو حية النخعي وهو من أحسن

-
- (١) ٢٦٦ سر الفصاحة
(٢) ٣٨ ج ٣ الرافعي
(٣) أي كاملاً
(٤) ٢١ ج ٢ البيان والنبين
(٥) ١٤٩ ج ١ و ٢٤ ج ٢ البيان و ١٠٥ إعجاز القرآن
(٦) ١٨٤ ج ١ العمدة (٧) ١١٢ ج ١ العمدة
(٨) ٦٠ من التصحيف والتحريف للعسكري
(٩) ١٣٥ صناعتين (١٠) ١٤٩ ج ١ البيان
(١١) ٢٥ ج ٢ ، ١٧٥ ج ١ العمدة ، ويروي ذلك عن زهير (٦٦ سر الفصاحة)
(١٢) ٢٦٧ سر الفصاحة
(١٣) ١٥٠ ج ١ و ٢٥ ج ٢ البيان (١٤) ٧٨ ج ٧ الأغاني

الناس شعراً أو الطغفهم كلاماً مؤتماً بالفرزدق آخذاً عنه كثير التمهيد له والرواية عنه (١)، كما كان هدية بن الخشرم رواية الخطبة وجميل رواية هدية وكثير رواية جميل (٢).

وهكذا استمر هذا المذهب، مذهب التثقيف وطول التهذيب منهجاً فنياً يشير عليه بعض الشعراء حتى بعد العصر الجاهلي، وكان أساساً للمذهب البديع الذي نشأ على يد مسلم وأبي تمام من المحدثين.

بين القدامى والمحدثين من النقاد خلاف كبير في تحديد معنى الطبع والصنعة: يرى الأولون أن التهذيب الفني للأسلوب هو الصنعة، فالصنعة هو المثقف المذهب من الشعر؛ أما الطبع فهو خلو الأثر الأدبي من آثار التجويد والتثقيف، ويرى الآخرون أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والصنعة، فإذا كان الشعر صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع، وإلا فهو مصنوع متكلف، والأديب المطبوع عندهم من كان غير مقلد في معناه أو في لفظه، وكان صاحب موهبة في نفسه وعقله لا في لسانه فقط.

ورأي المحدثين المعاصرين من النقاد اصطلاح جديد في معنى الطبع والصنعة. وأرى أن الأولى في تحديد معنهما أن نجتمع بين الرأيين اللذين يتلاقيان ولا يتناقضان، فالطبع هو الملكة القادرة في نفس الشاعر والأديب التي توحى إليه بفننه وأدبه وحي الفطرة والطبيعة واستجابة له واطفاه ومشاعره.

(١) ١٧٢ و ١٧٣ ج ١ العمدة، ٢٩٩ الشعر والشعر

(٢) ٤٨ ج ٣ الرافعي، ٣٠٠ الأدب الجاهلي، ١٧٢ ج ١ العمدة وكان

كثير رواية جميل ومفضلاً له (١٦ ج ١ العقد)

دون تكلف وتعبد في الصوغ أو استجداء لترف الأسلوب والصناعة، أما
الصنعة فهي إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفني وترف الأداء
وزخرف الأسلوب وحببه لهذا الجمال والترف والزخرف، وهما الفن بها،
وقصده إليها، وتعبد لها في شعره، حتى يطلب الفن للفن، ويستلهم الجمال
للجمال، ويستوحي الشعر من ملكاته الفنية التي استبدت بها هذه النزعة،
بما يطغى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه وإحساسه بالحياة.

ويجمع جمهور النقاد في القديم والحديث على عيب الصنعة والتعبد،
وسمو المصنعين من الشعراء في العصر الجاهلي : عبید الشعر، وعابوا شعرهم،
قال الأصمعي الأديب الراوية الناقد م ٢١٦ هـ : زهير والنابعة وأشباهم
عبید الشعر، وقال : الخطيئة - وهو شاعر إسلامي مشهور - عبید لشعره،
قال الجاحظ إمام الأدباء والنقاد م ٢٥٥ هـ : عاب الأصمعي شعره حين وجده
كله متخيراً مستويماً لما كان الصنعة والتكلف والقيام عليه، وكان الأصمعي
يستحسن التفاوت في الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار
الصناعة، وعلى هذا الرأي يسير بعض المحققين ممن يرى أن التفاوت في
شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه، ويعده النقاد الآية الناطقة على
شاعرية المتنبي وعظيم مكانته في الشعر.

ولقد كان للشعر العربي أثراً للفطرة والبديهة واستجابة لمشاعر الشاعر
وشعوره بالحياة في الجاهلية وكان أكثره ارتجالاً أو ما يشبه الارتجال،
ينظمه الشاعر على البديهة، ويأتي به عفواً خاطر، ترد إلى ذهنه المعاني
وتتتابع، فتدثال عليه الألفاظ وتأليه الأساليب شعراً وشعوراً وسحراً
وجمالاً، كل ذلك في سهولة وتدفق وفطرة دون تثقيب وتهذيب وتقييد،
حتى قال الجاحظ : وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام،

وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجابة فـكرة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذاهب والعمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني برسالة ، وتلثال عليه الألفاظ انثيالاً .

وفي العصر الجاهلي بدأ لون جديد من ألوان التهذيب والصنعة في الشعر على يد أوس وزهير وتلاميذهما .

كان أوس بن حجر من أصحاب التثقيف ، وكان يسمى محبها لحسن شعره ، وتتلذذ عليه زهير ، وكان طقيل النخوى كذلك ، وكان النمر بن تولب أصحاب التثقيف والتهذيب ، وكان أبو عمرو بن العلاء الناقد الراوية م ١٥٤ هـ يسميه الكيس لحذقه بالشعر ، والنقاد يعدون النابغة الذبياني أيضاً من المصنعين ، ويقول أنصار الصنعة إن امرأ القيس أيضاً كان يثقف شعره ويعيد النظر فيه فيستقط رديته ويثبت جيده ، وكان امرؤ القيس راوية أبي دؤاد الأيادي ؛ وكان يلوذ به في شعره ويتوكأ على معانيه كثيراً ، ولكن امرئ القيس ينفي عنه الصنعة والتصنيع ؛ وفرق بين أن يجيء عفواً في شعره بعض آثار الصناعة الفنية وأن يكون مصنعاً ينحت فنه كما ينحت الفنانون تماثيلهم .

وأبرز رجال هذه المدرسة على أي حال هو زهير ، قال بعض النقاد : عمل سبع قصائد في سبع سنين كان يسميها الحوليات . وكان زهير يصنع الحوليات على وجه التثقيب والتهذيب ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من النقد والنقاد . بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة ، وقيل كان ينظم القصيدة في شهر ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها الحول ، وقيل : بل كان يعمل القصيدة في ستة أشهر ويهذبها في ستة أشهر ، وقال الجاحظ : كان زهير يسمى كبار قصائده الحوليات . وقد سارت تلامذة زهير على نهج أستاذهم كالخطيئة الشاعر الإسلامي وسواه .

وكان هذا المذهب الفني في الشعر الجاهلي - مذهب الصنعة والتصنيع -

أثراً للتنافس بين الشعراء وقيام الأسواق الأدبية كمعكاز وسواه بالحكومة الأدبية بينهم وكان النابغة تقام له قبة في عكاظ ويتحاكم إليه الشعراء ، كما كان أثراً للتكسب بالشعر واتخاذ وسيلة للثراء وعكوف الشعراء المصنعين على تجويد مدائحهم ليستخرجوا بها سني الهدايا والأطاف من مدوحهم ، وكان ارتباط الشعر الجاهلي بالغناء ورغبة بعض الشعراء في التجويد والتجديد في المعاني من أسباب نشأة هذا المذهب الفني أيضاً .

وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلي نفسه وجدنا الفرق كبيراً بين آثار أصحاب الطبع والبدية كطرفه وامرئ القيس ومهلل وآثار الشعراء المصنعين .

والمعلقات السبع وهي من أشهر القصائد الجاهلية في البلاغة الأدبية وأحفلها بمواهب الشاعرية والفن والخيال ونحسب المملكات ، كلها من آثار الطبع الأدبي الموهوب ، وليس فيها شيء من مظاهر الصناعة الفنية : فمعلقة امرئ القيس أروع صورة لحياة الشاعر وترفه ولهوه ، ومعلقة عمرو بن كلثوم ملحمة تاريخية تصور التاريخ القومي والحرري والسياسي لقبيلة الشاعر تغلب ، ومعلقة عنتره حديث عذب جميل بين الحب والحرب والبطولة ؛ ومعلقة زهير دعوة للسلام ووصف لأهوال الحرب وقسوتها على الناس والبشرية ، ويكاد يكون زهير فيها أشبه شيء بالمطبوع ، ويكاد أسلوبه فيها يبعد عن الصناعة وآثارها الفنية .

وشتان بين معلقة زهير هذه وبين قصيدة النابغة :

كلينى لهم يا أمية ناصب وإيل أقاسيه بطيء السكواكب
أو قصيدة أخرى لزهير نفسه هي :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطلة وعرى أفراس الصبا ورواحله
لبعد ما بين الأثر المطبوع والأثر المصنوع .

دفاع عن الشعر الجاهلي

- ١ -

كثرت في العصر الحديث مقالات الأدباء والنقاد في الزرابة بالشعر الجاهلي ، وتنقصه ، ورميه بالقدم والجود ، والدعوة إلى تركه والانصراف عنه ، وعيبه حينما يخلو من الشعر التمثيلي والقصصي ، وحينما يتفككه وعدم وجود وحدة للقصيدة في آثاره الفنية الباقية ، وباضطراب معانيه وعدم تمثيلها إلا للبيئة البدوية الجاهلية وحدها ، وحينما آخر يرمونه من ناحية الصياغة واللفظ والنظم بأكثر مما يعاب به شعر قديم أو حديث .

وقد حمل لواء هذه الدعوات أدباء كان نصيبهم من دراسة الأدب العربي أو الأدب الجاهلي وحدة محدوداً ضئيلاً ، وآخرون قرأوا الأدب الجاهلي فلم يطرؤوا له ولم يرتاحوا إليه ، ولم يفهموه حق الفهم ، وفريق آخر تدفعه إلى ذلك الشعبية الحديثة التي ترى مظهرها بادياً في تنقص كل ما هو عربي أو قديم والتعصب لكل ما هو غربي أو حديث .

ولا شك أن في أكثر آرائهم جوراً في الحكومة الأدبية وإسرافاً ومغالاة كثيرين ، فلكل شعر جيد - كما يقول الدكتور طه حسين في الأدب الجاهلي - ناحيتان مختلفتان ، فهو من ناحية مظهر من مظاهر الجمال الفني المطلق ، وهو من هذه الناحية موجه إلى الناس جميعاً مؤثر فيهم ، ولاسكن بشرط أن يعدوا لفهمه وتذوقه ، وهو من ناحية أخرى مرآة يمثل في قوة أو ضعف شخصية الشاعر وبيئته وعصره ، وهو من هذه الناحية متصل بزمانه ومكانه ، فازدراء الشعر الجاهلي غلو ليس أقل إمعاناً في الخطأ من ازدراء الشعر الأجنبي ،

إننا لا ننكر أنه تحول دون فهم الشعر الجاهلي وتذوقه صعوبات كثيرة

أهمها : ضعف لغته وأسلوبه ، وبعد الأمد بصور البيئة العربية القديمة وألوان الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي ، ومشاهد الطبيعة والوجود إبان ذلك العهد البعيد ، ولكن ذلك لا يمكن ألا يصح أن يصرفنا عن هذا الجمال الفني الرائع الذي نجده في الشعر الجاهلي ، فضلا عما فيه من تخليد لأثار الحياة العربية الأولى وأحداثها ومظاهر التفكير فيها . ومع ذلك كله فإن الشعر الجاهلي أقوى دعامة للعربية وحفظها وخليودها بعد القرآن الكريم .

فهو من حيث إنه صورة من صور الفن والخيال والجمال ، ومن حيث إنه أساس الثقافة الأدبية والعربية ؛ لا يمكن لذلك وغيره أيضاً الاستغناء عن هذا الشعر القديم ونبذه ورائنا ظهرياً .

في الشعر الجاهلي جهال ، وهو أيضاً لا يخلو من هنات ؛ وفيه روعة ، وإن كنا لا نبرئه من العيب ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن ندرس المذهب الفني الذي يمثل الشعر الجاهلي ، وأن نتعرف خصائصه وعناصره لنرى إلى أي حد يصح أن نجاري هؤلاء وهؤلاء من النقاد والمتعصبين على الشعر الجاهلي القديم ، وإلى أي مدى يصح أن نسير في الدفاع عنه ؛ فذلك أقرب إلى العدالة الأدبية في البحث والمناقشة .

— ٢ —

١ — أول ما نعرفه من خصائص الشعر الجاهلي : البساطة والصدق والوضوح وعدم التكلف أو الإغراق في الأداء ، وهذا شيء يسلمه النقاد للشعر الجاهلي تسليماً ، ويجزمون به ؛ وهو ما يدفعنا إلى الإعجاب به واللذة الفنية حين نقرؤه ونستمع إليه ، ولا يمكن أن يكون في ذلك ما يدعو إلى التهوين من شأنه ، فالجمال أو أحد أسبابه لا يدعو إلا إلى الإعجاب والحب والمتعة . بل إن هذه الميزة الواضحة في الشعر الجاهلي هي نفس ما يدعو إليه نقادنا المحدثون ودعاة التجديد في الأدب العربي الحديث : « بعد أن أبعد المحدثون الشعر عن البساطة والإخلاص ، وهما الصفتان اللتان كانتا حسناً

له ، كما يقول الدكتور ضيف (١) .

٢ - ويمتاز الشعر الجاهلي أيضا بالزهد في المحسنات والوان التزيين الفني ؛ وهذه سمة غالبية علميه . وأدباؤنا المحدثون لا يزالون يدعون إلى هذا المذهب . ولقد كان الشعر المصري الحديث في أول نهضته مشغلا بقيود الزخرف البديعي الذي ورثه عن العصر التركي والعثماني وأواخر العصر العباسي إلى أن ثار النفاد على ذلك النهج ودعوا إلى الخلاص من آثاره ، حتى برى الشعر الحديث من عاهته وسار طليقا إلى غاياته . وقد ظهرت في الآداب الأوروبية أيضا صبغة الزخرف الفني في العصور الوسطى ؛ كما حدث في الأدب الإنجليزي بعد عصر اليصابات ، وفي فرنسا بعد عهد لويس الرابع عشر ؛ أفنقول بعد ذلك إن الشعر الجاهلي يعاب لهذه الحسنة الظاهرة ؟ ويزدرى لذلك الفضل الظاهر ؟ .

٣ - ومن خصائص الشعر الجاهلي : متانة الأسلوب وقوته وجزالة وأمره ، وللبديهة البدوية أثر بعيد في ذلك ؛ وقد سار المحدثون في العصر العباسي على هذا النهج حيناً ، وحيناً آخر أغرقوا في العذوبة والسلاسة والسهولة التي ورثوا بعضها عن العصر الأموي ومدرسة المذريين التي شاعت فيه . وقد دافع بعض النقاد عن الجزالة والقوة ، كما دافع آخرون عن العذوبة والركة ، ووقف آخرون يحددون مواقف هذه ومواقف تلك كبن الأثير في المثل السائر وسواه ، ولكن العصور الأخيرة كانت تعد العذوبة ضعفا في الشاعر وميلامنه إلى العامية ، وبهذه النظرة كانوا يحكمون على شعر البهاء زهير الشاعر المصري المشهور .. ولكننا نقول للناشئين : ربوا ذوقكم الأدبي ، وأرهفوا مشاعركم الفنية ، وتأثروا في حياتكم ومذاهبكم الأدبية بالحياة والحضارة التي تعيشون فيها ، وستدركون بأنفسكم الحقيقة الأدبية في هذه المسألة الفنية ، ولا شك أن عذوبة الأسلوب وسلامته يجب أن تبرز في إنتاج الشاعر وفنه ، لأثر

الحياة والحضارة في نفسه ؛ ومع ذلك فهذه المذوبة والرقّة يجب ألا تنقلباً
ضعفاً وعامية ، وأن توشى بألوان من الجزالة في مواقف خاصة تستدعيها
حياة الشاعر ونفسيته قبل كل شيء ؛ كما يجب ألا تنقلب الجزالة حوشية وإغراباً
وتعقيداً عند الشعراء الذين يحافظون على الجزالة . وأحسب أن شعراءنا
المعاصرين الذين يتكلمون الألفاظ اللغوية الكثيرة البعيدة في قصائدهم إنما
يفعلون ذلك تقليداً ، فحسب وفي مطلع حياتهم الفنية التي يكثر فيها الناشئون من
التقليد ؛ ونحن على أي حال لا يمكن أن نعيب الشعر الجاهلي لجزالته ، فقد رأيت
موقف النقد من الجزالة وإعجاب الكثير منهم بها ودفاعهم عنها ؛ فوق أنها أثر
من آثار البيئة في الشعر الجاهلي .

٤ - ومن خصائص الشعر الجاهلي أيضاً القصد إلى المعنى في الإيجاز ويسر
وقلة إطناب . ولا شك أن العصور الأدبية التي تلت العصر الجاهلي وتعددت
فيها ألوان الثقافات ومظاهر الحضارات قد أبعدت الشعر عن هذا الاتجاه ،
ودفعته إلى الأطناب وشق ألوان التصوير ؛ وموقف النقد حيال ذلك طوائف ؛
طائفة تدعو إلى الإيجاز وتراه البلاغة والبيان ، وطائفة تشيد بالأطناب وترى
فيه جمال الفصاحة وروعة التصوير ، وأخرى تحدد الأطناب مواضع والإيجاز
مواضع ؛ كقدامة في نقد النثر وابن سنان في ممر الفصاحة . ونحن لا نقول للشاعر
المعاصر : أثر الإيجاز أو اعمد إلى الأطناب ، وإنما نقول له : إن أساس
الجودة الفنية أن تؤدي معانيك في رفق ويسر وقلة فضول . وفي الآداب
الغربية الآن مذاهب تدعو إلى القصد في التصوير البياني والاكتفاء بشرح
الأفكار الجديدة وترك ما عداها .

٥ - ولا شك أن أهم طابع للشعر الجاهلي بعد الذي ذكرناه سابقاً هو هذا
الطابع البدوي الواضح الذي يفجؤك في شتى القصائد الجاهلية ، مما هو أثر
للبيئة والحياة الجاهلية . ونحن ندعو كما يدعوا كل منصف إلى ترك هذا
الانحياز في الأداء والتصوير فقد أصبح لا يلائم منهج الحياة في القرن العشرين
كما أن إبراز هذا الطابع البدوي في شعر الشعراء المعاصرين يكون تقليداً سخيفاً

لأمبرر له ، ويحول دون ظهور نزعاته الفنية ومواهبه الخاصة المستقلة في شعره ، وهذا ضرر بعيد .

ومن آثار هذا الطابع في الشعر الجاهلي :

أ - شدة تمثيلة للبيئة البدوية ، وقد سار بعض الشعراء المحدثين على هذا النهج ، فملأوا شعرهم بصور الحياة البدوية ، من وصف الناقة والجمال والظليم والمدن والديار القديمة ، فما سخر به بعض النقاد والشعراء ودعوا إلى التحرر منه فقال مطيع بن إياس :

لأحسن من بيد تحاربها القطا ومن جيلي طي ووصفكما سلما
تلاحظ عبي عاشقين كلاهما له مفلة في وجه صاحبه ترعى

وهذه دعوة جديرة بالعناية ، خليقة بالإيثار وقد دعا المجددون في الأدب الحديث ، وأكثروا من الدعوة إلى أن يكون الشعر صورة الحياة الشاعر ونفسيته وبيئته وعصره ، وإلى أن يخلو من آثار التقليد للقدايم في أغراض الشعر وفنونه وموضوعاته ، وهذا اتجاه جليل قد سار بالشعر العربي الحديث خطوات واسعة نحو التجديد والجمال والروعة ، فالشاعر هو الذي يكون خير مقلد في معناه أو في لفظه . ويكون صاحب هبة فنية في نفسه وعقله ، ويتأثر ببيئته ويؤثر فيها ، ويمثلها في جدها ولها وما وفرحها وحزنها وسلامها وحربها وألمها وأملها أتم تمثيل .

ب - ومن آثار هذا الطابع البدوي في الشعر الجاهلي أيضا بدء أغلب القصائد الجاهلية بذكر الأطلال ، ووصف الديار . وهذا مذهب أغلبية الجاهليين ، لا يشذ عن ذلك إلا القليل ، كعمرو بن كاثوم في معلقته التي بدأها بذكر الراح ، وكتأبط شرا في قصيدته اللاحية المشهورة :

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلا دمسه ما بطل

والتي يسميها بعض المستشرقين نشيد الانتقام . . ويدافع ابن فتيبة في أوائل كتابه الشعر والشعراء ، عن نهج الجاهليين دفاعا حارا ، فقد صور

نهج العرب في وحدة القصيدة وما كانوا يبدأونها به من ذكر الديار والآثار
ووصلهم ذلك بالسيب والشكوى وألم الوجد وفرط الصبابة ثم ذكر الرحلة
إلى الممدوح تخلصاً إلى مدحه واستجلاباً لرضائه وسنى ألقائه ، وقال :
والشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام (١) .
وقد سار الكثير من المخضريين والإسلاميين على هذا النهج أيضاً ، فأكثرُوا
من بدء قصائدهم بوصف الأطلال والديار ؛ كما أكثر الكثير منهم من
بدءها بالغزل ولم يشذ عن ذلك إلا أبو نواس الذي دعا إلى بدء القصيدة
بذكر الراح . قال :

وصف الطول بلاغة القدم فاجمل صفاتك لابنة الكرم
وتبعه ابن المعتز فقال :

أف من وصف منزل بعكاظ الخومل
غير الريح رسمه بحبوب وشمال

وكان أبو نواس شعوبياً في مذهبه ، أليس هو الذي يقول :
تبكى على طلل الماضين من أسد تمكت أملك قل لي من بنو أسد
ومن ثميم ومن قيس ومن يمن ؟ ليس الأتارب عند الله من أحد
ولكن ابن المعتز كان ناقدًا يبحث عن الصلة بين الأدب والحياة
ويحاول أن يلائم بينهما وينادى بتحضر الشعر وترك البداوة فيه وتمثله
لحياة الشاعر وآرائه في الحياة .. وقد ثار ابن رشيق على منهج الجاهليين في
القصيد ، ورأى - مع من رأوا - أنه لا معنى لذكر الحضرى الديار (٢) وأنه ليس
بالمحدث من الحاجة إلى وصف الإبل والقفار لرغبة الناس في عصره عن تلك
الصفات وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها ، وأن الأولى وصف الخمر والقيان (٣) ..

(١) ١٤ و ١٥ من الشعر والشعراء .

(٢) ١٩٩ : ١ العمدة

(٣) ١٧٩ : ٢ المرجع

وقد تكفلت الحياة نفسها بصرف الشعراء المعاصرين عن هذا المنهج الفني في القصيدة ، فليس منهم والحمد لله من يبدأ قصيدته بذكر الإبل والقفار والديار والآثار ، بل إن ذلك لو فعله أحد الآن لرمى بالجنون ؛ ولكن ليس معنى ذلك ألا يصف الشاعر المعاصر معاهد أهله وأحبابه في شعره أبداً ، أو ألا يبدأ قصيدة من قصائده بذكرها ، ولكننا نقول إن المعيب هو التزام بدء القصيدة بوصف الاطلال القديمة تقليداً للجاهليين ، وإذا التزم شاعر معاصر بدء قصائده بذكر معاهد حياته وأحبابه ولم يتخل عن هذا المنهج ، لم نحاسبه على ذلك ، إلا إذا قيد هذا من حرية الفنية أو حبس مواهبه وملاكماته الأدبية ، فإنه يجب بحق ألا يقيد الشاعر نفسه بأى قيد لا تلزمه به نفسه ومواهبه وملاكماته الفنية وحدها ، وإلا كان مقلداً لا نصيب له من الشعور بالحياة والإحساس بها والتمتع النفسى العميق بمشاهدها وصورها وألوانها .

ج - وهناك في الشعر الجاهلى ظاهرة أخرى نشأت عن الطابع البدوى الموروث ، وهى كثرة الغريب والوحشى ، ولا شك أن ذلك مذهب العرب القدامى يحددهم لأثر البيئة البدوية الجافة الخشنة فى عقولهم ونفوسهم . وما أروع ما يقول صفي الدين الحلى الشاعر المتوفى عام ٥٧٥ هـ :

إنما الحيزبون والدرديس والعلخا والنقاخ والمطلبيس
لغة تنفر المسامع منها حين تروى وأشمئز النفوس
وقبيح أن يذكر النافر الوح شى منها ويترك المأنوس
أين قولى : هذا كئيب قديم ومقالى : عثقل قدموس
إنما هذه القلوب حديد ولذيذ الألفاظ مغناطيس
وليس هناك الآن والحمد لله أحد يدعو إلى استعمال هذه الألفاظ ، أو رتاح قلبه حين سماعها ، فهى ألفاظ تاريخية يجب أن نفهمها فحسب .

بقيت بعد ذلك صور البيان الأدبى نفسه . أنصوغ أسلوبنا على الصور
(١٧)

القديمة التي يمثلها الشعر الجاهلي ؛ أم نستمع صورته من ألوان حياتنا وبيئتنا وثقافتنا . ولنضرب مثالا واحداً لذلك : لا شك أن الجمل كان عماد الحياة في العصر الجاهلي ، وفي أساليب البيان صور كثيرة استمدت منه ، فقد قالت العرب : ألقى الجمل على الغارب ، واقتعد غارب المجد وسنامه ، ووطئه بمسسه وضرسه بأنياه ، وألقى عليه جرائه ، وناء وأماخ عليه بكلكاه ، وقالوا لا ناقة لي فيها ولا جمل ، وأخذ بزمام الأمر .

وقد حاول النقاد والبلاغيون في العصور القديمة أن يدعوا إلى توليد صور البيان وتنميتها من مشاهد الحياة والبيئة التي تتجدد دائماً .

فهل نأخذ صور البيان القديمة في أساليبنا لنرضى العرب القدامى . أو نولد فيها لنرضى عبد القاهر والقاضي الجرجاني وسواهما ؟

لست أدعو إلى الأول ولا أحبه ، وإن كنت لا أرى في الرأي الثاني ضيراً أو ضرراً ، وأوثر أن يضيف الأديب إلى الصور التي يولدها صوراً جديدة يستمدّها خياله من حياتنا وبيئتنا وألوان الحضارة التي نعيش فيها ، والاختراعات التي تجد دائماً بيننا والتي نبعث اللغة عنها ونحاول ألا نستمع بها صورنا الأدبية .

وبعد فهذه سمات الشعر الجاهلي والصلة الفنية بين حياتنا الفنية الحاضرة وما يصح وما لا يصح أن نقلده فيه .

صلة الشعر العربي بالتاريخ

تمهيد :

الشعر العربي الجاهلي كما يقول ابن فارس : « ديوان العرب وبه حفظت الأنساب وعرفت المآثر ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيها أشكال من غريب كتاب الله وغريب حديث رسوله صلوات الله عليه (١) » ، وهو

كما يقول ابن سلام : « ديوان علمهم ومنتهى حكمتهم به يأخذون وإليه يصيرون (١) » .

وبحق ان الشعر الجاهلي وثيق الصلة بحياة الجاهليين وعاداتهم وأخلاقهم ومعارفهم لأنه يمثلها أصدق تمثيل ، مما يجعله سجلا لتاريخ العرب قبل الإسلام . وإذا كان العرب في الجاهلية لم يستطيعوا تخليد حياتهم وتاريخهم في كتاب أو على الآثار ، فقد خلدها على صفحات شعرهم الذي ضمنوه أخبارهم وحياتهم وأسماء بلادهم وحيواتهم ونباتهم ، وأودعوه عاداتهم وتقاليدهم ومعارفهم وحروبهم ومجتمعاتهم ، حتى كان الشعر الجاهلي أكبر مصدر تاريخي لحياة العرب في الجاهلية ؛ وفيه أسماء محبوباتهم وأبطالهم وشعوبهم وقبائلهم وأيامهم ووقائعهم وأسماء منازلهم وميادهم وعشاق خيولهم وأوصاف سيوفهم وملاعب ولدانهم إلى ما سوي مما سبق الإلمام به .

الشعر الجاهلي صورة لأخلاق العرب في الجاهلية :

وأهم أخلاق العربي قبل الإسلام : الشجاعة والكرم والوفاء والأنفة والإباء والحمية والعفة وحب الاستقامة والأخذ بالشار

يمثل شجاعتهم قول عمرو بن معد يكرب :

هم ينذرن دمي وأنذر إن لقيت بأن أشدا
- كم من أخ لي صالح بوأته بيدي لحدا
ما إن جزعنت ولا هلمت ولا يرد بكاي زندا
ألبسته أثوابه وخلقت يوم خلقت جلدا

وقول الحصين بن الحمام المري :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أقدم

فلمسنا على الأعقاب تدمى كلونا
ولكن على أقدامنا تقطر الدما
وقول ودّك :

إذا استنجدوا لم يسألوهم من دعاهم
ويمثل كريمهم قول عتبة بن بجير :

فقالوا غريب طارق طوحت به
متون الفيافي والخطوب الطوانح
فقتت ولم أجثم مكانى ولم تقم
مع النفس علات البخيل الفواضح
وناديت شبلا فاستجاب وربما
ضمنا قرى عشر لمن لا نصافح
فقام أبو ضيف كريم كأنه
وقد جد من فرط الفكاهة مازح
إلى جذم مال قد نهكنا سوامه
وأعراضنا فيه بواق صحاح
جعلناه دون الذم حتى كأنه
إذا عد مال المكثرين المنائح (١)
لنا حمد أرباب المئين ولا يرى
إلى يبتنا مال مع الليل رائح
ويمثل عفتهم قول النابغة :

رقاق النعمال طيب حجزاتهم
يحيدون بالريحان يوم السبائب
وقول ابن الاطنابة :

المسانمين من الخنا جاراتهم
والحاشدين على طعام النازل
وقول شقران متهكما :

أولئك قوى بارك الله فيهم
على كل حال ما أعف وأكرما
وقول حجير بن حمية العبسى :

لا أحرم الجارة الدنيا إذا اقتربت
ولا أقوم بها في الحى أخزيبها
إلى غير ذلك مما يمثل شتى أخلاقهم تمام التصوير .

(١) جمع منيحة وهى الناقة أو الشاة تدفع إلى الجار لينتفعع بابنها مادام فيها لبن

الشعر الجاهلي سجل لعقائد العرب :

ورغم ما ضاع من الشعر الوثني للعرب في جاهليتهم فقد بقي منه الكثير
بما يعطيك صورة واضحة لحياة العرب الدينية .

(أ) يقول عبد العزى المزني يحلف بمناة :

لاني حلفت يمين صدق برة بمناة عند محل آل الخزرج

ويقول أوس بن حجر يحلف باللات والعزى :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهم أكبر

ويقول عبيد في «اليعبوب» وهو صنم لجديلة طيء وكان لهم صنم أخذته

منهم بنو أسد فتبدلوا «اليعبوب» بعده :

فتبدلوا «اليعبوب» بعد إلههم صنما فقروا يا جديل وأعذبوا

إلى غير ذلك مما قيل في الأصنام والأوثان .

(ب) وكان من العرب دهريون ، ويقول شاعر منهم :

منع البقاء تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا تسمى

وطلوعها حراء صافية وغروبها صفراء كالورس

تجري على كبد السماء كما يجري حمام الموت في النفس

اليوم أعلم ما يحيى به ومضى بفصل قضائه أمس

(ح) وكان منهم الثائرون على الوثنية المتطلعون لدين من التوحيد ،

قال زيد بن عمرو بن نقييل :

أرباً واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور

عجبت وفي الليالي معجبات وفي الأيام يعرفها البصير

بأن الله قد أفنى رجالاً كثيراً كان شأنهم الفجور

ويقول أمية بن أبي الصلت :

الحمد لله مسانا ومصباحنا بالخير صبحنا ربى ومسانا
رب الخليفة لم تنفذ خزائنه مملوءة طبق الآفاق أشطانا
وقال النابغة :

مجلتهم ذات الإله ودينهم قويم فسا يرجون غير العواقب
وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل ، وولى الملامة الرجلا
وقال أبو قيس صرمة من بنى النجار :

سبحوا الله شرق كل صباح طلعت شمسك وكل هلال
يا بنى الأرحام لا تقطعوها وصلوها قصيرة من طوال
يا بنى النجوم لا تظلموها إن ظلم النجوم داء عضال
ولكثير من الشعراء الجاهليين حتى امرئ القيس أشعار تدل على
عقيدتهم الدينية ، أليس هو الذى ينسب إليه :

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل
ويقول : ومن الطريقة جائر وهدى قصد السبيل ومنه ذو دخل (١)

معارف العرب فى الشعر الجاهلى :

والشعر الجاهلى يصور لك معارف العرب فى جاهليتهم بوضوح ودقة ،
فحول العطب ومعرفة بهم به الكثير من الآيات التى تدل بصورة واضحة
على هذا اللون من معارفهم ، قال الشاعر :

فهل لكم فيها إلى فانى خير بما أعياننا نطاسى نخديما ؟
وفى العرافة جاء قول الشاعر :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني
ويدل على معرفتهم بالكتابة قول لبيد :

(١) وتانسب لا مرى القيس بن عابس

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها
وقول المرقش : « كما رقص في ظهر الأديم قلم »

وفي معرفتهم بالملاحة قول عمرو بن كلثوم :
ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا
وقول طرفة :

كان حدود المالكية غدوة خلا يأسفين بالنواصف من دد
عدو لاية أو من سفين ابن يامن يحور بها الملاح طور أو يهتدى
يشق حباب الماء حيز ومها بها كما قسم الترب المفايل باليد
وفي الزجر قول الشاعر :
خبير بنو لهب فلا تك ملعيا مقالة لهي إذا الطير مرت
إلى غير ذلك من شتى أشعارهم التي تدل على معارفهم .

الشعر الجاهلي والحياة الاجتماعية عند العرب :
والشعر الجاهلي يصور لنا الحياة الاجتماعية في الجاهلية وعادات العرب
فيها أدق تصوير .

١ - فقد كانوا يطلقون نساءهم : قال الأعشى :
أيا جارتا بيني فانك طالقة كذاك أمور الناس غاد وطارقة
وكانوا يتزوجون نساء آبائهم بعد وفاتهم ، قال عمرو بن معد يكرب :
فلولا إخوتي وبنيّ منها ملأت لها بذي شطب يميني

٢ - وكانوا يشربون الخمر ، قال عنتره :
فإذا سكرت فإنني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحت فما أقصر عن ندي وكما علمت شمائلي وتكرمي

وقال عمرو بن كلثوم :

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى نخور الأندرينا
وكان بعضهم يحرمها على نفسه ، قال قيس بن عاصم :
لعمرك إن الخرمادمت شارباً لسالبة مالى ومذهبة عقلى
٣ — وكانوا يعنون بالخيل أتم عناية ، وحفظ الشعر الجاهلى أسماء الكثير
منها ، قال الحارث بن عباد :

قرباً مربوط النعامة منى لقمحت حرب وائل عن حيال (١)
ويقول بشر بن أبى خازم فى الفخر :
وبكل أجرد سابح ذى ميعة متماحل فى آل أعوج يلتقى
وكانوا يحضرون الحلبة (٢) ويشتركون فى السياق ، قال عنزة :
فلله عينا من رأى مثل مالك عقيرة قوم إذ جرى فرسان
فليتهدما لم يجرى قيسد خطوة وليتهما لم يرسلأ لرهان
وفى سباق داحس والغبراء وقعت هذه الحرب المشهورة .

٤ — وكانوا يعقرون نوقهم وأفراسهم على قبور العظاماء ، من ذلك
قول الشاعر :

فإذا مررت بقبره فانضح به كوم الجلاذ وكل طرف سابح
وانضح جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أخادم وذبانح
٥ — والميسر والقمار عندهم شائع ، قال لييد :
وجزورأيسار دعوت لحتفها بمغالتى متشابه أجسامها
وقال امرؤ القيس :

(١) أى عقم
(٢) هى الدفعة من الخيل فى الرهان وخيل يجتمع للسباق من كل أوب ،
وتطلق على مكان السباق تجوزاً .

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

٦ - وكانوا يستقسمون بالأزلام ، فإذا أرادوا عمل شيء جاءوا إلى هبل وهو أعظم صنم لقريش بمكة في الكعبة ومعهم مائة درهم فأعطوها صاحب القداح أجراً له حتى يحيل القداح لهم ؛ وهي سبعة محفوفة عند خازن الكعبة . اثنان للمضي في الأمور المهمة أو للتريث فيها كتب على أحدهما « أمرني ربي » وعلى الآخر « نهاني ربي » ، وثلاثة لمعرفة النسب على أحدهما « منيكم » وعلى الثاني « من غيركم » ، وعلى الثالث « ملصق » ، واثنان لمعرفة القاتل ، على أحدهما « عقل » ، والثاني « غفل » ، وكانوا يستقسمون عند ذي الخلصة أيضاً ، واستقسم عنده امرؤ القيس حين عزم على الأخذ بثأر أبيه فنهاء فقال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا لم تنه عن قتل العداة زورا
٧ - ومن عاداتهم تعليق الحلي والخلاخل على اللديغ ليفيق ،
قال النابغة :

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم نافع
يسهد من ليل التمسام سليمها لحلي النساء في يديه قعاقع
٨ - ومن عاداتهم تحريم الخمر على أنفسهم في مدة طلب الثأر ، قال
تأبط شراً :

فادر كنا الثأر فيهم ولما ينجم الحين إلا الأقل
حلت الخمر وكانت حلالا وبلاي ما ألت تحل
٩ - وكانوا يتدنون بناتهم وكان ذلك في بعض القبائل ، خوف الفقر أو
العار وذلك مشهور لاداعي الكلام فيه . ويفتخر الفرزدق بجده في الجاهلية
لأنه أجار البنات حتى لا يوادن فيقول :

أجار بنات الوائدين ومن يجر من الموت فاعلم أنه غير مخفر

١٠ - وكانوا إذا أوردوا البقر فلم ترد ضربوا الثور ليقتحم البقر بعده
قال الشاعر :

لاني وقتلى سليكا ثم أعقله كالثور يضرب لما عافت البقر
وإذا أصاب الجرب الإبل كروا الصحيح ليبرأ السقيم ، قال النابغة :
وكلفتني ذنب امرئ وتركنه كذى العريكوى غيره وهو رائع
١١ - وإذا قتل منهم قتيل لم يؤخذ بثأره قالوا : إنه يخرج من رأسه هامة
فتنادى على قبره : اسقونى فإنى صديقه ، قال ذو الإصبع العدواني :
يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى
وكانوا يؤخرون البكاء على القتل ويحرمون المنز عليهم حتى يؤخذ بثأره
١٢ - وكان الرجل البغيض إذا نزل ضيفاً عندهم أكرموه فإذا رحل
كسروا شيئاً من الأواني وراءه حتى لا يعود ، قال الشاعر :
كسرنا القدر بعد أبي سواح فعاد وقدرنا ذهباً ضياءا
وقال آخر :

ولأنكسر الكيزان فى إثر ضيفنا ولسكننا نقضيه زادا ليرجعا
١٣ - وكانوا يعتقدون أن المرأة إذا شقت رداء الرجل وشق الرجل
برقعها صلح بينهما ودام . قال سحيم :
وكم شققنا من رداء محبر ومن برقع عن طعنة غير عابس
نروم بهذا الفعل بقيا على الهوى وإفساد الهوى يغرى بهذى الوسواس
وكانت النساء إذا غاب عنهن من يحببنه أخذن تراباً من موضع قدمه
ويزعن أن ذلك أسرع فى رجوعه ، قالت امرأة :
أخذت تراباً من مواطى رجله غداة غد ، كيما يؤوب مسلماً
١٤ - وكانوا يحبون الملوك بالريحان فى الأعياد ، قال النابغة : يحبون
بالريحان يوم السياب .

١٥ - ومن عاداتهم النسيء وهو تأخير حرمة القتال في المحرم إلى صفر، وكانت كنانة هي التي يلجأ إليها في ذلك ، قال عمرو بن قيس الكنانى الشاعر الجاهلى :

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما

١٦ - وكان الرجل منهم إذا أراد سفرا عمد إلى شجرة وشد غصنين منها ، فإن رجع ووجدتهما على غير حالهما علم أن أهله خاتته . ويسمون ذلك عقد الرتم وهو ضرب من الشجر واحدته رتمة ، والرتمة والرتيمة خيط يشد على الإصبع تستذكر به الحاجة ، قال شاعر :

خاتته لما رأت شيئا بيفرقه وغره حلفها ، والعقد للرتم

١٧ - ومنها ذهاب خدر الرجل بذكر الحبيب ، يقول الشاعر :

وأنت لعينى قرة حين نلتقى وذكرك يشفينى إذا خدرت رجلى

١٨ - وكانوا يستشفون من عضه الكلب بدم الرؤساء وشرب قطرة منه مخلوطة بالماء قال الشاعر :

بناة مكارم وأساءة كلم دماؤهم من الكلب الشفاء

١٩ - وكانت العرب تؤرخ بالنجوم ، ثم أرخوا بالحوادث المشهورة فأرخوا بعام الفيل ، وأرخت قریش بهوت هشام بن المغيرة المخزومي لجلالته فيهم .

إلى غير ذلك من شتى عاداتهم التى يمثلها الشعر الجاهلى أدق تمثيل .

ويقول نيكلسون : إن الشعر الجاهلى وصف نقدى لحياة الجاهلية وأفكارها ، ومعظم الشعر الذى قيده أبو تمام خاص بشجاعة العرب فى الحروب وصبرهم على الشدائد ، ورأى نيكلسون أن شعر الجاهلية يعد صورة لحياة الجاهلية ووصفا لأحلامهم .

المعلقات ومنزلتها من الشعر الجاهلي

سبب تسميتها بالمعلقات :

-- ١ --

١ - قال المفضل - في « امرئ القيس » سنة ٥٦٠ ، وزهير سنة ٦٣٥ ،
والنابغة سنة ٦٠٤ ، والأعشى سنة ٦١٢ ، ولبيد سنة ٦٤٥ ، وعمر بن كاثوم ،
وطرفة م سنة ٥٦٥ م ، - هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب
« السموط » ، وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون إن بعدهن سبعة ما هن
بدونهن ولقد تلا أصحابنا أصحاب الأوائل فاقصروا ، وهن « الجمهرات »
لبيد وعنترة م سنة ٦٠٠ وعدى م سنة ٥٨٠ ، وبشر بن أبي خازم وأميرة بن أبي
الصلت وخداش بن زهير والنمر بن تواب ، وأما منتقيات العرب فمن للمسيب
والمرقش والمتلمس وعروة بن الورد ومهلهل ودريد بن الصمة والمتنخل ،
وأما المذهبات فللأوس والخزرج خاصة ، وهن لحسان وابن رواحة ومالك
ابن العجلان وقيس بن الخطيم وأحيحة بن الجلاح وأبي قيس بن الأسلت
وعمر بن امرئ القيس ، « وعيون المراني سبع » ، لأبي ذؤيب وعلقمة بن
ذى جند (م ٥٤٠) وكعب بن سعد الغنوي والأعشى الباهلي وأبي زيد الطائي
ومالك بن الريب ومتمم بن نويرة ، وأما « مشوبات العرب » وهن اللاتي
شابهن الكفر والإسلام فللمجدي وكعب بن زهير والقطامي والحطيئة
والشماخ وعمر بن أحمروا بن مقبل ، وأما الملحومات السبع ، فمن للفردق
وجرير والأخطل والراعي وذو الرمة والكميت والطرمح . قال المفضل :
فهذه التسع والأربعون قصيدة عيون أشعار العرب في الجاهلية والإسلام (١) .
ونحن في هذا النص نجد تقسيما جديدا لا إلف لنا به للقصائد الشعرية
في الجاهلية والإسلام ، حيث يقسمها المفضل م ١٨٩ هـ إلى سبعة أنواع ويعدها .

(ب) والظاهر أن صاحب الجهرة وهو أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي كان يتنزه على المضل وتأثر به وبرأيه هذا فرتب الجهرة وقصائدها وفق هذا التقسيم . كما نلاحظ أنه بدلا من أن يقول « السموط » سماها « المعلقة » وعرضها واحدة بعد واحدة بعد أن قدمها بوصف المعلقةات ولكنه زاد عليها واحدة هي قصيدة عنتره ، فهي عند أبي زيد ثمان ، وهي :

١ - معلقة امرئ القيس : قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

٢ - « زهير » : أمن أم أو في دمنة لم تكلم

٣ - « النابغة ومطلعا » :

عوجوا فخيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار ؟

٤ - معلقة الأعشى ومطلعا :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي

٥ - معلقة لبيد : عفت الديار محلها فمقامها

٦ - معلقة عمرو بن كلثوم : ألا هي بصحنك فاصبحينا

٧ - « طرفه » : لخولة أطلال بركة شهد

٨ - « عنتره » : هل غادر الشعراء من متردم ؟

وبذلك نجد أنفسنا أمام اسم « المعلقةات » ، وهي قصائد سبع أو ثمان لأشهر شعراء الجاهلية (١) .

(١) قال حماد طرواية : كانت العرب تعرض أشعارها على قريش فما قبلوا منه كان مقبولا وما ردوا منه كان مردودا فقدم عليهم علقمة الفحل فأنشدهم قصيدته التي أولها :

هل ماعلت وما استودعت مكتوم أم حبلى إذ نأذك اليوم مصروم

فقالوا : هذه سمط الدهر ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته التي أولها :

« طحباك قلب » ، فقالوا : هاتان سمطا الدهر

كما يروى أن حمادا لما رأى زهير الناس في الشعر جمع لهم هذه القصائد السبع

(ح) ويروى أن زهيراً كان يسمى كبار قصائده الحوايات (١).

ويقول الجاحظ : « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة عنده حولا كريتا (٢) وزمنا طويلا يردد فيها نظره ، وكانو يسمون تلك القصائد الحوايات ، و « المقلدات ، و « المنقحات ، و « المحكمات ، ليصير قائلها ، فحلاً خنديذاً وشاعراً مفلقاً ، (٣) .

ونجد في هذه النصوص أسماء جديدة للقصائد الجاهلية ، ولكن الذى يهمنا من كل هذه الأسماء هو « المعلقةات ،

(د) ويقول ابن قتيبة في قصيدة عبيد بن الأبرص « أقفر من أهل ملاحوب » : « وهذه القصيدة أجود شعره وهى « إحدى السبع (٤) ، فكأنه يعدها من السبع الطوال أو السبع المعلقةات . ويقول في قصيدة عنتره : « هل غادر الشعراء من مـتردم ؟ » : وكانت العرب تسميها

وقال : « هذه هى المشهورات ، فسميت « القصائد المشهورة » ، وعلى هاهنا شرح الزوزنى للمعلقةات ما نصه : « إنما سميت المعلقةات لأن العرب فى الجاهلية كان الرجل منهم يقول الشعر فى أقصى الأرض فلا يعبا به ولا ينشده أحد حتى يأتى مكة فيمرضه على أندية قریش فان استحسنوه روى وكان فخراً لقائله وإن لم يستحسنوه طرح ولم يعبا به ، قال أبو عمرو بن العلاء : وكانت العرب تجتمع فى كل عام بمكة وكانت تعرض أشعارها على هذا الحى من قریش ، قال ابن الكلبي : فأول شعر امرئ القيس علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر إليه فعلقةت الشعراء بعده وكان ذلك فخراً للعرب فى الجاهلية وعدد من علق شعره سبعة إلا أن عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مسكانهم أربعة ، وروى آخرون إن بعض أمراء بنى أمية أمر من اختار له سبعة أشعار فسموها المعلقةات الثوانى ، وبذلك نجد أول تفسير لتسمية القصائد بالمعلقةات وهى تعليقها على الكعبة وأول من قال بذلك ابن الكلبي .

(١) الشعر والشعراء ، ١٤٩ ج ١ البيان والتبيين

(٢) أى كاملاً (٣) ٢١ ج ٢ البيان والتبيين (٤) ص ٨٥ الشعر والشعراء

الذهبية ، (١) ، ويقول في قصيدة عمرو بن كاثوم : « ألا هي بصحنك الخ » ،
« وهي من جيد شعر العرب وإحدى السبع المعلقة » ، (٢) .

(هـ) ويقول ابن عبد ربه في العقد :

وقد بلغ من كلف العرب وتفضيلها للشعر أن عمدت إلى سبع قصائد من
الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطى المدرجة وعلقتها في أستار
الكعبة ، فمنه يقال مذهبة امرئ القيس ، ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع
وقد يقال لها المعلقة (٣) ،

ونجد أنفسنا في هذا النص أمام تفسير للمعلقة وبيان لشئ تسميه هذه
القصائد بهذا الاسم (٤) ، وهو مقتبس من من رأى ابن السكبي .

(و) وفي المازهر للسيوطى مأخوذ عن العمدة لابن رشيق :
وكانت المعلقة تسمى المذهبات وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت
في القباطى بماء الذهب وعلقت على الكعبة ، وقيل بل كان الملك إذا
استيجدت قصيدة يقول : علّقوا لنا هذه لتكون في خزائنه ، (٥) .

فراهم يذكر - رواية عن غيره - سبباً آخر لتسمية هذه القصائد بالمعلقة (٦)

(١) ٧٦ المرجع (٢) ٦٧ المرجع

(٣) ٣٧٩ ج ٣ العقد ، ٣٠٩ تهذيب العقد الفريد

(٤) ويسير على ذلك رأى البغدادي في خزانة الأدب ، وابن خلدون في المقدمة

(٥) ٢٩٨ ج ٢ المازهر ، ويقول ابن رشيق : وكانت المعلقة تسمى المذهبات

وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم فكتبت في القباطى بماء الذهب
وعلقت على الكعبة فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره وذكر ذلك
غير واحد من العلماء ،

(٦) وهذا رأى هو رأى أبى جعفر النحاس م سنة ٣٣٨ م

قال أبو جعفر النحاس في شرحه للمعلقة : « وقيل إن العرب كانوا

يختتمون بمكافأة فيتنشرون الأسماء فإذا استحسن الملك - لعله النعمان بن المنذر -
قصيدة قال : علّقوا لنا هذه وأثبتوها في خزائني ، فأما قول من قال إنها علقت في

وقريب من هذا ما ذكره الاسكندر في تفسيره لتسميتها بالمعلقات ، وهو أن العرب لم تكن تكتب في دفاف وإنما كانوا يكتبون في رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق في جدار الرواق أو الخيمة .

ويقول الألوسي صاحب بلوغ الأرب في الجزء الأول منه : وفيها - أى في سوق عكاظ - علقت القصائد السبع الشهيرة افتخارا بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل .

هذا ولكن المستشرقين ينكرون تعليق القصائد بأى حال .

- ٢ -

وبعد فنحن أمام رأيين في سر تسمية هذه القصائد الجاهلية المشهورة بالمعلقات ، وهما :

الرأى الأول : أنها علقت على الكعبة ، ويذهب إليه ابن عبد ربه في العقد ، وابن خلدون في المقدمة والبغدادى في خزانة الأدب (١) وتابعهم كثيرون . وقيل : التعليق كان في سوق عكاظ وهو رأى الألوسي ؛ وقيل إن التعليق كان في الرواق أو الخيمة وهو رأى الاسكندر ، وقيل إن التعليق كان في خزانة الملك وهو رأى أبى جعفر النحاس العالم اللغوى الأديب م ٣٢٨ هـ ولعله يريد بالملك النعمان بن المنذر الذى كان عنده ديوان مكتوب

الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة ، وأصح ما قيل إن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر جمع هذه السبع وحضرهم عليها وقال لهم هذه المشهورات فسميت القصائد المشهورة لهذا ، وقال أبو جعفر في شرحه على تلك المعلقة : واختلفوا في جمع القصائد السبع ، وقيل : إن العرب كانوا يجتمعون بعسكاظ فيتناشدون الأشعار فإذا استحسن الملك قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزائنى ، وأما قول من قال إنها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة

(١) وأول من قال بتعليقها على الكعبة وتسميتها بالمعلقات من أجل ذلك هو : كما في كتاب الآداب العربية للرافعى - هشام بن الكلبي الراوية م ٢٠٤ هـ

جمع فيه أشعار الفحول ، وينكر أبو جعفر تعليقها على الكعبة ذاكراً أن ذلك لا يعرفه أحد من الرواة . وبعض الباحثين كابن رشيق والسيوطي يذكر الرأيين « أنها علقت على الكعبة أو في خزانة الملك »

أما الرأي الثاني : فينكر مسألة تعليقها بأي شكل من الأشكال ولون من الألوان ، ومن أصحاب هذا الرأي المستشرق الألماني نولدكه الذي كتب بحثاً في هذا الموضوع ، ورجح (١) أن المعلقات معناها المنتخبات وأنها سميت بذلك تشبيهاً لها بالقلائد التي تعلق في النحور ، واستدل على ذلك بأن من أسمائها السموط والقلائد . وقد أيد رأيه الأستاذ كليمان هيوار الفرنسي الذي ألف باللغة الفرنسية كتاباً في الأدب العربي ، فرأى أن المعلقات جمع معلقة بمعنى القلادة بدليل أنهم يسمونها أيضاً السموط بمعنى العقود والآلى . وأيد هذا الرأي « اسكندر أغا ابيكار يوس » في كتابه « تزيين نهاية العرب في أنباء العرب » حيث قال : إن العلماء من المتقدمين قد انتخبوا من نفائس أشعار القدماء القصائد المسبغات التي هي سبعة أسابيع ورواها صاحب الجهرة وأولها المعلقات ، ويرجح نيكلسون المستشرق الإنجليزى المشهور أن كلمة معلقة قد اشتقت من قولهم « علق » وهو الشيء النفيس الثمين العالى المستوى ، وذلك لأن الإنسان يتعلق بها تعلقاً شديداً ثم قال : وقد ظهر خرافة تزعم أن تسمية المعلقات بهذا الاسم راجعة لتعليقها بأستار الكعبة تقدير الفضلها الذى قضى لها به المحكومون فى عكاظ على مقربة من مكة حيث يجتمع الشعراء متنافسين فى إنشاد أروع ما دبحته قرائحهم وأنها كانت تكتب بماء

(١) ونص كلام نولدكه - كما ورد فى الفصل الذى كتبه عن المعلقات فى دائرة المعارف البريطانية - هو : « إن قصة القول بأن هذه القصائد كتبت بالذهب ترجع إلى تسميتها بالقصائد المذهبات وهى تسمية مجازية للدلالة على عظم أمرها وكذلك يجب أن تؤول تسميتها بالمعلقات على هذا الأساس نفسه فمن المحتمل جداً أن تعنى هذه التسمية أن هذه القصائد قد سمت إلى درجة خاصة ، وهناك اشتقاق آخر من المادة نفسها وهو كلمة علق بمعنى النفيس »

(١٨)

الذهب على القباطى الواردة من مصر قبل تعليقها على الكعبة (١) .
ومن استبعد تعليقها على الكعبة الأستاذ حامد مصطفى وأيد رأيه بعدة
أدلة (٢) ، وذهب إلى أنها سميت بالمعلقات لتعلقها وحفظها فى الرأس أو فى
الدفاتر عناية بها لنفاستها .

وبرد أصحاب الرأى الأول على من ينكرون تعليقها على الكعبة بأن
تعليق الصحف الخطيرة على الكعبة كان سنة فى الجاهلية والإسلام ، كتعليق
قريش الصحيفة التى وكدوا فيها على أنفسهم مقاطعة بنى هاشم والمطلب ،
وكتعليق هرون الرشيد لعهد بالخلافة من بعده إلى ابنه الأمين والمأمون ،
فأى مانع يمنع أن تكون هذه القصائد لخطرها وبعد أثرها قد علقت فى
الكعبة ؟ ولذلك مثيل فى الأدب الإغريق القديم . فإن القصيدة التى نظمها
زعيم الشعر الغنائى بنى تدار فى المدح قد كتبها الإغريق بالذهب على جدران
معبد أثينا فى لمنوس . هكذا يقول التبريزى : وذهب فريق إلى أن وجهه
تسميتها بالمعلقات علوقها بأذهان صغارهم وكبارهم ومرؤوسهم ورؤسائهم
وذلك لشدة اعتنائهم بها

وبعد : فالمعلقات كانت مشارع إعجاب الرواة والأدباء والنقاد وتقديرهم
وحبهم ، علقت بأذهان الجميع ، وحفظوها ورددوها .
فليس يبعد أن يكون رأى التبريزى هو أرجح الآراء فى هذه التسمية
لذلك القصائد الرائعة .

(١) أما أن بعض هذه المعلقات قد أنشد فى عكاظ فسلم وأما أنها سميت
بالمذهبات لكتابتها فى القباطى بماء الذهب فغير مسلم ، إذ ربما كانت تسميتها
بالمذهبات لجليل قيمتها الأدبية وعظيم خطرها الفنى .

(٢) ١٨٨ تاريخ أدب اللغة العربية فى العصر الجاهلى ط ١٣٦ هـ . ومن هذه
الأدلة : ما فى بعض المعلقات من خبر ما يبعد تعليقها على الكعبة ، واختلاف الرواة
فى عددها وأصحابها ، وعدم ورود شئ لنا عنها فى عصر الرسول . ولأن أول
من ذكر تعليقها على الكعبة هو ابن الكلبي م ٤٢٤ هـ وهو راوية غير موثوق به .

عدد المعلقات :

وعدد هذه القصائد وأصحابها مختلف فيه :

- ١ - فقد سبق أن ذكرنا نقلاً عن المفضل وسواها أنها سبع لامرئ القيس والنابعة وزهير والاعشى وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم .
- ٢ - ويجعلها صاحب الجهرة ثمانية بإضافة عنزة ومعلقته الميمية إلى ما سبق .
- ٣ - ويجعلها الزوزني تسعة : لامرئ القيس والنابعة والاعشى وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنزة ، بزيادة الحارث ابن حلزة .
- ٤ - ويجعلها النعماني الحلبي شارح المعلقات في كتابه نهاية الأرب من شرح معلقات العرب ، الذي ألفه سنة ١٣٢٤ هـ - عشرة وذلك بإضافة قصيدة عبيد بن الأبرص :

ليس (١) رسم على الدفين بيالي فلوى ذروة لجني ذبال
ولكنه يجعل معلقة الأعشى هي :

لم تغمض عيناك ليللة أرمداً وببت كما بات السليم مسهداً (٢)
ومعلقة النابعة هي :

بادارمبة بالعلياء فالسند أقوت وطال علمها سالف الأمد

٥ - وأكثر الرواة على أنها سبع لامرئ القيس وزهير وطرفة ولبيد

(١) الدفين : قرب مكة . اللوى : متقطع الرمل . ذروة : واد لبي فزارة
ذبال : رملة تواجه ذروة

(٢) وذلك بدلاً من قصيدته : ما بكاه الكبير بالاطلال . وبعض الرواة
يذكرون أن معلقة الأعشى هي :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

وعنونة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة .

شرح المملقات :

وقد شرح هذه المملقات كثيرون منهم . أبو جعفر النحاس م ٣٣٨ هـ .
والزوزنى م ١٧٥ هـ ، ومحمد بدر الدين أبو فراس النعماني الحلبي في القرن
الرابع عشر الهجري ، كما شرحها كثيرون ممن عداهم .

وطبعت المملقات طبعت كثيرة باللغة العربية في الشرق والغرب وطبعها
سير شارلز لييل سنة ١٨٩٤ بكالكتا ، كما ترجم نولدك خمس مملقات ، مسقطا
معلقة امرئ القيس وطرفة وأرفق بها شرحا بالألمانية وهي أمتع ترجمة كما
ترجمها إلى الإنجليزية شعراً مع شيء من التصريف مستر وفرد بلنت ولادى
آن بلنت ، ومن أشهر طبعتها طبعة ليبسيا بعناية العلامة أر نولد سنة ١٨٥٠ م

منزلة المملقات في الشعر الجاهلي :

والمملقات منزلة عظيمة في الشعر الجاهلي ، فهي أعلى قصائده طبقة في
البلاغة وبعد الأثر وجلال التأثير والسحر ، وهي لشعراء ممتازين في منزلتهم
في هذه الجربة المقفرة البدوية ، فوق أنها هي الناطقة بتجدد العرب ومخادهم
وأخبارهم ، شاعداً صدق على أخلاقهم وطبائعهم وعاداتهم ولون تفكيرهم ،
وتمتاز بطولها ورقعتها وهدوئها ورعتها وبجمال معانيها وسحر أساليبها وجزالتها
وشدة أسرها . فوق تنوع فنونها وأغراضها ، وما فيها من تشبيه ساحر
واستعارة فادرة وكناية طريفة . وهي مع ذلك ثروة لغوية كبيرة لا غنى
عنها للباحثين والمتعلمين .

واهتمام الرواة والعلماء والأدباء والنقاد والشارحين والناسخين بهادليل
على مالها من مكانة في الأدب العربي قديم والحديث على السواء (١) .

وسنحلل هذه المملقات الآن واحدة واحدة فنقول :

(١) راجع في تفسير كلمة المملقات ٣٧٩ : ٣ العقد الفريد ، و ٥٨١ ، مقدمة ابن خلدون .

معلقة طرفة

١ - طرفة بن العبد البكرى شاعر جاهلي مشهور ؛ نشأ يتيما في كفالة أعمامه ، يؤثر اللهو والدعة والبطالة ويدمن الخمر ، ويهجو الناس حتى الملك عمرو بن هند الذي أضمر له الشر وأرسله لعامله بالبحرين فقتله ، ولم يتجاوز السادسة والعشرين ، وتقول أخته الخرنق في رثائه .

عددنا له ستا وعشرين حجة فلما توفاهما استوى سيدا نخما

وكان طرفة ملتهب المشاعر والمواطف ، حاد التفكير واللسان ، متأجج الشعاعية ، نظم الشعر يصور فيه حياته وآماله وبطالته ، وكان يصف فيجيد الوصف ويأتي بالحكمة العالية والفكرة الرائعة ، وهو أجود الجاهليين طويلا كما يقول ابن قتيبة (١) وشعره قليل بأيدي الرواة (٢) .

٢ - ومطلع هذه المعلقة الرائعة :

لخولة أطلال ببرة شهيد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد (٣)

وقد عد بها الشاعر من فحول الشعراء الجاهليين ومشهورهم ، واستحق من أجلام أن يضعه أبو عبيدة في الطبقة الثانية منهم وابن سلام في الطبقة الرابعة وأن يذهب بعض الشعراء والنقاد إلى أنه أشعر الجاهليين . وهي أطول المعلقات ، أبياتها خمسة ومائة بيت ، وتتميز بكثرة معانيها وجزالة أسلوبها . نظمها طرفة بعد عودته إلى أرض قومه إثر تنقله في الأحياء حين كان مغاضبا لقومه وعشيرته ، وقبل أن يتصل بملوك الحيرة وينادهم .

ويبدو من روح المعلقة ولحجها أن الشاعر نظمها عتابا لابن عمه ، ويبدو أيضا أن السبب في عتابه له أن أخاه د معبدا ، كان له لابل يرعاه هو وأخوه

(١) ٤٩ الشعر والشعراء (٢) ٤٩ الشعر والشعراء ، و ٤٩ طبقات الشعراء

(٣) لخولة : اسم محبوبته . شهيد : أكمة في بلاد خثعم تلوح : تظهر

طرفه ، فأغلبها طرفه في المرعى حتى دخلت مرعى ابن عمه فجزها بالام معبد
أخاه ، وألقى عليه عبء طلبها واستردادها من ابن عمه . فذهب طرفه إليه ،
فلم يجد كلامه معه ، فعاد ثائراً غاضباً ، ونظم قصيدته يعاتب فيها عبد عمرو
عتاباً شديداً قاسياً بما تفرؤ في المعلقة في قوله :

فإلى أرائي وابن عمي مالكا	من أدن منه ينأ عني ويبعد
وأياسني من كل خير طلبته	كأنا وضعتاه على راسي لمجد
على غير شيء قلته غير أني	نشدت فلم أغفل جمولة معبد
وإن أدع للجلى أكن من حماها	وإن تأتلك الأعداء بالجمد أجهد
فلو كان مولاي امراً هو غيره	لفرج كربى أو لانتظرتى شدى
ولكن مولاي امرؤ هو خانتى	على الشكر والتسأل أو أنا مفيد
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة	على المرء من وقع الحسام المهند
فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد	ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد (١)
فأصبحت ذا مال كثير وتادنى	بنون كرام سادة لمسود

ولما سمع عبد عمرو بن مرثد معلقة طرفه أرسل إليه ، فقال له : أما الولد
فالله يعطيك ، وأما المال فلا تبرح حتى تكون من أوسطنا فيه ، وأمر سبعة
من أبنائه وثلاثة من بنى أبنائه أن يعطوه عشرة عشر من الإبل ففعلوا .

ويذكر بعض الباحثين من المستشرقين أن المعلقة لم توضع مرة
واحدة ، كقوله :

إذا مت فابعثني بما أنا أهله وشقى على الجيب يا ابنة معبد

وما يليه من أبيات قالها وهو في سجن البحرين قبيل موته وهذا خطأ في
البحث ، فلم يقل طرفه هذه الأبيات وهو في سجن البحرين ، بل نظمها ونظم

(١) قيس بن خالد ذو الجدين من عظماء سادة الشيبانين ، وعمرو بن مرثد هو
ابن عم الشاعر .

القصيدة كلها مرة واحدة وهو صحيح مقيم في أرض قومه ، والقصيدة قطعة واحدة من الشعر الحى والتصوير الرائع والديباجة الساحرة ، والوصف الصادق .

٣ - وتمتاز المعلقة بوفرة معانيها وتنوع أغراضها وجمعها بين السهولة والغرابة في اللفظ ، وبين الرقة والمتانة في الأسلوب ، وبين الحكمة واللام والجد والهلل في النهج والحياة .

وتصور الشاعر وحياته وأمانيه ومطامحه ولذاته ولحموه وبيئته والحياة فيها تصويراً جميلاً رائعاً بالغاً حد الدقة والإحكام والجمال .

٤ - وحدة القصيدة وفنونها :

ونحن نقف أمامها معجبين بجمالها وانسجامها وقوة شاعريتها وتأجيج عواطف الشاعر فيها ، وهذه الوحدة التامة الظاهرة على أغراضها وفنون القول فيها :

١ - بدأها الشاعر بالغزل : فذكر أطلال خولة محبوبته ووقف عليها وبكاها :

لخولة أطلال ببرة شهيد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقفاً بها صهي على مطيهم يقولون لا تهلك أمي ونجلد
ثم يذكر قباب خولة وهي طاعة ، ويشبهها بالسفينة تشبيهاً جميلاً
قوياف يقول :

كأن حدود المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد
عدوامة أو من سفين ابن يامن يحور بها الملاح طوراً ويتهدى
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المقابل باليد (١)

(١) الحدود : القباب . المالكية : هي خولة . الخلايا : جمع خلية وهي السفينة الكبيرة . النواصف : مجاري الماء إلى البحر ، دأرض معروفة ، وعدوامة :

وهو في هذا الوصف يرسم صورة جميلة للسفن الكبيرة التي كان يراها
ويشاهدها تسير في الماء على شواطئ البحريين وسواها .

ثم يصف جمال محبوبته وينعتها بجميلا قويا مؤثرا عذبا يدل على امتلاء
نفسه بالحب وعلى خضوعه لأسر الجمال :

وفي الحى أحوى ينفض المرد شادن

مظاهر سمطى أولو وزبرجد (١)

وتبسم عن ألمى كان منورا تحمل حر الرمل دعص له ندى (٢)

ووجه كان الشمس حلت رداها عليه ، نقي اللون لم يتحدد (٣)

ب - ثم يأخذ الشاعر في وصف ناقته التي يسير عليها ليسل عن نفسه
الهموم والأحزان ، ووصفه لها طويل في خمسة وثلاثين بيتا ، ويحكي به في

أى قديمة ، أوهى الكبيرة من السفن ، وتنسب إلى موضع يقال له عدولى . ابن
يامن : ملاح قديم من أهل البحريين . يحور : يضل . يمتدى : أى يعرف طريق
السير .

حجاب الماء : طرائقه وما ارتفع منه . الحيزوم : الصدر . المفايل : الذى
يجمع ترايا ويخفى فيه شيئا مثل الحلقة ويقسم الترب نصفين ويطنبه في أحدهما فان
أصاب ظفر وإن أخطأ قر

(١) أحوى : فى لونه حوة وهى السواد . والمرد : شجر الأراك . الشادن :
ولد الظبية إذا قوى . سمطى : خيطى . مظاهر : يضع واحدا على آخر . اللؤلؤ
والزبرجد : جوهران معروفان

(٢) تبسم : يفتر ثغرها . اللمى : سواد فى الشفة . المنور : الأبقحوان . تخله
توسطه ودخل فيه . حر الرمل : النقي منه . الدعص : الكشيب الصغير من
الرمل . الندى : من صفة الأبقحوان يصفه بالندوة

(٣) حلت : ألقت . رداها : بهاها . يتحدد : يضطرب حتى يصير فيه
شقوق .

لفظ غامض غريب لا تكاد تفهمه إلا بصعوبة وعسر ودشقة ومراجعة وطول عنا .

قال طرفة فيما قال في وصف ناقته :

وإني لأمضي الهم عند احتضاره بهوجاء مرقال تروح وتفتدى (١)
أمون كالأواح الأران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد (٢)
إلى أن يقول :

وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت مخافة ملوى من القد محصد (٣)
على مثلها أمضى إذا قال صاحبي ألا ليتني أفديك منها وأفتدى (٤)
وجاشت إليه النفس خوفاً وخاله مصابا ولو أمسى على غير مرصد (٥)
جـ . ثم يفتخر الشاعر بنفسه ويفرغ لها ويصف فتوته وكرمه ولذاته
ومجده ولهوه بشرب الراح ، في وضوح وسهولة فيقول :

إذا القوم قالوا : من فتى ؟ خلت أنى
عنيت ، فلم أكسل ولم أتبلد (٦)

(١) الهوجاء : الخفيفة الفؤاد ، ويروى بعوجاء وهي المهزولة . مرقال صفة
للناقة ، أى كثيرة الأرقال ، وهو شدة السير

(٢) الأمون : الأمونة العثار . الأران : الثابت الذي تحمل فيه الموتى .
نسأتها : زجرتها . الاحب : الطريق الواضح . البرجد : كساء من أكسية العرب
شبه استقامة الطريق بخط أبيض يكون في الكساء من قطن

(٣) الإرقال : ضرب من السير . القد : السوط . المحصد : المحكم القتل

(٤) الضمير في « منها » للمفازة والبرية

(٥) جاشت : علت . خاله : ظن نفسه . وإن أمسى الخ : أى وإن أمسى

لا يرصد ولا يخاف

(٦) أتبلد : أنعمير . الكسل : المعجز

ولست محال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد (١)
 وإن تأتني في حلقة القوم تلقى وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد (٢)
 وإن يلتق الحى الجميع تلاقى إلى ذروة البيت الرفيع المصعد (٣)
 ندماى بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسد (٤)
 ثم يذكر أثر لهوه وشربه الخمر في حياته وبين قبيلته ، ويتحدث عن لذاته
 في الحياة ويصفها ، ويأوم من يعذله في اللهو والإسراف ويفند رأيهم ويقول
 إن السكرم المسرف والبخيل المقتر مألهما واحد إلى القبر :

وما زال تشرابى الخمر ولذتى وبيعى وإنفاقى طريفي ومتلدى (٥)
 إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد (٦)
 رأيت بنى غبراء لا ينكروننى ولا أهل هذالك الأطراف الممدد (٧)
 ألا أيها اللاتمى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى
 فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدي
 ويعتد بلذاته اعتدادا كبيرا ويذكرها :

-
- (١) التلاع : الأرض المرتفعة والمنخفضة ، والمراد هنا المعنى الثانى لأن
 البخيل يحل في الأماكن المنخفضة ، لئلا يراه أحد ، وأرى أنه يجوز أن يحل
 في الأماكن المرتفعة حتى لا يصل إليه أحد
- (٢) حلقة القوم : مجالس أشرفهم . الحوانيت : بيوت الخمارين
- (٣) الذروة : أعلى الشئ ، المصعد : الذى يصعد إليه أى يقصد
- (٤) الندامى : الأصحاب على الخمر . القيمة الجارية ، البرد : الثوب الأبيض .
 المجسد : المصبوغ بالجساد وهو الزعفران
- (٥) الطريف : المكتسب . التليد أو المثلد : الموروث
- (٦) تحامتني : اجتنبتنى . العشيرة : بنو العجم ، أفردت : أبعدت ، المعبد :
 المذلل المطلى بالقطران
- (٧) بنو غبراء : اللصوص ، الأطراف : بيت من جلد . يريد أنه لا ينكرهم
 صعلوك ولا غنى

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبق العاذلات بشربة كمت متى ما تعل بالماء تزبد (١)
وكرى إذا نادى المضاف بجنيا كسيد الغضا بهته المتورد (٢)
وتقصير يرم الدجن والدجن معجب بهم كنة تحت الطراف الممدد (٣)
أى شرب الراح وركوب الخيل ، واللهو مع امرأة جميلة :
أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى فى البطالة مفسد (٤)
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيمة مال الفاحش المتشدد (٥)
أرى الدهر كثرناقصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المارخى وثلياه باليد (٦)
د - ثم يلتقل إلى عتاب ابن عمه مالك وقد سبق أن ذكرناه فى
أول المعلقة .

هـ - يعود إلى التحدث عن نفسه ووصفها بالذكاء والشجاعة ، ويتنبأ
بموته ويطلب من ابنة أخيه معبد أن تبكيه إذا مات :
إذا مت فابعينى بما أنا أهله وشقى على الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعلينى كامرى ، ليس همه كهمى ولا يغنى غنائى ومشهدى

(١) كمت : خمرة تضرب إلى السواد ، تعل : أى يصب المساء عليها
(٢) كرى : عطفى ، المضاف : الذى أضافته الهموم ، المجنب : الفرس
المعوجة الساقين ، السيد : الذئب ، الغضا : شجر
(٣) الدجن : المطر الخفيف ، معجب أى يعجب من رآه ، البهكة : التامة
الخلق أو الحسناء
(٤) النحام : يريد البخيل ، الغوى : الذى يتبع هواه ولذته ، البطالة : اتباع
الهوى والجهل
(٥) يعتام : يختار ، الكرام : الخيار الأماج ، مصطفى : ينتخب ، عقيمة
كل شئ : خيرته . الفاحش : القبيح السيء الخلق : المتشدد : كثير البخل
(٦) الطول : الحبل ، ثلياه : طرفاه

وهو في هذا البيت يعرض بان عمه .

و - ثم ينتقل إلى الحكمة ، فيأتي منها بحكم رائعة وأمثال بليغة رويت على مر الزمان :

ستبدي لك الأيام ما كنت تجاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
لعمرك ما الأيام إلا معارة فما استطعت من معروفها فتزود
عن المرء لا نسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
لعمرك ما أدري وإني لواجل أفى اليوم إقدام المنية أو غد
إذا أنت لم تنفع بoudك أهله ولم تنك (١) بالبؤسى عدوك فابعد

معلقة امرئ القيس (٢)

-- ١ --

فما نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فأومل
مطلع معلقة امرئ القيس الرائعة الذائعة الشهرة ؛ التي تدل على شخصية صاحبها المرحمة ، وروح الموهوب ، وبجونه الماثور .
أسلوب القصيدة أسلوب جزل فيه أسروقة في عذوبة حيناً ، مع الجمال والصدق والتنقل الخيال ، ومع سحر المطلع ونخامته .
ومعانيها قريبة ، لا تعقيد فيها ، تنسج على الحس والمشاهدات ، فموحين يتحدث عن الحب يصف جمال المرأة ومحاسنها ، وحين يصف الفرس يتحدث عن ساقه ومنتنه وشعره ، وحين يتحدث عن المطر يصف كثرتة وأنه ألقى مياهه على جبل كذا وكذا ففرغت العصم وهدمت البيوت وسقطت جذوع

(١) نسكى عدوه : ألحق به العطب والضرر

(٢) درس الباقلافي في كتابه : اعجاز القرآن ، المعلقة دراسة نقد وموازنة وهي دراسة رائعة جديدة ،

النخيل ، دون أن يتحدث الشاعر عما وراء هذه الأوصاف الحسية في الخيل والمطر أو عن عواطفه الإنسانية في حبه وغزله .

وتمتاز المعلقة بأنها مظهر للبلاغة العربية ، بما فيها من أساليب البيان ، ومناهج الأداء ، وصور التعبير ، وألوان الرسم والخيال والتفكير ؛ وبها تشبيهات جميلة كثيرة ، واستعارات بالغة حد الجمال وكنائيات أنيقة ساحرة ، وسوى ذلك من أدوات التعبير والبيان .

-- ٢ --

ولتصيل ذلك كله نقول :

١ - للمعلقة مطالعها الساحر القوي ، وأسلوبها الجزل ، وخيالها البدوي المزهوب ، وتشبيهاتها الحسية الساذجة المكرورة أحياناً ، وفيها فوق ذلك ورغم الكثير من المآخذ البدوية الجافة رقة السيب ودقة الوصف وتنوع الأعراس وبراعة التصوير والبيان ، وفيها ما ابتكره امرؤ القيس من المعاني الشعرية التي فضل بها على غيره من الشعراء وعندها أميرهم وقائدهم ، فنيها بكاء الديار ، واستيقاف للصحب ، وتجويد في السيب ، وتصوير لاستهتاره ومجونه ، وقص لذكرياته وأيامه ، وإبداع في وصف الليل وطوله ، والفرس ومحاسنه ، والبرق ، والمطر وآثاره .

٢ - وفي المعلقة الكثير من التشبيهات الجميلة : كتشبيه موقفه حين رحيل أحبائه بموقف ناقف الحنظل في غزارة ما ينهمر منهما من دموع ، كتشبيهه عبق الرائحة من حبيبه بعبق رائحة الميم وقد جاء بر يا القرنفل ، وتشبيهه شحم نافته بهداب الدمقس المقتل ؛ والشعر بالأقحوان المنور ، وتعرض الثريا في السماء بتعرض أثناء الوشاح المفصل ، وتشبيهه ترائب المرأة بالمرآة المحواة ، وجيدها بجيد الأطباء ، وبنائها بأساريع اللظى ، وجهالها المشرق بمنارة الراهب المتبتل ، وتشبيهه الليل بموج البحر ، واهتمام الفرس بغلى المرحل ، وأنه أخذ الحسن من جميع الحيوانات ، أخذ من الظبي خاصرته ومن النعامة ساقها ، ومن الذئب والثعلب مشيهما ، فهو جواد وتياله من جواد ، ضاني

الذيل مستقيم العنق (١). لماع الظهر كما تلمع صلاية الحنظل بما يعلق بها من الدهن اللامع أو صلاية عروس تدق فيها المعطر والعطيب ، وكأن دماء هوادى فريساته فى فخره المختوب عصارة حناء فى شيب مسرح .

٣ - وتمتاز المعلقة بكتابات الساجرة ، كنزومة الضحى فى وصف المرأة بالترف والنعمة ، وقوله « لم تلتطق عن تفضل » فى وصفها بأنها عزيزة منعمة لم تعز بعدذل ولم تنعم بعد شقاء ، وقوله « إذا ما اسبكرت بين درع ومجول » يريد إذا بلغت سن الشباب لأن الدرع هو قميص المرأة والمجول ثوب تلبسه القنات وتجول فيه قبل أن تنذر ، وقوله « قيد الأوابد » فى وصف الفرس بسرعة العدو ، وقوله « ولم ينضح بماء فيغسل » فى وصفه بالششاط . وفيها كثير من المجازات الجميلة والاستعارات المبدعة ، كقوله « فسلى ثيابى من ثيابك تدسلى » يريد بالثياب القلب أو الصداقة ، وقوله « وبيضة خدر » يريد امرأة كريمة محبرة ، وقوله فى وصف الليل بالطول « فقلت له لما تمطى بصلبه » . وقوله « وتبقى بناظرة من وحش وجرة » وكذلك قوله : « له أبطالا ظي وساقا نعامة » من أساليب التجريد أو التشبيه .

٤ - وقد تجدد فى المعلقة تنقلا فى الخيال وفى رسم الصور الشعرية ولكن لا ضير فى ذلك : لأن الشعر فن ، والفنون تأبى أن تخضع لقيود المناطق والفلسفة ، وحريتها فى التعبير والتصوير هو سر جمالها وخلودها ، وفوق ذلك فإن الشعر صورة للحياة العربية ، فى سذاجتها وبساطتها فضلا عن أثر الارتجال والبديهة فى نظم الشعر وإنشاده وخاصة فى العصر الجاهلى .

٥ - وفى المعلقة وصف لما يحبه العربى من مظاهر الجمال فى المرأة وفى الفرس ، وفيها بيان مفصل لزينة المرأة وترفها .

وفى نواف للقصاص الشعرى وخاصة فى الغزل ، مما نهج نهجه عمر بن

أبي ربيعة ، ثم بشار ، وأبو نواس .

وليس فيها أثر للمدح ، لأن شخصية امرئ القيس العظيمة أرفع من المدح ، ولأن المعلقة لم تنظم إلا لوصف ذكرياته ولهوه وترفه ومجونه ، بما يرجح أنها نظمت في أيام صباه وشبابه قبل أن يحمل عبء الأخذ بآر والده ، حيث تجدها خالية من ذكر الأحداث التي أطافت به بعد ذلك .

وتعدد الأغراض والفنون في القصيدة يتفق ونهج العربي والشعراء الجاهليين في صياغة قصائدهم ، حيث كانوا يروحون عن أنفسهم وسامعهم بهذا الاستطراد الجميل ، ويتعدد نواحي القصيدة ومراميها ، حتى تكون أشد أثراً وسحراً .

٦ - وروح الشاعرية في المعلقة متعددة متناسقة إلا في أبيات يضيفها بعض الرواة إليها وهي :

وقربة أقوام جعلت عصامها على كاهل منى ذلول مرحل

وما بعده من أبيات بما تخالف روحها روح المعلقة . والصحيح أن هذه الأبيات لتأبط شراً وأنكرها الكثير من الرواة ، وقيل هي لامرئ القيس في عصر مشيبه وكهولته وأضيفت إلى المعلقة إضافة فهي لا تمثل روحه في فترة شبابه اللاهية المأجنة التي تراها في معلقته .

٧ - وتمثل هذه المعلقة الحياة العربية في كثير من نواحيها المختلفة ، كما تصور حياة امرئ القيس وترفه وروحه اللاهية المسرقة في العبث والمجون أتم التصوير . فهي صورة جميلة واضحة لحياة الشاعر وقومه . وأثر أدبي كبير نستطيع أن نفهم منه الكثير من عادات العرب وأخلاقهم .

-- ٣ --

وقد نشأ امرؤ القيس في بيت سؤدد ومجد ونعمة ، نخب في سبل الأمور وذاق أفويق الجمال والحب . وقضى أيام شبابه في مخازلة الغيد الحسان ، فكانت له معهن أيام وذكريات قص الكثير منها في هذه المعلقة ، وما برح في لهوه ومجونه حتى ضاق به والده ذرعاً فأبعده عنه ، فأقام مع أمثاله من أهل البطالة

واللهو ، حتى قتل أبوه ، فذهبت سكرته ، وطالت حسرته ، وهب للأخذ
بشأره ، حتى قضى عليه أخيرا إسرافه في الانتقام .

ذلك هو امرؤ القيس قائد الشعراء في الجاهلية ، وحامل لواء الشعر في
ذلك العصر البعيد ، والمذنب في أبواب الشعر وأغراضه ، والمجلى في بيان أسرار
الجمال واللهو ، وفي رقة الأسلوب وسحره ، وفي جزالة اللفظ وأسرره ، وفي
روائع التشبيه وبدائع الخيال ، وفي ابتداع الكثير من المعاني الشعرية الطريفة
التي قلده فيها سواه من الشعراء .

وتتناول المعلقة كثيرا من فنون الشعر ، وتحمي الكثير من الأفكار
المنوعة ، ففيها بكاء لديار أحبابه في ثلاثة أبيات وتهوير لحيرته وذهوله يوم
رحيلهم واستيقاف لأصحابه ليحملوا معه عبء الحزن والشجى في بيتين ،
وفيها شرح للهوى وعبثه وقص لذكرياته وأشجاره مع محبوباته ووصف للجمال
العربي وزينة المرأة في الجاهلية ولأثر الجمال وسحره في النفوس وذلك في
عشرين بيتا ، وفيها مناجاة لليل وذكر لطولة وآلامه فيه في خمسة أبيات ،
ووصف دقيق لفرسه في ثمانية عشر بيتا وللبرق والمطر ونشوة الطبيعة في
عشرة أبيات ، فأبياتها تبلغ الستين أو تزيد . وهي كلها في درجة من الإحسان
ليس بعدها من مزيد . ويقول الزوزني في سبب إنشاد هذه القصيدة :

« السبب في إنشادها هو قصة غدير دارة جلجل حيث كان امرؤ القيس
يحب ابنة عمه عنيزة فتركها تستحم في هذا الغدير مع أتراب لها وجمع ملاسمن
ثم لم يعطها لمن إلا بعد مرورهن أمامه غاريات ، ثم ذبح لمن ناقته ، وقسم
متاعه عليهن يحملنه ، وركب مع عنيزة في هودجها » .

فما نبتك من ذكر حبيب ومنزل يسقط اللوى بين الدخول فحومل (١)
وهو مطلع جميل ساحر . ثم يستمر في وصف الديار وآثارها حتى
يقول :

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تملك أسي وتحمل
وان شفائي عبدة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول ؟ (٢)
٢ - ثم يصف ذكريات لوه وعيشه فيقول فيما يقول :

ويوم عقرت للعذارى مطيتي فيا عجبا من كورها المتحمل (٣)
فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المقتل (٤)
ويوم دخلت الخدر خدر عذيرة فقالت لك الويلات إنك مرجلي (٥)
تقول (٦) وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل
فقلت (٧) لها سييري وأرنخي زمامه ولا تبعديني من جنانك المعال
فمثلك (٨) حبل قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمام محول
ثم يستمر في غزله :

(١) اللوى : ما التوى من الرمل . سقط اللوى : مثناه . الدخول وحومل
و توضيح والمقراة : أسماء أما كن يقع بينها سقط اللوى وفيه منزل الحبيب .
(٢) مهراقة : مراقة مسكوبة . المعول . المستعان به
(٣) المطية هنا : الناقة . العذارى : الأ بكر . الكور الرجل . المتحمل المحمول
(٤) هداب الدمقس : أطراف الحرير . المقتل : المقتول .
(٥) الخدر : الهودج وهو في الأصل السر . عذيرة اسم محبوبته . مرجلي .
فاضحى بين رجالى .

(٦) الغبيط : الرجل . عقرت بعيري : أدميت ظهره لثقله .

(٧) الجنى : الثمر . المعال : الذي جنى مرة بعد مرة

(٨) محول : مضى عليه جول

أفاطم مهلاً بعض هذا التبدال وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجمل (١)
 وأنت قسمت الفؤاد فنصفه قليل ونصف بالحديد مكبل (٢)
 فإن تك قد ساءت مني خليقة فسلي ثيابي من ثيابك تسلي (٣)
 وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل (٤)
 إلى أن يقول :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل
 تسلت عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادي عن هواك بمسلي (٥)
 أغرك مني أن حبك قاتلي وأنت مهما تأمرى القلب يفعل

٢ - ثم يصف الليل ويطوله فيقول :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلي (٦)
 فقلت له لما تغطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكاء كل (٧)
 ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل
 فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت يذبل (٨)

٤ - ثم يصف فرسه فيقول :

(١) أزمع الأمر : ثبت عزمه على إرضائه ، الصرم : الهجر ، الإجمال : الرفق
 (٢) مكبل : مقيد ، من السكبل وهو القيد
 (٣) الخليقة السجية : الثياب هنا : القلب ، تسلي : تسقط
 (٤) ذرفت دمنه : سال ، السهمان هنا هما العينان ، الأعشار : أجزاء الجزور
 الذي ينحر في الميسر يأخذ منه السهم المعلى سبعة والرقيب ثلاثة ، مقتل : أهلكه العشق .

(٥) تسلت : تكشف وانزاحت : عمايات : ضلالات وغوايات منسل . سال
 (٦) السدول : الستور ، يبتلي ، يختبر
 (٧) الصلب : الظهر ، الأعجاز : المآخير ، الكلكل : الصدر : ناء : نهض
 (٨) مغار : محكم شديد ، يذبل : اسم جبل ، يصف نجوم الليل بالثبات

وقد أعتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابدهيكل (١)
مكر مفر مقبيل مدير معا كجلود صخر حطه السيل من عل (٢)
ثم يذكر الصيد الذي صاده وطهى الطهاة له وسط الصحراء :
فظل طهاة اللحم ما بين منضج صفيف شواء أو قدير معجل (٣)
هـ — ثم يصف البرق والمطر في عذوبة وسحر وجمال ، بما لا داعي
لذكره في هذه المجالة السريعة ، فليرجع إليه القارىء في مجموعات
المعلقات المطبوعة .

معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي

١ — عمرو بن كلثوم شاعر قديم ، قتل عمرو بن هند الملك ، أمه ليلى
بنت مهلهل بن ربيعة وعمها كليب أعز العرب ، ووالده كلثوم بن عتاب
فارس العرب ، وكان عمرو سيدا في قومه من بني تغلب ، وتوفي في أواخر
القرن السادس الميلادي .

وعمر وشاعر قوى الشاعرية مجيد ، ومعلقته « ألا هي بضحكك فاصبحينا ،
مشهورة ، « وهى من جيد شعر العرب وإحدى السبع المعلقات » ، وكان
قام بها خطيباً فيما كان بينه وبين عمرو بن هند (٤)

يمتاز عمرو في شعره بالبديهة والارتجال ، وبأسلوبه الرائق ، وأغراضه
العالية . وهو مقل لم ينظم في فنون الشعر جميعها . وكل ما روى عنه معلقته

(١) وكنات جمع وكنة وهى العش . منجرد : قضير الشعر رقيقه ، الأوابد :
الوحش النافرة

(٢) مكر مفر : سريع الكر والفِر ، غل : فوق

(٣) الطهاة : جمع طاه وهو الطباخ . لحم صفيف : صف على النار يشوى أو

فى الشمس ليقدد . قدير : مطبوخ فى القدر

(٤) ٦٧ الشعر والشعراء

وبعض مقطوعات لا تخرج عن موضوعها. وقد أجاد في الفخر إجماعة منقطعة النظير
٢ — وللمعلقة مشهورة بالركة والسلاسة والسهولة وفيها تكرير في بعض
معانيها وألفاظها، ومبالغة واضحة شديدة في الفخر بما لم يوافق نظيرها في
الشعر الجاهلي، مثل:

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبار ساجدينا
ومثل:

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
وفنون المعلقة كثيرة:

(١) فقد بدأها عمرو بن كلثوم بوصف الخمر؛ وهذه المعلقة فريدة في هذه
الناحية، فلم تبدأ معلقة أو قصيدة بوصف الخمر في الجاهلية إلا هذه القصيدة
ولعل من ذلك أن تغلب كانت النصرانية موجودة في بعض ربوعها وأن
الخمر كانت شائعة في هذه الربوع، قال:

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا (١)
مشعشة كأن الحص فيها إذا ما المساء خالطها سخيينا (٢)
صددت الكأس عنا أم عمرو وكأن الكأس مجراها البميننا (٣)
وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصبحينا (٤)
وكأس قد شربت ببعليك وأخرى في دمشق وقاضرينا (٥)
إذا صمدت حمياها أريباً من الفتيان خلعت به جنونا (٦)

(ب) ثم يأخذ في الغزل ووصف محبوبته وجمالها.

-
- (١) هي: استيقظي، الصحن: القدح العريض، اصبحينا: أسقيينا الصبوح
وهو الشرب في الغداة. الأندرينا: جمع الأندرو هي قرية بالشام جمعها بماحو إليها
(٢) مشعشة: مزوجة. الحص: الورس. سخيينا: جداولنا وكرماننا من السخاء
(٣) صددت: أي صرفت. أم عمرو: هي والدته
(٤) أي لست أنا شر الثلاثة فتعدلي عن الكأس (٥) بلاد معروفة
(٦) صمدت: قصدت. الحميا: سورة الراح. الأريب: العاقل

قفي قبل التفرق يا ظمينا نخـ برك الثقيين وتخبرينا
قفي نسألك هل أحدثت صرماً لو شك البين أم خنت الأمانة؟ (١)
أني ليلي يعاتبني أبوها وإخوتها وهم لي ظالمونا؟
(ح) ثم ينتقل إلى الفخر بقومه ومجدهم وعزتهم ، ويهدد الملك عمرو بن
هند وينذره ويتوعده في أسلوب قوى جزل مع عذوبة وجمال ، والظاهر
أن ذلك كان أيام التحاكم أمام عمرو بن هند والمفاخرة بين تغلب وبكر :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقيننا
بأننا نورد الرايات بيضاً ونصدر من حمراً قد رويننا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن نديننا
ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبيننا
والجزء الثاني من المعركة يبدو أنه نظم بعد قتل عمرو بن هند ، وهو :

بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهديدنا وتوعيدنا رويدا متى كنا لأملك مقتويننا
وان قناتنا يا عمر أعت على الأعداء قبلك أن تلبينا
ثم ينتقل إلى ذكر وقائع قومه مفتخراً بها على بكر ، ومنها يوم خزان ،
ثم يختتمها بفخر قوى منه :

وأنا الحاكون إذا أردنا وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا النازلون بكل ثغر يخاف النازلون به المنونا
إذا ما الملك سام الناس خسفا أيدنا أن نقر الخسف فينا
ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهليتنا
ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الفطام لنا رضيع نخر له الجبار ساجديننا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبش حين نبش قادريننا

(١) الصرم : الهجر . الوشك : السرعة . البين : الفراق . الأمين : الوفي بعهده

٣ - وبعد فالمعلقة من روائع الفخر ، ويقال إنها كانت تزيد على الألف بيت وإنما وصل إلينا بعضها بما حفظه الناس منها .

والغالب — كما ذكرنا — أن الشاعر نظمها على مرتين : في مفاخرته المبكر عند عمرو بن هند ، وفي حادثة أمه ، ولذلك رأينا فيها إشارة إلى كليهما وقد وقف عمرو بن كلثوم بهذه المعلقة في عكاظ فأنشدها في موسم مكة ، وكان بنو تغلب يعظمونها ويروونها صغارهم وكبارهم لما حوت من الفخر والحماسة مع جزالتها وسهولة حفظها .

وقد أثرت هذه القصيدة في نفوس قبيلة تغلب ونفروا بها ، واتخذوها أنشودتهم ، حتى قال فيها بعض البكرين :

ألهى بنى تغلب عن جل أمرهم قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفأخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مستوم
والميزة الواضحة فيها السهولة والقوة ، والاعتداد بالنفس والقبيلة ، والمبالغة في الفخر ، وأنها شعر صدر عن سيد قومه يعتز بسيادته وسيادة قبيلته ومجدها وأيامها وبطولة أبطالها وانتصاراتهم .
وبدورها بالخمر يرجع إلى انتشار النصرانية في تغلب وانتشار الخمر بينهم ، وتسكاد تكون هي القصيدة الوحيدة في بدنها بالخمر على غير عادة الشعراء الجاهليين .

ويعجب النقاد بمعلقة عمرو إعجاباً شديداً ، قال ابن قتيبة : وهي من جيد شعر العرب وإحدى السبع المعلقات (١) ، وقدمه بها النقاد (٢) ، وقال مطرف عن عيسى بن عمر : لو وضعت أشعار العرب في كفة وقصيدة عمرو ابن كلثوم في كفة لمالت بأكثرها (٣) .

(١) ص ٦٧ الشعر والشعراء (٢) ص ٤٠ جمهرة أشعار العرب

(٣) ص ٤١ المرجع

معلقة زهير

-- ١ --

وهي أثر آخر من آثار البلاغة العربية القديمة ، تقع في أسعة وخمسين بيتاً صاحبها زهير بن أبي سلمى ربعة بن رباح المزني ، نشأ في أقاربه بني غطفان ، وتخرج في الشعر على خال أبيه بشامة بن الغدير ، وكان يروي لأوس ابن حجر أيضاً وكان أوس زوج أمه ، فكان شاعراً فحلاً ، كما كان صائب الرأي عاقلاً حازماً حكيماً .

كان يتأله ويتعفف في شعره ؛ ويدل شعره على إيمانه بالبعث :
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم (١)
وفضله عمر بن الخطاب على الشعراء لأنه كان لا يعاقل بين القول ولا يتبع حوشي الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه (٢) ،
وكان زهير أحكمهم شعراً وأبعدهم من سخف وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق وأشدهم مبالغة في المدح (٣) .
كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ثورق زهيراً وتضاييه ، وتشير شاعريته ، ولما سمى هرم بن سنان والحارث بن عوف المريان في الصاح وحقن الدماء وتحمل ديات القتلى أنطق تلك المأثرة زهيراً ، فنظم معلقته هذه يمدح هذين السعديين وينزه بعملهما الجليل ويدعو إلى السلم وينفر من الحرب ويصف مآسيها وآلامها ، وهي قصيدة رائعة ، وتمتاز بحكمها الكثيرة وكان زهير ذا حكمة في شعره .

تحليل للقصيدة :

-- ٢ --

١ - بدأ زهير معلقته بذكر الديار وزيارتها ووقوفه فيها بعد

(١) ٤٥ الشعر والشعراء (٢) ٤٤ المرجع ، ٢٩ طبقات الشعراء ،
٣٠٥ ج ٢ المرهر ، وراجع ٣٢ الجهرة (٣) ٢٩ طبقات الشعراء لابن سلام

عشرين عاما طوالا يتذكر ذكريات حبه ووفائه ، قال :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالتثلثم؟ (١)
وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم (٢)
فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا انعم صباحا أيها الربع واسلم
ثم أخذ يصف الدساء اللاقي ارتحلن عنها ، فيتبعهن ببصره كئيباً حزينا ،
ويصف الطريق التي سلكها ، والهواذج التي كن فيها والمياه التي نزلنها في
عذوبة وسهولة وجمال إلى أن يقول :

فلما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصي الحاضر المتخيم (٣)
تذكرني الأحلام ليلي ومن تطف عليه خيالات الأحبة يحلم
٢ — ثم ينتقل إلى مدح هرم والحارث والإشادة بمنقبتيهما الكريمة في
إنقاذ السلام وإطفاء الحرب بين عبس وذبيان وتحميلهما ديات القتلى من
ما لهما وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير . قال :

سعى (٤) ساعيا غيظ بن مرة ، بعدما تبزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت (٥) بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم (٦) السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

- (١) أم أوفى : محبوبه الشاعر . الدمنة : آثار الديار . تكلم : تتكلم .
حومانة الدراج والمتثلثم : موضعان
(٢) الحجة : السنة . لأيا : أي بعد لأي ومشقة . توهم : ظن
(٣) جمام الماء : ما اجتمع منه . والجمام الزرق : المياه الصافية . وضع العصي
كناية عن الإقامة . الحاضر : النازل على الماء . المتخيم : المقيم
(٤) غيظ بن مرة من غطفان اسم جد القبيلة . تبزل : نفجر . الساعيان هما
هرم والحارث
(٥) البيت : السكبة
(٦) السحيل : ضد المبرم ، المفتول . والسحيل كناية عن الرخاء
والمبرم عن الشدة

تداركها عينا (١) وذيبيان بعدما تفانوا ودقوا ببيتهم عطر منشم
وقد قلتما (٢) إن ندرك السلم واسعا بحال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبيحتما (٣) منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم
٣ - ثم ندد بالحرب ووصف فظائعها ودعا إلى السلم وأكده وأوجبه
على المتحاربين ، قال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم (٤)
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا هزيتوها فتضرم (٥)
ثم ينصح قومه بأن يبقوا على السلم ، ويندد بالحصين بن ضمضم وبآثار
عمله في تهيج الشر وإعادة نار الحرب ، وكان الحصين حين اجتمع القوم
للصلح قد حمل على رجل له عنده نار في الحرب فقتله ، ويعيد التنويه بالرجلين
الذين احتملا ديات القتلى واحدا واحدا على غير جزيرة أو ذنب كان منهما
٤ - ثم ينتقل من هذا المجال الرهيب مجال النصيح والتوجيه وتأكيده
النسلا إلى مجال الحكمة الإنسانية العامة ، حكمة الرجل المجرب للحياة الذي
ذاقها وخبرها وعاش في خضمها ثم امتد به العمر فزهدا وانصرف عنها قال :
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمسسم (٦)

(١) منشم : امرأة من خزاعة كانت تباع عطرا فإذا حاربوا اشتروا منها
كافورا لموتاهم .

(٢) واسعا : ممكنا أو خالصا

(٣) المعقوق : فطيمة الرحم . المأثم : الأثم والعدوان

(٤) المرجم : المظنون

(٥) ضريته فضرى : أى هجته فهاج . تضرم : تشعل

(٦) المصانعة : المداراة . يضرس : يعضغ بالأضراس . المنسم ، الحافر

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم (١)
ومهما تكن عند امرى من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين . حولا لا أبالك يسأم
وأعلم ما في اليوم والابس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطى . يعمر فيهرم

ويخشمها بتأ كيد معروف السيدين الممدوحين عليه فيقول :

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن يكثر التسأل يوما سيحرم

معلقة عنزة

- ١ -

عنزة بن عمرو بن شداد العبسي م ٦١٥ م أحد فرسان العرب
وأبطالها وشعرائها ، كان عبداً أسود ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين أو
الثلاثة فخاصه رجل وعيره بسواده وسواد أمه وسوى ذلك ، وأنه لا يقول
الشعر فقال عنزة : والله إن الناس ليتراقدون الطعام فما حضرت أنت ولا
أبوك ولا جدك مرفد الناس قط ، وإن الناس ليدعون في الغارات فيعرفون
بتسويمهم فما رأيتك في خيل مغيرة في أوائل الناس قط ، وإن الابس
ليكون بيننا فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطاة فصل . وإني
لأحضر البأس ، وأوفي المقنم ، وأعف عن المسألة ، وأجود بما ملكت
يدى ، وأفصل الخطاة الهباء ، وأما الشعر فستعلم . فغاب حيناً وعاد إليه
فأنشده معلقته :

هل غادر الشعر من متردم ؟ أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

وهي أجود شعره ، وكانت العرب تسميها الذهبية .

وشجاعة عنزة وبسالته وشاعريته دفعت أباه إلى أن يستأجره بأسبه ، وإلى أن

(١) يفره أى يصونه ويهقيه

يواجهه عمه ابنته غيلة ، وأصبح فارس داحس والغبراء ، كما كان فارس عبس ،
وأحد أغربة العرب المشهورين .

- ٢ -

تحليل ونقد المعلقة :

١ - هي إحدى المملقات السبع ، ومن روائع الشعر العربي القديم ، مطالعها :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

وتمتاز بالسهوة واللين ، البادين فيها ، والذين قلما يوجدان في
الشعر النجدي القديم ، والذين لا يخلوان من نخامة وجزالة ، فهي واضحة
جلية ، سهلة اللفظ ، قريبة المعنى ، ليس بينها وبين النفس حجاب من هذه
الجزالة التي تكاد تبلغ الغرابة ، وإنما تسير في سهولة ويسر ، وترتفع عن
الإسفاف والابتذال دون تورط في الغلظة والاعراب .

وعنثرة فيها رقيق في غزله والإشادة ببطولته ، بل هو رقيق في حديثه
عن أعدائه ، أليس هو الذي يقول :

فشككت بالرحم الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
بل هو رقيق على فرسه ، يألم لألمه ، ويشقى لشقائه ، ويرى بكاهه ،
ويسمع توجعه حين تعبت به رماح الأعداء :

فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولما كان لو علم الكلام مكلمي

وعنثرة لا تنتهي به الرقة إلى الضعف ، كما لا تنتهي به الشدة إلى العنف ،
وكما لا ينتهي به السكر إلى ما يفسد الأخلاق والمروءة ، أو الصحو إلى
التقصير والعيب والبخل . وهو مقدم إذا كانت الحرب ، عفيف إذا قسمت
الغنائم ، يحاول أن يصف من أخلاقه ما يشرف به الرجل العربي عما يستغنى
عن الإبانة عنه ، فيقول هذه الكلمة الرائعة « وكما علمت شمائلي وتكرمي » .

والمعلقة تصوير واضح لنفسية الشاعر ومشاعره وحياته وعواطفه
وبطولاته وقوته وبأسه ونضاله للأعداء ، ولا عجب فهي تلعب من نفسه
وحياته وتصورهما تمام التصوير .

ولو لم نعرف عنتره أو نسمع بأخباره وحياته ، لعرفناه من معلقته بطلا
مقداما ، وشجاعا فارسا ، وعرييا كريم الخلق ، رقيق العاطفة ، حار الشعور ،
يضع روحه في كفه ، ويبدلها مضجعا في سبيل كرامته وشرفه وبطولته .

٢ - وقد سار الشاعر فيها على نهج غيره من الشعراء ، فذكر الديار كما ذكروها ،
ووصف الناقة كما وصفوها ، وافتخر بالكرم والنجدة والبطولة . وفيها كما يقول
الدكتور طه حسين معان قلما انتهى إلى مثلها غير عنتره من الشعراء ، ولم يخطئ ابن
سلام حين قال : إن هذه القصيدة نادرة ، فهي نادرة حقا ، وكانها طائفة من
الأنعام الموسيقية الكثيرة المختلفة فيما بينها أشد الاختلاف ، وفيها نغمة
واحدة متصلة منذ بدء القصيدة إلى نهايتها ، تظهر واضحة حيناً وتحسبها النفس
وإن لم تسمعها الأذن حيناً آخر ؛ وهذه النغمة التي تكون وحدة هذه
القصيدة كما كوَّنت الوحدة في معلقة لبيد ، هي حديث الشاعر إلى صاحبه
واستحضار صورتها في نفسه منذ بدء القصيدة ؛ ولكن بين هذه
النغمة في قصيدة عنتره وقصيدة لبيد فرقا واضحا جداً ، فهي في قصيدة عنتره
حلوة رقيقة تمازج النفس فتمتزج بها لأن عنتره فيما يظهر كان حلواً النفس
رقيق القلب ، قوى العاطفة ، جاء ذلك من أنه عز بعد ذلة ، وتحرر بعد
رق ، فهو قد شقى في صباه وطفولته ، واحتمل الأذى في شبابه ، والذل الذي
يمتزج بالنفس فيصفي عواطفها ، ويلطف حديثها ، على حين تجدد هذه النغمة
عند لبيد غليظة خشنة ، لبيد يتحدث عن صاحبه في أول القصيدة ويذكرها
أثناءها ولكنه ليس متهاكما عليها ولا متحرراً من الصد عنها ، فهو يبادل
القضية بالطبيعة والهجر بالهجر ، أما عنتره فيقول :

واقـد نزلت فلا تظني غيري مني بمنزلة المحب المسكـرم

٣ - وفيها عدة تشبيهات رائقة ، كتشبيه الظليم وقد تبعته النعام بالعيد
الأسود وقد ثابت إليه الإبل :

تأوى له قلمص النعام كما أوت حرق بجانبه لأعجم طمطم
ومثل هذا التشبيه الرائع الذي يعجب به النقاد من القدماء ويحبونه ،
في الأبيات التي وصف فيها ثغر صاحبه بالجمال وطيب النشر ، فذكر فأرة
المسك وذكر الروضة الأنف التي ألح عليها الغيث حتى زكا نبتها وكثر فيها
الذباب مبهجاً نشوان مترنماً :

وكان فأرة تاجر بقسيمة	سبقت عوارضها إليك من الفم
أو روضة أنفا تضمن نبتها	غيث قليل الدمن ليس بمعلم
جادت عليه كل بكر حرة	فتركن كل قرارة كالدرهم
سحاً وتسكاباً فكل عشية	يجرى عليها الماء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس يبارح	غردا كفعل الشارب المترنم
هزجاً يحك ذراعاً بذراع	قدح المسكب على الزناد الأجزم

٤ - وكثير جداً من أبيات هذه المعلقة قد ظفر بحظ كبير من الإيجاز
والامتلاء والبراعة من اللغو والفضول حتى جرى مجرى الأمثال ، رأى
الناس لا يتمثل قوله :

وإذا شربت فاني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحت فما أقصر عن ندي وكما علمت شمائل وتسكروني
أو قوله :

يلبثك من شهد الواقعة أني أغشى الوغى وأعف عند المغنم
أو قوله :

ولقد خشيت أن أموت ولم تدر لأحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمي عرضي ولم أشتهمها والناذرين إذا لقيتهما دمي

بما احتذاه جميل فقال :

وليت رجالا فيك قد نذروا دمي وهما يقتلي بأبشين لقوني
أو قوله :

إن يفعلوا فقد تركت أباها جزر السباع وكل نسر قشعم

وجل هذه القصيدة بحرى بحرى المثل ، وينشد على اختلاف العصور
والبيئات والظروف ، فلا يمل إنشاده . ولا تحس النفس نبوا عنه ، أو نفورا
منه ؛ وإنما تحس كأنها تجرى فيه أو كأن هذا الشعور مرآة صافية صادقة
لكل نفس كريمة ولكل قلب ذكى ولكل خلق نقي .

ذلك لأن عنبرة بحياته وشخصيته ومشاعره وعواطفه وآماله وآلامه
كان كأنما يتحدث عن النفوس ، ويصف حياة الناس ، يأخذ من تجاربه
وخبرته ومن فرائسته وذكاؤه أساليبه وصوره ، ويستمد من إلمامه بالحياة
ومعرفته ببيئته مادة بيانته وشعوره وشعره .

فعنبرة في معلقته شاعر يتحدث عن البطولة في البادية وعن المجتمع الذي
كان يعيش فيه وعن الحياة التي كان يتأثر بها وعن عواطف الشاعر وعن دغائل
نفسه حديث المصور الماهر والشاعر العبقرى .

وبعد فكل ما في المعلقة جيد ، وكل أبياتها خليق أن تطيل الوقوف عنده
والتمعن فيه والإعجاب به كما يقول الدكتور طه حسين .

وفنون المعلقة كثيرة :

١ - بدأها عنبرة بالغزل في ابنة عمه وعلة ومخاطبة دارها ذات الذكريات
الجميلة ، قال :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت اندار بعد توهم (١) ؟

(١) غادر : ترك . متردم : شئ . يصلح لم يكونوا أصلحوه التوهم : الوهم

يا دار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحا دار عبلة واسلمى (١)
وتجل عبلة بالجواء وأهلنا بالحزن فالصمان فالمتثل
حييت من طلال تقادم عهد أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

٢ - واستطرد إلى وصف الروضة :

أو روضة أنفاً تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم (٢)
جادت عليه كل بكر حرة فتركن كل قرارة كالدرهم (٣)
وخلا الذباب بها فليس ببارح غردا كفعل الشارب المترنم (٤)
هزجاً يحك ذراعاه بذراعاه قدح المكب على الزناد الأجذم (٥)

٣ - ثم يصف ناقته في أبيات كأبيات طرفة تمتاز بالغرابة :

هل تبلغنى دارها شذنية لعنت بمحروم الشراب مصرم (٦)

٤ - ثم يفتخر بنفسه وشجاعته :

أثنى على بما عليت فانى سهل مغالفتى إذا لم أظلم
فاذا ظلمت فان ظلمى باسل مر مذاقته كطعم العلقم
وإذا شربت فانى مستهلك مالى ، وعرضى وافر لم يكام

(١) الجواء : بلد في نجد من أماكن عبس ، عمى : أى انعمى

(٢) الأنف : التام في كل شيء ، الدمن : المطر الخفيف ، الغيث : المطر ،

المعلم : ذى العلامة

(٣) جادت : من الجود وهو المطر الكثير : البكر ، السحابة في أول الربيع
والحرة : البيضاء ، القرارة : القاع كالدرهم . يعنى فى البياض والاستدارة

(٤) خلا : انفرد ، بارح : تارك ، غردا : مترنما

(٥) الهزج : السريع الصوت ، قدح المكب : أى الذى أكد على الزناديقده ،

الأجذم : مقطوع اليد

(٦) تبلغنى : توصلنى ، دارها : منزلها ، شذنية : ناقة : لعنت : جف ضرعها

محروم الشراب : أى ضرع لابلن فيه ، مصرم : جاف

وإذا صحت فما أقصر عن ندى وكما علت شمائلي وتسكروني

ويستمر في التنويه بشجاعته إلى أن يقول :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى ويبض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبقارق ثغرك المتبسّم
لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتنامرون كررت غير مذمم
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بنر في لبان الأدهم (١)
مازلت أرميهم بشجرة فخره ولبانه حتى تسربل بالدم (٢)
فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولا كان لو علم الكلام مكلمي
ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس : ويك عنتر أقدم

ه — ثم يختمها بتهديد ابني ضمضم وكانا قد نذرا دمه وتربصا له لأمه
قتل أباهما في الحرب ، قال :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمي عرضي ولم أشتمهما والناذرين إذا لم ألقهما دمي
إن يفعلوا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم (٣)

معلقة لبيد

١ — لبيد بن ربيعة العامري من سادة العامريين القيسيين وأشرفهم
وكان يقال لأبيه ربيعة المعترين ، وعمه ملاعب الأسنة عامر بن مالك أخذ
أربعين مرباعاً في الجاهلية .

-
- (١) أشطان . حبال ، لبان : صدر ، الأدهم : الفرس الأسود
(٢) الشجرة : الهزيمة التي في الحلق ، اللبان : الصدر ، تسربل : لبس السربال
(٣) جزر السباع . أى طعمة لها ، القشعم . الكبير من الفسور

كان لبيد من شعراء الجاهلية وفرسانهم ، وقال الشعر في الجاهلية في كل غرض ، وأدرك الإسلام وأسلم وهجر الشعر ، وأقام بالكوفة إلى أن مات عام ٤١ هـ عن مائة وسبع وخمسين سنة .

« وسئل لبيد من أشعر الناس ؟ فقال : الملك الضليل ، ثم الشاب القليل ثم الشيخ أبو عقيل يعني نفسه (١) » . وهو من أصحاب المعلقات ، وكان نظم لبيد في الجاهلية نغم العبارة منضد اللفظ قليل الحشو مزادنا بالحكمة العالية والكلام الرائعات ، وهو أحسن الجاهليين تصرفاً في الرثاء ، وأكثرهم قدرة على تصوير عواطف المنجوع الحزين ، بلفظ رائق وأسلوب مؤثر ، وقدمه بعض النقاد « لأنه أفضل الشعراء في الجاهلية والإسلام وأقلهم لغواً في شعره (٢) » .

٢ - ومعلقة لبيد تمتاز بقوة اللفظ ومثانة الأسلوب ، وبما فيها من تصوير للبادية والحياة والأخلاق فيها .

١ - بدأها لبيد بذكر الديار وخلوها من أصحابها وتعرضها للرياح والأمطار تعبت بها وتمحو معالمها ، قال :

عفت الديار محلمها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها (٣)
وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجدد متونها أقلامها (٤)
فوقفت أسألها ، وكيف سؤلنا صما خوالد ما يبين كلامها (٥)

(١) ٢٩٧ ج ٢ المزهري . وراجع ٨٨ الشعر والشعراء

(٢) ٣٨ الجهرة ، وراجع ص ٣٩ من الجهرة أيضا .

(٣) عفت : درست . المحل والمقام : موضع الحلول والاقامة . منى : موضع قريب من طخفة . تأبد : توحش . الغول : ماء معروف للضباب يحوف طخفة به نخل . الرجام : جبال بقلوعة الحمى حمى ، ضرية .

(٤) يريد أن السيول كشفت عن الطلول فظهرت كالكتب تعدد ظهورها .

والزبر جمع زبور وهو الكتاب

(٥) صم : جمع صماء . خوالد : بواقي جمع خالدة . والصم البواقي هي الأثافي

(٢٠)

يبين : يظهر .

ثم يصف رحيل أحبابه عنها حتى يقول :

بل ما تذكر من نوار ، وقد نأت وتقطعت أسبابها ورامها (١)
مرية ، حلت بفيد ، وجاورت أهل الحجاز ، فأين منك مرامها (٢)
وأخيراً يرى لا أن يتسلى ويتعزى حتى يصل إلى رجائه وأمله ، ولكن
أن يقطع أمله منها ويترك رجاءه فيها ويقطع صلته بها مادامت نوار قد
تغير وصلها :

فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل نخلة صرامها (٣)

ب - ثم يأخذ في وصف ناقته في لفظ غريب وتعبير بدوي متين ؛
ويطيل في هذا الوصف ، ويشبهها بالآتان الوحشية وبالظبية الرؤوم المفجوعة
إلى أن يقول :

فبتلك لذر قص اللوامع بالضحى واجتأب أردية السراب أكامها (٤)
أقضى اللبانة لأفرط ريبة أو أن يلوم بحاجة لوامها (٥)
أو لم تكن تدري نوار بأني وصال عقد حبال جدامها (٦)
تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

ج - ثم يتحدث عن نفسه وعزتها ، ولذات الراح التي شارك فيها ،

(١) نوار : اسم حبيته . الرمام : جمع رمة وهي القطعة من الحبل البالي ، يريد
أن الوصل تقطعت به الأسباب

(٢) مرية : تنسب إلى مرة بن عوف ، فيد : موضع في طريق مكة . مرامها : منالها

(٣) اللبانة : الحاجة . تعرض : تغير . الخلة : الصداقة .

(٤) رقص : ارتفع . اللوامع بالضحى : يعني الآل . اجتأب : لبس . أردية :

جمع رداء . السراب : ما يترامى للسائر في الصحراء من شبه الماء بما يكون لازقا
بالقيعان . أكامها : جمع أكمة

(٥) اللبانة : الحاجة . لا أفرط أى لا أترك . الريبة : الشك والخافة . أن

يلوم : أى أن لا يلوم . (٦) أى أصل وأقطع . وهذا مذهب لا يرتضيه
المنيعون في الحب .

وشجاعته وبطولته في مواقف النزال والنضال، وكرمه وسخائه ونواله للجار
الفقر والضييف النازل والجار الغريب وللبائسين والمساكين :

وجزور أيسار دعوت لختفها بمغلق متشابه أعلامها (١)
فالضييف والجار الغريب كأما هبطا تباله مخصبا أهضامها (٢)
تأوى إلى الأطناب كل رزية مثل البلية قالص أهدامها (٣)
د - ثم يفتخر بقومه ومآثرهم وشرفهم ومجدهم فيقول :

من معشر سلت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها
فبنوا لنا بيتا رفيعاً سمكه فسما إليه كهلها وغلامها
فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت في معشر أوفى بأعظم حظنا قسامها
فهم السعاة إذا العشرة أفضعت وهم فوارسها وهم حكمها
وهم زبيع للمجاور فيهم والمرمات إذا تظاول عامها

معلقة الحارث بن حلزة

الحارث بن حلزة اليشكري من بكر، كان سيداً في قومه، وشاعراً
مجيداً، ارتحل معلقته ارتجالاً في مجلس عمرو بن هند يستدني بها عطفه ويستجلب
رضاه. ويذرد بها عن قومه، وكان هو عمرو بن هند مع تغلب، فتحول إلى

(١) الأيسار : اللذين يحضرون القسمة ويضربون بالقداح . المغلق : جمع
مغلق وهو السابغ من سهام الميسر . متشابه : أى يشبه بعضه بعضاً
(٢) تباله : قرية في نجد مشهورة بالخصب . أهضام : جمع هضم وهي بطون
الأرض المطمئنة .

(٣) الرزية : المرأة التي قد أرزها أهلها أى أهزلها : البلية ناقة الرجل تعقل
عند قبره حتى تموت . الأطناب : حبال الفساطيط . الأهدام : الخلقان . قالص :
قصير مرتفع .

العطف على البكرين بسبب هذه القصيدة الرائعة . وليس للمحارث إلا آثار قليلة من الشعر مع معلقته هذه
وتمتاز معلقة الحارث بإحكام نسجها وتنوع أعراضها وبأثر من
آثار البديهة والازتجال :

أ - بدأها بالغزل في محبوبته أسماء :

أذنتنا ببينهما أسماء رب ثاو يحمل منه الثواء (١)
بعد عم — لنا ببرقة شما ، فأدنى ديارها الخلاء (٢)
لا أرى من عهدت فيها فأبكي اليوم دلهما وما يحير البكا (٣)

ب - ثم انتقل إلى وصف ناقته وكما يقول :

أتلهى بها الهواجر إذ كل ابن هم بلية عمياء (٤)
ح - ثم يعاتب إخوانه من بني تغلب لصلفهم على قومه :

إن إخواننا الأراقم يغلو ن علينا في قيلهم إحقاء (٥)
يخلطون البرى منابذي الذنوب ولا ينفع الخلى الخلاء (٦)
أجمعوا أمرهم عشاء ، فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن نجيب ، ومن تصسمال خيل خلال ذاك رغاء
أيها الناطق المرقش عشا عند عمرو ، وهل لذك بقاء (٧) ؟

-
- (١) الإيذان : الاعلام . البين : الفراق . الثواء : الإقامة .
(٢) العهد : اللقاء . وبرقة شما : والخلاء : موضعان قريبان من دياره
(٣) يحير : يرد ، الدله : الحزن والتحير وذهاب العقل
(٤) الهواجر جمع هاجرة وهي لفح الحر وقت الظهيرة . عمياء : شديدة
(٥) الأراقم : بطون من تغلب . الغلو : مجاوزة الحد . الإحقاء : الإلحاح
القييل : القول

- (١) الخلى البرى الخالى من الذنوب
(٢) الناطق المرقش : أى الواشى المنطق أكاذيبه وشائباته وأباطيله .

فبقينا على غراتك إنا قبل ما قد وشى بنا الأعداء (١)
فبقينا على الشنأة تنمينا حصون وعزة قعسا (٢)
ثم يمدح الملك عمرو بن هند حيناً ويستمر في عتاب إخوانه من تغلب
حيناً آخر :

ملك مقسط ، وأفضل من يمشى ، ومن دون مالدیه الثناء (٣)
أيما خطة أردتم فأدو ها إلينا تمشى بها الأملاء (٤)
ويسير على هذا النهج من المدح والعتاب .

ج - ثم يفتخر بقومه ومجدهم وأيامهم في صدق وجمال وقوة عاطفة :
هل علمتم أيام يذهب النساء غوارا لكل حى عواء (٥)
إلى آخر هذه القصيدة الرائعة التي يصنع لنا أن نعدّها ملحمة شعرية مصغرة
تنطق بمجد بكر ومفاخرها في الحرب والسلم في الجاهلية .

أبواب الشعر الجاهلي

١ - المدح

١ - من أهم أبواب الشعر العربي ، وكان للمدح مكانة كبيرة في العصر
الجاهلي ، وخاصة بعد أن تكسب الشعراء بالشعر واتخذوه صناعة ومدحوا
به الملوك والرؤساء كالأعشى والنابغة وزهير وغيرهم .

(١) الغرأة : اسم بمعنى الاغراء .

(٢) الشنأة : البغضاء . تنمينا : ترفعنا

(٣) مقسط : عادل

(٤) الخطة : الأمر العظيم الذي يحتاج إلى التخلص منه . أدوها أي فوضوها .

الأملاء : الجماعات من الأشراف .

(٥) الغوار المغاورة العواء : صوت الذئب وهو مستعار للضجيج والصياح

كان الشعراء في الجاهلية يمدحون أبطال القبيلة وساداتها ، ويشيدون
بمكانتهم بين القبائل ، ويصفون أخلاقهم ومآثرهم ومحامدهم وشجاعتهم
ويتغنون ببطولتهم .

ثم قصد المتكسبون بالشعر منهم رؤساء القبائل والأمراء والملوك
فمدحهم وأشادوا بمفاخرهم ومكارمهم وأخلاقهم وخلقتهم ، وقصة الذابغة مع
النعمان وزهير مع هرم مشهورة .

وتمتاز المدائح الجاهلية ببساطتها وصدقها وبعدها عن الغلو والمبالغة ،
وهي أثر جميل لشاعريتهم القوية .

ب - صور للمدح الجاهلي :

قال الأعشى الشاعر الجاهلي الفحل يمدح الأسود بن المنذر وهو أخو
النعمان لأمه ، وكان النعمان ولاء على بني سعد وغيرهم ، وكان عنده أسرى
من بني سعد بن ضبيعة فأتاه الأعشى فمدحه وسأله أن يطلقهم ففعل ، وبعد
صاحب الجهرة هذه المدحة من المعلقات ، ومطلع هذه القصيدة :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي
ومنها يخاطب الناقة :

لأنشكى إلى وانتجعى الأسود أهل الندى وأهل الفحال
فرع نبع يهتز في غصن الجسد ، غزير الندى شديد المحال
عنده البر والتقى وأسى الشق (١) وحمل البعضلات الثقال
وصلات الأرحام قد علم الناس وفك الأسرى من الأغلال
وهوان النفس الكريمة للذكر إذا ما التقت صدور العوالي
أنت خير من ألف ألف من القوم إذا ما كبت وجوه الرجال
وفاء إذا ما أجرت فما غر ت (٢) حبال وصلتها بحبال

(١) الشق : الصدع والكسر . وأسى الشق . رأبه وإصلاحه

(٢) أى تقضت

وعطاء إذا سئلت إذ العذرة (١) فينا عطية البخل
أريحي صلت (٢) يظل له القوم وقوفا قيامهم للهلال
وأرى من عصاك أصبح محزو ناكعب الذي يطيعك على
جندك الطارف التليد من الغا رات أهل الهبات والآكال (٣)
للعدا عندك البوار ومن وا ليت لم يعر عقده باغتيال
لن يزالوا كذلككم ، ثم لازلت لهم خالداً خلود الجبال

وقال زهير يمدح هرم بن سنان والشارح بن عوف المري سيدي بني
غطفان لسميها في الصلح بين عبس وذبيان ، وهي قصيدة من النمط العالي ،
ولها مكانتها في البلاغة العربية قال :

تداركتها الأحلاف قد ثل عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعل
فأصيحبتها منها على خير موطن سبيلكم كما فيه وإن أحزنوا سهل
رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم قطينا بها حتى إذا نبت البقل
وفيههم مقامات حسان وجوههم وأندية يلتابها القول والفعل
على مكثريهم رزق من يعترهم وعند المقلين السباحة والبذل
وإن جنتهم ألفيت حول بيوتهم بحال قد يشفى بأحلامها الجمل
سعى بعدهم قوم لم يدر كوههم فلم يفعلوا ولم يلبوا (٤) ولم يألوا
فما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آباءهم قبل
وهل يثبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل؟

وقال أبو البرج القاسم بن حنبل المري في زفر بن أبي هاشم بن مسعود
ابن سنان :

(١) العذرة : المعذرة

(٢) الأريحي : من الأريحية وهي الارتفاع للندى . الصلت : الماضي في الحوانج

(٣) أى الاطماع

(٤) يلبوا : أى لم يأتوا ما يلامون عليه . وبألوا : يقصروا

من البيض الوجوه بنى سنان لو أنك تستضيء بهم أضاءوا
هم حلوا من الشرف المعلى ومن حسب العشيرة حيث شاءوا
بنات مكام وأسساء كأم دماؤهم من السكب الشفاء
فلو أن السماء دنت لمجد ومكرمة دنت لكم السماء
وقصائد النابغة في مدح ملوك الحيرة وغسان مشهورة معروفة ولاداعي
لذكرها في هذا المجال الضيق الموجز .

٢ - الهجاء

١ - كان الهجاء في الجاهلية يقصد به الخط من شأن قبيلة أو عشيرة ،
أو فرد من أعداء قبيلة الشاعر وخصومها ، وكان الهجاء سوطاً يصيبه الشاعر
على خصومه وخصوم قبيلته . فيثلمهم ويلتقص من مقامهم ، ويزري بهم ،
ويضع من مكانتهم ، ويلسب اليهم البخل والجبن والذلة والهوان ، وكانت
الخصومات الكثيرة بين القبائل ، والحروب المشتعلة في الجزيرة العربية في
العصر الجاهلي ، سبباً في الاكثار من شعر الهجاء ، ولكن المأثور من هذا
الباب لا يضارع المأثور من باب المديح .

ويمتاز فن الهجاء في الجاهلية بالقصد في السب والشتم وتعمد الأوصاف
الاجتماعية المزرية بالفرد والقبيلة من الهوان والبخل والجبن وسواها .

ب - صور لفن الهجاء :

قال عارق الطائي وهو شاعر جاهلي يهجو المناذرة :

والله لو كان ابن جفنة (١) جاركم لكسا الوجوه غضاضة وهوانا
وسلاسل يثنين في أعناقكم وإذا لقطع تلكم الأقرانا (٢)

(١) يريد به ملك غسان

(٢) الأقران جمع قرن بفتح الراء وهو الحبل . وتقطيع الأقران كناية عن

تهديد جمعهم

وقال مساور بن هند بن قيس بن زهير يهجو بني أسد :

زعمتم أن إخوانكم قریش لهم إلف وليس لكم إلف
أولئك أومنوا جوعاً وخوفاً وقد جاءت بنو أسد وخافوا

وقال قريظ بن أنيف أحد بني العنبر :

ليكن قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل سوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق الخشيتة سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا شدوا الإغارة فرسانا وركباناً

وقال مدرك الفقهسي يهجو عبسا :

وأعرضت عن سلمي وقلت لها حي سواء علينا بخل سلمي وجودها
فلا تحسدن عبسا على ما أصابها وذم حياة قد تولى زهيدها
تشبه عبس هاشما إن تسربلت سرايل خز أنكرتها جلودها

٣ - الفخر

وهو تباهي الرجل بنفسه أو قبيلته أو قومه أو أمته . والفخر باب كبير
في الشعر الجاهلي ، أ كثر الشعراء فيه من الفخر بأحسابهم وأنسابهم وأيامهم
وأبطالهم ومآثرهم .

وصوره كثيرة في الشعر الجاهلي ، قال عمرو بن كلثوم يفتخر بقومه أمام
الملك عمرو بن هند ملك الحيرة :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقيننا
بأننا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد رويننا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيما أن نديننا
ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يديننا
وقد علم القبائل غير نغر إذا قُبب بأبطالهم بليننا

بأنا العاصمون إذا أطعنا وأنا الغارمون إذا عصينا
وأنا المنعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا أتينا
وأنا الحاكمون بما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا
إذا ما الملك سام الناس تحسفا أبيننا أن نقر الخسف فينا
إذا بلع الفطام لنا رضيع تخر له الجبار ساجديننا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

وعلى نمطها يقول أمية بن أبي الصلت :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا ما أثرنا البلينا
وكنا حيثما علمت معد أقننا حيث ساورا هارينا
وأنا النازلون بكل ثغر وأنا الضاربون إذا التقينا
وأنا المانعون إذا أردنا وأنا المقبلون إذا دعينا
وأنا الرافعون على معد أكفا في المكارم ما بقينا
نمرد بالخافة من أمانا ويعطينا المفادة من يلينا (١)

وقال الخنصني من محارب واسمه عامر المحاربي :

وأبقيت لنا آباؤنا من تراثهم دعائم مجد كان في الناس معلما
ونرسى إلى جرثومة أدركت لنا حديثا وعاديا من المجد خضرما (٢)
بنى من بني منهم بناء فمكنوا مكانا لنا منه رفيعا وسليما
أوائك قومي إن يلد بديوتهم أخو حدث يوما فلن يتهضبا
وكم فيهم من سيد ذي مهابة يهاب إذا ما راند الحرب أضرمما
لنا العزة القعساء تحتطم العدى بها ، ثم نستعصى بها أن نخطما

(١) راجع القصيدة في الجهرة ١٨٦ - ١٩٠ ، وقصيدة عمرو بن كلثوم في الجهرة أيضا ١١٧ - ١٢٩

(٢) الجرثومة : الاصل . العادي : القديم . الخضرم : الكثير أو الواسع

وهم يدعمون القوم في كل موطن بكل خطيب يترك القوم كظما
وكنا نجوما كلما انقض كوكب بدا زاهر منهم ليس بأقتما
فما يستطيع الناس عقدا نشده وننقضه منهم وإن كان مبرما
وقال حجر بن خالد الشعملي وهو شاعر جاهلي :

وجدنا أبانا حل في المجد بيته وأعيان رجالا آخرين مطالعه
فمن يسع منا لا ينل مثل سميه ولكن متى ما يرتحل فهو تابعه
وقال عوف بن عطية النيمى (١) :

لعمرك إننى لأخو حفاظ وفي يوم الكربة غير غمر (٢)
أجود على الأبعاد بما جتدها ولم أحرم ذوى قربي وإصر (٣)
وما بى ، فاعلموه ، من خشوع إلى أحد ، وما أزهى بكبر
ألم تر أننا مردى حروب نسيل كأننا دفاع بحر (٤)
ونلبس للعدو جلود أسد إذا نلقاهم وجلود نمر
ونزعى ما رعيناه بين عبس وطيشنا وبين الحى بكر
وكلهم عدو غير مبق حديث قرحه يسمى بوتر

٤ - الرثاء

١ - هو ذكر مناقب أئمة وآثره ومفاخره ، ووصف الحزن عليه
والجزع لفقده ، وبيان مكانته في قومه وآثره في مجتمعه الذى كان يعيش فيه ،
والرثاء كثير في الشعر الجاهلي ، ومن أمثلته عينية لبيد في رثاء أخيه أربد ،
ورائية المهلهل في رثاء أخيه كليب ، والرثاء هو الذى هيج شاعرية المهلهل
فأطال القصيد في رثاء كليب سيد بنى ربيعة ، ولامية تأبط شرا في رثاء ابن
أخته ، وسوى ذلك من عيون الرثاء في الشعر الجاهلي .

(١) شاعر جاهلي متفلق ومن فرسان العرب .

(٢) الغمر : الذى لم يجرب الامور . (٣) الإصر : العهد

(٤) مردى حروب : أى نقوم بها ، وأصل المردى الحجر يرى به .

ب - صور لفن الرثاء :

قال الملهل يرثى أخاه كليبا :

أهـاج قـذاة عـيني الـادكار
وصار الليل مشتملا علينا
وبت أراقب الجوزاء حتى
أصرف مـقـلتي في إثر قوم
دعوتك يا كليب فلم تجبني
أجبنى يا كليب خـلاك ذم
أجبنى يا كليب خـلاك ذم
سقاك الغيث إنك كمت غيثا
أبت عـمـنـاي بـعدك أن تكفـا
ولأنك كنت تعلم عن رجال
وتمنع أن يمسهم لسان
وكنـت أـعد قـربى مـنك رـجـا
فلا تبعد فـكل سـوف يـلقى
يعيش المرء عند بنى أبيه
أرى طول الحـياة وقد تولى
كأنى إذ نعى الناعى كليبا
فدـرت وقـد عـشى بـصرى عـليه
سألت الحى أين دفنتموه ؟
فـبـرت إـليه مـن بـلدى حـثيثا
وحادت ناقتى عن ظل قبر
أنغدو يا كليب معى إذا ما
أنغدو يا كليب معى إذا ما
أقول لتغلب والعز فيها

هدوا فالدموع لها انحدار
كان الليل ليس له نهار
تقارب من أوائلها انحدار
تباينت البلاد بهم فغاروا
وكيف يجيبنى البلد القفار ؟
ضئيلات النفوس لها مزار
لقد فجعت بفارسها مزار
ويسرا حين يلتبس اليسار
كان غضا القناد لها شفار
وتعفو عنهم ولك اقتدار
مخافة من يحير ولا يحار
إذا ما عدت الربح التجار
شعوباً يستدير بها المدار
ويوشك أن يصير بحيث صاروا
كما قد يسلب الشىء الممار
تطـاير بين جنـي الشرار
كما دارت بشارها العقار
فقالوا لى بسفح الحى دار
وطار النوم وامتنع القرار
ثوى فيه المـكـارم والفخار
جبان القوم أنجاه الفرار ؟
حلق القوم يشحذها الشفار ؟
أثيروها لذلك انتصار

تتابع إخوتي ومضوا لأمر عليه تتابع القوم الحسار (١)
ولست بمخالع درعى وسيفي إلى أن يخلع الليل النهار
ولأ أن تبديد سراة بكر فلا يبقى لها أبدا آثار
وقال تأبط شرا في الرثاء :

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلا دمه ما يطـل (٢)

(١) جمع حاسر وهو : من لا مغفرة له ولا درع ولا جنة ، و يروى : الخيار
(٢) الشعب : طريق في الجبل . سلع : موضع وهو أرض قوم تأبط شرا .
طل دمه : ذهب هدره لا يتأثر به . المعنى : أن القتل الذي بالشعب دون سلع أن
يذهب دمه هدره .

ترجمة الشاعر :

هو ثابت بن جابر بن سفيان شاعر جاهلي مجيد . سمي تأبط شرا لأنه تأبط
سيفا وخرج فقتل لأمه : أين هو ؟ فقالت : تأبط شرا وخرج وكان أحد اصوص
العرب المغيرين ، وكان هو والشنفرى الأزدي وعمرو بن يراق من أعدى العدائين
في العرب ، والشنفرى هو ابن أخت تأبط شرا ، ويصف الشنفرى حاله تأبط
شرا في قصيدة تائية له في المفضليات في الأبيات ١٩ - ٢٧ من القصيدة العشرين
(ص ١٠٦ : ١٠٧ المفضليات طبعة المعارف ١٣٦١) . والشنفرى شاعر جاهلي لخل
وتجد ترجمة لتأبط شرا في الشعر والشعراء (ص ٩٢ ط الخانجي ١٣٢٢ هـ)
القصيدة :

القصيدة عالية الطبقة في الفصاحة وهي من عيون الشعر الجاهلي ورواها
صاحب الحماسة (٣٤٨ : ١ ديوان الحماسة طبعة محمود توفيق) وقد ترجمها جوته
إلى الألمانية ونشرها في الديوان الشرقي .

وكانت هذيل قد قتلت ابن تأبط شرا ودمت به في غار فرثاء والده وذكن
أخذه بثأره في هذه القصيدة أو هي له في رثاء ابن أخت له . وقيل إن القصيدة
للشنفرى يرثي بها خاله تأبط شرا ، وقيل إن القصيدة منحولة نحلها بعض الرواة
لتأبط شرا وليست له وأنها مولدة ، بدليل قوله « جل حتى دق فيه الاجل » ، فإن
ذهن الجاهلي لا يكاد يصل إلى مثل هذه الدقة في الأسلوب والتفكير ، وبدليل ذكره

تخلف العبء على وولى أنا بالعبء له مستقل (١)
 ووراء الثأر منى ابن أخت مصع عقده ما تحمل (٢)
 مطرق يرشح سما كما أطرق أفعى ينفث السم صل (٣)
 خبر ما ، نابنا ، مصمئل جل حتى دق فيه الأجل (٤)
 بزنى الدهر وكان غشوما بأبى جاره ما يذل (٥)
 شامس فى القر حتى إذا ما زكت الشعرى فبرد وظل (٦)

اسلع و سلع بالمدينة وأين تأبط شرا من سلع ولكننه قتل فى بلاد هذيل ، ويمكننا
 أن نقول : إنهم رموا بجثته بعيدا عن بلادهم أو أن قومه نقلاوه من هذيل إلى ساح
 أرض قومه .

(١) العبء : الثقل . مستقل : محتمل يقال استقل كذا حمله ورفع . والمعنى
 أنه ترك ثقل الثأر على وذهب وأنا قادر على حمل ثقله غير عاجز عن طلبه
 (٢) المصع : الشديد الثابت الشجاع . العقدة : العزيمة . والمعنى : أن هذا
 الثأر الذى أطلبه إن لم أقدر على أخذه نأبى ابن أخت ثابت الجنان قوى العزيمة
 لا تنتقض عزمته .

(٣) أطرق : أرغى عينيه ينظر إلى الأرض . الرشع كالعرق . ينفث . يقذف
 الصل : الخبيث من الأفاعى . السم ما يقتل وهو مثلث السنين .
 المعنى : إن ابن أختى بطرق إلى الأرض إطراق الحية الرقطاء ، شجاع فى
 الحرب ، مقدام فى النزال لا يسلم أعداؤه من شره .

(٤) المصمئل : الشديد . جل : عظيم . دق : صغر . الأجل : الجليل
 والمعنى أن الذى نزل بنا وأصابنا بخبر موته أمر كبير يصغر عنده ما هو عظيم
 جليل من الحوادث

(٥) بزى الشئ : سلبه إياه والمراد : فجنى به . الغشوم : الظلوم . الأبى :
 الذى لا يحتمل الضم .

والمعنى أن الدهر بتجبره وظلمه فجنى وسلبنى رجلا عزيزا ذا أنفة لا يحتمل
 الذل يحمى جاره فيعز ولا يضام .

(٦) الشامس : الكائن فى الشمس . القر : البرد ذكت . استعملت
 والمعنى أن هذا الرجل ذر كرم وسخاء فمن لجأ إليه فى الشتاء وجد عنده

يا بس الجنبين من غير بؤس وندى الكفين شهم مدل (١)
 ظاعن بالحزم حتى إذا ما حل حل الحزم حيث يحل (٢)
 غيث مزن غامر حيث يجدي وإذا يسطو فليث أبل (٣)
 مسبل في الحى أحوى رفل وإذا يغزو فسمع أزل (٤)
 وله طعمان أرى وشرى وكلا الطعمين قد ذاق كل (٥)

ما يدفعه من الطعام واللباس كالشمس تدفئ المقرور ومن وفد عليه في الصيف
 حين يطلع نجم الشعرى وجد عنده ظلا ظليلا وماء باردا يطفى به حرارة جوفه
 (١) يابس الجنبين أى هزيل وذلك دليل الشجاعة والقوة . البؤس : الفقر :
 الشهم : الذكى القلب . المدل : الواثق بنفسه وبعده

والمعنى أنه قليل الأكل هزيل لاعن فقر بل لأنه سخي يؤثر أضيافه بالزاد على
 نفسه ، وهو ذكى القلب يقظان واثق بنفسه وبما أعده لحوادث الدهر .
 (٢) الظعن : ضد الإقامة . والمعنى أنه متصف بالحزم فى جميع شئونه وأحواله
 والحزم ملازم له حيث كان .

(٣) المزن جمع مزنة وهى السحابة البيضاء والمراد السحابة التى فيها الماء لأن
 السحاب الأبيض لا ماء فيه . غمره الماء : علاه . يجدى : يعطى الجدوى وهى
 العطية . يسطو : يقهر ويصول . الليث الأبل : المصمم الماضى على وجهه لا يبالي بما لاقى
 والمعنى : أنه جواد كريم شجاع إذا أعطى أجزل العطاء كالسحاب الذى يغمر
 الناس بكثرة أمطاره وإذا صال فكألاسد المحصور لا يبالي بالعدو

(٤) مسبل فى الحى مفعوله محذوف أى مسبل إزاره فى الحى وهم يمدحون
 ذا النعمة بذلك وقت السلم فاما فى الشدائد فانهم يمدحون الرجل بالتشمير وعدم
 اللين . الأحوى : من فى شفتيه سواد وهو محمود فيهما . الرفل : الكثير اللحم .
 والسمع : ولد الذئب . الأزل : السريع المشى المسوح المعجز

والمعنى أنه يتنعم فى حاله السلم ويسبل رداءه ويبا كل ما يشتهى وإذا نزل فى
 الحرب كان كالسبع الضارى

(٥) الأرى : العسل . الشرى : الحنظل ، وكلا مفعول ذاق . والمعنى أنه
 رجل سهل الجانب حلو المذاق لمحبه ، مر الطعم لعدوه ، وكل من المحب والعدو
 قد ذاق كلا الطعمين

يركب الهول وحيدا ولا يصحبه إلا اليماني الأفل (١)
 وفتو هجروا ثم أسروا ليلهم حتى إذا ما انجباب حلوا (٢)
 كل ماض قد تردى بماض كسنا البرق إذا ما يسيل (٣)
 فادر ككنا الثأر منهم ولما ينجم الحيين إلا الأفل (٤)
 فاحتمسوا أنفاس نوم فلما هوموا رعتهم فاشمعلوا (٥)
 فلمن فلت هذيل شباه لبا كان هذيل يفل (٦)
 صليت مني هذيل بخرق لا يمل الشر حتى يملوا (٧)

(١) وحيدا حال ، اليماني : السيف الأفل : المنثلم ، المعنى انه شجاع لا يخاف الأهلوال لكثرة ممارسته لها يقتحمها بنفسه ولا يستصحب معينا إلا السيف اليماني المنثلم من كثرة الضرب به

(٢) فتو : جمع فتى ، هجر : سار وقت الهاجرة وهي اشتداد الحر في نصف النهار . أسروا : لغسة في سروا ، والسرى : السير في الليل خاصة ، انجباب : انكشف ، حلوا : أقاموا ، والمعنى ورب فتيان واصوا سيرهم من وقت الهاجرة إلى آخر الليل فاذا انكشف الضوء أقاموا

(٣) تردى بسيفه مثل ارتدى به إذا تقلده ويسمى السيف ردا ، سنا البرق : ضوءه ، والمعنى ان كل رجل ماض منهم قد تقلد بالسيف الماضى الذى يحكى سنا البرق عند إخراجه من الغمد

(٤) ادركنا : أخذنا ، والمعنى أخذنا ثأرنا منهم ولم ينجم منهم إلا اليسير (٥) احتمس الشراب : تناوله شيئا فشيئا ، الأنفاس : الجرع ، هوم الرجل : إذا هز الرأس من النعاس ، اشمعلوا : أسرعوا في السير ، رعتهم : أفزعهم ، يقول : كانوا في النعاس فلما أفزعهم جدوا في السير

(٦) الفل : كسر حد السيف . الشبا : الحد . وقوله لبا كان ، معناه كثيرا ما كان

(٧) صليت بكذا : قاست شدته . الخرق : الشجاع الكريم والمعنى أن هذيل قاست الشدائد من شجاع ذى صبر وثبات على القتال فلا يسأله حتى يجد السأمة من أعدائه فيراف بهم

ينهل الصعدة حتى إذا ما نهلت كان لها منه عل (١)
 حملت الخمر وكانت حراما وبلاى ما ألت تحمل (٢)
 فاسقنيها ياسواد بن عمرو إن جسمي بعد خالي لخل (٣)
 تضحك الضبع لقتلي هذيل وترى الذئب لها يستهل (٤)
 وعناق الطير تغزو بطايا تتخطاهم فما تستقل (٥)

ولديذ بن الصمة قصيدة في الرثاء يرثي بها أخاه عبد الله بن الصمة لما
 قتل ، ومن الغريب أنه بدأها بالغزل ، ومطلعها :

أرث جديد الحبل من أم معبد لعاقبة أم أخلفت كل موعد
 ومنها :

تنادوا فقالوا: أردت الخيل فارسا فقلت أعبد الله ذلكم الردي
 فإن يك عبد الله خلى مكانه فما كان وقافولا طائش اليد
 صبا ما صبا حتى علا الشيب وأسه فلما علاه قال للباطل ابعده

(١) أنهله الشراب : سقاه إياه أول مرة . وعله : سقاه الثانية . الصعدة : القناة
 نفيت مستوية . المعنى أنه لا يسكتني بطعن أعدائه بقناته مرة بل يكرره مرة بعد
 أخرى كالشارب الذي لا يكفيه النهل فيشتاق إلى العمل
 (٢) ألت من الالمام وهي الزيارة الخفيفة . اللأى : البطء . والمعنى أنه فاز
 بأخذ الثأر بعد بطء ومضى مدة فصارت الخمر حلالا له بعد أن حرمها على نفسه
 جريا على عادتهم من تحريم الخمر وغسل الرأس قبل أخذ الثأر
 (٣) سواد : مرجم سواده . الخل : المهزول . والمعنى : اسقني الخمر الآن فان
 جسمي قد هزل بعد خالي

(٤) تضحك الضبع استعارة عن سرورها ومثله الاستهلال للذئب . والمعنى
 أن الضبع والذئب في سرور بقتلي هذيل لحصولهما على كثرة الغذاء من لحومهم
 (٥) عناق الطير : جوارحها . تستقل : تطير . والمعنى أن جوارح الطير تنزل
 على القتلى من هذيل فتعلا بطونها حتى لا تكاد تطيق الطيران لكثرة أكلها من قتلاهم
 (٢١)

والقصيدة رواها صاحب الجمهرة (١) وصاحب الحماسة (٢) .
وقصيدة جميلة - في رثاء كليب ورثاء حياتها الزوجية بعد أن ارتكب
أخوها جساس جرما فظيما بقتله كليبيا - مشهورة ذاتعة ، وقد سبق بعضها .
وقال امرؤ القيس لما بلغه مقتل أبيه حجر :

أرقت لبرق بليل أهل يضى سناه بأعلى الجبل
أتانى حديث فكذبته بأمر تززع منه القمل
بقتل بنى أسد ربهما ألا كل شىء سواه جمل
فأين ربيعة عن ربهما وأين تميم وأين الخول ؟
ألا يحضرون لدى بابي كما يحضرون إذا ما استهل

وقال لبيد في رثاء النعمان :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقهضى أم ضلال وباطل ؟
ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويحية تصفر منها الأنامل
فإن أنت لم ينفعك علمك فانتسب لعلك تهديك القرون الأوائل
وإن لم تجد من دون عدنان والدا ودون معد فلتزك العواذل

وقال عبدة بن الطبيب :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحمنا
فما كان قيس هلكه هلك واحد ولاكنه بديان قوم تهدمنا

ولأم السليك ترثيه :

طاف يبقى نجوة من هلاك فهلك
ليت شعري ضلة أى شىء قتلك

(١) راجعها في ٢٢٤ - ٢٢٧ الجمهرة
(٢) ٣٢٦ - ٣٤٠ : ١ ديوان الحماسة لابن تمام

أمريض لم تمد أم عدو ختلك
 أم تولى بك ما غالي في الدهر السلك
 والمنايا رصد للفتى حيث سلك
 أي شيء حسن لفتى لم يك لك ؟
 كل شيء قاتل حين تلقى أجلك
 طالما قد نلت في غير كد أملك
 إن أمراً فادحا عن جوابي شغلك
 سأعزى النفس إذ لم تحب من سألك
 ليت قلبي ساعة صبره عنك ملك
 ليت نفسي قدمت للمنايا بذلك

وقصيدة أوس في رثاء فضالة بن كعدة والتي مطلعها :
 أيتها النفس أجمل جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا
 مشهورة معروفة .

هـ - الحماسة

وهي ما أثر عن العرب في جاهليتهم من شعر قالوه في وصف شجاعتهم
 ونضالهم وحروبهم وواقعتهم ، وفي الدعوة إلى الأخذ بالنار والانتقام من
 العدو ، وفي التحريض على القتال ، وبعث عزائم الأبطال في الحروب ،
 وفي ما سوى ذلك من شتى أغراض شعر الحماسة ومناحيه .
 وهو باب كبير في الشعر الجاهلي ، وصدر به أبو تمام حماسته ، ونماذجه
 كثيرة ، ولنعرض هنا شواهد لهذا الفن من فنون الشعر .

قال الفند الزماني في حرب البسوس :

صفحننا عن بني ذهل وقللنا القوم إخوان (١)

(١) صفحننا: أعرضنا .

- عسى الأيام أن يرجعن قسوما كالذي كانوا (١)
 فليما صرح الشر فأسمى وهو عريان (٢)
 ولم يبق سوى العدوان ن دناهم كما دانوا (٣)
 مشيننا مشية الليث غدا واليـث غضبان (٤)
 بضرب فيه توهين وتخضيع وإقران (٥)
 وطعن كغم الزق غدا والزق مـالـان (٦)
 وبعض الحلم عند الجـهل للذلة إذعان (٧)
 وفي الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان (٨)

والفقيه الزماني شاعر جاهلي كان أحد فرسان ربيعة المشهورين
 الممدودين شهد حرب بـكرو تغلب وقد قارب المائة سنة واسمه أشمل بن شيبان
 ابن ربيعة بن زمان .

وهذه القصيدة من عيون الشعر الجاهلي رواها صاحب الحماسة (١٥ ج ١)
 ديوان الحماسة طبعه محمود توفيق . وقد نظمها الشاعر في حرب البسوس

(١) كالذي كانوا : أي مثل ما كانوا ودا وإخلاصا

(٢) صرح : انكشف : قوله « عريان » ضربه مثلا لظهور الشر ووضوحه
 ويروى : فأضحى ، وهو أحسن لأن الشيء في الضحى أظـهر وأبين .

(٣) العدوان : الظلم الضريح . دناهم : جزيناهم والدين الجزاء يقول : جزيناهم
 بفعلهم القبيح كما ابتدأونا به .

(٤) غدا : ابتكر . والمعنى مشيننا إليهم مشية الأسد ابتكروا وهو جاثع غضبان

(٥) التوهين : التضعيف . والتخضيع : التذليل ، الإقران : الاسترخاء أو التتابع

(٦) غدا : سال : شبه الطعنة إذا سال منها الدم بغم الزق - وعاء الخمر إذا

سال منه الخمر .

(٧) الإذعان : الانقياد : اعتذر في هذا البيت عن تركيز النحل مع الأقرباء

لأنه يفضي إلى الذل

(٨) الشر : الانتقام . الإحسان : العفو

التي كانت بين بكر وتغلب وذلك أن بكر بن وائل قوم الفند بعثوا إلى بني حنيفة في حرب البسوس يستنصرونهم فأمدوهم به وبقومه بني زمان .

وقال وداك بن ثميل المازني وهو شاعر جاهلي :

رويد بني شيبان بعض وعيدكم تلاقوا غدا خيلي على سفوان
تلاقوا جياذا لا تحيد عن الوغى إذا ما غدت في المأزق المتداني
عليها الحكمة الغر من آل مازن ليوث طعان عند كل طعان
مقاديم وصالون في الروع خطوهم بكل رقيق الشفرتين يمانى
إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لآية حرب أم بأى مكان

وقال عمرو بن معد يكرب الزبيدي :

ليس الجمال بمثزر فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا
أعددت للأعدان ساء بقة وعداء علمدى (١)
وعلمت أنى يوم ذا ك منازل كعبا ونهدا
قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا حلقا وقدا (٢)
كل امرئ يجرى إلى يوم الحياج بما استعدا
لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا (٣)
وبدت لميس كأنها بدر السماء إذا تبدى
وبدت محاسنها التي تخفى ، وكان الأمر جدا
نازلت ككبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا
هم ينذرون دهي وأنذر إن لقيت بأن أشدا
كم من أخ لي صالح بواته يمدى لحدا

(١) السابغة : الدرع الواسعة . العداء : الفرس كثير العدو . العلمدى : الشديد

(٢) الحلق : الدروع . القد : شبه درع كان يتخذ من الجلد

(٣) المعزاء : الأرض الصلبة . ويفحصن أى يؤثرن فيها من شدة الجري

ما إن جزعت ولا هلمت ولا يرد بكاي زندا
أبسنته أثوابه وخلقت يوم خلقت جلدا
أغنى غناه الذاهبين أعد للأعداء عدا
ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

وقال الحسين بن الحمام المرى :

تأخرت أستقبى الحياة فلم أجد
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا
نفلق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعز وأكرما
وقال الحارث بن ويلة الجرمى وهو شاعر جاهلى من فرسان قضاة
وأعلامها :

قوى هم قتلوا - أميم - أخى
ولئن عفوت لأعفون جللا
لا تأمن قوما ظلمتهم - و
وزعمتم ألا حيلوم لنا
فإذا رميت يصيبني سهمى
ولئن سقطت لأوهين عظمى
وبدأتهم بالشتم والرغم
إن العصا قرعت لدى الحلم

وقال عبد الشارق بن عبد العزى :

ألا حبيت عنا يا ردينا
ردينة لو رأيت غداة جئنا
فأرسلنا أبا عمرو ربيشاً
ودسوا فارساً منهم عشاء
فجاءوا عارضا بردا وجئنا
تنادوا يا لهبة إذ رأونا
سمعنا دعوة عن ظهر غيب
فجئنا جولة ثم ارعونا

(١) الأضم : شدة الحقد. اختويننا : أى لم نطعم شيئا .

(٢) الوازع : الذى يرتب الجيش ويصلحه ، أى جئنا خلفه مباشرة

فلبا أن تواقنا قليلا أنخنا لاكل فارتينا
فلبا لم ندع قوساً وسهما مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلاؤ مزنة برقت لأخرى إذا جعلوا بأسياف ردينا
شدنا شدة فقتلت منهم ثلاثة فتية وقتلت قينا (١)
وشدوا شدة أخرى فجروا بأرجل مثلهم ورموا جويننا (١)
وكان أخى جوين ذا حفاظ وكان القتل للفتيان زينا
فأبوا بالرماح مكسرات وأبنا بالرماح قد انحنينا

٦ - العتاب

العتاب فن ليس بذائع فى الشعر الجاهلى . وشواهد عديدة ومن مثله :
قول أمية بن أبى الصلت يعاتب ابنه :

غذوتك مولودا وعلمتك يافعا تعمل بما أدنى إليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشكولم أبت لشكواك إلا ساهدا أتملل
كأنى أنا المطروق دونك بالذى طرقت به دونى وعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإتها لتعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى إليها مدى ما كنت فيك أومل
جعلت جزائى منك جبرها وغلظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتلك إذ لم ترع حق أبوتى فعلت كما الجار المجاور يفعل
وسميتنى باسم المفند رأيه وقى رأيك التنفيذ لو كنت تعقل
تراه معدا للخلاف كأنه برد على أهل الصواب وكل

وقال حكيم بن أقيبصة الضبى يعاتب ابنه بشرا :

لعمري أبى بشر لقد خانته بشر على ساعة فيها إلى صاحب فقر
فما جنة الفردوس هاجرت ابتغى ولكن دعاك الخبز - أحسب - والتمر

(١) اسم فارس .

وقال ذو الأصبع العدواني :

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب	عنى ولا أنت ديانى فتنخرونى (١)
ولا تقوت عيالى يوم مسغبة	ولا بنفسك فى العزاء تكفينى
فان ترد عرض الدنيا بمنقصتى	فان ذلك بما ليس يشجيني
إن الذى يقبض الدنيا ويبسطها	إن كان أغناك عنى سوف يغنينى
الله يعلمكم والله يعلمنا	والله يحزينكم عنى ويحزينى
ماذا على وإن كنتم ذوى رحمى	أن لا أحبكم إذ لم تحبوني
لو تشربون دمي لم يرو شاربكم	ولا دماؤكم جميعا تروينى
يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى	أضربك حتى تقول الهامة اسقونى
كل امرئ صائر يوماً لشيمته	وإن نخلق أخلاقاً إلى حين
يا عمرو لو لنت لى ألفيتنى بشرا	سمحا كريماً أجازى من يجازينى
والله لو كرهت كفى مصاحبى	لقلت إذا كرهت قربى لها بينى

٧ - الاعتذار

وأول من أجاد فيه واشتهر به هو النابغة الذبياني ، واعتذارياته إلى
النههمان بن المنذر ملك الحيرة من عيون الشعر الجاهلى .

وقصيدة النابغة :

أتانى - أبيت اللعن - أنك لمتنى ونلك التى أهتم منها وأنهب
ومنها : فانك شمس والملك كواكب إذا طاعت لم يبد منها كوكب

وقصيدته :

أتانى - أبيت اللعن - أنك لمتنى ونلك التى تستبك منها المسامع
والتي منها : فانك كالليل الذى مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

قصيدتان مشهورتان فى الاعتذار .

(١) أى الله ابن عمك . الديان : القائم بالأمر القاهر . نخزاء : سأسه ودبره .

وقال النابغة يعتذر إلى النعمان :

فلا لعمرى الذى قد زرتك حججا وما هريق على الأنصاب من جسد
والمومن العائذات الطير يمسحها ركبان منك بين الغيل والسند
ما إن نديت بشيء أنت تكرهه إذا فلا رفعت سوطى إلى يدى
إذا فعاقبنى ربى معاقبة قرت بها عين من يأتيك بالحسد
إلا مقالة أقوام شقيت بهم كانت مقالهم قرعا على الكبد
هذا التبرؤ من قول قدفت به كانت نوافذه حرا على الكبد
مهملا فداء لك الأقوام كاهم وما أومل من مال ومن ولد
أنبت أن أبا قابوس أوعدنى ولا قرار على زار من الأشد

٨ - الحكمة والأخلاق

وهى كثيرة فى الشعر الجاهلى .

تجدها فى معلقة زهير حيث يقول :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يعترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمسهم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتقى الشتم يشتم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا أبالك يسأم
وأعلم ما فى اليوم والامس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عمى
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطى يعمر فيهرم

كما تجدها فى معلقة طرفة حيث يقول :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الناحش المتشدد

أرى الدهر كنزاً ناقصاً كل آيلة وما تنقص الأيام والدهر ينهد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى كما طول المرخي وثلياه باليد
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
لعمرك ما الأيام إلا معارة فما استطعت من معروفها فتزود
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
وفي قصيدة عبيد بن الأبرص البائية حكمة كثيرة وقد رواها صاحب
الجمهرة . ويقول منها :

وكل ذى غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب
من يسأل الناس يحزموه وسائل الله لا يخيب
والله ليس له شريك علام ما أخفت القلوب
والمرء ما عاش في تكذيب طول الحياة له تعذيب

وكذلك في دالية عدى بن زيد التي رواها صاحب الجمهرة ويقول منها :

أعاذل ما يدريك أن منيتي إلى ساعة في اليوم أو في غد
أعاذل ما أدنى الرشاد من الفتى وأبعده منه إذا لم يسدد
أعاذل إن الجهل من لذة الفتى وإن المنايا الرجال بمرصده
ذريني فإنني إنما لي ما مضى أمامي من مالى إذا خف عودى
وللوارث الباقي من المال فاتركي عتابي فإنني مصلاح غير مفسد
كفى زاجراً للبرء أيام دهره تروح له بالواعتات وتغتدى
فنفسك فاحفظها عن الغى والردى متى تقوها يغو الذى بك يقتدى
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
وبالعدل فانطق إن نطقت ولا تلم وذا الذم فاذمه وذا الحمد فاحمد
عسى سائل ذو حاجة إن منعه اليوم سيؤلا أن يفسر في غده

إلى آخر ما في هذه القصيدة الطويلة من حكم وتجارب وآراء (١). ويقول
الأفوه الأودى :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهلهم سادوا
تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلت فإن تولت فبالأشرار تنفاد
إلى ما سوى ذلك من ألوان الحكمة الكثيرة في الشعر الجاهلي ما
لاداعى إلى الإطالة في نشر صحائفه ، ويمكنك أن تقرأ قصيدة عبدة بن الطبيب
في المفضليات (٢) التي مطلعها :

أبني لاني قد كبرت وراني بصرى ، وفي المصلح مستمتع
ويقول منها :

ونصيحة في الصدر صادرة لكم مادمت أبصر في الرجال وأسمع
أوصيكم بتقى الإله فإنه يعطي الرغائب من يشاء ويمنع
ويبر والدكم وطاعة أمره إن الأبر من البنين الأطوع
إن الكبير إذا عصاه أهله ضاقت يداها بأمره ما يصنع
لأن الذين ترونهم إخوانكم يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا
فستجد حكمة وجمالاً ونصائح خلقية كريمة .

٩ - الوصف

وهو باب واسع في الشعر الجاهلي سعة مناظر الحياة ومشاهد الوجود
نفسها . ولقد صور الشاعر الجاهلي بيئته وحياته وألوان معيشته في شعره
تصويراً رائعاً بديعاً ، بما لا يمكن إحصاؤه وتعداد القول فيه .
فقد وصف الجبال والرمال والوديان والمياه والأمطار والسيول والبرق

(١) راجعها في الجهرة ١٧٤ - ١٨٠

(٢) ١٤٣ ج ١ وما بعدها المفضليات طبع مطبعة المعارف سنة ١٣٦١

والرياح واختلافها . كما وصف الإبل والغنم والخيل والوحش والصيد
وما في بلاده من حيوان ونبات وجماد ، ووصف دياره وأما كن نزوله
ومواضع لهوه وكوره ، ووصف معارك الحرب والأسلحة التي يستعملها فيها ،
ووصف ملابسه وكل ما يتصل به أو بيئته ، بما نكتفي بالإشارة إلى شواهد
قليلة له .

قال امرؤ القيس في وصف الليل :

وليل كهوج البحر أرخى سدوله على بأواع الهموم لمبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكامل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار القتل شدت بيزيل

وقال طرفة يصف السفينة :

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سنين بالنواصف من دد .
عدولية ، أو من سفين ابن يامن يحور بها الملاح طورا ويهتدى
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد

وقال عنتره يصف روضة :

واقدمرت بدار عجلة بعدما لعب الربيع بربعها المتوسم
جادت عليه كل عين ثرة فتركن كل قرارة كالدرهم
سحا وتسكابا فكل عشية يجري عليها الماء لم يتصرم
ونخلا الذباب بها فليس ببارح غردا كفعل الشارب المترنم
هزجاً يحك ذراعاه بذراعاه قدح المكب على الزناد الأجذم

ولحسن السعدى يصف القمر :

مهما يكن ريب المنون فاني أرى قمر الليل المعذب كالفنى
يهل صغيراً ثم يعظم ضوءه وصورته حتى إذا ما هو استوى

تقارب يخبو ضوءه وشعاعه ويمصح (١) حتى يستسر (٢) فيأيرى
ويصف عنثرة الغراب فيقول :

ظعن الذين فراقهم أتوقع وجري بينهم الغراب الأبقع
خرق الجناح كأن لحي رأسه جلدان ، بالأخبار هش مولع
ويصف فرسه الذي خاض به المعركة فيقول :

ما زلت أرميهم بشجرة نحره ولبانه ، حتى تسربل بالدم
فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعيرة وتحمحم
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى وان كان لو علم الكلام مكلمى
ولقد شفى نفسه وأبرا سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم
والخيل تقتحم الأخبار عوابسا ما بين شيطرة وأجرد شيطم
ويصف طرفة ناقتة فيقول :

وإني لأمضى الهم عند احتضاره بهوجاء مرقال تروح وتغندى
أمون كالأواح الأران نسانها على لاحب كأنه ظهر برجد
لها نخدان أكمل النخض فيهما كأنهما بابا منيف بمرد
فإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقات مخافة ملوى من القد محصد
إلى آخر هذا الوصف الغريب . وحسبنا في باب الوصف ذلك فهو
يلقى عن شاعرية موهوبة وملكة مطبوعة .

١٠ - الدسيب

وهو من أكثر أبواب الشعر العربى ، وأغزرها ، وقد أكثر الشعراء
الجاهليون منه ، وابتدأوا به قصائدهم (٣) .

(١) يذهب (٢) يخفى

(٣) لا تكاد تخلو قصيدة منه اللهم إلا قصيدة عمرو بن كلثوم :
ألا هي بصحك فاصبحينا ولا تبقى خمور الاندرينا

والنسيب هو ذكر جمال المرأة ووصف محاسنها وأثر تبريح الشوق
بالشاعر وحنينه اليها وقص ذكرياته مع محبوبته وساعات لقائهما ، والديار
التي كانت تنزل بها ، ومسارح اللهو واللعب التي كانت تلعب وتلهم وفيها ، إلى غير
ذلك من حديث الجمال والظما اليه وذكريات الحب والحنين والشوق إلى
المرأة . والغزل والنسيب متقاربان في المعنى وإن كان بعض الباحثين يعرف
الغزل بأنه الاشتهار بموادي النساء وتبقيهن والحديث إليهن ، ، والتشبيب
قاصر على ما يأتي به الشاعر في «طلعة كلامه من ذكر المرأة والأطلال والديار
وذكريات اللقاء والحب ، وإن كان بعض الباحثين يرى أن الجميع بمعنى
واحد لا اختلاف في مدلولهما .

وامرؤ القيس هو أول من رقق الغزل وأطاله وشبه المرأة بالمها والظلي
والظلم ووصف ديبه اليها وفجوره في حبه وهوه مع محبوباته . وهامى ذى
أمثلة للنسيب من الشعر الجاهلي .

قال امرؤ القيس إمام الشعراء ، وشيخ النسيب والغزل ومبتدئه ، من
لايته الطويلة المشهورة :

بلى رب يوم قد لوت و ليلة	بأنسة كأنها خط تمثال
بضىء الفراش وجهها لضجيعها	كمصباح زيت فى قناديل ذبال
كأن على لبانها جمر مصطل	أصاب غضى جزلا وكف بأجدال
ومثلك بيضاء العوارض طفلة	لعوب تلسيني إذا قمت سريالى
تنورتها من أذرعاء وأهلها	بيثرب أدنى دارها نظر عال
نظرت اليها والنجوم كأنها	مصاييح رهبان تشب لقفال
سموت اليها بعد ما نام أهلها	سمو حباب الماء حالا على حال
فقلت سباك الله إنك فاضحى	ألست ترى السهار والناس أحوالى
فقلت يمين الله أبرح قاعدا	ولو قطعوا زامى لديك وأوصالى
فلما تنازعنا الحديث وأسسمحت	هصرت بغصن ذى شمار يخ ميال

فصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا
حلفت لها بالله حلفة فاجر
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلمها
يغط غطيظ اليكر شد خناقها
أيقنتنى والمشرقى مضاجعى
ورضت فذللت صعبة أى اذلال
لناموا فما إن من حديث ولاصال
عليه القتام كاسف الظن والبال
ليقتلنى والمرء ليس بقتال
ومسنوثة زرق كأنياب أغوال

وقال الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل
غراء فرعاء مصقول عوارضها
كان مشيتها من بيت جارتها
ليست كمن يكره الجيران طلعتها
يكاد يصرعها لولا تشدها
إذا تقوم يضوع المسك أصورة
ماروضة من رياض الحزن معشبة
يضاحك الشمس منها كوكب شرق
يوماً بأطيب منها نشر رائحة
قالت هريرة لما جئت زائرها
أما ترانا حفاة لا نعال لنا
وقد أخالس رب البيت غفلته
وقد أقود الصبي يوماً فيتبعنى

وهل تطيق وداعاً أيها الرجل؟
تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوحل
مر السحابة لا ريث ولا توجل
ولا تراها لسر الجار تختل
إذا تقوم إلى جارتها السكسل
والزئبق الورد من أردانها شمل
خضراء جاد عليها مسبل هطل
مؤزر بعميم النبت مكتمل
ولا بأحسن منها إذ دنا الأضل
وبلى عليك ووبلى منك يا رجل
إنا كذلك ما نحفى ونقتل
وقد يحاذر منى ثم ما يثمل
وقد يصاحبنى ذو الشرة الغزل

وقال النابغة :

عوجوا فخيوا لنعم دمنة الدار
أقوى وأقفر من نعم وغيره
وقمت فيها سراقه اليوم أسأله
ماذا تحيرون من نوى وأحجار؟
هوج الرياح بهابى الترب موار
عن آل نعم أمونا عبر أسفار

فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا
فما وجدت بها شيئاً ألوذ به
وقد أراني ونعماً لاهيين بها
أيام تخبرني نعم وأخبارها
لولا حيائل من نعم علمت بها
نبئت نعماً على الهجران عاتبة
رأيت نعماً وأصحابي على عجل
فريع قلبي وكانت نظرة عرضت
بيضاء كالشمس رافت يوم أسعدها
والطيب يزداد طيباً أن يكون بها
أقول والنجم قد مالت أواخره
ألحقة من سنا برق رأى بصرى
بل وجهه نعم بدا والليل معتكر

وقال المخبل السعدي :

ذكر (الرباب) ، وذكرها سقم فصبا وليس من صبا حلم (١)
وإذا ألم خيالها طرفت عيني ، فمأ شؤونها سجم (٢)
كاللؤلؤ المسجور أغفل في سلك النظام فخانه النظام (٣)
وأرى لها داراً بأغدره السيدان لم يدرس لها رسم (٤)

(١) الرباب : اسم محبوبته - الصبوة : العشق ، الحلم : العقل

(٢) الشؤون : مجارى الدمع واحدها شأن ، سجم مصدر من سجم الدمع :

سال والمراد بالمصدر اسم الفاعل

(٣) المسجور ، المنظوم المسترسل ، أغفل ، أهمل ، والمعنى أنه حين يرى

خيال حبيبته تسيل دموعه كأن قطراتها در منظوم في سلك انقطع فتحد منه الدر

(٤) الأغدره جمع غدير ، السيدان : أرضى لبنى سعد قوم المخبل ، الرسم :

الأثر بلا شخص ، درس : عفا وذهب ، يريد أن دار حبيبته لم تذهب آثارها

إلا رماداً هامداً دفعت عنه الرياح خوالد سحج (١)
فكان ما أبقى البوارح وال أمطار من عرصاتها الوشم (٢)
وكان أطلاء الجآزر وال غزلان حول رسومها البهم (٣)
والمنخل أبو يزيد التميمي السعدي ، شاعر مشهور ، واسمه ربيعة بن مالك
عمر في الجاهلية والإسلام طويلاً ، ومات في خلافة عمر أو عثمان وهو
شيخ كبير (راجع ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٩٦ ط الخانجي
١٣٢٣ هـ ، و ١٧٧٧ المؤلف للأمدى)
والقصيدة عالية الطبقة في البلاغة ، رواها صاحب المفضليات وذكر منها
أربعين بيتاً .

بل بقيت بعض رسومها ، فهو حين يراها ، يذكر صاحبته ويحزن كثيراً
لفراقها وبعدها
(١) هامد : خامد ، وإنما همد لاطول مكثه . الخوالد : البواقي قصد بها الأثافي
وهي الحجارة التي تنصب عليها القدور . سحج من السحمة وهو لون يضرب إلى
السواد . يريد أن الأثافي حفظت الرماد من أن تذرره الرياح .
وقوله إلّا رماداً ، إلّا ، هنا بمعنى الواو كما يقول أبو عبيدة ، يقول : وأرى
لها رماداً .
(٢) د ما ، اسم موصول . البوارح الشديدة من الشمال خاصة وهي
من رياح الصيف . العرصات : جمع عرصة وهي ساحة الدار . الوشم : النقش
في اليد .
والمعنى : أن الآثار الباقية من دار حبيبته التي كادت تعفوها الرياح والأمطار
تبدو كأنها الرسم المنقوش في اليد .
(٣) الأطلاء : جمع طلاء وهو الصغير من ذوات الظلف . الجآزر : جمع
جؤذر وهو الصغير من ولد البقر . البهم . صغار أولاد المعزى الواحدة بهمة
(٢٢)

وقد بدأها الشاعر بالذكرى والطيف ، ووصف دار صاحبه الدارسة ثم
وصف جمالها وبياض وجهها وكثافة فرعها ، ثم أنحى على لائمه التي لائمه على
كرمه وإنفاقه ، واحتج بأن الخلود في البذل والجود لا في الثراء والشح ،
وبأن المنية غاية الأحياء ومنها :

ولقد تحمل بها الرباب لها سلف يفل عدوها نفم (١)
بردية سبق النعيم بها أقرانها وعلا بها عظم (٢)
وتريك وجهها كالصحيفة لا ظمآن محتلج ولا جهنم (٣)
كعقيلة اللد استضاء بها محراب عرش يزيد المعجم (٤)
وتفضل مدرأها المواشط في جمعد أغم كأنه كرم (٥)

وتقول عاذائي وليس لها بغد ولا ما بعده علم (٦)
إن الثراء هو الخلود وإن المرء يكرب يومه العدم (٧)

-
- (١) السلف : الخيل المتقدمة . يفل ، يهزم ، يريد أن قومها ذوو شجاعة
واستعداد ضخم في الحرب
- (٢) بردية أى كبردية ، يشبهها بالبردى في صفائها وبياضها واستوائها ، علا :
ارتفع ، المعنى أنها بيضاء زاء النعيم والرفق في شبابها حتى أترأها كبيرة السن عن
أقرانها وهى صغيرة ، كبيرة الجسم والعظم .
- (٣) يشبه وجهها بالصحيفة للملاسته ولينه ، المحتلج : القليل اللحم الضامر .
الجهنم : الكثير اللحم البشع .
- (٤) العقيلة : الكريمة . وعقيلة كل شيء خيرته . المعجم فاعل استضاء وهو
لازم ، ومحراب منصوب على نزع الخافض ، والمحراب صدر المجلس
- (٥) المدرى : المشط . الجمعد : الشعر المتقصب ليس بالسبط . الأغم : الشعر
الكثير . الكرم : شجر العنب شبهه به لكثرة
- (٦) العاذلة : اللائمة
- (٧) يكرب : يدنى . العدم : الفقر

إني وجدك ما تخذني مائة يطير عفاؤها ؛ آدم (١)
 ولئن بديت لي المشقر في هضب تقصر دونه العصم (٢)
 لتنقب عن المنية إن الله ليس كحكمه حكم (٣)
 إني وجدت الأمر أرشده تقوى الآله وشره الأثم (٤)
 وقال المنخل الإشكري وهو شاعر جاهلي كان يعاصر النابغة ونادم
 النعمان بن المنذر :

ولقد دخلت على القفاة الخدر في اليوم المطير
 الكعب الحسنا تر فل في الدمقس وفي الحرير
 فدفعتهما فتدافعت مشى القطاة إلى الغدير
 واشتمها فتتنفس كتتنفس الظبي الغرير
 فدنت وقالت يا منخل ما بجسمك من حرور
 ما شف جسمي غير حبك فاهدني عن وسيري
 وأحبها وتحبني ويحب فاقتهما بعيري

وقال ورد الجعدي :

خليلي عوجا بارك الله فيكما وإن لم تكن هندا لأرضكما قصدا
 وقولا لها ليس الضلال أجارنا ولكنا جرننا لنلقاكم عمدا

وقال المرقش الأكبر :

(١) يطير عفاؤها : يذهب وبرها من . الأدم : الإبل الخالصة البيضاء
 (٢) المشقر : حصن بالبحرين ، وكان المنخل وأولاده قد هاجروا إلى البصرة وأقام
 بعض أبنائه بالاحساء والبحرين ، وهم شعراء . العصم : الوعول واحدها أعصم
 يريد أن الهضبة عالية لانرقاها الوعول
 (٣) تنقب : تبحث : المنية : الموت
 (٤) أرشده من الرشد وهو الهدى والاستقامة . الأثم : الذنب

وهي قصيدته المفردة في الغزل (١) :

سرى لي-لا خيال من سليمى	فأرقنى وأصحابى هجود
فبت أدير أمرى كل حال	وأرقب أهلها وهمو بعيد
على أن قد سما طرفى النار	يشب لها بذى الأرضى وقود (٢)
حواليها مهاجم التراقى	وأرآم وغزلان رقة-ود
نواعم لا تعالج بؤس عيش	أوانس لا تراح ولا ترود
سكن ببلدة وسكنت أخرى	وقطعت الموائق والمود
فما بالى أنى ويخان عهدى	وما بالى أصاد ولا أصيد
ورب أسيلة الخدين بكر	منعمة لها فرع وجيد
وذو أشر شتيت النبت عذب	نقى اللون براق برود
لهوت بها زماناً من شبانى	وزارتها النجائب والقصيد
أناس كلها أخلقت وصلا	عنانى منهم وصل جديد

وقال طرفة : (وهي قصيدته المفردة في الغزل) ، ومطلعها :

اتعرف رسم الدار فمرا منازلها كجفن اليماني زخرف الوشى مائله
ومنها :

ديار سليمى إذ تصيدك بالمنى	وإذ حبل سلمى منك دان توأمله
وإذ هى مثل الرنم صيد غزالها	لها فطر ساج إليك توأمله
غنيما وما نخشى التفرق حقبلة	كلانا غرير ناسم العيش باجمله
لي-الى أقتاد الصبا ويقودنى	يجول بنا ريعانه ونجاوله

ثم يصف خيالها ، ويتعجب لاهتمامه إليه ثم يقول :

وقد ذهبت سلمى بعقلك كله فهل غير صيد أحرزته حباته؟

(١) راجعها في المفضليات ٢٣ ج ٢ طبع دار المعارف ١٣٦١ هـ

(٢) سما : ارتفع . يشب : يرفع الخطب حواليها وهو الوتود . الأرضى

بسكون الراء : شجر ينبت في الرمل : وذو الأرضى : موضع

كما أحرزت أسماء قلب مرقش بحب كلبع البرق لاحت مخايله
ثم يذكرك قصة المرقش مع محبوبته أسماء ، ويختمها بقوله :
فوجدى بسلي مثل وجد مرقش بأسماء إذ لا تستفيق عواذله
قضى نعبه وجدا عليها مرقش وعلمت من سلي خيالا أمله

النقد الأدبي في الجاهلية

- ١ -

النقد الأدبي هو الحكم الذي تصدره على الشعر والنثر ؛ وهو عند
المحدثين تقدير النص الأدبي تقديراً صحيحاً وبيان قيمته ودرجته الأدبية (١)
وهو كما أقول : تحليل الآثار الأدبية والحكم عليها وبيان قيمتها الأدبية
والموازنة بينها وبين ما يشابهها من الآثار ، وأصول النقد قراءة وفهم وتفسير
وحكم ، والغرض منه دراسة الأساليب أو الكتاب أو الآراء والأفكار (٢)
لم يكن النقد الأدبي عند العرب في أول نشأته بهذا اللون من الدراسة
والموازنة ، إنما كان تعبيراً خاطفاً ينم عن رأى في الإجابة أو الاستمجان
للنصوص الأدبية العامة ، ثم تدرج في الدقة في أحكامه الأدبية عصباً بعد
عصر حتى وصل إلى ما هو عليه وعلى ما نفهمه الآن .

نشأ النقد في الجاهلية مرتجلاً : وكان هينا يسيراً ملائماً لروح العصر
وللشعر العربي نفسه (٣) ، عربي النشأة كالشعر لم يتأثر بمؤثرات أجنبية ولم
يقم إلا على الذوق العربي السليم (٤) .

وجد في أطوار تهذيب الشعر وفي اختيار المعلقات وتعليقها على الكعبية (٥)

(١) أصول النقد الأدبي للشايب (٢) ٩٠ وما بعدها مقدمة لدراسة بلاغة
العرب (٣) ٢٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب (٤) ٢٥ تاريخ النقد الأدبي
عند العرب (٥) ٣٧٩ : ٣ العقد

وفي حكومة أم جندب بين امرئ القيس وعلقمة (١) . وحكومة النابغة
بين الشعراء وكان تضرب له قبة حمراء في عكاظ ويأتيه الشعراء ويلشدونه
أشعارهم (٢) ، ومن حكم ربيعة بن حذار الأسدي على الزبرقان بن بدر والمخبل
السعدي وعبد بن الطبيب وعمرو بن الأهتم (٣) ، ووجد في نقد الشعراء
للشعر : فاسرؤ القيس يمر بكعب وأخويه : الغضبان والقعقاع فأنشدوه
فقال : إني لأعجب كيف لا تمتليء عليكم نارا جودة شعركم فسموا بني النار (٤)
ويقول النابغة : أشعر الشعراء من استجيد كذبه وأضحك رديئه (٥) ، وسمى
كعب الغنوي كعب الأمثال لكثرة ما في شعره (٦) منها ، وسمى طفيل الغنوي
طفيل الخيل لكثرة وصفه إياها ، والنمر بن تولب المحبر لحسن شعره (٧) ،
وسموا قصيدة سويد بن أبي كاهل : بسطت رابعة الحبل لنا، اليتيمة كما سموا بعد
ذلك خطبة لسحبان الشوهاة لحسنها (٨) ، ويقول زهير ويروي لحسان :

وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

ورأى لبديد بعد شيخوخته أن أشعر الناس امرؤ القيس ثم طرفة ثم
نفسه (٩) إلى غير ذلك من مظاهر النقد في الجاهلية .

(١) ١٢٨ : الأغاني ، ونقد الرافعي هذه الحكومة (٢٢٥ - ٢٣٤ : ٣ آداب
العرب للرافعي) وتابعه في ذلك محمد هاشم (١٨٤ الأدب العربي في العصر الجاهلي)
ويرتاب باحث في صحة هذه الحكومة ويرى جورها ويقول : ولعل ذلك مما حمل
ابن المعتز على أن ينكر هذه القصيدة فيما أنكره من شعر امرئ القيس (٢١ و ٢٢
تاريخ النقد الأدبي عند العرب)

(٢) ١٢٣ الشعر والشعراء

(٣) ١٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب و ٧٥ موشح (٤) ٧٠ من المؤلف

للأمدى

(٥) ٢٥٦ سر الفصاحة لابن سنان ، ٥٠ و ٥٨ : العمدة

(٦) ٣٤١ معجم الشعراء

(٧) ١٨٤ المؤلف ، ١١٢ : ٢ : العمدة (٨) ٢٢٥ : ١ : البيان والتبيين

(٩) ٢٠ الجهرة ٣ : ٣٨٠٠ . ويقول ابن عبد ربه :

صورة من النقد الأدبي في الجاهلية :

١ - كان النابغة تضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ فتأتيه الشعراء
وتشدده أشعارها ، فأناه الأعشى فأشده ، ثم أتاه حسان فأشده ، فقال
لولا أن أبا بسير أنشدني آنفا لقلت أنك أشعر الجن والإنس ، قال حسان
والله لأنا أشعر منك ومن أبيك وجدك ، فقبض النابغة على يده ثم قال يا ابن
أخى أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك راسع
ثم قال للنخساء وقد أنشدته :

قذى بعينك أم بالعين عوار أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار؟
فلما بلغت قولها ،

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
قال : ما رأيت ذا مثانة أشعر منك قالت ولا ذا خصيتين (١) وتزاد في
هذه الرواية زيادات فيها مبالغة كثيرة تتصل بنقد قول حسان :

لنا الجففات الغريلعن بالضحى وأسيفنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالا واكرم بنا ابنا
وهي مشهورة ولا داعي لذكرها .

٢ - وسمع طرفة وهو صغير بيت خاله المسيب بن علس :

وقد أتتني الهم عند احتضاره بناج عليه الصيغرية مكدم

وهذا - أي تفضيل شاعر وأنه أشعر الشعراء - مما لا يدرك غايته ولا يوقف
على حد منه والشعر لا يفوت به أحد ولا يأتي منه بديع إلا أتى ما هو أبداع منه ،
ولله در القائل : أشعر الناس من أنت في شعره (٣٨١: ٣ العقد)

(١) راجع ١٢٣ الشعر والشعراء

فنقده وأزرى بقوله : « استنوق الجمل ، لأنه وصف الفحل بالبيعية
وهي عندهم من صفات إناث الإبل .

٣ — وتنازع امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة حول قصيدتين لهما وأيهما
أشعر من الآخر ، والقصيدتان في وصف الفرس والصيد ، ومطلع قصيدة
امرىء القيس :

خليلى مرا بى على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المذهب
ومطلع قصيدة علقمة :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب
فتحاكنا إلى أم جندب الطائفة زوج امرىء القيس ، ففضلت علقمة
عليه ، قالت وقد سمعت قول امرىء القيس :

فلمسوط ألحوب وللحاق درة وللزجر منه وقع أهوج منهوب (١)
وقول علقمة :

فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه يمر كمر الراح المتحلب
فقلت له : فرس علقمة أجود من فرسك لأنك حركته بساقلك
وامتريته بسوطك وزجرت به بصوتك ، وأدرك فرس علقمة ثانياً من عنانه
٤ — وقال الأعشى يمدح قيس بن معد يكرب :

ونبشت قيساً ولم أبله وقد زعموا ساد أهل اليمن
فعابوا عليه قوله « زعموا » .

٥ — وتحاكم الزبيرقان بن بدر وعمر بن الأهم وعبد بن الطبيب والمخيل السعدي
إلى ربيعة بن حذار الأسدي فى الشعر أيهم أشعر فقال الزبيرقان : أما أنت
فشعرك كالحم أسخن لا هو أنضج فأكل ولا ترك نيتاً فينتفع به . وأما أنت

(١) الألحوب : شدة الجرى . الدرة : الجرى اللين . الأهوج : الأحمر .
المنعوب : الذى يستمعين بصوته .

يا عمر فإن شعرك كبرود حـ بر يتلألا فيها البصر فكلمها أعيد فيها النظر
نقص البصر . وأما أنت يا مجبل فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن
شعر غيرهم ، وأما ما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم نحرزها فليس
تقطر ولا تمطر (١)

وتروى برواية أخرى في المرجع نفسه وهو الموشح ، قال المرزباني :
اجتمع الزبرقان وعمرو بن الاهتم وعبدة بن الطبيب والمجبل التميميون في
موضع فتناشدوا أشعارهم فقال لهم عبدة : والله لو أن قومًا طاروا من جودة
الشعر لطرتم فيما أن تخبروني عن أشعاركم ولما أن أخبركم قالوا : أخبرنا .
قال : فإني أبدأ بنفسى ، أما شعري فمثل سقاء وكيع (٢) وغيره من الأسقية
أوسع منه .

وأما أنت يا زبرقان فإنك مررت بجزور منحورة فأخذت من
أطايها وأخابثها (٣) .

إلى غير ذلك من مظاهر النقد في الجاهلية

فنون الشعر الجاهلي أو أغراضه

- ١ -

أغراض الشعر هي فنونه وموضوعاته التي يقول فيها الشعراء من مدح
وهجاء ونحو ورثاء وغزل وحكمة وما شاكل هذه الموضوعات التي عرفها
الشعر والشعراء من قديم .

وأغراض الشعر طرقها الشعراء فنا ولكن لم يصطلحوا عليها اصطلاحاً ،
وكانت أقسام الشعر في الجاهلية كما يقول أبو هلال خمسة : المديح والهجاء
والوصف والتشبيب والمرأى حتى زاد فيها النابغة سادساً هو الاعتذار
فأحسن فيه ولا أعرف أحداً من المحدثين بلغ مبلغه فيه إلا البهتري (٣) ،

(١) ٧٥ موشح (٢) شديد (٣) ٩١ - ١ ديوان المعاني .

وليس للعرب شيء ينسب إلى التهنائي وما جاء عنهم من شكائهم فهو من جملة المدح (١)
وقالوا : بنى الشعر على المدح والهجاء والتسبيب والثناء ، وقالوا : قواعد
الشعر : الرغبة ومنها يكون المدح والشكر ، والرغبة ومعها يكون الاعتذار
والاستعطاف ، والطرب ومعها يكون الشوق ورقة التسبيب ، والغضب ومعها
يكون الهجاء والعتاب . وقال الرمانى : أكثر أغراض الشعر خمسة : المدح
والمدح والهجاء والفخر والوصف (٢)

وقالوا : للشعراء فنون كثيرة تجمعها أربعة : المديح والهجاء والحكمة
واللهو ، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون : فمن المديح المرائى
والافتخار والشكر واللفظ في المسألة وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه ،
ومن الهجاء الذم والعتب والاستبطاء والتأنيب وما أشبه ذلك وجانسه ،
ومن الحكمة الأمثال والنهيد والمواعظ وما شاكل ذلك ، ومن اللهو الغزل
والطرد وصفة الخمر وما أشبه ذلك وقاربه (٣) . وأول من عد فنون الشعر
وميز بينها تمييزاً هو أبو تمام فإنه رتب كتابه الحماسة في عشرة أبواب :
الحماسة ، والمرائى ، والأدب ، والتشبيب ، والهجاء ، والأضياف والمديح ،
والصفات ، والسير ، والملح ومذمة النساء .

أما الباحثرى فقد خالف أبا تمام في ذلك وجعل حماسته التى عارض بها
حماسة أستاذه أبى تمام ١٧٤ باباً وأهداها للفتح بن خاقان . ونجد الحماسة
البصرية (٤) لأبى الحسن البصرى اثني عشر باباً : الحماسة والمديح . الرثاء .
الأدب . الغزل . الأضياف . الهجاء . مذمة النساء . الصفات . النعوت .
السير . الأكاذيب والخرافات . الزهد

ويجعل عبد العزيز بن أبى الأصبع أغراض الشعر ثمانية عشر (٥) .

(١) ٩٢ : ١ المرجع السابق (٢) ١٠٠ : ١ العمدة
(٣) ٨١ نقد النثر (٤) ٥٢٠ أدب مخطوط بدار الكتب الملكية
(٥) ٧١ : ٣ تاريخ آداب العرب للرافعى .

ورواة الشعر العربي في العصور الأولى كان لهم أثر كبير في تقسيم الشعر إلى فنون وأبواب :

لجامع ديوان أبي نواس (١) يقسمه إلى فنون ثمان : المديح . المراثي . العتاب . الهجاء . الزهد . الطرد . الخزيات . الغزل والمجون

وديوان أبي تمام (٢) مقسم إلى أبواب : المديح . المراثي . المعانيات . الأوصاف . الغزل . الفخر . الهجاء .

وديوان ابن المعتز رواية الصولي مقسم إلى عشرة أبواب : الفخر . الغزل . المديح . الهجاء . الخزيات . المعانيات . الطرد . الأوصاف . الرثاء . الزهد .

وكان كثير من دواوين الشعر ترتب بحسب الحروف الهجائية للقوافي لا بحسب الأغراض ، ومنها ديوان البيهقي (٣) ، أما ديوان ابن الرومي فلم يطبع إلا مختارات منه ولا نعلم على أي نهج سار جامعته في ترتيب شعره (٤) على أنه ليس من السهل تقسيم الشعر العربي إلى أبواب شاملة تستوعب جميع ما جادت به قرائح الشعراء فالأبواب التي يطررها الشعراء تختلف باختلاف العصور وباختلاف شخصيات الشعراء .

وبعض العلماء والنقاد يدخل بعض هذه الفنون في بعض . فقدمة يرجع في نقد الشعر الرثاء إلى المدح ويرى أن لا فرق بينهما إلا في اللفظ دون

(١) اعتنى بجمع شعره جماعة منهم الصولي وعلي بن حمزة الأصفهاني وإبراهيم ابن أحمد الطبري .

(٢) جمعه الصولي ورتبه على الحروف وجمعه على بن حمزة الأصفهاني ورتبه على الأنواع (٢٨٣ : ١ كشف الظنون)

(٣) جمعه الصولي ورتبه على الحروف وجمعه على بن حمزة الأصفهاني ورتبه على الأنواع (٣٧٨ : ١ كشف الظنون)

(٤) عمل شعره ورتبه على الحروف الصولي وجمعه أبو الطيب وراق بن عبدوس من جميع النسخ فزاد فيه نحو ألف بيت وابن سينا انتخبه وشرح مشكلات شعره (٢٨٢ : ١ كشف)

المعنى (١) ، وإن كان هذا لم يحل بينه وبين أن يجعل أغراض الشعر ستة : المديح والهجاء والرثاء والتشبيه والوصف والسيب.

وأغراض الشعر عند ابن رشيق كما عدها في عمدته : السيب والمديح والافتخار والرثاء والاستنجاز والعتاب والوعيد والانذار والهجاء والاعتذار ثم جاء البارودي في العصر الحديث فسار قريباً من نهج أبي تمام في تقسيم الشعر إلى فنونه المختلفة وهي عنده سبعة : الأدب والمديح والرثاء والصفات والسيب والهجاء والزهد .

هذا وأدباء الغرب يجعلون أبواب الشعر عامة ثلاثة : الشعر القصصي أو شعر الملاحم ، والشعر الغنائي أو الانشادي والشعر التمثيلي أو المسرحي ، وهذه الأقسام الثلاثة قد ظهرت للمرة الأولى في الأدب اليوناني ثم أخذ الرومان يقلدون اليونان في فنونهم وسار الأدب اللاتيني في الطريق التي سار فيها الأدب اليوناني ، وفي عهد النهضة أخذ الأوربيون يدرسون الأصول اليونانية فتأثرت بها آدابهم تأثراً مباشراً ، وبني الشعر الأوربي الحديث على الأصول اليونانية اللاتينية من حيث الأقسام الثلاثة المعروفة (٢) ، والعرب مع اطلاعهم على علوم اليونان وفلسفتهم لم يهتموا بالإنتاج الأدبي اليوناني فلم يصل فن التمثيل إلى البلاد العربية إلا في العصر الحديث عن طريق الغربيين ، كذلك لم يلبس شعراء العربية قصصاً منظومة على طريقة الإلياذة (٣) والشعر العربي الذي بأيدينا اليوم كله من الشعر الغنائي (٤) .

- ٢ -

وبعد فإني أرى أن يقسم الشعر إلى أقسام يكون من أهمها :

١ - الشعر الوجداني ، وهو الذي يصف عواطف النفس ومشاعرها وآمالها وآلامها وأحزانها ومسرراتها وحبها ولهاها

(١) ٦١ نقد الشعر

(٢) ٢٥٨ التوجيه الأدبي (٣) ٢٢٠ المرجع . ويمكننا اعتبار أرجوزة

ابن المعتز في المعتضد وتاريخه من شعر الملاحم والقصص (٤) ٢٢١ التوجيه

- ٢ - الشعر الاجتماعي ، وهو الذي يتحدث عن المجتمع وحالته والبيئة والمؤثرات فيها والشخصيات وأثرها الاجتماعي في حياة المجموعة العامة
 - ٣ - الشعر السياسي ، ويتناول وصف الحياة السياسية وأحداثها والرجل الذين بيدهم زمام الأمور في الدولة بمن تربطهم بالشاعر صلات خاصة أو عامة
 - ٤ - شعر الآداب والحكم والأخلاق
 - ٥ - الشعر الفني ، وهو الذي يصور الحياة ويصف مظاهر الطبيعة والأحياء ويرسم لك صوراً حية لكل ما في الوجود من كائنات .
 - ٦ - الشعر الإنساني الذي يتناول وصف أحداث الحياة والكون والوجود وقضايا البشرية العامة ، وحقائق الحياة الخالدة ؛ بالعرض والتفصيل .
- ولكن لا ضير علينا في أن نقول إن الشعر الجاهلي ينقسم إلى فنون كثيرة منها : المدح ، الهجاء ، الرثاء ، الفخر ، الوصف ، الغزل ، الاعتذار ، الحماسة ، الحكمة ، العتاب
- وسيا أنى الكثير من مثل كل فن من هذه الفنون والشواهد له من صميم الشعر الجاهلي وعيونه

معاني الشعر الجاهلي

- ١ - يقول الأمدى في الموازنة : « وهذا مذهب من مذاهب العرب عام في أن يصفوا الشيء على ما هو وعلى ما شوهده من غير اعتقاد لإغراب ولا إبداع (١) ، ويقول في امرئ القيس :
- « وبهذه الخلة - لطف المعاني - دون ما سواها ، فضل امرؤ القيس ، لأن الذي في شعره من دقيق المعاني وبديع الوصف والظيف التشبيه وبديع الحكمة ، فوق ما استمار سائر الشعراء ، من الجاهلية والإسلام ، حتى إنه لا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من أن تشتمل من ذلك على نوع وأنواع ،

ولولا لطيف المعاني ، واجتهاد امرئ القيس فيها ، وإقباله عليها ، لما تقدم على غيره ، ولما كان كسائر شعراء أهل زمانه ، إذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم ، ولا لالفاظه من الجزالة والقوة ما ليس لالفاظهم ، ألا ترى أن العلماء بالشعر إنما احتجوا في تقديمه بأن قالوا هو أول من شبه الخيل بالعصى وذكر الوحش والطيور ، وأول من قال « قيد الأوابد » وأول من قال كذا وكذا . فهل هذا التقديم إلا لأجل معانيه (١) .

وهكذا نجد بعض التصوير لمعاني الشعر الجاهلي في كتب الأدب والنقد كالوساطة والصناعات وسر الفصاحة وسواها .

ب - وبعد فمعاني الشعر الجاهلي تمتاز بما يأتي :

١ - البساطة والوضوح والصدق وعدم التكلف أو الإغراق ، وقلة المبالغة ، وإنما يعبر الشاعر الجاهلي عن المعاني التي تدور بخياله في سذاجة وصدق ويسر لا مثيل لهما .

وما في الشعر الجاهلي من بعض المبالغات ، مثل قول النابغة في السيوف :
تقد السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الجباحب
وقول امرئ القيس :

من القاصرات الطرف لودب محول من الذر فوق الإتاب مها لأثرا
وقوله :

تنورتها من أذرعاء وأهلها يثيرب أدنى دارها نظر عالي
وقول المتلمس :

أحار إنا لو تساط (١) دماؤنا تزايلن حتى لا يمس دم دما

(١) ١٨٠ و ١٨١ المرجع . وقد ذكر ابن رشيق بعض ما اخترعه امرؤ القيس من معاني الشعر (٢٣٢ : ٢٣٣ العمدة) : وكذلك ابن سلام في طبقات الشعراء (٢٦ طبقات الشعراء) ، و ٢٩٧ : ٢ المزهرة للسيوطي . (٢) أي تخاط

يقول إن دماهم تمتاز من دماء غيرهم ، وهذا ما لا يكون كما يقول
ابن قتيبة (١) :

وقول المهلهل :

ولولا الريح أسمع من بحجر صليل الببيض تفرع بالذكور (٢)
وقول عنتره :

وأنا المنية في المواطن كلها والطعن منى سابق الآجال

وقول النمر بن تولب في السيف :

تظل تحفر ننه إن ضربت به بعد الذراعين والساقين والهادي

فإنما كل هذه المبالغات مثل مفردة في الشعر الجاهلي الذي يمتاز في عمومها
بقلة المبالغة والتكلف والتهويل في الوصف لأن الشعراء الجاهليين كانوا
يسلكون دائماً في معانيهم التعبير الصادق الواضح الساذج البريء من
الغلو والإسراف .

٢ - عدم تركيب المعاني أو تعقيدها ، وقلما تجد معاني مركبة في الشعر
الجاهلي ، وإنما قد توجد معاني حسية متعددة تلاحظ أشكلها وألوانها
كأنها متصلة بعضها عن البعض الآخر ، كقول النابغة :

فأنك شمس والماوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

وقول زهير يشبه امرأة بثلاث أشياء في بيت واحد :

نازعت المما شبيها ، ودر البحور ، وشا كهت فيها الظباء

فأما ما فوق العقد منها فمن أدماء مرتعها الخلاء

وأما المقلتان فمن مهاة ولدر الملاحاة والصفاء

(٢) هي أصلب الجديد وأشدّه يساً

(١) ٥٢ الشعر والشعراء

وقول امرئ القيس :

كان المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يعمل به يرد أنيسابها إذا طرب الطائر المستحضر

٣ - المعانى فى الشعر الجاهلى مستمدة من أوصاف حسية ولا أثر للمعانى العقلية فيها ، فتجد امرأ القيس حين يصف الليل يقول :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكـكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الأصباح منك بأمثل
ويقول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المتأى عنك واسع
إلى غير ذلك من المناظر الحسية المشاهدة .

٤ - ومعانى الشعر الجاهلى مستمدة من البيئة العربية فى العصر الجاهلى ، وهى تصورهما تمام التصوير لأنها تعبير دقيق عن الحياة الجاهلية : سلاما وحربا ، وجدا ولحوا ، وفرحا وحزنا ، وألما وأملا . كما تكثر فى الشعر الجاهلى أوصاف جبال الجزيرة وصحراواتها وقفارها ووديانها ومياهها وأوصاف أعشابها وحيواناتها وخيامها ومنازلها إلى غير ذلك مما يتصل بالبيئة الجاهلية ويصورها تمام التصوير ، ألا ترى إلى قول امرئ القيس :

قفأ نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول بإخومل

كيف ذكر الأماكن وحددها هذا التحديد الجميل الدقيق ؟

٥ - قلة ترتيبهم للمعانى أو تأنيدهم فى نظمها ، إنما كانوا يرسلون الكلام على ما خيلت نفوسهم واستدعته فطرتهم وسجيتهم وبديهم ، فيدخلون معنى فى معنى ويلتقلون من غرض إلى غرض فى اقتضاب واضح دون عنـاية بالتلطف وحسن التخيل فى الانتقال ، وأحيانا يقولون : دع ذا وعد عن ذا

ويكتفون بها في الانتقال من معنى إلى معنى ومن غرض إلى غرض ، كما قال
زهير في هرم بن سنان يمدحه :

دع ذا وعد القول في هرم خير البداة وسيد الحضر
وسبب ذلك أمية العرب وبدائتهم وقلة حظهم من الثقافة والتفكير
الحضري العميق .

ج . ويمتاز امرؤ القيس كما سبق بابتسكاره المعاني الجديدة الكثيرة ،
اتبعت الشعراء فيها . وكان أوس بن حجر عاقلاً في شعره كثير الوصف
لمسكارم الأخلاق ، وهو من أوصفهم للخمر والسلاح ولا سيما القوس ،
وسبق إلى دقيق المعاني وإلى أمثال كثيرة (١) ، وكان أبو دؤاد الإيادي
أحد نعات الخيل المجيدين (٢) ، وكان الأغشى أوصفهم للخمر والخمر
وأمدح وأهجمي (٣) ، إلى آخر هذه النواحي التي امتاز بها الشعراء الجاهليون
في المعاني وفنون الشعر .

أخيلة الشعر الجاهلي

الخيال في الشعر العربي :

الخيال ملكة خصبة تقدر على تخيل الأشياء وتصوير العواطف والآراء
تخيلاً وتصويراً يوضح لنا نواحيها الغامضة ويعرض علينا ما فيها من أسباب
الروعة والجمال عرضاً مؤثراً نحسبه حقيقة أو كالحقيقة المدوسة ، يأخذ الشاعر
الأشياء المألوفة التي يراها الناس جميعاً ، ثم يعمل فيها خياله فيخرجها
في صورة جديدة لم تكن تتوهمها ، فليس الخيال دائماً مجافاة للحقائق وبعداً
عن المألوف وقدرة على الاغراب والالتيان بما لا يكون ، بل المهم أنه مرآة

(١) ٤٧ الشعر والشراء (٢) ٦٩ المرجع (٣) ٨٢ المرجع

تنطبع فيها الصور فيعكسها وقد صفها من كل شائبة وأخرجها إخراجاً جديداً والخيال خادماً للحقيقة وغايته تصوير ما حجب عنا من حقائق الوجود، وهو في حسن اختيار التفاصيل المميزة وحركة الذهن في انتقاء هذه التفاصيل وضم بعضها إلى بعض وترتيبها، فالشاعر يشعر بما حوله ويعتاد الملاحظة الدقيقة في الحياة المحيطة به بما يتصل بالإحساس والشعور والعاطفة والتفكير ويلاحظ ذلك جملة وتفصيلاً فتسجله ذاكرته بدقة ثم يركز ذلك في ذهنه وأعماق شعوره تركيزاً تاماً، ويأخذ في الغوص في أغوار الذهن على التفاصيل ودلالاتها، مستغرقاً في نشوته الروحية وفي تأملاته، وتصوره وتخيله استغرقاً تاماً يساعده على نشر المطوى من الملاحظات وإظهارها في فن جميل وآية من سحر القرية وهذا الاستغراق وتلك النشوة والغبطة بالتعبير عن النفس يفجران يلبوعاً من القوة الباطنة يلهم الشاعر روائع الشاعرية وآثاراً من الفن والجمال، فمادة الشعر الأولى في العواطف الإنسانية من حب وحزن وأمل وبأس وغير ذلك مما يشعر به الشاعر ويحس به الإنسان، وهذه العواطف هي ينباع الصداقة للشعر (١)، وهي التي يعمل الخيال عمله لتصويرها ويسمى ليركب الصور المودعة في العقل الباطن ومشاهده ليصوغها فناً شعرياً يعبر عنها ويوضح ما خفي منها، فليس الشعر صوراً وألفاظاً وعبارات إنما هو عواطف الشاعر وشعوره يركبها خيال صناع وملكات قادرة ومقدرة فنية موهوبة في صور من الألفاظ والأساليب، وجمال الشعر وروعته موقوفان على مدى إحساس العاطفة وقدره الخيال على تصويرها، فإذا كانت صور الخيال

(١) القدماء من النقاد يختلفون في مادة الشعر اختلافاً كبيراً، فالجاحظ يراها في الأسلوب والنظم كما يدلنا على ذلك قوله: والمعاني مطروحة في الطريق وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وجودة السبك فانما الشعر صياغة وضرب من التصوير (٤٠: ٣ الحيوان)، وعلى رأي الجاحظ يسير عبد القاهر في الدلائل، أما قدماء فيرى أن مادة الشعر هي المعاني (١٤ نقد الشعر) والآدي وابن خلدون يريانها في الألفاظ (١٨٣ الموازنة، ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون)

ناشئة عن عاطفة سقيمة أو سطحية ، كان الأثر الأدبي متكلفاً مصنوعاً
لاحظ له من التقدير ، وإذا كان عمل الخيال محكماً وإحساس العاطفة
قوياً نال الشعر حظه من الجودة والإعجاب ، والخيال إذا كان عمله وتأليفه
لصور جديدة اختيرت عناصرها من بين الحقائق والمشاهدات المبعثرة
المخزونة في الذاكرة وألفت تأليفاً جديداً سمى خيالا مبتدعاً ، ونهاية هذا
الحديث أن هناك صلات وثيقة بين الخيال والعاطفة فهو الذي يصورها ويبدئها
قوية مؤثرة ، وقوة الخيال مرتبطة بقوة العاطفة ، فإذا كانت صادقة قوية
خلقت خيالا رائعاً ، وإذا أردنا للأدب قوة وخلوداً فعلينا أن نعني بهذيب
الشعور ليكون إدراك الشاعر للحياة صادقا عميقاً وآثاره الأدبية جميلة رائعة ،
وخياله الأدبي موهوباً ملمها ، فالخيال أنفع المواهب والملكات في فن
الشعر لأنه المعب عن العاطفة واللغة الطبيعية لأداء الانفعالات والمواقف
الإنسانية .

الشعر الجاهلي وحظه من الخيال :

١ - في الشعر الجاهلي الكثير من التشبيهات والاستعارات والأمثال
والكنائيات ، وهذه هي أجنحة الخيال في التعبير والتصوير ، فتجد أمراً القيس
كثير التشبيهات في معلقته ، وكنائيه البليغة :

وتضحى فتات المسك فوق فراشها تؤوم الضحى لم تلتطق عن تفضل
لا يعادلها جمال ، وقوله :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل
من أسلوب التمثيل البارع .

وكذلك قول النابغة :

نبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زار من الأسد
وقول النمر بن تولب :

فصدت كأن الشمس تحت قناعها بدا حاجب منها وضلت بحاجب

تشبيه جميل جيد .

ويقول زهير : «لدى أسد شاكي السلاح مقذف» ، وهي استعارة واضحة :

ويقول تأبط شرا :

إذا حاص عيني به كرى النوم لم يزل

له كالى من قلب شيعان فأتك

وهي كذلك استعارة قريبة: ويقول النابغة :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباب

فتجد كناية جميلة عن العفة والطهر

ويقول الأعشى :

تشب لمقرورين يصظلميانها وبات على النار الندى والمحاق

وهي كناية عن الكرم والجود في غنى عن الإشادة وأوصاف البلاغة

إلى غير ذلك من مثل هذه الأخيصة القريبة الواضحة الجميلة .

٢ - والخيال في الشعر الجاهلي خيال واضح مألوف يخلق قريباً من هذه

البيئة الطبيعية الجاهلية ومناظرها وألوانها وما تحفل به من شتى المشاهدات

والأوصاف (١) ، وإن كان بعض الشعراء قد طاف في البلاد القريبة من

الجزيرة العربية فاستمد بعض صور خياله وتصويره منها ، كما يقول النابغة

يزرى بالفرات لأن مدوحه النعمان أكثر منه جوداً وسخاء :

فما الفران إذا هبَّ الرياح له ترمى أو ذايه العبرين بالزبد

يظلُّ من خوفه الملاحُ معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجد

يوماً بأجود منه سيئب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد

(١) انظر قول الأعشى :

كناتح صخرة يوماً ليوهتها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وكالاعشى وعدى بن زيد الذين طافا بكثير من البلاد .

٣ — الأخيلة البعيدة البديعة قليلة جدا في الشعر الجاهلي لبدوية الأمة العربية وحياتها وبعدها عن آثار الثقافة والحضارة والرفاهية وبعد فما أكثر الخيالات الساذجة في شعر الجاهليين، فتجدون الاعشى يسمو في قوله :

وقد أراها وسط أترابها في الحى ذى الهجة والسامر
كدمية صُور محرابها بُذُهب في مرمر مالم
يشفى غليل النفس لاه بها حوراء تسي مقلّة الناظر

ثم يقول في سداجة الشاعر وخيال البدوى

عهدى بها في الحى قد سرّ بليت هيفاء مثل المهرق الضامر

ألفاظ الشعر الجاهلي وأسلوبه

ألفاظ الشعر الجاهلي تمتاز بما يأتى :

١ — كراهة استعمال الألفاظ الأعجمية إلا ما جاء قليلا فيه على سبيل الفكاهة والظرف والتلميح كما في شعر الاعشى وعدى بن زيد وأبي دؤاد الأبادى . وكان عدى يسكن بالحيرة ويدخل الأرياف فثقل لسانه واحتمل عنه شيء كثير جدا وعلماؤنا لا يرون شعره حجة (١) والعرب لا تروى شعر أبي داؤد وعدى بن زيد وذلك أن ألفاظهما ليست بنجدية (٢) .

(١) ٦٣ الشعر والشعراء .

(٢) ٦٩ المرجع . ويقول أبو الفرج : كان عدى بن زيد شاعرا فصيحاً من شعراء الجاهلية وهو نصراني وليس ممن يعد من في الفحول . وكان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان : عدى في الشعر بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجرى معها ، وكذلك كان عندهم أمية بن أبي الصلت (ص ١٧ : ٢ الأغاني) وكان امرؤ القيس يتوكل على أبي دؤاد ويروى شعره (٢٩٨ : ٢ المزهري)

ويقول الأعشى :

وشاهدنا الجبل والياهمين والمسمعات بأقصاها
وبربطها دائم معمل فأى الثلاثة أزرى بها
فتجد أسماء فارسية بعيدة عن إلف العربي وسمعه ، وذلك أن الأعشى
دخل بلاد الفرس وجالسهم وصدر عن ملوكهم وعلق بسمعه بعض الفاظهم.
ويقول الأعشى أيضاً :

لها جُلُسانٌ عندها وبنفسج وسيسنبر والمرزجوش متمنما
٢ - كثرة استعمال الألفاظ في معانيها الحقيقية الموضوعة لها فهي بعيدة
غالباً عن أسلوب المجاز والسكناية والتشبيهات وما شابهها .
٣ - كثرة الغريب والخوشى ولا سيما عند وصف منظر أو حيوان أو
غيرهما من مشاهد البيئة العربية في جاهليتها .

٤ - استعمال الألفاظ الجزلة غالباً . والجزل من الكلام هو الذى
تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله في محاوراتها (١) ، وأجود الكلام ما يكون
جزلاً سهلاً لا ينفلق معناه (٢) . ويقول ابن الأثير : الألفاظ تنقسم في
الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه ،
فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد
والتخويف وأشباه ذلك . وأما الرقيقة منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق
وذكر أيام البعاد وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه
ذلك ، ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه
عنجهية البداوة ، بل أعنى به أن يكون متيناً على عذوبته في الفهم والذاتة في
السمع . وكذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكاً سفسفاً وإنما هو اللطيف
الرقيق الحاشية الناعم الملمس كقول أبي تمام :

ناعمت الأطراف لو أنها تلبس أغنت عن الملاء الرقاق (١) ،

ويقول : وأما البداوة في الألفاظ فتلك أمة قد دخلت وقد عيبت على مستعملها في ذلك الوقت فكيف الآن (٢) وقد عرف النقاد أمر الجزالة والرقعة وشأنهما في الكلام ، وبحسبها منهم كثيرون في تقديم ودراساتهم ، فالفرزدق يقول في جرير : ما أحوجني مع فسوقي إلى رقعة شعره ، وأحوجه مع عفافه إلى خشونة شعرى (٣) ، فهو يرى أن الجزالة والرقعة بحسب الشاعر والموضوع الذي ينظم فيه . ويقول عبد الملك في الأعشى : قاتله الله ما كان أعذب بحره وأصلب صخره (٤) ، ويقول الأصمعي في شعر النابغة : إن قلت ألين من الحرير صدقت ، وإن قلت أشد من الحديد صدقت (٥) ، وقال أبو عبيدة في شعره : له ديباجة إن شئت قلت شهداً إن مسسته ذاب ، وإن شئت قلت صخر لو رديت به الجبال لأزالها (٦) .

وبحث الجرجاني في وساطته الجزالة والرقعة بتفصيل (٧) وذكر أثر نفس الشاعر وحياته وبيئته وعصره ولون معيشته فيهما ورأى أن الرقعة إنما تأتيك من قبل العاشق المتيم والغزل المتهاك ودعا إلى تنزيل الجزالة والرقعة منازلها بحسب المعاني والأغراض والموضوعات (٨) . وقد ذكر الجاحظ في البيان الجزالة والرقعة غرضاً فتراهم يقول : ومن الكلام الجزل والسخيف والخفيف والثقيل وكل عربي وبكل قد تكلموا (٩) وذكر أن سخييف الألفاظ مشاكل لسخييف المعاني وأنه قد يحتاج إليه في بعض المواضع وربما أمتع كثيراً .

ويقول : وحاجة الكلام إلى الحلاوة كحاجته إلى الجزالة (١٠) ويدعو إلى ترك الوحشي والسوقي في مواضع كثيرة من بيانه (١١) وعرض لهما ابن المدبر

(١) ٦٥ المثل السائر (٢) ٦٨ المثل السائر

(٣) ١٢٧ الشعر والشعراء (٤) ٣٨ الجهرة (٥) ٣٨٠ : ٣ العقد

(٦) ٢٢ جهرة أشعار العرب (٧) ٢٢ وما بعدها من الوساطة

(٨) ٢٩ المرجع (٩) ١١٠ ج ١ البيان والتبيين (١٠) ٣٠ ج ١ البيان

(١١) ١٠٥ و ١١٠ و ١٧٦ ج ١ المرجع

عرضا فقال : لا يعتد بالمعنى الجزل ما لم تلبسه لفظا جزلا (١) وعرض لهما
أرسطو في كتابه الخطابة وذكر أنه لا ينبغي أن تكون الألفاظ سفسافة
ولا مجاوزة في المثانة مبلغ الأمر الذى يدل عليه فلا تبلغ درجة العامية ولا
تحوج إلى الكلفة المشنونة ، وذكر أنه لا ينبغي أن يلام بين اللفظ والمعنى
فالمعنى الجزل يعبر عنه بالألفاظ جزلة والمعنى الرقيق يعبر عنه بلفظ رقيق (٨) .
وبعد فالشعر الجاهلى فريد فى جزالته ونخامته وجلالته وشدة تركيبه
وقوة أسره ، وإن شئت فاقرا قول زهير :

قد جعل المبتغون الخير فى هرم والسائلون إلى أبوابه طرقا
إن تلق يوما على علاقه هرما تلق السباحة منه والندى خلقا
لو نال حى من الدنيا بمكرمة أفق السماء لنالت كفه الأفقا
أو قول أمية بن أبى الصلت :

أذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك؟ ، إن شيمتك الحياء
وعلمك بالحقوق وأنت فرع لك الحسب المذهب والسناء
خليـل لا يغيره صباح عن الخلق الجميل ولا مساء
وأرضك كل مكرمة بدتها بنو تيم وأنت لها سماء
إذا أتى عليك المرء يوما كفءا من تعرضه الثناء
تبارى الريح مكرمة ومجدا إذا ما الكلب أجحره الشتاء

وقول امرئ القيس فى عذوبة وخفة :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل
أغرك منى أن حبك قانلى وأنت مهجا تأمرى القلب بفعل
إلى غير ذلك من الشواهد والمثل

أما أسلوب الشعر الجاهلى فنتحدث عنه بإفاضة فنقول :

(١) الرسالة العذراء

(٢) راجع الفن الثامن من الخطابة فى الشفاء لابن سينا مخطوط

ماهو الأسلوب :

الأسلوب في اللغة الطريق وعنق الأسد والوجه والمذهب

والأسلوب الأدبي يعرفه ابن خلدون في حديث طويل بأنه المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه (١) ، فهو يراه في الصورة الأدبية الممتازة التي يتميز بها الأدباء والشعراء وينسجون في أديهم وشعرهم على منوالها . ويعرفه بعض المحمديين بأنه طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الاقتناع والتأثير ، أو هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير (٢) .

ويعرفه آخر بأنه المعنى المصوغ من ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام وأفعال في نفوس سامعيه ، ويعرفه آخرون بأنه طريقة اختيار الكلمات ونظمها لتؤثر في نفس القارئ . أو السامع . ويذكرون أنه غرضين : نقل الحقائق أو المعاني إلى ذهن السامع أو القارئ . ونقل شعور الكاتب أو المتكلم إلى نفسيهما للتأثير

ويعرفه نحن بأنه نهج الكاتب والشاعر في صوغ أدبه وشعره وأداء أفكاره ومعانيه والطريقة التي يسير عليها في اختيار كلماته وتراكيبه وما يؤثر في لغة تعبيره وتصويره من سهولة أو غرابة ومن عذوبة أو جزالة ومن وضوح أو خفاء وطبع أو صنعة ، وألوان الصنعة في شعره وأدبه من تشبيه واستعارة وكناية وطباق ومقابلة وتعليل ومبالغة وتورية وتدريج وعكس ومشاكلة ؛ وطرق الأداء التي يسير عليها في صياغته من تقديم وتأخير وذكر أو حذف وفصل أو وصل وإيجاز أو إطالة إلى غير ذلك من شتى أوصاف الأسلوب ، وما يراعيه الكاتب والشاعر من أوصاف في بدء كلامه وفي فصوله وخاتمته : والأسلوب هو الوسيلة التي ينقل بها الأديب فكرته

(١) ٥٧٠ مقدمة ابن خلدون (٢) راجع ٢٣ - ٣٩ الأسلوب للشباب

وعاطفته وأراءه ومعانيه إلى الناس . ومقياس جودة الأسلوب هو القدرة على نقل ذلك والتعبير عنه بدقة وقوة تأثير

ويمتاز أسلوب الشعر بما فيه من عاطفة ، وما يشيع في نظمه من خيال وسحر صنعة وعذوبة موسيقى وحرية في الأداء والتصوير ، وبشدة تأثيره في النفوس وأثره في العاطفة والشعور والوجدان ، أنشد أبو العتاهية قصيدته :

أتته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلايها

وكان بشار حاضرا ، فلما سمع الأبيات اضطرب وسحر وقال : انظروا إلى أمير المؤمنين هل طار عن أعواذه (١) وسمع الجاحظ رجلا ينشد أرجوزة أبي العتاهية التي سماها ذوات الأمثال ، فبلغ قوله :

يا للشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب
فقال للملشد : قف ثم قال : انظروا إلى قوله : روائح الجنة في الشباب ، فان له معنى كمنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير .

نعم إن الشعر ينبعث غالبا عن إحساس قوى ، ويلبس حلة جميلة من النظم تصور المعاني تصويراً قويا رائعا فكل ذلك يجعله ذا أثر شديد في نفوس سامعيه وقارييه على السواء .

وأهم خصائص أسلوب الشعر الجاهلي هي :

١ - القصد إلى المعنى في إيجاز وعدم إطباب أو تطويل ، وتلك ميزة شعراء الجاهلية عامة ، وإن كان زهير كما يقول ابن سلام « أجمعهم لسكثير

(١) ١٣٧ : ٣ الأغانى ، ٦٨ المثل السائر

من المعنى فى قليل من المنطق كما كان أشدهم مبالغة فى المدح (١) .

٢ - الزهد فى المحسنات البديعية وعدم الإلمام بها إلا لما وعى غير قصد وكان العرب لا يعرفون ألوان البديع والبيان علما وإنما يعرفونها فنا وذوقا وملكة . وما جاء من المحسنات البديعية - من سجع وجناس وطباق ومقابلة وغيرها - فى شعرهم قليل نادر وعن غير قصد ولا التذات .

٣ - الابتداء فى قصائدهم بذكر الأطلال والديار ، والترويح عن النفس بالالماس بالتشبيهات القوية البديعة .

٤ - متانة الأسلوب وقوته ودويته فى الأذن والذوق ، كما يقول النابغة :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تميمون من نوى وأحجار ؟

وقول امرئ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
ففلت له لا تبك عينك إنما نحارل مملكا أو نموت فنمذرا

وقول الأعشى فى ناقته :

فآليت لأرئى لها من كلالة ولا من حفى حتى تلاقى محمدا

٥ - هذا الطابع البدوى الذى يمتاز به أسلوب الشعر الجاهلى الذى نما وعاش فى هذه البيئة البدوية الغربية وكثرة ما فيه من مخاطبة الأطلال وذكر الناقة والفرس وسواهما .

٦ - كما يمتاز بمحذف الفضول والسلامة من اللمح والقصد إلى المعنى ، فى بلاغة وسحر ودقة تصوير

الرجز في العصر الجاهلي

كان الشعر الجاهلي قبل أن ينتقل إلى النهضة الفنية الواسعة على يد مهمل و امرئ القيس ، كان كله رجزا ، ينطق الشاعر بالبيت أو البيتين فيما يعرض له من شئون الحياة ، كالأبيات التي تؤثر عن دريد بن زيد والعنبر ابن عمرو بن تميم وأعصر بن سعد والمنوغر بن ربيعة وسواهم (١) .

ولكن هذا الرجز كان خاليا من آثار التهذيب ، ونخل شأنه ببدء النهضة الفنية في الشعر على يد امرئ القيس وسواه .

ثم جاء الأغلب المجلي ، فاتخذ الرجز صناعة فنية ونظمه وأجاد فيه فكان الأغلب أول من طوّل شعر الرجز ، ويرى بعض النقاد كالجحى وغيره أنه أول من رجز ، وينفي ذلك ابن رشيق لأن الأغلب أدرك عصر الرسول وليس بقديم جدا مع أن الرجز كان قبله . ويذكر أبو عبيدة أن المعجاج هو أول من أطال الرجز وقصده وشبب فيه وذكر الديار واستوقف الصحاب عليها واستوصف ما فيها وبكى على الشباب ووصف الراحلة ، كما فعلت الشعراء بالقصيدة فكان في الرجاز كامرئ القيس في الشعراء وأرجوزته وقد جبر الدين الآله فجبر ، نحو من مائة بيت وهي موقوفة مقيدة (٢) ، ويؤيد ابن قتيبة أن الأغلب هو أول من أطال الرجز (٣) وهو الصحيح ؛ وأما المعجاج فقد انتقل بالرجز خطوة جديدة فسار فيه على نهج الشعراء في القصيدة .

واشتهر بعد ذلك من الرجاز : المعجاج وابنه روية ، وأبو نخله ، وأبو النجم ، ودكين ، والأغلب .

(١) ٢٩٤ و ٢٩٥ : ٢ المزهري ، ١٨ - ٢١ طبقات الشعراء .

(٢) راجع في ذلك كله ص ٣٠١ : ٢ المزهري ، ٢٤١ وما بعدها طبقات الشعراء .

(٣) ٢٣٥ الشعر والشعراء .

الشعر الجاهلي بين الرجز والقصد

١ - علمت أن الجاهليين سبقوا فقالوا النثر في جمل صغيرة ، كما ترى في الأمثال العربية ، ثم صاروا يوازنون كل جملة من النثر بالآخرى حتى توصلوا رويدا رويدا إلى نظم البيت أو البيتين . وكان الشاعر في تلك الأبيات يعبر عن الاحساسات التي كان يشعر بها كالحب والغضب والحماقة وغير ذلك وكانوا يستعملون في ذلك الشعر بحر الرجز لسهولة وخفته ، ويسمون القطعة منها أرجوزة والجمع أراجيز ؛ وبعد ذلك صاروا يرتجلون منه أكثر من بيتين ، ويعبرون بها عن إحساساتهم النفسية ويصفون الوقائع الحربية والخيل والإبل والصحراء وغير ذلك مما يقع تحت نظرهم ، وصاروا يستعملون عدا الرجز أوزانا أخرى منها الطويل والكامل والوافر وغيرها من البحور ويصف الأغلب المعجلى (١) الذي عاش قبل الرسول في أراجيزه محبوبته ويذكر آثار حبها ويتأسف على ماضى من شبابه . ونرى في آخر الجليل الخامس أشعارا في أرق نظم وأدق لفظ وأوسع معنى وأبدع صورة تدعى قصائد والواحدة قصيدة ، ويقال كما علمت إن أول من قال قصيدة هو المهمل ابن ربيعة من بني تغلب قاتل أخيه ، وذهبوا إلى أن الفرق بين الأشعار المرتجلة والقصائد هو أن الشعر المرتجل يعبر الشاعر فيه عن إحساساته النفسانية حالما ينمعل من شيء ويقول الشعر بدون تحضير وأكثر ما يكون الشعر المرتجل من بحر الرجز ولا تتجاوز القطعة منه العشرة الأبيات وقيل

(١) يعد المعجاج أول من أطال الرجز وكان الشاعر قبل ذلك يقول البيتين والثلاثة ، فهو في الرجز كما مرى القيس في الشعراء ، وهذا قول أبي عبيدة ، وقال غيره : أول من طول شعر الرجز الأغلب وهو قديم وزعم آخرون أنه أول من رجز وكان على عهد رسول الله (ص ٣٠١ المزهر ج ٢) ، وراجع ٢٣٥ الشعر والشعراء .

بل السبعة، والقصائد ترد من جميع الابحر ولا تسمى قصيدة إلا إذا زادت
عن السبعة الآيات وكان نظمها مقصودا وقلبا يقال مرتجلة بل إن أكثر
الشعراء كانوا ينقحونها قبل إنشادها .

٢ - وكانت القصائد تبتدىء بالغزل ويلم الشاعر فيها بأغراض كثيرة ،
قال ابن قتيبة : وسمعت بعض أهل العلم يقول إن مقصد القصائد إنما ابتدأ
فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فشكا وبكى ، ونخاطب الربع واستوقف
الرفيق ، ليجعل ذاك سببا لذكر أهلها الظالمين عنها . إذ كان نازلة العمى في
الحلول والظمن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتجاعهم السكلا ، وانتقالهم
من ماء إلى ماء ، وتقبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالسيب
فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصباغة ليميل نحوه القلوب
ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه ، لأن السيب
قريب من النفوس ، لا تخط بالقلوب « لما قد جعل الله في تركيب العباد من
محبة الغزل وإلف الدساء . فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقا منه
بسبب ، وضاربا فيه بسهم ، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه .
والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا التعب والسهر
وسرى الليل وإنضاء الراحلة والبعير ، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه
حق الرجاء وزمام التأميل ، وقرر عنده ماناله من المكافأة في المسير ، بدأ
في المديح ، فبعثه على المكافآت ، وهزه على السماح . فالشاعر المجيد من
سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام (١) . وهكذا يفهم النقد
القديم النهج الفني للقصيدة أو وحدة القصيدة عند الشعراء الجاهلين .

ومن غير شك أن النهج الذي ذكره ابن قتيبة هو نهج أغاب القصائد
الجاهلية ، وقلبا تجد قصيدة في موضوع واحد ، وبما شذ عن ذلك قصيدة
تأبط شرا :

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلا دمه ما يطل (١)
وبعض قصائد أخرى نادرة

هذا والقصائد الجاهلية كثيرة بكثرة الشعراء أنفسهم ، ويعد الباحثون أكثر من مائتي شاعر عاشوا في الجاهلية عددا من ضاع ذكرهم ونسيت أشعارهم ، ولكن لم يصل إلينا من أشعار هؤلاء إلا القليل ، لأن جمع الشعر الجاهلي وتدوينه لم يبدأ إلا بعد سنة ١٥٠ هـ وأول مجموعة من مجموعات الشعر الجاهلي وصلت إلينا هي المفضليات .

٣ - ومن الشعراء الذين جمعوا بين الرجز والتصيد : امرؤ القيس ،
وطرفة ، ولييد ، أما زهير والناخبة والأعشى فليس لهم من الرجز شيء . (٢)
ويقول الأغلب الراجز :

أرجزا سألت أم قصدا . لقد سألت هينا موجودا

العربيات الشاعرات في العصر الجاهلي

نسمع من أسماء الشاعرات في العصر الجاهلي ، العدد العديد ، ولا ترى لواحدة منهن ديوانا مجموعا ، أو شعرا مشروحا ، كما نرى لأكثر شعراء الجاهلية .

فمن شاعرات العرب : جمل الضبابية من بني كلاب ، وأم موسى الكلابية وزهراء الكلابية ، ورقيقة بنت العباس السلمي ولها أبيات ترى أخاها وقد قتله بنو خثعم ، وأم الفضل بنت الحارث الهلالية ، وضباعة بنت عامر من بني عامر بن صعصعة وكانت زوجا لعبد الله بن جندعان التميمي ، وأم

(١) ويسمونها بعضهم « نشيد الانتقام » ونقلها إلى الألمانية جوته الشاعر ونقلها إلى الفرنسية والإنجليزية والإيطالية مرارا
(٢) ٢٥٩ ج ٣ البيان والتبيين

الأسود الكلابية ، وجمل النسبية ، وضاحية الهلالية - ، والخنساء بنت التيمحان
وليلي العفيفة زوج البراق ، وكانت من أجمل نساء زمانها ؛ ومن شعرها وهي
في بلاد فارس :

ليت للبراق عينا فتري ما ألقى من بلاء وعنا
عذبت أختكم يا ويلكم لعذاب النكر صبيحا ومسا
يكذب الأعجم ما يقربني ومعى بعض حشاشات الحيا
فاصطبار أو عزاء حسن كل نصر بعد حين يرتجى

وكثيرات سوى هؤلاء. وقد ذكرت غيرهن في كتاب « شاعرات
العرب » .

ولقد معنى الرواة بدواوين الشعراء من الرجال عناية شديدة ، وبذلوا
وسمهم في الحديث عنهم وعن شعرهم .

ولم يكن لعلماء اللغة ورواتها مثل هذه العناية بشاعرة من شعراء
الجاهلية فيما أعلم حتى إن الذين تخيروا الشعر الجيد منهم وجمعوه في ديوان
يحفظ كأنهم لم يريدوا أن يختاروا قصيدة لامرأة لتكون بجانب
قصائد الرجال .

فهذا أبو زيد القرشي قد اختار تسعاً وأربعين قصيدة من القصائد الطوال
ولم يحى فيها بواحدة لامرأة لا من الجاهلية ولا من الإسلام ، مع أن في
كلام ليلى العفيفة ، وجليلة بنت مرة ، وأخترنق والخنساء ، وليلى الأخيلية ،
مالا يذكّر بجانبه شعر كثير للشعراء من أصحاب المذاهب والمشوبات والملاحمات
والمنتقيات . فإن كنت في ريب من ذلك ، فإني ذا كر لك منتقاة انتقيتها
للخنساء ، ومنتقاة انتقاها أبو زيد للمتلّس ، ثم وازن أنت بينهما ، واحكم بما
تشاء . فأما التي للخنساء فهي قولها في رثاء أبيها وأخويها :

كأن لم يكونوا حمى يتقى إذ الناس إذ ذاك من عز برا (١)

هم منعوا جارهم والنسا . يحفز أحشاءها الموت حفزا
ببيض الصفاح وسمر الرماح فبا لبيض ضربا وبالسمر وخزا
وخيل تكس بالدارعين وتحت اللجاجة يحمزون جمزا (١)
جززا نواصى فرسانها وكانوا يظنون أن لن نجزا
وكانت العرب إذا أمرت أسيرا جزت ناصيته ، وألقتهما في الكنانة
وأطلتته تفتخر بذلك .

فمن ظن بمن يلاقى الحروب بأن لن يصاب فقد ظن عجزا
تعف ونعرف حق القرى وتتخذ الحمد مجدا وكنزا
ونلبس في الحرب نسج الحديد وفي السلم نلبس خزا وقزا
وهذه منتفاة المتلبس التي قالها حين هرب من عمرو بن هند هو وطرفة
وألقى الصحيفة فتجعا ولم ينبج طرفة :

كم دون مية من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع اللبس
ومن ذرى علم طام مناهله كأنه في حباب الماء مغموس
القذف والقذف : البعيدة أى كان الجبل مغمورا في الماء من الآل . .
جأزته بأمون ذات معجمة (٢) تهوى بكالكها (٣) والرأس معكوس
يا آل بكر ألا لله دركم طال الثواء وثوب العجز ملبوس
أغذيت فاغنوا اليوم شأنكم وشروا في مراس الحرب أوكيسوا (٤)
حننت قلوصى بها والليل مطرق بعد الهدوء وشاقتها النواقيس
معقولة ينظر الاشراف (٥) راكبا كأنه من هوى الرمل ملبوس

(١) التكس : اجتماع الخيل ووثبها معا ، والدارع لابس الدرع .
(٢) ذات معجمة أى قوة وبقية على السير وأصلها التي ربت وثنت في سنة
واحدة (٣) الكلكل الصدر والمكوس المطوى
(٤) أى كونوا ناطقين إما برأيكم وأما بسيوفكم
(٥) الاشراف سوق بالطائف وجبل لهديل أو إشراف الشمس ، والاشراق
الذهاب إلى الشرق (٢٤)

وقد أضاء سميل بعد ما هجموا كأنه ضرم في الكف مقبوس
حنت إلى النخلة القصى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدهازيس
آليت حب العراق الدهر أطعمه والحب يأكله في القرية السوس
فليس في منتقاه أكثر من استبعاد ديار صاحبه ثم ركوب ناقته فراراً
من الظلم قاصداً الشام بدل العراق وتحريمه العراق على نفسه وأيس فيها كلها
شيء يروع أو يزن قول الخدساء :

كأن لم يكونوا حتى يتقى إذا الناس إذ ذاك من عزرا
أو مثل قولها :

ومن ظن من يلاقى الحروب بأن ان يصاب فقد ظن عجزاً
فبكم ترى في الأول من تفخيم شأن قومها ، وفي الثاني من تهوين المهينة
على الشجاع ، وما أحسن ما وصفت الخيل في نشاطها ، وهي تمشي مؤتلفات ،
وتثب مجتمعات تحت العجاج بفرساتها الدارعين الواثقين بالظفر بقولها :

وخيل تكس بالدارعين وتحت العجاجة يحمون جزاً
وما أبدع كناية عن غلبة قومها لهؤلاء الشجعان في قولها :

جزنا واصي فرسانها وكانوا يظنون أن لن نجوا
وناعيلك باعتذارها عنهم وتسليتهم عن مصابهم والإشارة من طرف خفي
إلى لومهم لظنهم في أنفسهم أكثر مما تستحق وذلك قولها :

فمن ظن من يلاقى الحروب بأن ان يصاب فقد ظن عجزاً
أفترك مثل هذا الكلام النقي الهزاز الآخذ ويجعل كاشق الملقى ، ولا
عيب فيه فيما أظن إلا أنه كلام امرأة ، ولا حسن في كلام المتلبس إلا أنه
كلام رجل .

فإن لم يكن هذا كما أظن فلم لم يجمع الرواة دواوين فضليات النساء ، فأين
ديوان جليلة وأمينة بنت عبيدة ، وأمامة بنت ذى الأصابع العبدواني ،
وأم بسطام ، وأم التليك ، وأم الصريح السكندرية ، وأم كاثوم بنت غندود ،

وجنوب أخت عمرو ذى الكلب ، وبنات عبد المطلب : صفية ، وبرة ، وعائكة ،
 وأم حكيم ، وأميمة ، وأروى ، وريطة بنت العجلان بن عامر الهذلي ، وسارة
 القرظبة ، وعميرة الخثعمية ، والفارعة بنت شداد ، وبخاصة الخزاعية ،
 وأضراب هؤلاء من شواعر الجاهلية ، ولا يزال ديوان الخرق مخطوطا ،
 وقد رأيت فوجدت جميع ما في الديوان من شعرها خمسة وخمسين بيتاً جمعه
 أبو عمرو بن العلاء بما وصل إليه متفرقا ، وكتبه المرحوم الشيخ الشنقيطي
 بخطه ، وهو في دار الكتب المصرية ، ولم يسنده إلى راو ؛ ولو لم يكن
 للخصاء الثابتة في الجاهلية والإسلام ، المكانة العالية في سوق عكاظ ،
 والبلاء في الجهاد ، هي وأولادها في حرب القادسية ، لما كان حظنا من كلامها
 اليوم إلا كحظنا من كلام ليلى العفينة .

وهذه المفضليات مائة وعشرون قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة
 أبيات لامرأة مجهولة من بني حنيفة ، والمفضليات هي أجود كلام العرب
 الذي اختاره المفضل الضبي بأمر أبي جعفر المنصور للمهدي العباسي
 ليتأدب بها .

فهذه مكانة شعر النساء في نظر المؤرخين والرواة والعلماء في ذلك الزمن ،
 وكأن الذين جاؤا بعدهم احتذوهم حذو النعل بالنعل فما رأيتهم دونوا شعر ليلى
 الأخيلية في ديوان كما دونوا شعر المجنون .

وقس على هذا سائر المفضليات من الشاعرات ، خصوصاً بعد سقوط
 بغداد ، ثم أفول قرطبة ، فإن شعر المرأة في هذا الزمان قد اختبأ تحت
 جهالات الرجال ولم يظهر منه إلا القليل .

ولعل ظهور عائشة التيمورية وطبع شعرها كان فلتة نادرة .

والمرزباني جمع أشعار النساء في كتاب يوجد بدار الكتب المصرية
 بخط أندلسي قديم مضى عليه نحو ثمانمائة سنة ، والظاهر أنه أحفل كتاب
 يروي الشعر الصحيح ، ولولا مثله لبقى تاريخ أدب المرأة مطموسا .

ومن شعر النساء قالت أم نذبة تخرض زوجها حذيفة بن بدر على أخذ
أر ابنها نذبة ، وكان قيس بن زهير العبسي قتله في حرب داحس والغبراء
فرضى زوجها حذيفة بأخذ ديته فقاظها ذلك :

أبقتل نذبة قيس وترضى	بأنعام منوق سارحات
أما تخشى إذا قال الأعادى	حذيفة قلبه قلب البنات
نخذ نأراً بأطراف العوالى	وبالبيض الحداد المرهفات
وإلا خلنى أبكى نهارى	وليلى بالدموع الجاريات
لعل منيتى تأتى سريعاً	وترمينى سهام الحاديات
أحب إلى من بعل جبان	تكون حياته أردا الحياه
فيا أسفى على المقتول ظلماً	وقد أمسى قتيلاً فى العلاء
ترى طير الحمام ينوح مثلى	على أعلى العصور المائلات
وهل تجد الحمام مثل وجدى	إذا رميت بسهم من شتات
فيا يوم الرهان فجعت فيه	بشخص جازع من حد الصفات
ولا زال الصباح عليك ليلاً	ووجه البدر مسود البجمات
ويا خيل السباق سقيت سما	مذاباً فى المياه انجاريات
ولا زالت ظهورك مشكلات	باحمال الجبال الراسيات
لأن سباقكم ألقى علينا	هوما لا تزال إلى الممات

ولهذا الشعر نظائر من شعر النساء يؤخذ منها أن المرأة لضعفها لا تضبط
نفسها عند شدتها حتى إنها لتدعو على أقرب المقربين إليها وقد تدعو على
نفسها وعلى من لا يتصور منه الجناية عليها لذهاب رشدتها عند النوائب ولا
كذلك الرجل فإنه أقدر على ربط جأشه وحفظ بوادره وكظم غيظه ومن
هنا علم أن شعر المرأة يظهر من أخلاقها أكثر مما يظهر شعر الرجل من
أخلاقه فإن شعر المرأة مرآة مصقولة تشف عما فى نفسها .

وقالت جميلة زوج كليب ، وأخت جساس بن مرة حينما منعتها أخت
كليب من الدخول فى مأتم أخيها ، وقد كان قتله جساس فى حديث

مشهور ، وقد نقلت هذه القصيدة على أصح رواية من كتابه أشعار
النساء للرباني .:

يا ابنة الأقوام إن لمت فلا	تعجلي باللوم حتى تسألي
فإذا أنت تبيّنت التي	عندها اللوم فلو مئى واعذلي
إن تكن أخت امرئ لميت على	جزع منها عليه فافعلي
فعل حساس على وجدى به	قاطع ظهري ومفن أجلي
لو بعين غير عيني انفقات	عيني اليتى إذا لم أحفل
أيتّم المجد كليب وحده	واستوى العالى معا بالأسفل
من لحكم الناس فى حيرتهم	وقرى الأضياف كوم البزل
ولإصلاح وإفساد معاً	فى صدى الرمح ودك المنصل
جل عندى فعل حساس فيا	حسرتى عما انجملت أو تنجلي
يا قتيلاً خرب الدهر به	سقف بيتى جميعاً من عل
هدم البيت الذى استحدثته	وبدا فى هدم بيتى الأول
ورمانى قتله عن كذب	رمية المصمى به المستأصل
يا نسانى دونىكن اليوم قد	خصنى الدهر بأمر معضل
خصنى قتل كليب بلظى	من ورانى ولظى مستقبلى
ليته كان دمي فاحتلبوا	بدلاً منه دماً من أكحل
إنى قاتلة مقتولة	ولعل الله أن يرتاح لى

ومن كلام أم السليك بن السليكة ، وقد انقطعت عنها أخباره ، وغلب على
ظنها أنه قتل ، وكان عداء مشهوراً :

طاف يبعثى نجوة	من هلاك فمـلك
ليت شعري ضلة	أى شىء قتـلك
أمريض لم تعد	أم عدو ختلك ؟
أم تولى بك ما	غال فى الدهر السلك ؟
والمنيا رصد	للفتى حيث سلك

أى شىء حسن لفتى لم يك لك
كل شىء قاتل حين تلقى أجلك
طالما قد نلت فى غير كد أملك
إن أمراً فادحا عن جوابى شغلك
سأعزى النفس إذ لم تجب من سالك

وفيه من السهولة والنقاء والتأثير والوقوف به عند حد الشعور مافيه ،
ونجده بمكانة لا تحتلها إلا عواطف النساء .

ومن ذلك قول الخزنق بنت بدر أخت طرفة بن العبد لأمه ، وزوج
بشر بن عمرو بن هميرد ، ولها فى رثاء أخيها وزوجها ، ومدح قومها
أشعار جيدة :

ألا أقسمت آسى بعد بشر على حى يموت ولا صديق
وبعد الخير علقمة بن بشر إذا نزت النفوس إلى الخلق (١)
ومال بنو ضبيعة حول بشر كما مال الجدوع من الحريق
وقالت فى قومها :

لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلون بكل معترك والطيبون معاقد الأزر
الضاربون بحومة نزلت والطاعنون بأذرع شعر (٢)
والخالطون نحيبتهم بنضارهم وذوى الغنى منهم بذى الفقر
وقالت لعبد عمرو ، حين وشى بأخيها طرفة إلى عمرو بن هند
وقتلته عامله :

أرى عبد عمرو قد أساط ابن عمه وأنضجه فى غلى قدر وما يدرى
فملا ابن جساس قتلت ومعبدا هما تركاك لا ترش ولا تبرى
وقالت فى رثاء طرفة :

(١) أى علت (٢) الأشعر الذى فيه شعر وهو أقوى

عددنا له خمساً وعشرين حبة فلما توفاهما استوى سيدا نهما
فجمعنا به . لما انتظرنا إياه على خير حين لا وليدا ولا قهما

قالت ذلك حينما بلغها قتل طرفة ، وكان قد ذهب هو وعبد عمرو بن
الشريد وعم طرفة ، وعمرو بن مرثد بن عمه ، إلى عمرو بن هند ، ونادموه مدة
فوشى بطرفة عبد عمرو ، وكان طرفة قد هجاه ، فكتب إليه عمرو بن هند
كتاباً وأرسله إلى عامله بالبحرين ، وأوهمه أن فيه إنفاذ جائزته ، وكذلك
أعطى المتلمس وإسكنه ألقى كتابه في النهر ونجا إلى الشام ، وأما طرفة فذهب
بكتابته إلى المكبر عامل عمرو على البحرين ففرض الكتاب ، وقتله بعد أن قطع
يديه ورجليه ، ودفنه حياً .

والذي يهمنا من سرد شعرها هو الاستعانة على إثبات ما الشعر النساء من
الخصائص ، وقد أوردنا فيما سبق أبيات ليلي العفيفة وذكرنا قصتها وهي
في طبقة جليلة ، وإن كانت أقدم منها ، وخصائص أشعارهما واحدة ، بيد أن
في شعر الخرنق شيئاً كثيراً من متانة شعر طرفة أخيهما .

هذا ولم يربنا في كل ما روينا شيء من الغزل والتشبيب والوقوف على
الديار وترسم الآثار مع أننا لا نكاد نجد قصيدة جاهلية للرجال خالية
من مثل هذا .

وسبب ذلك أن النساء لغلبة الحياء عليهن تركن باب الغزل ، وأبقينه
مفتوحاً للرجال ، وقد تصفحت أشعار أكثر من ستين من شاعرات الجاهلية
فلم ألق واحدة منهن غزلاً فعرفت صحة السبب الذي أوردته ، وعددت هذا فارقاً
بين شعرهن وشعرهم .

ثم نظرت كذلك فلم أجد لمن في الخمریات شيئاً ، وما سمعت واحدة
تمدحت بشربها ، ولا نعتت غيرها من النساء بهذا النعت . فدل ذلك على أن
الشرب لم يكن من مخلق النساء ولا كان محموداً عند الرجال ، ولذلك لم يقلن فيه
وتركنه كما تركن فن الغزل .

آراء علماء الأدب في الشعر الجاهلي

- ١ -

الشعر الجاهلي ، الذي اتخذ الشعراء في مختلف العصور ، أصلاً يحتذون
حدوه ، وينهجون منهجه ، ويبنون عليه ، ويقلدونه في مناحيه الفنية والأدبية
تقليداً كبيراً ؛ هذا الشعر هو الذي نريد أن نتحدث عن موقف النقاد منه ،
وآرائهم فيه ، ومذاهبهم حياله ، حديثاً يجمع مع الإيجاز أطراف هذا الموضوع
المتشعب الدقيق .

- ٢ -

وأول ما نذكره في هذا البحث ، آراء أنفسهم في الشعر
الجاهلي ونقده ؛ وهذه الآراء كثيرة متعددة ؛ طائفة منها تتحدث عن
منزلة بعض الشعراء الأدبية في الشعر ، وطائفة أخرى فيها نقد لبعض الشعراء .
فأنت تعلم أن كل قبيلة في الجاهلية ، كانت ترفع منزلة شاعرها على
الشعراء ، وتذهب إلى أنه إمامهم وأولهم في دولة الشعر . فسكان اليمنيون
يذهبون إلى أن امرأ القيس هو إمام الشعراء ، وكان بنو أسد يذهبون إلى
تقديم عبيد ، وتغلب تقدم مهلهلا ، وبكر تقدم المرقش الأكبر ، وإياد
ترفع من شأن أبي دؤاد ، ومكدا . وكان أهل الحجاز والبادية يقدمون
زهيراً والنابعة ، وأهل العالية لا يعدلون بالنابعة أحداً ، وأهل الحجاز
لا يعدلون بزهير أحداً . وكان العباس بن عبد المطلب يقول عن امرئ
القيس : هو سابق الشعراء ؛ ورأى لبيد أن أشعر الناس امرؤ القيس ثم طرفة
ثم نفسه .

كما تعلم أن الجاهليين أنفسهم كانت لهم آراء كثيرة في نقد الشعراء ؛
فكان النابغة يضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء وتلشده
أشعارها ؛ أتاه الأعشى يوماً فأنشده ، ثم أتاه حسان فأنشده ، فقال : لولا

أن أبا بصير - الأعشى - أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الهجن والإنس ؛
فقال حسان : والله لأننا أشعر منك ومن أبيك وجدك ، فقبض النابتة على
يده وقال : يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
ثم أنشدت الخنساء :

قذى بعينك أم بالعين عوار أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار
فلما بلغت قولها :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

قال : ما رأيت امرأة أشعر منك ؛ قالت : ولا رجلاً .

وحكومة أم جندب الطائية بين امرئ القيس وعلقمة بن عبدة
الشاعرين ، وتفضيلها علقمة على زوجها امرئ القيس مشهورة ؛ ولاداعي
لذكرها ، فلما حديث آخر إن شاء الله .

ومر امرؤ القيس بكعب وأخويه : الغضبان والقعقاع ، فأنشدوه ؛ فقال :
إنى لأعجب كيف لا تمتلىء عليكم ناراً جودة شعركم ، فسموا بنى النار .

وروى المرزباني في كتابه « الموشح » أن الزبرقان وعمر بن الأهتم
وعبد بن الطيب والمخبل السعدي ، تحاكوا إلى ربيعة بن حذار الأسدي
الشاعر ، في الشعر وأيهم أشعر ؛ فقال الزبرقان : أما أنت فشعرك كالحم
أسخن ، لاهو أنضج فأكل ، ولا ترك نبتاً فينتفع به ؛ وأما أنت يا عمرو فإن
شعرك كبرود حبر ، يتلألاً فيها البصر ، فكأها أعيد فيها النظر نقص البصر ؛
وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم ، وارتفع عن شعر غيرهم ؛
وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كزادة أحكم خوزها فليس تقطر ولا تمطر .

كما روى أيضاً أن هؤلاء الشعراء اجتمعوا في موضع فتناشدوا أشعارهم
فقال لهم عبدة : والله لو أن قوما طاروا من جودة الشعر لطرتم ، فيما أن
تخبروني عن أشعاركم وإما أن أخبركم ، قالوا : أخبرنا ، قال : فإني أبدأ بنفسي ،

أما شعرى فمثل سقاء شديد ، وغير من الأسقية أوسع منه ، وأما أنت يا زبرقان فإنك مررت بجزور منحورة ، فأخذت من أطايبها وأخابثها . إلى غير ذلك من مواقف النقد والنقد للشعر في العصر الجاهلي ، والتي لا تخرج عن الاستهجان أو الاستهزاء .

- ٣ -

فجاء الإسلام ، فكان له ولرسوله الكريم ، موقف جليل من الشعر الجاهلي . أنكر بعضاً وعرف بعضاً . أنكر هذا الشعر الذي ينافي الأخلاق الكريمة ، والمثل العليا : من الغزل الفاحش ، والمجون الخليع ، والهجاء الكاذب ، والمدح المغرق ، والمبالغة ، وعرف هذا الشعر الذي يدعو إلى الفضائل والأخلاق والدين ، ويحث على الأدب والعلوم وأداء الواجب وحب الجماعة والتضحية في سبيل الأمة والإنسانية . فكان هذا الموقف الخالد للإسلام ونبيه العظيم ، توجيهاً جليلاً لرسالة الشعر ، وتهذيباً نبيلاً للشعراء ليسموا بفنهم الرفيع إلى مجال الطهر والخير ، وآفاق الحق والعدل والحرية والنور ؛ بل كان نقداً عميقاً للشعر ومنهج الشعراء في الجاهلية ، وإنكاراً لاتخاذ الشعر وسيلة للتكسب والثراء .

وظهر أثر الإسلام والقرآن في تهذيب أسلوب الشعر وألفاظه وفي البعد به عن الحوشية والغرابية ، وطبعه بطابع القوة والجلالة والروعة مع الخلاوة والبلاغة والسلاسة . كما ظهر أثر القرآن والحياة الجديدة في عقلية الشعراء وتفكيرهم ومعاييرهم وأخيلتهم .

- ٤ -

وفي عصر دولة بني أمية ، انتشرت العصبية ، وكثرت الخلافات السياسية والدينية وتغير نهج حياة العرب وتفكيرهم ؛ فعادوا إلى مذاهب الجاهليين في الشعر ، واتخذوه أداة للدفاع عن الرأي والعقيدة ، وإسناداً لإذاعة محيائهم ومفاخرهم . وشجعوا الزوارة على رواية الشعر الجاهلي ،

والشباب على درسه وتعلمه والتأدب بأدبه ، ووضعت في هذا العصر أصول النحو العربي ، فأخذ العلماء ينقدون الشعر الجاهلي والشعراء نقداً يتصل بالإعراب ، وكان ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر يطعنان عليهم . وكان عيسى يقول : أساء النابتة في قوله :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش في أنيابها المم نافع
ويقول موضعه : ناقماً (١) .

- ٥ -

ومن أشهر رواة الشعر الجاهلي ونقاده في القرن الثاني الهجري : أبو عمرو بن العلاء البصري المتوفى عام أربعة وخمسين ومائة بعد الهجرة ؛ وحماد الراوية الكوفي (٧٥ - ١٥٦ هـ) ، وخلف البصري م ١٨٠ هـ ، والمفضل الضبي م ١٨٩ هـ ، وهو أقدم من جمع المختار من شعر العرب في كتاب ، وأول من فسر الشعر بيتاً بيتاً ، ويقال إنه أول من جمع أشعار الجاهليين .

ومنهم ابن السكبي م ٢٠٤ هـ ، وأبو زيد الأنصاري صاحب كتاب الهجرة المتوفى عام خمسة عشر ومائتين ، وأبو عبيدة البصري م ٢٠٩ هـ صاحب « النقاوض » ، و« مجاز القرآن » ، والأصمعي البصري م ٢١٦ هـ ؛ وقد أدرك بعض هؤلاء جزءاً من أوائل القرن الثالث . وكان هؤلاء الرواة أثر كبير على الشعر الجاهلي ، فقد اهتموا بجمعه وروايته وتدوينه ، ووضعوا الجاهليين في طبقات ، ولم يتركوا شاعراً مشهوراً من الجاهليين إلا رأوا فيه رأياً .

وكان أبو عمرو بن العلاء أشد الناس إكباراً للجاهليين ، وتعظيماً لشأنهم ، جلس إليه الأصمعي عشر سنين فما سمعه يحتاج بببيت إسلامي ؛ ويروي عنه : « لو أدرك الأختل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه

(١) ٤١ الموشج ، ١١ و ١٢ طبقات الشعراء لابن سلام .

أحدا ، وكان لا يعد الشعر إلا للجاهليين ، وكان كما يقول ابن سلام في طبقات الشعراء : أشد الناس تسليما لهم . وكان المأمون رغم ثقافته الواسعة يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول : انقضى الشعر مع ملك بني أمية .

وكان الأصمعي — مع تحامله على المحدثين وشعرهم — معتدلا في عصبية الشعر الجاهلي ، كان يحب الجيد منه ، وينقد الرديء ، عاب امرأ القيس في قوله في وصف الفرس .

وأركب في البروع خيفانة كسا وجهها سعف منتشر
والخيفانة في الأصل هي الجرادة ، وتشبه بها الفرس في الخفة ؛ قال الأصمعي : شبه شعر الناصية بسعف النخلة ، والشعر إذا غطى العين لم يكن الفرس كريما كما عاب غير امرئ القيس من الشعراء ؛ وكان يقول : ختم الشعر بالرماح ، وهو شاعر أموي مشهور .

وفي القرن الثالث الهجري نجد النقاد في موقفهم من الشعر الجاهلي طائفتين :

فطائفة تعجب بالجاهليين وشعرهم إعجاباً شديداً ، ولا ترى الشعر إلا لهم . ومن هؤلاء ابن الأعرابي م (٢٣١ هـ) ، وكان يزرى بأشعار المحدثين ، ويشيد بشعر القدماء ؛ وكان يعيب شعر أبي نواس وأبي تمام ، ويقول : ختم الشعر بابن هرمة ؛ وقال في بشار : والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير من الشعراء .

ومنهم أيضا : إسحاق الموصلي م (٢٤٠ هـ) ، وكان في كل أحواله ينصر الأوائل ، وكان شديد العصبية لهم ، وكان لا يعتد ببشار ، ولم يكن موقفه قاصراً على الشعر وحده ، بل كان كذلك في الغناء ؛ كان يتعصب للغناء القديم ، وينكبر تغييره ويعظم الإقدام عليه . ومثل ذلك التعصب للقديم موجود في

الآداب الأوروبية ، فقد كان د هوراس ، الشاعر الروماني يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التي يجب أن تدرس ليلا ونهاراً ، وأن الشعر ينبغي أن ينظم كما كانوا ينظمونه ، وكان في فرنسا خلال القرن السابع عشر مذهب أدبي يرى إلى كبار البلاغة القديمة وتقليدها ، لأنها تمثل صور البيان خير تمثيل ، وكان يتزعمه جماعة من النقاد أشهرهم د بولو ، حتى ألف شارل بيرو كتابه الموازنة بين القدماء والمحدثين ، يدعو فيه إلى التحرر من التقليد ، ويشيد بالمحدثين ، ويقول : إنهم فاقوا القدماء في البلاغة

وقد اعتذر الباقلاني عن هؤلاء النقاد العرب المحافظين ، بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذي يجمع الغريب والمعاني ؛ واعتذر ابن رشيق عنهم بحاجتهم إلى المثل والشاهد وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون ؛ ولكن الجرجاني في الوساطة يذكر أن ذلك أثر لتعصب علماء اللغة ووراثتها للشعر القديم ، وإنكارهم لفضل المحدثين وشعرهم (١) .

وطائفة أخرى من النقاد في القرن الثالث ، حكموا الذوق الأدبي والطبع وحدهما في الشعر ، وحكموا بالفضل لمن يستحقه ، جاهلياً كان أو إسلامياً أو محدثاً ، فلم يفضلوا الجاهليين لسبقهم في الزمن ، ولم يغضوا من شأن المحدثين لتأخر عصرهم ، ومن هؤلاء : الجاحظ م ٢٥٥ هـ ، وابن قتيبة م ٢٧٦ هـ ، والمبرد م ٢٨٥ هـ ، وابن المعتز م ٢٩٦ هـ .

يقول ابن قتيبة في أول كتابه د الشعر والشعراء (٢) ، : ولا نظرت إلى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيتهما كلا حقه ، ووفرت عليه حظه ؛ فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب عنده إلا أنه قيل في زمانه ،

(١) ٤٩ و ٥٠ الوساطة ط بيروت .

(٢) ٧ و ٨ الشعر والشعراء .

ورأى قائله ؛ ولم يقتصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عبادہ ، وجعل كل قديم منهم حديثا في عصره ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو يقول : لقد نبغ هذا المحدث حتى هممت بروايته .

وقال المبرد : ليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدثان عهد ينتظم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحقه (١) . وأنكر ابن المعتز عضدية دؤلا . النقاد للشعر القديم ، وذمهم لشعر المحدثين ، وقال : إنما تيب قبيح ، ومن فعل ذلك فإنما غص من نفسه ، وجعل هذا ناشئا عن جهل بنقد الشعر وتمييزه (٢) . وكان الجاحظ هو السابق إلى إقامة نقد الشعر على أسس فنية خالصة ، وحارب هذا التعصب الممقوت للقديم لقدمه ، وآراؤه في ذلك في كتابيه : الحيوان والبيان والتبيين كثيرة ؛ ففي الحيوان ينكر الجاحظ على المتعصبين للقديم فعلمهم ، ويقول : ولو كان لهم بصر ، لعرفوا موضع الجيد من كان وفي أي زمان كان ، (٣) .

وفي القرن الثالث أيضا كثرت مؤلفات النقاد في الشعر والشعراء الجاهليين ، وكتاب ابن سلام « طبقات شعراء » مشهور ، وهو أبرز عمل أدبي منظم في النقد ، وقد قسم الجاهليين عشر طبقات ، وأضاف إليهم شعراء المراني وشعراء المدن العربية ، ووضع في الطبقة الأولى امرأ القيس وزهيراً والأعشى والنابعة ، ولم يسبقه إلى هذا التقسيم الفني للشعراء الجاهليين وطبقاتهم الأدبية إلا أبو عبيدة الذي قسم الجاهليين ثلاث طبقات ، ووضع في الأولى امرأ القيس والنابعة وزهيراً ، وفي الثانية الأعشى وطرفة وليبدا ، ويذكر ابن سلام في « طبقات الشعراء » الإسلاميين أيضا ويقسمهم طبقات عشرة ، ولا يذكر أحدا من المحدثين . بعكس ابن قتيبة ، الذي ألف

(١) ١٨ : ١ الكامل للمبرد .

(٢) ١٣ و ١٤ : رسائل ابن المعتز ، لمحمد عبد المنعم خلفا جى .

(٣) ٤٠ : ٣ : الحيوان .

كتابه : الشعر والشعراء ، وذكر فيه الكثير من المحدثين الذين عاشوا قبيل منتصف القرن الثالث الهجري ؛ وهذا يدلنا على أن ابن قتيبة كان أكثر تقديرًا للشعر الجيد وحده ، بصرف النظر عن قائله وتصرفه . وذلك يذكرنا بجمع المفضل وأبي زيد الأنصاري للشعر العربي ، فقد جمع المفضل في مفضلياته مختارات للشعراء الجاهليين ، وللقليل جدا من المخضرمين ؛ أما أبو زيد الأنصاري ففي كتابه « الجمهرة » مختارات للجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، فكأنه لا يقف إعجابه على الشعر الجاهلي وحده ، بخلاف المفضل

و ألف ابن المعتز أيضا كتابا في طبقات الشعراء المحدثين ، طبع في أوروبا ومصر ، ويسير فيه على نهج ابن قتيبة من حيث ذكر الشعراء وحياتهم ومذاهبهم الفني في شعر ، ونماذج من مختارات شعره ، ولكن الكتاب وقف على المحدثين وحدهم من بشار إلى عصر ابن المعتز ، وهو أوفى كتاب في دراسة طبقة بشار ، وطبقة أبي نواس ، وطبقة أبي تمام ، والبحتري . وهذا يدلنا على إعجاب ابن المعتز بالمحدثين ، وتقديره لبلاغتهم وشيعة بهم عن الجاهليين والإسلاميين إلى حد ما .

— ٧ —

أما القرن الرابع فقد كان أحفل قرن بالنقد والنفاد ؛ وظهرت فيه أصول كتب النقد الأدبي مثل : نقد الشعر لقدامة م ٣٣٧ هـ ؛ ونقد النثر المنسوب إليه أيضا ؛ ومثل أخبار أبي تمام للصولي م ٣٣٦ هـ ، والموازنة للآمدى م ٣٧١ هـ ، والوساطة لأبوجان م ٣٩٢ هـ . وإيجاز القرآن للباقلاني م ٤٠٣ هـ .

كما ظهر في القرن الخامس : ابن رشيق م ٤٦٣ هـ ، صاحب « العمدة » وابن سنان الخفاجي م ٤٦٦ هـ صاحب سر الفصاحة ، وعبد القاهر الجرجاني صاحب الأسرار والدلائل م ٤٧١ هـ .

وكان النقد في هذين القرنين يسير على نهج الجاهلظة ، فلم يتمصبوا

للشعر الجاهلي لتقدم زمنه ، أو يميلوا على المحدثين لتأخر عصرهم ؛ بل حكموا الذوق وحسده في كل شيء ، حتى لقد وقفوا معديدين لأخطاء الجاهليين ، كما فعل الأمدى في الموازنة ، والجرجاني في الوساطة ، وابن رشيق في العمدة ، وسواهم ؛ قال الأمدى في كتابه « الموازنة » : وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ، ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب ، وقال صاحب « الوساطة » ، في أول كتابه : « ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية ، فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أبيات ، لا يمكن لعائب القدح فيه ، إما في لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه ، أو إعرابه ؛ ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم ، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة ، لوجدت كثيراً من أشعارهم معيبة مسترذلة ، ومردودة منفية ، لكن هذا الظن الجميل ، والاعتقاد الحسن ، ستر عليهم ، ونفى الظانة عنهم ، فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب . وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام (١) ؛ ولو تصفحت ما تكلفه النحويون لهم من الاحتجاج ، وتبيلت ماراموه في ذلك من المرامي البعيدة ، وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة ، التي يشهد القلب أن المحرك لها ، والباعث عليها ، شدة إعظام المتقدم ، والكلف بنصرة ماسبق إليه الاعتقاد ، وألفته النفس لا يقنت بما ذكرت .

كما أذكرى الأمدى والجرجاني بموقف بعض النقاد المتعصبين على المحدثين (٢) ؛ كالأصمعي الذي أنشده إسحاق الموصلي :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيروى العهد ويشقى الغايل
إن ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال : لمن تدشدني ؟ قال : لبعض الأعراب ، قال : هذا والله هو

(١) ص ٣ و ٤ الوساطة .

(٢) ١٠ الموازنة طبع صبيح ، و ٥٠ الوساطة طبع بيروت .

الديباج الخسرواني ، قال إسحاق : إنهما ليلتهما ، فقال الأصمعي : لا جرم والله ، إن أثر الصنعة والتكلف بين عليهما ؛ وكان الأعرابي الذي أنشده بعض الناس شعراً وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجاباً شديداً وكتبه ، فلما علم أنه لأبي نواس أنكره . . . ونقد الباقلاني في إعجاز القرآن معلقة امرئ القيس :

قفأ نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل
نقداً طويلاً ، وهو أول نقد أدبي مفصل مقصيدة كاملة من الشعر العربي ،

- ٨ -

وفي العصور الوسطى ضعفت الملاحظات ، وعقمت الأوزان ، وتضاءلت الفطر الأدبية السليمة وتعصب العلماء والأدباء للشعر القديم لقدمه ، فأحاطوا الشعر الجاهلي بهالة من التقديس والجلالة ، لا يرون أحداً أحسن مثل إحسان الجاهليين أو أجاد لإجادتهم ، بل رأوهم معصومين من الخطأ والعيب والنقد ، واستمر هذا المذهب سائداً حتى العصر الحديث .

- ٩ -

وفي العصر الحديث تفرقت ثقافات الأدباء والنقاد ، فوقف أولو الثقافات العربية الخالصة موقف الإعجاب والتقدير للشعر الجاهلي . وهب جماعة من أولى الثقافات الحديثة يطعنون على الشعر الجاهلي ، ويرمونّه حيناً بالضعف والتفكك ، وحيناً بأنه كله أو جله منتحل مخلق .

عاب العقاد الشعر الجاهلي بأنه لا يصلح أن يكون نموذجاً يقتدى به في النظم ، لأنه في الغالب أبيات مبعثرة ، تجمعها قافية واحدة ، يخرج فيها الشاعر من المعنى ثم يعود إليه ، ثم يخرج منه على غير وتيرة معروفة ، ولا ترتيب مقبول ، وأن فيه غير التفكك ، وضعف الصياغة ، كثيراً من العيوب

العروضية ، والتكرير الساذج ، والاقتصار المـكروه ، والتجاوز المـعيب ،
الذى يؤخذ من روايته أن الشعر لم يكن فنا يستقل به صناعه الخبيرون به ،
ولـمّا كان ضربا من الكلام يقوله كل قائل ، ويروى المحكم منه وغير المحكم
على السواء (١) . . فنرى العقاد يأخذ على الشعر الجاهلي مأخذ أهمها :

أولا - ضعف وحدة القصيدة . وفي مناقشة هذه الفكرة نكتفي
بـهاتين الكلمتين :

قال نولدكة المستشرق الهولندي المشهور : « في أحوال كثيرة يحتفظ
الشاعر الجاهلي بوحدة الفكرة في قصيدته ، بأن يجعل كل قسم من أقسامها
خاصا بوصف منظر وحوادث من حياة الشاعر نفسه ، أو الحياة العامة التي
يعيها البدو في الصحراء . . وقال جميل صدقي الزهاوي الشاعر المجدد
المشهور (٢) : « وهناك شيء يستحبه الذين تشبعت أدمغتهم بالأدب الغربي ، هو أن
تكون القصيدة الواحدة خاصة بفكرة واحدة ، أو وصفا لشيء واحد ، من
غير خروج إلى غير الموضوع ، ولو كان في فصل منعزل عن الأول ؛ وهذا
ليس من الشعر في أصله ، بل هو تابع للأذواق ، ولطريقة الشاعر في شعره ؛
ولا ينوع الشاعر المبرز في العربية الموضوع في كل قصيدة ، فكثيرا ما يصر
شعره في القصيدة الواحدة في موضوع واحد ؛ وإذا نوع الموضوع فهو
يخرج إلى الثاني بمناسبة وبعد فصله عن الأول ، مريدا بذلك أن تكون
قصيدته كالروضة الغناء . محتوية على مختلف الأزهار ، وهذا أقرب إلى الطبيعة
وليس فيه ما يؤخذ عليه غير كونه ينافي ما يفعله شعراء الغرب ، ولكل أمة
سياق ونزعة ليست لاختها ؛ وأعتقد أن الكتاب الذين يزرون بشعر شعرائنا
على الإطلاق ، لو أتيح لهم أن يكونوا شعراء ، لما خرجوا كثيرا عن النهج
الذي يمشى عليه المبرزون من هؤلاء ؛ والسبب هو ما قدمته من اختلاف
ألوان الشعور عندنا عن ألوانه عند الغربيين من جهة . وقيد القافية وإعرابها

عندنا وفقدانه عندهم من جهة أخرى، وقد هم كثير من الشعراء المتضلمين من العلوم العصرية، يتقليد الغرب في شعره، فلم يكن ما أتوا به غريبا ولا شرقيا، ولم يوفقوا إلا في ألوان من من الشعور، هي مشتركة بين الأمم جميعها، ومهما تمرد الشاعر الكبير على الأساليب والتصورات في أمته، فهو لا يستطيع أن يطرأ مرة واحدة إلى تصورات وأساليب يخالف ما ألفه شعبه. فيقطع الوشائج القوية التي تربط الحاضر بالماضي... ويعيب العقاد الشعر الجاهلي ثانيا بأنه لم يكن فنا مستقل به صناعه الخبيرون به، وذلك لا يسير مع الحقيقة الأدبية أو الواقع الماثور، فشعراء المملقات ونداههم الفنية في الشعر معروفة، يقول الدكتور طه حسين في كتابه «الآدب الجاهلي» : «أما مضر فكان لها في الجاهلية شعراء، يتخذون الشعر فنا، يمثلون به نهضة فنية عقلية، في هذا الإقليم من جزيرة العرب». ويعيبه ثالثا بهاملة صياغته، وما فيه من عيوب عروضية، وتكرار ساذج، وتجاوز معيب، وفي هذا ولا ريب مغالاة لا يكاد يسلم بها دارس الآدب الجاهلي شعره ونثره.

أما أن الشعر الجاهلي كثير العيوب العروضية، فلا أدري ما هو دليل الناقد عليه؟ أهو قصيدة عبید أم بعض هذا الشواهد المروية لعيوب الشعر من الإكفاء والإيطاء والتضمين والسناد الخ؟ وأين تكون هذه كلها في الشعر الجاهلي؟ ثم ما هذا التكرار الساذج؟ أهو مثل قول مالك بن الربيع :

لقد كان في أهل الغضا لودنا الغضا مزار، ولكن الغضا ليس دانيا
أو في مثل قول الحطيئة :

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأى والبعد
أو في قول النابغة :

عوجوا خيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار
أقوى وأقفر من من نعم وغيرة هوج الرياح بها في الترب موار
وقفت فيها سراة اليوم أسألها عن آل نعم أمونا عبر أسفار

وقد أراى ونعما لاهيين بها والدار لو كلمتنا ذات أخبار
أيام - تخبرنى نعم وأخبرها ما أكرم الناس من حاجى وأمرارى
وأين هو هذا الاقتسار المزعوم . ثم هل ما فى الشعر الجاهلى من مجازات
وكنايات وتشبيهات وأخيلة - رغم قلتها وقربها من حقائقها - يدعو إلى
أن نهجر الشعر الجاهلى ونطرحه ظهرياً ؟ .

وأما أن الشعر الجاهلى لم يكن فناً (١) يستقل به الخبيرون به ، فهذا خطأ
بعيد . وهل نلسى رجال المملكات ، والناطقة وحكومتها بين الشعراء فى سوق
سوق عكاظ ، وهؤلاء الشعراء الذين خلد ذكرهم على مر العصور ؟
واقعد كان الناشئ فى الجاهلية يتلمذ على شاعر مشهور يروى شعره ويأخذ
عنه فنه الأدبى ، وكان الشعراء يعرضون قصائدهم على غيرهم من الخبراء
بفن الشعر وصناعاته ، واستمر هذا إلى ما بعد الإسلام . ثم إن هذه المجازات
والأخيلة هى من خصائص البيان العربى وبميزاته التى تكسبه روعة وجمالاً .

إن من العقوق للعربية أن نذهب مذهب العقاد فى الغلو فيما
رمى به الشعر الجاهلى من التفكك وعدم اتساق الفكرة وارتباطها واتهال
معانيها ، وما أظن أن ذلك وإن كان موجوداً فيه بما يؤخذ عليه الشعر
الجاهلى إلى هذا الحد البعيد ، وفيه الفرق إذاً بين الأسلوب الفنى الجميل وبين
الأسلوب العلبى وحقائقه المنطقية المرتبة ، إن الشعر فن قبل أن
يكون فلسفة .

وأخيراً فللعقاد رأيه فى عدم اتخاذ الشعر الجاهلى مثلاً يحتذى ، ولقد
أخذ هو نفسه بذلك ، فلم يكن له حظ من الخلود فى الشعراء . أما نحن فنقول :

(١) إذا أردنا أن نسكت مزاعم العقاد المجدد برأى مجدد مثله هو « طه حسين »
فلا أكثر من أن نسوق إليه قول طه حسين فى الأدب الجاهلى : « أما مضر فكان
لها فى الجاهلية شعراء يتخذون الشعر فناً يتلون به نهضة فنية عقلية فى هذا الاقليم
من جزيرة العرب (راجع ١٩٧ وما بعدها من الأدب الجاهلى .

إنه لا داعي لأن يملأ شعراؤنا المعاصرون شعرهم بألفاظ العقنقل والسجنجل والجنبدل والخنظل كما فعل امرؤ القيس مثلا ، ولا بالإثمد والبرجد والمسرهده كما فعل طرفة ، وليس من المناسب أن نترسم خطاهم في بكاء الأطلال ووصف الدمن وذكر محاسن الخيل وكلاب الصيد ، فلنأبدلنا بذلك كله - مجال فسيح لقول الشعر في عصر الكهرباء والذرة والآثير والطائرات . أما فيما عدا ذلك من الألفاظ والأغراض فالشعر الجاهلي أروع ما يحتذى في مذاهب النظم وجمال الصياغة وحسن الأداء .

ونشر أحمد أمين عدة مقالات في الثقافة بعنوان « جنابة الشعر الجاهلي على الأدب العربي »، تتناول فيها عليه ما شاء له الهوى . وقد رد عليه النجدي ناصف في مقال عنوانه « هل جنى الشعر الجاهلي على الأدب العربي (١) » .

- ١٠ -

ويشك أنصار الجديد في الأدب الجاهلي (٢) بدعوى أن الكثرة المطلقة مما يسمى أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء إنما هي منتحلة بعد ظهور الإسلام ، فهي تمثل حياة المسلمين أكثر مما تمثل حياة الجاهلية ، وما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء ، والعصر الجاهلي القريب من الإسلام يمثل القرآن والأساطير (٣) . وعلى هذا فلا يصح الاستشهاد بهذا الشعر المنحول في تفسير القرآن بل بحجب العكس (٤) والشعر الذي يضاف إلى الجاهليين يمثل حياة غامضة جافة بعيدة عن الدين ، القرآن يمثل لنا حياة دنيوية وعقلية قوية مما كان عليه المستنيرون عليه من العرب ويمثل

(١) مجلة دار العلوم (ص ٢١ - ٤٠ - عدد أكتوبر ١٩٣٩) .

(٢) ٥٩ - ٦٤ الأدب للجاهلي لطفه حشيش

(٣) ٦٤ و ٦٥ المرجع و ٧٠ وما بعدها .

(٤) ٦٦ المرجع

لنا القرآن الكريم أيضا اتصال العرب بغيرهم من الأمم المجاورة كما يصور حياة العرب الاقتصادية (١)، والأدب الجاهلي أيضا عندهم لا يمثل اللغة الجاهلية لاختلاف اللغة الحميرية عن اللغة العدنانية جد الاختلاف، والمأثور من شعر الشعراء القحطانية مروي باللغة العدنانية الفصحى مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام كما حدث بعد الإسلام، مما يدل على انتقال هذا الشعر وسواه من فنون الأدب على هؤلاء القحطانيين؛ فهؤلاء المجددون ينكرون ما يضاف إلى أهل الجنوب من شعر ونثر قيل بلغة أهل الشمال قبل الإسلام (٢) كما أن اختلاف اللهجات العدنانية أمر ثابت لا شك فيه ولا نجد أثرا لهذا الاختلاف في الشعر الجاهلي المأثور مما يدل على انتقال هذا الشعر وأنه قد حمل حملا على هذه القبائل بعد الإسلام (٣). ثم يحمل الدكتور طه في الأدب الجاهلي أسباب انتقال الشعر كما يزعم ويروي، فيذكر البواعث السياسية والدينية وأثر القصص في الانتقال وأثر الشعوبية والرواية فيه (٤). ثم يذكر الشعر والشعراء، ذاهبا إلى أن كثرة ما يضاف إلى الشعراء الجاهليين منحول، وإلى رفض الشعر المنسوب إلى شعراء من اليمن، لأن لليمن لغة تخالف لغة قريش، وهجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ثانيا فالشعر الذي أضيف إلى جرهم وسواهم من الذين عاصروا اسماعيل منحول، وليس لليمن في الجاهلية شعراء، أما ربيعة - من عدنان وكانت تسكن في الشمال فشعرها دون شعر المضريين أما مضر فكان لها شعراء يتخذون الشعر فنا، فالشعر أصل في مضر دون اليمن أو ربيعة؛ فنظرية تنقل الشعر في القبائل غير صحيحة، فالشعر إنما كان في مضر؛ ثم انتقل إلى أقرب القبائل العربية إليها وهم ربيعة ثم إلى القبائل البعيدة كاليمن ثم إلى الموالي وليس كما يقولون من أنه كان في اليمن ثم انتقل إلى ربيعة ثم إلى قيس من مضر ثم إلى تميم، وشعراء المدينة ليسوا

(٢) راجع ٨١ - ٩٥ من المرجع

(٤) ١٢٢ - ١٨٦ المرجع

(١) ٧٠ - ٨١ المرجع

(٣) ٩٦ وما بعدها من المرجع

يمنيين بل هم مضريون (١)، ثم درس الدكتور من الشعراء : امرأ القيس
فعبيد فعلقمة . ثم عمرو بن قميئة فمهلهل فجليلة . ثم عمرو بن كلثوم فالخارث
ابن حلزة . ثم طرفة فالتليس . ثم الأعشى . . . وذلك على ضوء نظريته
في انتقال الشعر (٢) . ثم علق على الشعر المضري على ضوء هذه النظريات (٣)
ووضع مقاييس لتمييز المنحول من الشعر الجاهلي (٤) ثم درس أوسا وزهيرا
والخطيئة وكعب بن زهير والنابعة (٥) وبذلك ينتهي نقده للشعر الجاهلي .
وترتكز آراء الدكتور في الشعر الجاهلي على أساس واحد هو انتقال
الشعر الجاهلي مؤكدا هذا الانتقال بأدلة كثيرة : منها أن المأثور منه لا يمثل
حياة الجاهليين الدينية أو العقلية ، ولا يصور اتصال العرب السياسي بغيرهم
من الأمم المجاورة لهم ؛ فوق أنه لا يمثل اللغة الجاهلية نفسها لاختلاف اللغة
الحيرية عن اللغة العدنانية جدا لاختلاف ، فالمأثور من شعر الشعراء
القحطانيين مروي باللغة العدنانية الفصحى ، مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها
ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام ، مما يدل على انتقال هذا الشعر
على القحطانيين ، فوق أن الشعر الجاهلي لا يصور اختلاف اللغات العدنانية
المتعددة ، التي لا شك في اختلافها ، ويشرح الدكتور أثر البوارج السياسية
والدينية في الانتقال ، وعمل القصاص والرواة ، ويبني على ذلك كله رفضه
الشعر المنسوب إلى شعراء اليمن ، لأن لليمنيين لغة تخالف قريش ، ولأن
هجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا ، وليس كل الشعراء هاجروا من
اليمن ثانيا ، وشعراء المدينة ليسوا عنده يمنيين بل مضريين . ويرى أنه ليس
لليمن في الجاهلية شعراء . أما ربيعة من عدنان ، وكانت تسكن في الشمال ،
فيرى الدكتور أن شعرها دون شعر المضريين ، لأنها لم تكن تتكلم لغة
قريش ، ويتردد في قبول الكثير منه ، وأما مضرب كان لها شعراء ، يتخذون

(١) راجع من ١٩٣ - ٢٠٨ من المرجع

(٢) ، ، ، ٢٠٩ - ٢٩٦ ، (٣) راجع من ٢٦٧ - ٢٨١

(٤) ، ، ٢٨٢ - ٢٩٥ (٥) ، ، ٢٩٦ - ٣٤٢

الشعر فنا ، وقد درس شعراء مضر دراسة نقد وتحليل ، كما درس غيرهم ، على ضوء نظريته في انتقال الشعر الجاهلي ، ووضع مقاييس لتمييز المنحول منه ، وجعل الشعر أصلاً في مضر ، ثم انتقل منها إلى ربيعة فالين فالموالي . وبذلك يعكس نظرية القدماء في انتقال الشعر الجاهلي بين القبائل . .

ولمناقشة هذه الآراء ، نعود إلى تلخيصها والرد على كل رأى منها ، إن الدكتور يذهب في الشعر الجاهلي إلى :

١ - أن هذا الشعر الجاهلي أو أكثره منحول بدليل .

(أ) أنه لا يمثل الحياة الجاهلية .

(ب) و « « « اللغة »

(ج) « « « اللهجات العربية

٢ - وأنه لم يكن لليمن شعراء وما يروى من شعر للقحطانيين فأنما هو منحول عليهم

٣ - وأن أكثر شعر الشعراء الذين ينتسبون إلى ربيعة منحول لأنه لا يمثل لهجاتهم التي كانوا يتكلمون بها ،

٤ - وأنه ليس صحيحاً أن الشعر كان في اليمن ثم انتقل إلى ربيعة ثم إلى قيس من مضر ثم إلى تميم بل إنما كان في مضر ثم امتد إلى ربيعة فالين ثم إلى الموالي (١) .

٥ - وأنه كان للرواة (٢) والقصاص وللعوامل السياسية والدينية للمصيبات أثر في الانتقال .

ولما صودر كتاب « الشعر الجاهلي » أعاد الدكتور نشره باسم الأدب الجاهلي بعد أن حذف منه بعض فقرات كانت موضع النقد ، وقد ألف في نقد هذا الكتاب عدة مؤلفات أهمها :

(١) راجع ٢٠٦ المرجع (٢) وراجع أصول نظرية طه حسين عن الشعر الجاهلي وروايته في كتاب مقدمة لدراسة بلاغة العرب لضيف (ص ٥٠ - ٦٢)

- (١) الشهاب الراصد للأستاذ محمد لطفي جمعة المحامي وقد طبعه عام ١٩٢٦
(ب) النقد التحليلي لكتاب الأدب الجاهلي للأستاذ محمد أحمد الغمراوي
(ج) نقض كتاب الأدب الجاهلي للشيخ الخضر حسين
(د) نقد الأدب الجاهلي للخضري
(هـ) نقض مطاعن في القرآن الكريم للشيخ محمد عرفة
ولا نجد بدا من التنويه بعناصر الرد على آراء الدكتور في كتابه في إيجاز
بالغ فنقول :

أولا : أما قصة انتقال الشعر لجاهلي ونفي وجود شعراء يمينيين والذهاب
إلى عكس ما يراه الباحثون حول نظرية تنقل الشعر في القبائل فذلك لا يعتمد
على أكثر من الحدس ، ولا داعي للافاضة في نقده وتحليله (١) فقد سبق
الكلام فيه .

ثانيا : الشعر الجاهلي يمثل حياة الجاهليين ، ويرسم ألوان معيشتهم ، ويروي
عاداتهم ويتحدث عن أديانهم ويصف بيثتهم ولون ثقافتهم . وهل هناك ريب
في أن الشعر الجاهلي يصف البيئة الجاهلية وصفا دقيقا : من حيوان ونبات
وأرض وجبال ووديان وقرى ومن جو ورياح وأمطار الخ ؟ . وهل هناك
شك في أنه سجل لتاريخهم وأخبارهم وأيامهم ، يقول : نيكلسون في كتابه
« تاريخ آداب اللغة العربية » : « إن الأدب الجاهلي المنظوم منه والمنثور يمكننا
من تصوير حياة تلك الأيام الجاهلية تصويرا أقرب ما يكون من الدقة في
مظاهره الكبرى ، ويقول ثوريكس الألماني في كتابه عن فترة أحسد شعراء
الجاهلية ، : لا نملك مصادر موثوقة منها لتدوين تاريخ تلك الغارات البدوية
سوى القصائد والمقطوعات المحفوظة عن شعراء الجاهلية ، وقال أيضا : يمكن
تعريف الشعر الجاهلي بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها
فقد صور العرب أنفسهم في الشعر صورة منطقية على الحقيقة بدون تزويق

(١) راجع في ذلك ١٥٨ - ٢٧٣ من الشهاب الراصد ، وراجع آراء المبشرين
الذين يؤيدون صحة الشعر الجاهلي في الشهاب الراصد (٢٩٩ - ٣٠٤)

ولا تشويه، وقال نولديكة المستشرق الهولندي في كتابه عن الشعر العربي القديم : إن عادات عرب الجاهلية وأحوالهم معلومة لنا بالدقة نقلاً عن أشعارهم وفي الشعر الجاهلي ما يفتن القارئ من أوصاف الحياة والمعادن في البادية ،

ويقول لطفي جعجه في كتابه الشهاب الراصد : « يدل الشعر الجاهلي في جملة على نفوس ناظمية وحياتية » ، ثم قال : والشعر الجاهلي أشد ما يكون اتصالاً بحياة القوم وتاريخهم وأكثر ما يكون تمثيلاً ووصفاً لبيئتهم بل أنه أصدق مثال لحياة العرب أنفسهم ، فأثر تلك البيئة الطبيعية والمحيط الاجتماعي ظاهر في شعورهم بجانب بلاغتهم النادرة ، وهل هناك أكثر من الدلالة على الحياة الجاهلية أكثر من الشعر الجاهلي نفسه الذي هو ديوان العرب ومستودع تاريخهم ومرآة حياتهم وصناعاتهم وعاداتهم

والشعر الديني الذي يمثل الحياة الدينية عند الجاهليين كثير مبثوث في شتى الكتب ، وقد جمع منه الأستاذ لطفي جعجه الكثير (١) ، والذين يذهبون إلى ما يذهب إليه الدكتور طه حسين من أن الشعر الجاهلي خال من تصوير حياة الجاهليين الدينية كثيرون منهم مرجليوث (٢) . ويرى جورجى زيدان أن منظومات العرب الجاهليين في الناحية الدينية قد ضاعت في أثناء الأجيال لعدم تدوينها لاشتغالهم عنها بالحلماسة والفخر بسبب الحروب التي كانت بينهم قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام أغضى الرواة عنها لأنها وثنية والإسلام يحو ما قبله ، ويقول الأستاذ ادوار براونلش في رده على مرجليوث في مجلة الأدبيات الشرقية عام ١٩٢٦ : « لاحظ العلماء أن الشعر الجاهلي قلما دل على شيء من دين العرب قبل الإسلام وقد ذكر بعضهم في سبب ذلك أن

(١) راجع ص ٨٥ - ٩٢ من كتاب الشهاب الراصد .

(٢) يقول مرجليوث : قلما نعثر في الأشعار الجاهلية على شيء يتصلق بالدين

إلا نادراً

علماء المسلمين يرفضون من الشعر ما خالف دين الإسلام ، وهذا مما يثق
الإنسان بوقوعه ؛

وأما أن الشعر الجاهلي لا يدل على اتصال العرب بغيرهم من الأمم
كما يزعم الدكتور طه حسين فهذا خطأ في الرأي، ألا تسمع لعمر و بن كاثوم
يقول : دوكأس قد شربت ببعلي بك ، : أو لامرئ القيس وهو يصف
رحلته إلى القسطنطينية حيث يقول :

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لا حقان بقيصرا
وهل شعر النابغة لا يمثل اتصاله بملوك الحيرة وغسان أتم تمثيل؟ وعدى
ابن زيد واتصاله بديوان كسرى معروف ورحلات بني عبد مناف في البلاد
لتأمين طرق التجارة مشهورة ويقول الشاعر الجاهلي :
يا أيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بأرض عبد مناف؟
الآخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف
ويقول الأعشى :

قد جبت ما بين بانقيا إلى عدن وطال في المعجم تردادي وتسياري
ويقول :

وطوفت للمال آفاقه عمان نخمص فأوريشلم
أتيت النجاشي في داره وأرض النبط وأرض المعجم

ثالثا : الشعر الجاهلي ولهجات العرب (١) :

(١) يستدل الدكتور طه على اتصال الشعر الجاهلي بأنه لا يمثل اللغة
العربية ولهجاتها (٢) .

(١) راجع ص ١٠٠ - ١٥٩ من الشهاب الراصد

(٢) راجع رد الاستاذ لطفي جمعه على رأى الدكتور طه وهو أن الشعر الجاهلي
لا يمثل لهجات القبائل حيث أثبت الاستاذ لطفي عكس هذه النظرية بأدلة من الشعر
الجاهلي الذي يمثل لهجات القبائل المختلفة (١٥٤ - ١٥٧ الشهاب الراصد)

ويبدو من أفراد الدكتور كلمة اللهجات مرة وعطفها على اللغة أخرى أنه لا يفرق بين اللغة واللهجة والفرق بينهما شظيم، فاللهجة طريق أداء الكلام إلى السامع ويتمثل ذلك في التفتيح والترقيق والإمالة وعدمها مما لا يؤثر في ذات الحرف ولا يقتضي العدول عنه أو عن الكلمة إلى غيرها فالجمل الواحد نستطيع النطق بها بمختلفة الهيئة مع بقاء حروفها وكلماتها في كل صورة من صور النطق كما في تلاوة القرآن بالقراءات المتنوعة التي لم تختلف فيها الكلمات إلا بما قدمنا. وبعد ذكرنا لهذا الفرق نقول: إن اختلاف اللهجة لا يؤثر في وزن الشعر ولا في قوافيه، فمثلاً قفا ربك الح لا يحدث تفتيح الألف في قفا ولا إمالتها في ذكرى شيئاً في وزنه، ونحن لانخالف الدكتور في أن العرب كانوا في الجاهلية مختلفي اللغات واللهجات، ولكننا لا نسلم بما استنبطه الدكتور من ذلك وهو أنه كان يجب أن نرى في الشعر اختلافاً بين المروى عن القحطانيين والعدنانيين، ذلك لأننا نؤمن مع إيماننا بهذا الاختلاف أنه كان بتقدم العهد واتصال العرب ورحلة أهل الجنوب إلى الشمال وقيام قريش بالسيادة على العرب، قبل ظهور الإسلام، والاشتغال بالتجارة بين الجنوب والشمال وقيام عكاظ، كل ذلك قرب من هذه اللغات واستطاعت قريش أن توجد لها لغة مختارة من شتى لغات العرب وقد ارتضاها الخطباء والشعراء لغة لهم في المحافل العامة، لأنها مختارة من شتى لغات القبائل فهي حبيبة لهم مفهومة عندهم وهي لغة قريش ذات السيادة، أما اتصال القبائل الذي حاول الدكتور أن ينفذه بقوله «وثبت أن العرب كانوا متنازعين ليس بينهم من أسباب المواصلات المادية والمعنوية ما يمكن من توحيد اللغات»، هذا الاتصال ثابت بالتاريخ، فصلة المصاهرة كانت شائعة بين شتى القبائل يصهر القيسي إلى القرشي، والرعي والتميمي والعدناني إلى القحطاني، فزهير بن خزيمة العبسي سيد بني عبس أصهر إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة، فقد زوجه ابنته المتجردة، وكانت صلات الحلف تجمع بين القبائل العربية، كما كان بين أسد وخطمان وبين قريش وثقيف.

(ب) وما يذهب إليه الدكتور من اختلاف لغة حمير عن اللغة العدنانية
جد الاختلاف مبالغ فيه وردنا عليه هو أن :

١ - ما ذكره الدكتور من الأمثلة للغة الحميرية يدل على علاقة العدنانية
بالقحطانية وأن الأولى وليدة الثانية ، وأوجه الخلاف التي يمكن استنباطها
من هذه الآثار هجائية ، ونحوية واغوية ، وهذه الأنواع من الخلاف لا تجعل
اللغتين متمايزتين كما استنبط الدكتور فإنه حاصل في اللغة الواحدة ، كما أنه
يسلم معنا بأن في اللغتين ألفاظا متحدة في الصيغة والمعنى مثل أخ وأخت ونعمة
وحلف ووثن وغير ذلك ، ثم إن هذه الآثار لا يعلم تاريخ كتابتها ، وبعض
المؤرخين على أنها كتبت قبل الميلاد بخمسة عشر قرنا .

٢ - لو سلمنا بوجود الخلاف الكبير بين اللغتين العدنانية والقحطانية
فلا يترتب على ذلك وجوب تمثيل القحطانية في شعر الشعراء القحطانيين
المرؤى شعرهم ، لأن القحطانيين : قسبان : سبثيون وحميريون ، قالسبثيون
نزحوا من الجنوب إلى الشمال قبل الإسلام بعد سيل العرم ومنهم الاعمميون
ملوك الحيرة والغساسنة ملوك الشام والأوس والخزرج سكان المدينة وسواهم
أما حمير فهي التي كانت بأرضها في ظفار وصنعاء وما جاورها ، وهي التي قال
فيها أبو عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن ألسنا ولا عربيتهم
عربيتنا » .

٣ - لا ننكر أن هناك اختلافا بين لغات العرب إلى جانب اختلاف
لهجاتها ، ولكنه اختلاف لا يستوجب التباين الذي تصوره الدكتور ، وقد
عرف العلماء هذا الاختلاف ودونوه ، فمن ذلك الترادف مثلا . وقد ذكرنا
سابقا بعض وجوه الاختلاف بين اللهجات واللغات العربية فلاداعي لذكرها
هنا الآن .

ويقول المرحوم الأستاذ محمد عبيد المظالم في مقالة له نشرها في البلاغ
يرد فيها على الدكتور زكي مبارك في ذهابه إلى هذه النظرية الجديدة ، نظرية

اختلاف لغة أهل الجنوب عن لغة أهل الشمال : « يعتمد الدكتور في تأييد رأيه على الأدلة الآتية :

أولا - كان القدماء من مؤرخي اللغة العربية يفهمون حق الفهم أن اللغة العدنانية تختلف عن اللغة القحطانية في كثير من الألفاظ والتعابير وشواهد ذلك كثيرة . . ومن القدماء من صرح بأن لغة أهل اليمن غير لغة أهل الحجاز ومن هؤلاء أبو عمرو بن العلاء . وليت شعري أترجع الدكتور عن شيء من دعواه ؟ فشتان ما بين « اختلاف اللغتين اختلافًا جوهريًا » وبين أن « اللغة العدنانية تختلف عن اللغة القحطانية في كثير من الألفاظ والتعابير » . ساق الدكتور هذه العبارة دليلًا أولاً على مدعاه فهي فاتحة الكتاب في الاستدلال وأنا أقول معه ومع المتقدمين نعم إن اللغة العدنانية تختلف عن اللغة القحطانية مع بقاء الوحدة بينهما لأن هذا هو اختلاف الحروف واللهجات الذي أثبتته في أصل دعواه وهل هذا يسمى بالاختلاف الجوهري ؟ . وإذا يخرج البرهان العقلي الذي استأثرت به المدرسة الجديدة في صورة القياس الآتي : بين لغة اليمن ولغة العدنانيين خلاف جوهري - « أي في جوهر اللغة لا في أغراضها » - وأول دليل لذلك أن المتقدمين كانوا يفهمون حق الفهم أن اللغتين مختلفتان في كثير من الألفاظ والتعابير . فأى اللغتين يقصد المؤرخون بما قالوا ؟ أم هي اللغة التي أثر عنها الأدب العربي قبل الإسلام ؟ أم هي اللغة التي كانت قبل هذا ولم يصلنا من أدبها شيء ؟ فإن كان الثاني فهو ممنوع . لأن لغتين لم يصلنا شيء منهما لا يمكن لباحث ولا مؤرخ أن يدعى الخلاف بينهما ، لأن وجود هذا الخلاف فرع عن وجود اللغتين . والعقل يقول باتحاد اللغتين في هذه الأزمان لا باختلافهما . وإذا كان الأول فإنه لا يجوز لعقل أن يحمل ما قالوه على ظاهره كما حملته المدرسة الجديدة أيحكم أبو عمرو وأمثاله بالتغاير بين اللغتين على المعنى الذي فهمه الدكتور واضربه ، وهو يسمع شعراء مذحج وكندة وطيم والأزد حوله يقولون ما يقولون . فهذا عبد يغوث المذحجي يقول :

الا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا فسا لكما في اللوم خير ولا ليا
وهذا الالفوه الاودي المذحجي يقول أيضاً :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهلهم سادوا
ويقول السكندی :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
ويقول عمه شرحبيل :

تعلم أن خير الناس طرا قتيل بين أحجار الكلاب
ويقول حاتم الطائي :

وأغفر عوراء الكريم ادغاره وأعرض عن شتم اللثيم تكمرا
وكذلك يسمع حسانا وابن الخطيم وابن رفاعة يقولون ما يقولون بما هو
معروف من شعرهم وهم أزد يون . وإذا فكلام أبي عمرو ومن قال به لا ينصرف
إلا إلى اختلاف اللامجتين لا إلى اختلاف اللغتين . وكأني بالدكتور ينكر
أن ما قدمت من الشعر طرأ على اليمانيين عدناناً الديباجة . إن اختلاف اللامجات
أمر طبيعي لا في لغة العرب وحدها بل في جميع اللغات حتى لقد يصل الخلاف
فيها إلى حد أن أحدهما لا يفهم الآخر .

ثانياً - يقول الدكتور زكي في دليله الثاني ما نصه : إن النقوش التي
اكتشفت في اليمن ودرسها المستشرقون تبين في وضوح تام أن اللغة الحميرية
لغة مستقلة لا تشابه مع اللغة العدنانية إلا في طائفة من الألفاظ ، أما أصولها
من حيث النحو والتصريف وطرائق التعبير فتختلف عن اللغة المدنانية أشد
الاختلاف . إلى أن قال : « وتلك النقوش أوثق من الروايات الشفوية التي
يعتمد عليها بعض الناس . والاستهانة بهذه النقوش تعد جرأة عجيبة لأن
الأثر المنقوش أوثق من الأثر المكتوب في عرف أهل التاريخ وما يلجأون
إليه من التشكيك في قيمة النقوش لا يفهمون فتيلاً لأن تلك النقوش إلهام
المراجع حتماً في درس أصول اللغات . » إن النقش أثر على الأحجار إن صح

كان أوثق الأدلة كما يقول، وإنما يجب علينا الإيمان بالنقوش الحميرية إذا اجتمعت فيها الشروط الآتية :

(١) أن يثبت باليقين أنها نقشت في الزمن الذي نتكلم ببلغته ولم تصطبغ اصطناعاً لأغراض سياسية أو اجتماعية أو نحو ذلك من الأغراض .

(٢) أن تكون بأيدي أهل تلك اللغة صنعت وبلغتهم نقشت .

(٣) أن تكون من الكثرة بحيث لا يحتمل الشك فيها .

(٤) أي يعرض لها من الشبه ما يوجب الشك فيها . على فرض توفر الشروط السابقة .

إذا ثبتت هذه الاعتبارات الآثار النقشية ثبوت اليقين وجب المصير إلى ما تحكم به إذا ، لأنه يقين ، وإذا لم تثبت هذا الثبوت كان الحكم المبني عليها ظنياً أو مشكوكاً فيه فلم يستأوى من الرواية بشيء في إفادة العلم وكان بناء اليقين عليها بناء متصدعاً أحشى أن ينهار على المدرسة الجديدة فيصدع به بليانها .

فأما الشرط الأول فإن أحداً من الناس لا يستطيع الجزم به في تلك الآثار وفوق هذا فإن بين أيدينا ونحن بلاد الآثار ما يؤيد بقوة ، احتمال الصنعة في تلك النقوش .

ونحن نرى بأعيننا إلى أي حد وصلت صناعة التقليد في آثار المصريين من الأجمال ، الجمارين ، والدمى وغيرهما ثم لينظر كيف أحكم عليها نقش الهيروغليفية . فهل لدى الدكتور دليل واحد يمنعني أن أجوز هذا التقليد فيها ذكر هو من الآثار . ولعل الدكتور يعلم ولا ينكر هذا العلم إن بعض أهل العلم بالآثار يصطنعون بعض هذه الأحجار لبعض الأسباب ، كما افترض حضرته أن بعض الرواة قد اصطنعوا بعض الأخبار لبعض الأسباب ، أتحداك يا دكتور .

وأما عن الشرط الثاني فهل يستطيع الدكتور أن يدلنا على من كتب

النقوش التي يستند اليها ويعتمد حتما عليها ؟ أكان من الحميريين أهل اللغة الحميرية أم هو من غيرهم من الأمم المجاورة لهم من أمم الآثار كالمصريين ، مثلاً أو الكلدانيين . وهل يمكنه أن يثبت لى من طريق آخر اينزل هذا الشك من نفسى أن لغة هذا النقش حميرية ، أو لا بدلى أن أو من بأنها حميرية ولو لم يدل عليها دليل . إن أمرنى الدكتور بهذا الإيمان فعلت معنى أخرج فى نظره من هذه الجرأة المعجبية ، ولستكن هل يقبل العقل « وهو الذى يحكمه » ، هذا الإيمان ؟

وأما عن الشرط الثالث فهل يدانى أخى الدكتور على عدد من أحجار هذه النقوش بمنعنى بكثرة واختلاف صانعيه وأمكنته عن الشك فيه ؟ فيكون ذلك عند المدرسة القديمة بمثابة الخبر الذى تتمدد فيه الروايات ؟ إقال لى إن بضعة الأحجار التى فى طلل من الأطلال بعد ما قدمت له تفيد القطع باليقين ، فأنا السميع بذاتى دون عقلى لأن حكمه يقضى على بالأأوقن وقد أمرنى أخى باليقين وهو الذى يعرف وحده كيف يحكم العقول .

وأما عن الشرط الرابع فإنى أسأله - وعمدى به ألا يغالط أو ينكر العلم - ألم يسمع بأن بعض المشتغلين بالآثار من المستشرقين اصطنع بعض هذه الأحجار لبعض الأسباب كما سمع أن بعض الشعراء من الرواة كان يصنع بعض الشعر ويدسه على المتقدمين لسبب من الأسباب أيضاً ؟ وهل هو لم يسمع أن بعض الملوك فى أكمة أثرية « مصر القديمة » محما وأثبت فى الآثار ؟ وهل يحمل الدكتور أن من هؤلاء الملوك رمسيس ؟

أما ما أورده الدكتور من الدليل اثالث الذى يقول فيه : « طبيعة الحياة تأبى أن يكون للعرب لغة واحدة فى جميع أرجاء الجزيرة قبل الإسلام » . فإنى أناقض دليله هذا على الخط المستقيم فأقول إن طبيعة الحياة تأبى أن يكون للعرب لغات مختلفة ذلك الاختلاف الجوهري الذى يشير إليه .

طبيعة الأرض واحدة وبيئاتها متشابهة تشابهاً كلياً ومؤثرات الاجتماع والطبيعة واحدة والحكومة في أكثر الأحيان واحدة واللغة الأصلية واحدة والأمة في عزلة تامة عن سواها، فمن أين يجيء الاختلاف في غير اللهجات ؟

- ١١ -

ويقول الدكتور طه حسين في كتابه «الشعر الجاهلي» : «يقول القدماء : إن أبناء إسماعيل تعلموا العربية من القحطانيين فسموا المستعربة كما سمي الأولون العاربة». ثم تسأل كيف يحصل هذا التمايز العظيم بين اللغتين الذي أثبتته الآثار المكشوفة بأيدي المستشرقين ؟ ثم قال : فواضح جداً لمن له إلمام بالبحث التاريخي عامة وبدرس الأساطير والأقاصيص خاصة أن هذه النظرية متكافئة ومصطنعة في عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية .. ثم رأى أن قصة إسماعيل وورودها في الكتب الدينية لا يكفي لإثبات صحتها التاريخية ، قال : نحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية من جهة والقرآن والتوراة من جهة أخرى وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويبنون فيه المستعمرات فنحن نعلم أن حروباً عنيفة نشبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد ، فليس يبعد أن يكون هذا الصلح الذي تم بين المستعمرين وبين العرب أصحاب البلاد ملشاً هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء عم لاسيما وقد رأوا أوائك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئاً من التشابه غير قليل فأوائك وهؤلاء ساميون ، ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أن ظهور الإسلام وما كان من الخصومة بينه وبين وثنية العرب من غير أهل الكتاب قد اقتضى أن تثبت الصلة بين الدين الجديد والديانتين القديمتين ديانة النصارى واليهود .

، أما الصلة الدلالية فثابتة واضحة بين القرآن والثوراة والإنجيل ، إشتراك
في الموضوع والصورة والغرض ، كلها ترمى إلى التوحيد ، ولكن هذه الصلة
الدلالية معنوية عقلية يحسن أن تؤيدها صلة أخرى مادية ملموسة ، فما الذي يمنع
أن تستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود ؟ وقد
كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن
السابع فقد كانت في أول هذا القرن قد انتهت إلى حظ من النهضة السياسية
والاقتصادية ضمن لها السيادة في مكة وما حولها وبسط سلطانها المعنوي على
جزء غير قليل من البلاد العربية الوثنية وكان مصدر هذه النهضة أسواق
التجارة والدين : فأما التجارة فنحن نعلم أن قريشا كانت تسافر إلى الشام وصر
وبلاد الفرس واليمن والحديثة ، وأما الدين فهذه الكعبة التي كانت تجتمع قريش
حولها ويحج العرب إليها كل عام والتي أخذت تبسط سلطانها على نفوس
هؤلاء العرب نورا من السلطان قويا والتي أخذ هؤلاء العرب المشتركون
بجعلها رمزا لدين قوي كأنه كان يريد أن يقف في سبيل انتشار اليهودية
والمسيحية من ناحية أخرى ، .

وهذا الرأي لا يدعمه الدليل اللام إلا ليس ما يمنع ، و ليس بعيد ،
و دأمر هذه القصة واضح ، . على أن هذه الآراء هي من صنع
المستشرقين ووليدة شكوكهم ، وهي تهدم من حيث لا مبرر للهدم ولا نجد
ما نقوله له إلا أن نقول إن الدين في هذا الموضوع لم يصدم بالعالم وإنما
اصطدم بالهوى والهوى لا يثبت أن ينكسر عند أول صدمة على أن السبب
الذي ذكره الدكتور لوضع اليهود الحديث واه لا يصلح أساسا لأنه إذا صح
إنما يثبت القرابة بين الاسماعيلية وبينهم من العدنانيين وبين اليهود ، وأما
العرب الذين أغار عليهم اليهود ثم صالحوهم فهم عرب يثرب وهم من القحطانيين
لأنهم من غسان إحدى قبائل الأزد فالحديث لا يؤدي إلى المطلوب الذي
يريد الدكتور والدكتور يتبع في ذلك رأى الدكتور مرجليوث
فقد قال في مقاله د ذيل مقالة الإسلام ، : و حقيقة الأمر في قصة إسماعيل أنها

دسيسة لغتها قدما اليهود تزلفا إلى العرب وتذرا منهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس أو إلى تأسيس مملكة جديدة في بلاد العرب ، . ونقول كان يكفي وجود القصة في القرآن ليؤمن بها الباحث والناقد جميعاً .

الحكومة الأدبية

بين قصيدتي علقمة وامرئ القيس

— ١ —

علقمة بن عبدة التميمي شاعر جاهلي مشهور ، عاصر امرأ القيس زعيم الشعراء الجاهليين ، وتوفي عام ٥٦١ م ، بعد وفاة امرئ القيس بسنة واحدة ، ومطلع قصيدة علقمة :

ذهبت من الهجران في غير مذهب ولم يك حتماً كل هذا التجنب
ومطلع قصيدة امرئ القيس :

خليلي مرا بي على أم جندب لنقض حاجات القواد المعذب

والموازونات الأدبية بين القصيدتين بمعناها الصحيح معدومة في القديم والحديث . قالوا : إن علقمة ضاف امرأ القيس وكان صديقاً له ، فنذاكرا القريض ، وادعاه كل منهما على صاحبه ، ولجا في ذلك ؛ فقالت لهما أم جندب ، زوج امرئ القيس : قولاً شعراً تصفان فيه الخيل ، وتذكران الصيد ، وعلى قافية واحدة وروي واحد (١) ، لا نظر أياً كما أشعر ، فرضياً بحكمها ، وأنشدها على البديهة قصيدتين كبيرتين بائيتين ، سبق ذكر مطلعتهما ولما فرغا من إنشادهما قالت أم جندب لبعابها : علقمة

(١) هذا كلام صاحب الشعر والشعراء . (ص ٥٨) ، وقد يكون ذلك من زيادة الرواء .

أشعر منك ، فقال وهو يكاد يتميز من الغيظ : وكيف ذاك ؟ قالت :
لأنك قلت :

وللسوط ألحوب وللحاق درة وللزجر منه وقع أهوج منعب
فزجرت فرسك ، وجهده به بسوطك ، ومربته بساقك . وقال علقمة :

فأدر كمن ثانيا من عنانه يمر كمر الريح المنعبل

فأدرك الطريدة وهو ثان من عنان فرسه ، لم يضربه بسوط ، ولا مرأه
بساق ، ولا زجره . فتربد وجهه ، وقال لها : ما هو بأشعر مني ولا كمنك له
وامق ، وطلقة خلفه عليها علقمة .

وقد ذكر هذه الرواية ابن قتيبة (١) ، وأبو الفرج (٢) ، وصاحب
الموشح (٣) ، مع بعض تغيير فيها ؛ ويزيد المرزباني على هذه القصة رواية
أخرى عن أبي عمرو الشيباني يقول فيها (٤) . تزوج امرؤ القيس امرأة من
طى ، وكان مفركا ، فلما كان ليلة ابنتى بها أبغضته ، فجعلت تقول :
« أصبح ليل ، يا خير الفتيان أصبحت أصبحت » ، فينظر فيرى الليل
كهيئته ، فلم يزل كذلك حتى أصبح ، فنزل به علقمة ، وكان من حول
شعراء الجاهلية وكان صديقه له ، فقال أحدهما لصاحبه أينما أشعر ؟ فقال
هذا : أنا ، وقال هذا : أنا ، فتلاحيا ، حتى قال امرؤ القيس : انعت ناقك
وفرسك وانعت ناقتى وفرسى ، قال : فافعل ، والحكم بينى وبينك
هذه المرأة من ورائك ، فقال امرؤ القيس : « خليلي مرأى على أم جندب » ،
وقال علقمة : « ذهبت من الهجران فى غير مذهب » ، فلما فرغا من
قصيديهما عرضاهما على الطائية امرأة امرئ القيس ، فقالت : فرس ابن
عبدة أجود من فرسك ، قال لها : وكيف ؟ قالت : إنك زجرت
فرسك وحركت ساقيك وضربت بسوطك . تعنى قوله :

(٢) الأغاني ج ٨ ص ١٢٨ .

(٤) ٢٩ المرجع .

(١) ٥٨ الشعر والشعراء

(٣) ٢٨ الموشح للمرزباني

فلان جرح الهوب والساق درة وللسوط منه :وقع أخرج مذهب (١)

وإن علقمة جاهر الصيد فقال :

إذا ما اقتصنا لم نقده بجنة ولكن نادى من بعيد ألا اركبي
هذه هي حكومة أم جندب الأدبية بين الشعارين ، في كثير من رواياتها
التي تختلف قليلا وتتفق كثيرا ، والتي لا تخرج عن أن أم جندب فضلت
قصيدة علقمة على قصيدة امرئ القيس .

ويرتاب بعض الباحثين في صحة هذه الحكومة ويرى جورها ويقول :
ولعل ذلك بما حمل ابن المعتز على أن ينكر هذه القصيدة فيما أنكر من شعر
امرئ القيس (٢) .

وذلك هو رأى الدكتور طه حسين في الأدب الجاهلي الذي رأى أن
هذه القصيدة منتحلة (٣) . وقد وقف الباحثون حيال هذه الحكومة الأدبية

(١) الهوب : ألحج جريه حين زجره . درة : أى إذا غمز در بالجرى . الأخرج :
الظلم وهو ذكر النعام والآنثى خرجاء في حال لونه وهو سواد وبياض لون لرماد
والأخرج الرماد . مذهب : مسرع في عدوه .

(٢) ٢١ و ٢٢ تاريخ النقد الأدبي عند العرب للرحوم الأستاذ طه إبراهيم
وقد أخطأ هذا الباحث فيما زعمه من أن ابن المعتز أنكر قصيدة امرئ القيس ، ذلك
أنه يعتمد في ذلك على المرزباني في الموشح : ونص كلام المرزباني هو : قال المرزباني
بعد ذكره لحكومة أم جندب : « وقد روى هذا الحديث أيضا هشام بن الكلبي
ورواه أيضا ابن المعتز وذكره فيما أنكره من شعر امرئ القيس ، (ص ٣٠
الموشح) وكلمة أنكره هنا بمعنى نقده وغايه لا بمعنى إنكار القصيدة ودعوى أنها منتحلة
ذلك اصطلاح عند صاحب الموشح يفهم من قراءة الكتاب ، وهب أن الأمر كما
يقول هذا الباحث فكلام المرزباني يجوز أن يحمل على إنكار أبيات من القصيدة
لا على إنكارها كلها .

(٣) راجع الأدب الجاهلي ٢٢٠ - ٢٢٥ .

موقنين متعارضين : ففريق يؤيد أم جندب في رأيها ، وفريق آخر يرى جور
حكمونها الأدبية ؛ ومن الفريق الأخير الرافعي الذي عرض لحكومة
أم جندب وبين حيفها ، وفضل قصيدة امرئ القيس على قصيدة علقمة ،
وأيد ذلك ببعض الآراء والحجج الأدبية (١) .

يقول الرافعي : وقصيدة علقمة بحملتها ليست بشيء ؛ لأن كل ما فيها من
الالفاظ الباردة ، والمعاني الحسنة ، مأخوذ من قصيدة امرئ القيس ، حتى
ليأخذ البيت برمته ، والشطر بحاله ، ومع ذلك فقد أبر عليه امرؤ القيس
في الصنعة وما أدري كيف هذا ، فلولا أن الزواة مجمعون على أن قصيدة
علقمة بمصح لقلت إنها مصنوعة ، وإن صح خبر هذه المنازعة فيكون ذلك
هو السبب في تعفف امرئ القيس على الشعراء وإدلاله بشعره (٢) .
وقال : وما أرى أم جندب إلا أرادت ما تريد الفارك من بعلمها ،
فقرعت أنفه على حية ونخوة ، وهي تعلم أنها لا بد مسرحة في زمام هذه
الكلمة ؛ وإلا فالبيت الذي توافيا على معناه ليس بموضع تفضيل ، لأن
في قصيدة امرئ القيس ما هو أبلغ في هذه الصنعة من بيت علقمة ،
وهو قوله :

إذا ما جرى شاورين وابتل عطفه تقول هزير الريح موت بأثاب (٣)
ومن تدبر صنعة امرئ القيس للخيال في شعره وجد السوط لا يفارقه
فلمعلمها كانت عادته (٤) ويقول : وما رأيت أحداً من أهل النقد وازن

(١) ٢٢٥ - ٢٣٤ : ٣ آداب العرب الرافعي طبعة ١٩٤٠ .

(٢) ص ٢٢٧ : ٣ تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي طبعة ١٩٤٠ .

(٣) يقول الرافعي : ليس بين الناس اختلاف في أن امرأ القيس أول من

ابتكر هذا المعنى : فبالنخ في صفة الفرس وجعله على هذه الصفة ، بعد أن يجري
شاورين ، ويبتل عطفه بالعرق ، ثم زاد إيغالاً في صفة بذكر الأثاب وهو شجر

الريح في أضغاث أغصانه حفيف عظيم وشدة صوت (٢٢١ : ٣ المرجع) .

(٤) ص ٢٢٧ : ٢ المرجع

بين القصيدتين ، بل كلهم متبعون كلمة هذه المرأة ؛ وبعضهم لا يعرف ما كان بينها وبين امرئ القيس ، وامرئ القيس يقول في قصيدته :

ولأنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلوب (١)

والطريف أن الرافعي لم يوازن بين القصيدتين موازنة أدبية ، وإنما اكتفى بعد ذلك بأن ذكر القصيدتين كاملتين دون تعليق . وعلى رأى الرافعي سار الأستاذ هاشم عطية في كتاب « الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي (٢) » ، قال بعد أن عرض أبياتاً كثيرة من القصيدتين : « والذين يعرفون أن امرأ القيس كان مفركاً تكرهه النساء ، وأن هذه المرأة كانت تكرهه ، وكانت ضلّعت معها مع علقمة (٣) ، يدركون في سهولة أنها جارت في حكمها على امرئ القيس ، لأن الذي قصد من ذكر السوط والساق والزجر — وإن كان فيه شيء من الهجنة — إنما هو التلبيه على مبلغ عنايته بريضة فرسه وتأديبه ، وأن عنده أفانين من الجري ، فيعطى راكمه من كل حالة ما يشبهها من العدو (٤) ، على أنه مع ذلك قال : « فأدرك لم يجهد ، وهو يدل على ما يدل عليه بيت علقمة من أنه أدرك طريدته ، وهو لا يزال كما هو لم يتعب ولم يثن شأوه ، أي لم يعد الشوط بل أدرك من أول حضر (٥) » .

- ٢ -

ونحن هنا في أول موازنتنا الأدبية بين القصيدتين لا يصح أن نحكم في هذه الموازنة أي باعث غير البواعث الأدبية في الحكمة بين

(١) ٢٢٦ : ٣ المرجع (٢) س ١٨٤ .

(٣) هذه الأسباب الأولى في تحليل جور حكومة أم جندب الأدبية ، مضحكة

لغاية (٤) وهذه أيضاً حجة أدبية رائعة مثل ما سبقها .

(٥) ص ١٨٤ الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي .

القصيدتين نفسيهما ، فلا يصح أن نفضل امرأ القيس لأنه زعم الشعراء
الجاهليين ، فنحن نعلم أن علقمة أيضاً شاعر فحل وإن كان لا يصل إلى منزلة
امرئ القيس في زعامة الشعر الجاهلي ؛ قال له ربيعة بن حذار الأسدي
الشاعر الجاهلي : « شعرك كزادة قد أحكم خرزها فليس يقطر منها شيء » ،
يريد أن شعره يثبت على النقد ولا يطرح منه شيء ، وقال ابن سلام :
علقمة ثلاث روائع جياذ لا يفوقهن شعر :

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب

والثانية : طحا بك قلب في الحسان طروب .

والثالثة : هل ما علمت وما استودعت مكتوم (١) .

والعلقمة معان جيدة ، واشتهر بوصف النعامة بما أشاد به ابن الأعرابي ،
ولكنه على أي حال لا يصل إلى منزلة امرئ القيس ، فقد وضعه ابن سلام
الناقد الكبير في الطبقة الرابعة مع عدى وعبيد وطرفة (٢) ، ووضع امرأ
القيس في الطبقة الأولى . فاختلاف منزلة الشعراء الأدبية وما تلقى في
روعن زعامة امرئ القيس للشعر الجاهلي من أثر عميق باطى ، كل ذلك لا يصح
تحكيمه في الموازنة بأي حال ، إنما يجب أن ننهج منهجاً عادلاً فيما نتناول به
القصيدتين من أحكام .

أما قصيدة امرئ القيس فقد بدأها بالغزل العذب الجميل ، وفن امرئ
القيس في الغزل محبب إلى النفوس مستوفى البلاغة ، قريب من القلب والروح ،
يقول فيما يقول :

خليلي مرا بى على أم جندب لنقضى لبانات الفؤاد المذهب
ألم تريانى كلما جئت طارقا وجدت بها طيباً وإن لم تطيب
فإن تنأ عنها حقبة لاتلاقها فإنك مما أحدثت بالمجرب

(١) ص ٥٠ طبقات الشعراء لابن سلام .

(٢) ص ٤٩ المرجع .

ولاء عيناً من رأى من تفرق أشت وأناى من فراق المحصب (١)
فربقان : منهم جازع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كيكب (٢)
فعميناك غرباً جذول فى مفاضة كمر الخليج فى صفيح المصوب (٣)
فتجد عذوبة فى جزالة ، وقرة عاطفة فى أسلوب عال من الشعر .

ثم انتقل إلى وصف الدوية التى جابها على ناقتة فى أسلوب رائع ممتع
بليغ فقال :

ودوية لا يهتدى لفلاتها يعرفان أنلام ولاضوء كوكب (٤)
تلافيتها والبوم يدعو بها الهدى وقد ألست أطرافها ثنى غيب (٥)
ثم ألم بنافته وشبهها بالحمار الوحشى ووصفه فقال فيما قال من وصفه :
يغرد بالأسحار فى كل سدفة تغرد مياح الندامى المطرب (٦)
ثم انتقل إلى وصف فرسه ، فأجاد الوصف ، وأمتع فى الأسلوب ؛
وامرؤ القيس أوصف الناس للخيل ، فلا غرو أن يحىء هذا الوصف جيلا
ممتعا قويا على غرابة فيه ، ومن قوله فيه :
له أبطالا ظي وساقا نعامة وصهوة غير قائم فوق مرقب (٧)

(١) أشت : أكثر تفرقا أناى : أبعد . المحصب : المكان الذى ترمى فيه الجمار بمعنى
(٢) جازع : قاطع بطن نخلة : موضع . نجد كيكب : جبل يستديره الواقفون
بعرفات (٣) الغرب : الداو العظيم . الجذول : الهر . المفاضة : الأرض الواسعة
الخليج : الماء المتخاج وهو الذى تعترضه العقبات فى سيره فيتياسر مرة ويتيا من
أخرى الصفيح : العريض من الحجارة . المصوب : المنحدر .
(٤) الدوية : الفلاة التى لا يهتدى فيها بعلامة أو ضوء كوكب .
(٥) تلافيتها : قطعها . الغيب : الليل الخالك .
(٦) يغرد : يطرب بصوته السدفة : القطعة من الليل . المياح : المياس .
(٧) الايطل : الخاصرة الصهوة : الظهر . العير : حمار الوحش قائم : منتصب
المرقب : المكان المرتفع .

كثير سواد اللحم مادام بادنا وفي الضمر شوق القوائم شوذب (١)
وصف امرؤ القيس خلقه وصفاً دقيقاً ، ثم وصف قوته وسرعة عدوه ،
فقال فيها قال :

إذا ماجرى شأوين وابتل عطفه نقول : هزير الريح مرت بأثاب (٢)
إذا ماركننا قال ولدان أهلنا تعالوا إلى أن يأتي الصيد فخطب (٣)
ثم انتقل إلى وصف الصيد ، وهو فن من فنون شعر امرؤ القيس
الجيدة العالية ، فذكر خروجه للصيد حول ثعالة ، ورؤيته لقطيع كبير من
الصيد ، وامتطاه متن فرسه ، وحمله غلامه خلفه ، وعدوه الشديد بهما على
آثاره ، وذكر أنه لم يمهل مع ذلك هذا الفرس ، بل ألح عليه يجهده ،
ويستحثه بساقه وسوطه وبزجره له ، حتى أدرك القطيع ، قال فيها قال :

فلمساق ألحوب وللسوط درة وللزجر منه وقع أهوج منعب (٤)
فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه يمر كخذوف الوايد المثعب (٥)
وذكر معركة الصيد وفيئه إلى بيت مشيد ، وجلوسه فيه هو وأصحابه
في يوم جميل تمتع :

فظل لنا يوم لذيذ بنعمة فقل في مقل نحمسه متغيب (٦)

-
- (١) البادن : السمين . المشوق : حسن القوام . الشوذب : الطويل الجسم
للمخلق المنسجم (٢) شأوين : شوطين . ابتل عطفه : سال عرقه على جانيبيه .
هزير الريح : صوتها . أثاب : اسم شجر .
(٣) فخطب : نجمع الخطب للطبع والشواء .
(٤) الألحوب : الجري الشديد ، الدرة الدفعة . الزجر : النهر . الأهوج : اللاحق
المتعب : الذي يصاح عليه وبهذا البيت حكمت أم جندب على امرؤ
القيس بالتقصير وفضلات علقمة عليه .
(٥) الخذروف : لعبة للأطفال .
(٦) يريد أنه كان ذلك اليوم من أيام السعادة التي غاب عنها النحس

يتمتعون فيه بأكل الشواء المضمب (١) .

ثم ذكر رجوعه على فرسه إلى منزله ، وفرسه محبب إلى الأصحاب
غير ملسمين :

حبیب إلى الأصحاب غیر ملعن یفدونہ بالأمهات وبالآب
کأن دماء الهادیات بنحره عصاره حناء بشیب مخضب (٢)

وتلتهى هذه القصيدة الرائعة القوية الخصبة الخيال ، البليغة الأسلوب ،
الكثيرة المعاني ، المشبوبة العاطفة والشعور ، الطويلة حتى تبلغ أبياتاً
خمساً وستين بيتاً .

أما قصيدة علقمة فعدد أبياتها خمسة وأربعون بيتاً بدأها بالغزل كما بدأ
أمرؤ القيس قصيدته ، فقال :

ذهبت من الهجران في غير مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب
ليـالى لا تبلى نصيحة بيننا ليالى حلوا بالستار فغرب (٣)
مبتلة كأن أنضاء حلماً على شادن من صاحبة مترب (٤)
وبعد أن تحدث عن ماضى حبه لها ، ذكر الحاضر المؤلم الذى تقطعت
فيه أسباب المودة والحب ، فقال فيما قال :
إذا اللحم الواشون للشر بيننا تبلغ رس الحب غير المكذب (٥)

-
- (١) أى الذى لم ينضج تماماً (٢) الهاديات : أوائل الوحش
(٣) الستار جبل بعلية الججاز . غرب : موضع تلقاءه .
(٤) مبتلة : الحسنه الخلقة وتقسيم الاعضاء ، أو الضامرة الكشح الانضاء
جمع نضو : الهزيل : الحلى ، والحلى : ما تزين به المرأة ، الشادن : ولد الغزال .
اصاحه : موضع . مترب : مربى : فى البيوت . شبه جيدها وما عليه من الحلى بحيد
هذا الشادن الذى تربيته الجوارى وتزينه بالحلى .
(٥) اللحم : أدخل للشر اللام رائحة . الرس : الثابت الراسخ . المكذب :
الزائل المتقطع

أطعت الوشاة والمشاة بصرمها فقد أنهجت حبالها للتقضب (١)
ويذكر وعدماله ، ودلالها الشديد ، ورجوع المودة والصلة من جديد ،
ثم يقول :

فعمشنا بها من الشباب ملاوة فأنجح آيات الرسول المخيب (٢)
ثم يذكر تسلييه بالأسمار على ظهر ناقته :

فإلك لم تقطع لبانة عاشق بمثل بكور أو رواح مؤوب
ثم ينتقل إلى وصف الناقة ، فيجيد وصفها في خمسة أبيات جميلة قوية
بليغة الأسلوب ، فيقول فيها يقول في وصف عينها :

بعين كمرآة الصنّاع تديرها لمحجرها من النصف المثقب (٣)
وفي وصف ذيلها :

تذب به طوراً وطوراً تمره كذب البشير بالرداء المهدب (٤)
ثم ينتقل إلى وصف الفرس فيجيد إجادة عالية ، قال فيها قال :

وقد أغندى والطير في وكتاتها وماء الندى يجرى على كل مذنب (٥)
بمنجرد قيد الأوابد لآحه طراد الهوى كل شار مغرب (٦)

(١) الصرم : الحجر . أنهجت حبالها للتقضب : ضعفت العلاقة بيني وبينها
وكادت أن تنقطع ، والتقضب : التقطع .

(٢) ملاوة : دهر أطويلاً . عمشنا بها : أي نعمنا بوصفها . آيات : علامات
مخيب معلم الخب وهو الخداع أو من الخيب يريد المشى بين الحبيبين والخيب نوع
من السير ، يريد الرسول المفسد .

(٣) أي بعين صافية صفاء مرآة الصنّاع وهي المرأة الحاذقة العمل . المحجر :
ما حول العين . النصف : الخمار . المثقب : ذو الثقوب .

(٤) تذب : تدفع الذباب : المهدب : ذو الأهداب .

(٥) أغندى : أخرج في الغدو . وكتاتها : أعشاشها . المذنب : مسيل الماء إلى

الرياض . (٦) منجرد : قصير الشعر . الأوابد : بقر الوحش . لآحه : أهزله

ويتسلف أذنيه فيقول .

له حرتان تعرف العتق فيهما كسامعتي مذعورة وسط ربرب (١)
وهكذا يصنفه علقمة وصفا دقيقا ؛ ثم انتقل إلى الصيد فقال في أسلوب

متبع وتصوير خصب وخيال جميل :

رأينا شياعا يرتعين خميلة كمشى العذارى في أملاء المهدب (٢)
فبيننا ثماريا وعقد عذاره خرجن علينا كالجمان المثقب (٣)
فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الراح المتحلب (٤)

وهذا البيت الأخير من أسباب حكومة أم جندب الأدبية التي فضلت
فيها علقمة على امرئ القيس ؛ إلى أن أن قال :

فعادى عدا بين ثور ونعجة وتيس شبوب كطشيمة قرهب (٥)
ثم يذكر عودته إلى خبائه المطنب المضروب :

فقلنا : ألا قد كان صيد لقانص نجبوا علينا فضل برد مطنب (٦)

الطراد : المطاردة . الهوادي : أوائل الوحش . الشار : الشوط . المغرب : البعيد
(١) الحرتان : الأذنان جعلهما حرتين للطافتها وانتصابهما . السامعتان :
الأذنان . المذعورة : المفزعة يريد بقرة الوحش ذعرت فتصبحت أذنيها وحدها
الربرب جماعة بقر الوحش .

(٢) الشياخ : الأعاج الوحشية . الخميكة : الأرض الكثيرة النبات والشجر ؛
المهدب ذو الهدب . (٣) الثماري : التجادل والتشكك . عقد عذاره : أى إجماع
الحبل . الجمان حب يصنع من فضة على هيئة العقد أى خرجت متتابعة منتظمة كالجمان
المنظوم . (٤) ثنى عنان فرسه : جذبه نحوه الراح السحاب ، المتحلب : المتساقط
المتتابع . (٥) فعادى عدا : جرى أشواطا متتالية ، التيس : الذكر من الظباء
الشبوب الفوى ، الطشيمة : الشجرة البالية وشبهه بها في حالة صيده وسه وطاصريها
على الأرض كالشجرة التي تقع وهي بالية .

(٦) نجبوا : أى فضربوا علينا خياما ، البرد : كل ثوب موشى ، المطنب :
المشدود بالاطناب وهي حبال الخيمة

وتمنهم بالاكل من الصيد ورميهم لعيون الصيد حول الخباء ،
 كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب (١)
 ثم يذكر عودته من رحلة الصيد على فرسه الذى سار فى نشاط وحدة
 يسابق النوق وتسابقه ؛ ويشبهه بالحياة المناسبة :
 وراح يبارى فى الجنباب قلو صنا عزيزا علينا كالجنباب المسيب (٢)
 وبذلك تلتهى هذه القصيدة .

- ٣ -

ومن ذلك العرض السريع نرى أن القصيدتين :

أ - وتشابهان فى الوزن والقافية .

ب - وفى الموضوع أيضاً ، فبكنا القصيدتين مبدوءة بالغزل ،
 ووصف كل من الشعارين فى كليهما الناقة والفرس ورحلة الصيد ونزوله
 فى الخباء المضروب للراحة وتناول الطعام ، وعودته من هذه الرحلة الجميلة
 الممتعة ، ويزيد امرؤ القيس بوصف المراقبة (٢) بيتين والدوية (٤) فى بيتين
 آخرين بعد الغزل مباشرة .

ج - وتشابه القصيدتان أيضاً فى الخيال والروح ، وفى هذا الارتجال
 الفنى والهدية الحاضرة الذين تفيض فى ذكرهما الروايات المختلفة .

د - وتشابهان فوق ذلك فى كثير من المعانى وأساليب الشعر :

١ - قال امرؤ القيس فى الفرس :

حبيب إلى الأصحاب غير ملعن يفقدونه بالأمهات وبالآب

(١) الجزع : خرز فيه بياض وسواد

(٢) يبارى : يسابق ، الجنباب : مصدر جانبه مجانبه إذا صار إلى جنبه ، الفلصر
 الناقة الشابة القوية ، الجنباب : الحية . المسيب : المناسبة

(٣) هى المكان المرتفع الذى يقف عليه الديدبان ليرقب العدو

(٤) الدوية : الغلاة الواسعة

وقال علقمة :

أخا ثقة لا يلعن الحى شخصه صبوراً على العلات غير مسبب
فذكر امرؤ القيس أنه غير ملعن ، وفصل علقمة فقال « الحى ،
وشخصه ، ثم عاد فأجمل فقال : « غير مسبب ، أى غير ملعن ؛ وزاد
امرؤ القيس بقوله : « يفدونه بالأمهات وبالأب ، ؛ وزاد علقمة بقوله :
« أخا ثقة ، أى يوثق به وبنجابته وأصالته وقوته وسرته عدوه عند
المطالب ؛ وبقوله « صبوراً على العلات ، أى على مختلف الحالات أو على
ما يلزمه من تعب وإفناء .

٢ - وقال امرؤ القيس فى الفرس أيضا :

فكان تنادينا وعقد عذاره وقال صحابي : قد شأرك فاطلب
وقال علقمة :

فبينما تمسارينا وعقد عذاره نخرجن علينا كالجنان المثقب
يقول امرؤ القيس : أبصرنا قطيع الوحش فنأدى بعضنا بعضاً وألجت
الفرس ، فسبق الصيد ، وقال أصحابي : قد سبقك القطيع فاطلبه . . ويقول
علقمة : أخذنا فى الجدال والكلام والشك وأنا أجم فرسى وإذا نـعـاج
الوحش تخرج علينا متتابعة منتظمة كالجنان المنظوم ، فلم يذكر علقمة أن
الصيد قد هرب منه ، ولا أن أصحابه قالوا له شيئاً ، وزاد بهذا التشبيه الرائع
« الجان المثقب ، زيادة رائعة .

٣ - وقال امرؤ القيس فى الفرس :

فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه يمر كخذروف الوليد المثقب
وقال علقمة :

فأدركن ثانيا من عنانته يمر كمر الرائح المثعلب
فذكر امرؤ القيس أن فرسه أدرك الصيد بشوط واحد وأنه كان شديد

الجرى لا يبصره الناظر وأن مثله مثل هذه اللعبة التي يلعب بها الأطفال بما يسمونه « المقلع » فإذا ضربت لم تكدر تراها العين ؛ وذكر علقمة أن فرسه أدرك الصيد وهو ثان من عنانه أى يجذبه نحوه ، وشبه سرعته النادرة بسرعة السحاب المتساقط المتتابع . . فنجد امرأ القيس ينص على أن فرسه لم يصبه إجهاد وأنه أدرك الصيد من شوط واحد ، ونجد علقمة لا يذكر شيئاً من ذلك ولكنه يذكر أن فرسه كان شديد العدو حتى كان يجذب عنانه نحوه ليهدا في سيره ، ويأتى بهذا التشبيه الجيد الذى أفضله على تشبيه امرئ القيس .

د - وقال امرؤ القيس فى فرسه :

وراح كئيس الربل ، ينغض رأسه أذا به من صائك متحلب (١)
وقال علقمة :

وراح كشاة الربل ينغض رأسه أذا به من صائك متحلب
فنجد اتفاق البيتين فى أكثر الأسلوب وفى المعنى ، وإن كان علقمة مسبقاً ، والفضل لامرئ القيس .

ه - ويقول علقمة :

ترى الفأر عن مسترغب القدر لا تحما

على جدد الصخراء من شد ملهب (٢)

(١) شاة الربل : كئيس الربل يعنى الثور الوحشى وقد شبه به الفرس فى نشاطه وحده ، ينغض : يحرك ، الصائك : العرق ، المتحلب : السائل المتقاطر ، يقول إن هذا الفرس راح يحرك رأسه ليزيل العرق المتقاطر السائل

(٢) عن معنى من ، مسترغب القدر : واسع الخطو ، لا تحما : ظاهراً ، الجدد الطريق . شد ملهب : أى من جرى فرس ملهب وهو الشديد الجرى المثير للغبار

خفى الفأر من أنفاقه فكأنما تجلله شؤبوب غيث منقب (١)
وظل لثيران الصريم غماغم يداعسهن بالنضى المملب (٢)
فهاو على حر الجبين ومقق بمدراته كأنها ذاق مشعب (٣)

وقال امرؤ القيس من قصيدته فى المعنى نفسه :

ترى الفأر فى مستنقع القاع لا حبا (٤)

على جدد الصحراء من شد ملهب

خناهن من أنفاقهن كأننا حذاهن ودق من عشى بجلب (٥)
وظل لثيران الصريم غماغم يداعسها بالسهمرى المملب
فكاب على حر الجبين ومقق بمدرية كأنها ذاق مشعب
فتجد تشابه المعنى والأسلوب والألفاظ والخيال فى القطعتين .

٦ - وقال امرؤ القيس :

وقلنا افتيان كرام : ألا انزلوا فعالوا علينا فضل ثوب مطب
وقال علقمة :

فقلنا : ألا قد كان صيد لقاص نخبوا علينا فضل برد مطب

(١) خفى الفأر : أخرجته من أنفاقه ، وهو جمع نفق وهو الجحر . تجلله : غشيه
وأحاط به ، الغيث المطر ، المنقب : الذى ينقب فى الأرض ويستخرج ما فيها لشدته .
الشؤبوب : الدفعة من المطر

(٢) لثيران الصريم : بقر الرمل ، الغماغم : حوار الثيران عند الطعن يداعسهن
يطاعنهن : النضى : الرمح ، المملب : المشدود بالعلاء وهى عصبة كانوا يشدون
بها الرماح والسهام لئلا تنكسر

(٣) هاو : ساقط ، حر الجبين : ما أقبل عليك منه ، المدر : القرن ، الذاق
الحذ والطرف ، المشعب : المخرز الذى تخرز به الجلود

(٤) مستنقع القاع : الأرض المنخفضة التى تنقع فيها المياه . لا حبا : ظاهرا

(٥) الودق : المطر ، مجاب : شديد الجلبة والصوت

فيزيد علقمة بذكره « صيد القانص » ، ويوجز فيحذف ذكر النزول ،
ويزيد امرؤ القيس فينص على كرم الفتيان وعلى ذكر النزول .

٧ - ويقول امرؤ القيس :

وقد اغتدى قبل الشروع بسابح أقب كيعفور الفلاة بمنب (١)
ويقول علقمة :

وقد اغتدى والطير في وكناتها وماء الندى يجرى على كل مذب (٢)
بمنجرد قيد الأوابد لآحه طراد الهوادي كل شأو مغرب (٣)
فتجد علقمة يزيد هذه الزيادات الجميلة الرائعة حفا : « وماء الندى
يجرى على كل مذب » ، و « منجرد قيد الأوابد - البيت كله » ،
ويزيد امرؤ القيس في وصف فرسه بما وصفه به ، وإن كانت « منجرد » ،
وقيد الأوابد ، بما ابتكره امرؤ القيس وأخذ عنه ، إلا أن علقمة هنا أرفع
بلاغة من غير شك .

٨ - ويقول امرؤ القيس في الناقة :

بمجرة حرف كأن قتودها على أبلق الكشحين ليس بمغرب (٤)
ويقول علقمة :

بمجرة الجنين حرف شمة كهمك مرقال على الأين ذعلب (٥)

-
- (١) السابح : الفرس السريع الجري ، الأقب : الضامر البطن ، اليعفور : حمار
الوحش ، الفلاة : الصحراء (٢) المذب : مسيل الماء إلى الرياض
(٣) منجرد : قصير الشعر ، الأوابد ، بقر الوحش ، لآحه ، أهزله ، الطراد
المطاردة ، الهوادي ، أبائل الوحش ، الشأو : الشوط ، الغرب : البعيد
(٤) المجرة : الناقة العظيمة البطن ، الحرف التي تماثل حرف الجبل في صلابتها
القتود : أداء الرجل ، أبلق الكشحين يريد حمرا وحشيا أبيض الخاصرة ، المغرب
الذي أبيضت أشفاره وجماليتها ،
(٥) الحرف ، الضامرة أيضا ، الشمة ، السريعة . كهمك أي كما تشتهي وتريد المرقال

٩ - ويقول امرؤ القيس في الفرس :

وهو هواء تحت صلب كأنه من الفضة الخلقاء زحلوق ملعب (١)
ويقول علقمة في المعنى نفسه :

وجوف هواء تحت متن كأنه من الهضبة الخلقاء زحلوق ملعب

١٠ - ويقول امرؤ القيس في ذنب الفرس :

واسحم ريان العسيب كأنه عشا كيل قنو من سميحة مرطب (١)
ويقول علقمة في ذنب الناقة :

كان بحاذيها إذا ما تشذرت (٣) عشا كيل قنو من سميحة مرطب
فيزيد علقمة بالشطر الأول أو أغلبه على امرؤ القيس .

١١ - ويقول امرؤ القيس في الفرس :

وعينان كالماويتين (٤) ومحجر إلى سند مثل الصفيح المنصب
ويقول علقمة في الناقة :

بهين كمرأة الصناع تديرها لمحجرها من النهيف المثقب

فيشبه امرؤ القيس عيني الفرس بمراآتين صافيتين ويقول : إن عينه
يسندها عظم الوجه القوي الصلب المنتصب ، ويقول علقمة : إن عين

الكثيرة الرقلان وهو المشى السريع ، الاين ، التعب ذعاب ، خفيمة في سيرها
(١) البهو ، جوف الصدر ، هواء ، واسع ، الصلب ، الظهر ، الخلقاء ، الملساء ،
الزحلوق ، ما يترحق عليه الاطفال أثناء لعبهم

(٢) الاسحم ، الاسود ، والمرادبة الذنب ، ريان ، تمتلي ، العسيب ، أصل الذنب .
العشا كيل : الاغصان الرقيقة وهي الشماريح ، القنو : العنق وهو العنقود ، سميحة
بئر على حافته نخل مشعر

(٣) الحاذان ، ما وقع عليه الذنب من الغنخين ، تشذرت الناقة ، ضربت بذنبها

(٤) تثنيه ماوية وهي المرأة الصافية المحجر : نفرة العين . الصفيح المنصب :
الواح الحجارة الثابتة .

الناقة شبيهة بعين المرأة الصناع التي تديرها وتنظر بها من خلال ثوب الخمار ؛ فتجد إحمكا في التشبيه عندهما واختلافا في تفاصيل المعنى ، واتفاقا في عمومهما . وهذا الاتفاق كما بين لنا مدى هذا التشابه الفني الواسع بين تينك القصيدتين الكبيرتين .

- ٤ -

وهناك خلاف كبير أيضا بين القصيدتين يتجلى لك في ما يأتي :

١ - قصيدة امرئ القيس تزيد على قصيدة علقمة عشرين بيتاً فالأولى خمسة وستون والثانية خمسة وأربعون .

٢ - وشتان بين غزل القصيدتين ، فغزل امرئ القيس تمتع خصب بعكس غزل علقمة ، علقمة لا يحسن أن يتغزل كما يتغزل امرؤ القيس ، فتجده يقول :

فإني لم تقطع لبانة عاشق بمثل بكور أرواح مؤوب
فيرى أن يقطع آماله في حب محبوبته ويقطع صلته بها بالسفر مبكراً
أورائحاً ؛ ويقول أيضاً :

فقلت لها : فيئى فما يستفزنى ذوات العيون والبنان المخضب

وإذا لم تستفزه هؤلاء فمن الذى يستفزه بعدهن ؟

ولكن امرئ القيس لا يدور بخلده شيء من ذلك ولا ينطق به لسانه ، إنما نراه يقول :

فإني لم يفخر عليك كفأخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

فتجده يذكر ضعف المرأة وأنوثتها وسجرتها مع ذلك وامتلاكها بهذا الضعف القلوب والأرواح ؛ وقد ذكر علقمة في غزله الوصل ومظاهر الجمال في خلق حبيبته وفي ذيلتها ، ثم صور ما وقع بينهما من صرم وعودة الصلات ثم قطعه لها بالأسفار . أما امرؤ القيس فيذكر لباتات الفؤاد

المعذب وحاجة قلبه إلى اللقاء وجمال محبوبته الفاتن ، ورائحتها الذكية حتى في غير وقت الزينة والطيب ، وإقامتها على المودة وثقته بها ، وينذكر ساعات رحيل أحبابه وهو ينظر إليهن نظرة اليأس الحزين ، تنهمر دموعه حزناً لفراق أحبابه .

وعلمقة في غزله الذي يبلغ الأربعة عشر بيتاً لا يصل على أى حال إلى منزلة امرئ القيس شاعر الغزل والجمال الذي رسم في مطلع قصيدته صوراً حية رائعة لأحبابه وذكرهن في إيجاز وفي ثلاثة عشر بيتاً .

٣ - أما الناقة فقد وصفها علمقة في خمسة أبيات ووصفها امرؤ القيس في بيت بل في شطره فقط ، ويزيد امرؤ القيس فيصف حمار الوحش الذي شبهه ناقته به وصفاً جميلاً ، فعلمقة إذاً يتفوق على امرئ القيس في وصف الناقة ، وإن كان امرؤ القيس يزيد عليه بوصفه للحمار الوحش في ثلاثة أبيات :

٤ - ووصف الشاعران الفرس ، ووصفه علمقة في ثلاثة عشر بيتاً ثم ذكره في بيتين في آخر القصيدة ، ووصفه امرؤ القيس في سبعة عشر بيتاً ثم عاد إليه في ذكره لرحلة الصيد ، وفي نهاية القصيدة عاد لذكره في سبعة أبيات أخرى . ووصف امرئ القيس للفرس وصف دقيق ، لا يترك شيئاً منه إلا ويصفه ويصوره ومن أولى من امرئ القيس بذلك وهو الذي قيل فيه : « أشعرهم امرؤ القيس إذا ركب » ، ولكن امرأ القيس مع ذلك يخطئ في بعض معانيه ، أما علمقة فلا يخطئ في شيء وذلك ملاحظته أم جندب ونقدت امرأ القيس من أجله وفضل علمقة عليه .

٥ - ووصف الصيد عند الشاعرين وصف جميل تمتع . . وصفه علمقة في ثمانية أبيات ووصفه امرؤ القيس في اثني عشر بيتاً . مع اتحاد في بعض الأساليب والمعاني ، ولكن امرأ القيس يزيد في وصف الصيد على علمقة من غير شك ، وزاد عليه أيضاً بوصف الخباء الذي نزل هو ورفاقه فيه لتناول القذا وأكل لحم الشواء المذهب كما يقول :

وبذلك نجد تفوق امرئ القيس في الغزل ووصف الصيد وتفوق
علقمة في وصف الناقة والفرس .

٦ — على أن في قصيدة علقمة صورا شعرية كثيرة أرجح أنه اقتبسها
من قصائد امرئ القيس الأخرى ، كقول علقمة : « وقد أغتدى والظفر
في وكائنها ، » وقوله « بمنجرد قيد الأوابد ، » وقوله : « فعادى عدا
بين ثور وناجعة ، » وقوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

— ٥ —

وامرؤ القيس له السبق في إنشاء قصيدته وإشعار معانيها ، فعلقمة تابع
له في المعاني التي شارك امرأ القيس فيها من غير شك . ولكن بماذا نسف
عمل علقمة ، أنسميه معارضة أم تقليداً فنياً ، أم أنه عمل جديد بكر كعمل
امرئ القيس الشاعر الأول . إن عمل علقمة الفني ليس جديداً بكرة ،
ولكنه جديد في بعض نواحيه ، وهو تقليد في بعض النواحي ، ومعارضة
أدبية في باقيها ، وأسنا نذهب مذهب من يفضل أحد الشعراء على الإطلاق
كما فعل القدماء ، ففضلوا علقمة على امرئ القيس ، فقالت أم جندب ما
قالت ، وقال ابن رشي . ونازع — امرؤ القيس — علقمة بن عبدة ، فكان
من غلبة علقمة عليه ما كان (١) ، وكما فعل بعض المحققين وفضلوا امرأ
القيس على أي حال ، ولكن نهجنا في الموازنة نهج يسير على العدل والحق
والإنصاف في الحكومة الأدبية دون نظر إلى مآخذ ذلك . إن عمل علقمة
الفني في قصيدته جديد في الكثير من معانيها وأساليبها وخيالاتها ، وهو
تقليد فيما أسلفناه لك من معانٍ احتذى فيها علقمة امرأ القيس الذي سبقه
بارتجال قصيدته ، ولكن العجل الفني الذي عمله علقمة كله وعلى وجه
الإجمال أصمية معارضة ، والمعارضة في الشعر أن يقول الشاعر القصيدة ،

(١) ١٣٥ : ١ العمدة ط ١٩٢٥ طبعة هندية بمصر

فيتبعه شاعر آخر بقصيدة في خيالها وروحها وموضوعها مع الاتفاق في الوزن والقافية في أحيان كثيرة ، ويقصد الشاعر الثاني أن يسجل بقصيدته على الأول تفوقا أو أن ينقض فكرة الأول في قصيدته . والمعارضات في الشعر العربي القديم والحديث كثيرة ؛ ولكن المعارضة في قصيدتنا - موضوع هذا البحث - أظهر وأبين وأوضح .

- ٦ -

وبعد فقد حاول علقة بقصيدته أن يتفوق على امرئ القيس في حكم النقد الأدبي ،

وقد نال ما أراد عند القدماء ، وحرره منه بعض الباحثين من المحدثين ولكننا نقدر عمل الشاعرين الفني معا :

١ - فلا امرئ القيس ميزة البدى وفضيلة الابتكار ، وله فضل التفوق في الغزل والهييد :

٢ - ولعلقة فضل المعارضة وفضل الابتكار الذى يظهر في قصيدته أحيانا حتى ليكاد يجعلها جديدة من نواحيها ، وله فضل التفوق على امرئ القيس زعيم الشعر الجاهلى فى وصف الناقة وفى وصف الفرس وهو الفن الذى شهر به امرؤ القيس

إن الصور الفنية الممتعة فى القصيدتين كثيرة جدا ، وخیالهما قوى خصب يتكىء على الحس ، ومعانيهما متدفقة ثرة جياشة لا تكاد تلتهى . ووحدة الموضوع والروح والوزن والقافية فى القصيدتين تكاد تمازج بينهما إلى حد بعيد . وهذا هو آخر تلك الموازنة الأدبية الدقيقة التى فعلنا القول فيها لنتخذ منها منهمجا أدبيا واضحا فى النقد والموازنة ،

الموازنة بين الشعراء

الموازنة هي المعادلة بين كلام شاعرين فأكثر ومقابلة معنى كل واقظه
بالآخر حتى يتبين رجحان أحدهم فيقال « إنه أشعر » وإن كان من شهوات
العقول المفاضلة بين الأشياء والظفر بالافضل ولهذا كان الأدباء من يوم أن
كشف لنا التاريخ وجودهم إلى اليوم مولعين بالموازنة بين الشعراء وتفضيل
بعضهم على بعض فإذا نظرنا إليهم في الجاهلية رأيناهم في سوق عكاظ
يتحاضرون إلى النابغة تحت قبته الحمراء ولحننا هنالك الأعشى وحسان
والخنساء يتناشدون ويتنافسون ، ومقاول العرب في تلك الحلبة يستمعون
وهم أشوق ما يكونون إلى التساق في البيان واستماع حكم النابغة في ذلك .

وإذا رجعنا إلى آراء الأدباء في نوابغ شعراء الجاهلية وجدنا كلمتهم
مفترقة في امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى : لكل منهم شيعه تفضله
على غيره وتقيم البراهين على تفوقه وكذلك حالهم مع كل نابغ من الشعراء
المخضرمين كالخطيب وكعب بن زهير وحسان والنابغة الجعدي وأبي ذؤيب
الهلبي والخنساء وأضراب هؤلاء .

وإذا تخطينا بهم هذه الطبقة إلى طبقة الشعراء الإسلاميين رأيناهم أبعد
خلافا وأكثر شقاقا ، ورأينا الملوك والأمراء والعلماء يشاركونهم في هذا
ويناضلون عن يفضلون فضالا ولا كنضال الحرب تدفع عن العرض
والنفس ، وهذا تاريخ جرير والفرزدق والأخطل والراعي والقطامي
ونصيب مشحون بأحاديث المفاضلة وأحكام المحكمين من الشعراء والعلماء
والأمراء ، وهي أحكام كثيرا ما تكون مطبوعة بطابع الهوى الشخصي
يتجلى لنا ذلك في مجالس عبد الملك ابن مروان وأكثر ملوك بني أمية فقد
كان المفضل عندهم هو الذي ينال فن عددهم أو يمدحهم بما ليس في سواهم
وكذلك القول في الشعراء الغزليين من هذه الدولة : كمكثير ، وجميل ، وإلي

الأخوية : وقيس بن الملوح ، وعمر بن أبي ربيعة . والعرجي .

فإذا ذهبنا إلى بني العباس وجدنا الأدباء هناك يتنازعون للتفضيل بين أبي نواس وصريع الغواني مسلم بن الوليد ، وأبي العتاهية . ثم نراهم أشد ما يكونون تخاصما وتقاطعا في أبي تمام والبحري . ثم بين المعتز وابن الرومي . ثم بين المتلبي ، وابن هاني ، والشريف الرضي ، وهيار الديلمي ، ولا يزال الخلاف الذي كان بين المتقدمين قائما بين أدبائنا إلى اليوم .

وما ترى مذاهب أكثر انشعابا ، ولا طبائع أبعد افتراقا ، من مذاهب الناس وطبائعهم في تفضيل الشعراء

فمنهم من يرى الفضل للشاعر في جريه على الفطرة مع السلامة وإصابة الغرض ، ومن هؤلاء هارون الرشيد . فقد كان يقدم أبا العتاهية ، حتى يجوز الحمد في تقديمه لميله إلى عفو الخاطر وحاضر البديهة والكلام الذي يجري في مجرى العادة حتى لقد بلغه أن إسحاق بن إبراهيم الموصلی يفضل العباس ابن الأحنف عليه ، فلما حضر بين يديه ، وأنشده العباس أجود ما يرويه ولأبي العتاهية أرداه . تعصبا للعباس . قال هارون : فأين أنت عند قول أبي العتاهية :

قال لي أحمد ولم يدر ما بي أنحب الغداة عتبة حفا

فتنفست ثم قلت نعم حبا جرى في العروق عرقا فغرقا

ثم قال : ويحك أنعرف لأحد مثل هذا أو تعرف أحدا سبقه إلى قوله فتنفست ، ثم قلت كذا وكذا اذهب ويحك فاحفظها .

ولما عرف هذا الخلق من هرون ، كان الشعراء يتقربون بهذا النوع من الشعر ، ومن ذلك أن العباس بن الأحنف اشتاق أهله ، وقد كان خرج مع الرشيد إلى خراسان ، وطال مقامه بها ، ثم إلى أرمينية . فعارضه العباس في طريقه وأنشده :

قالوا خراسان أنصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

ما قدر الله أن يدني علي شحط سكان دجلة من سكان جبرانا
مضى الذي كنت أرجوه وآمله أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
عين الزمان أصابتنا فلا نظرت وعذبت بصنوف المجر الوانا

فقال له الرشيد « قد اشتقت يا عباس أذنت لك خاصة ، وأمر له بثلاثين
ألف درهم ، ولولا أن الشعر جاءه من الوجه الذي يحبه لما كان منه هذا
العطف ولا هذا الإحسان .

ومنهم من يرى فضيلة الشعر في الصدق والرفق . وجميل الأحذوثة .
ومن هؤلاء دوحة المجد والادب . بضعة سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
السيدة سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما . فقد أسمعت الشعراء على لسان
وصيفتها نقدها الصحيح ، وغيرتها على أخلاق الأدباء ، وألقت عليهم درسا
ما كان أحوج أمثالهم إليه فقد ذكر صاحب الأغاني أنه اجتمع في ضيافتها :
جرير ، والفرزدق ، وكثير ، وجميل ، ونصيب . فتكثروا أياما ثم أذنت لهم
فدخلوا عليها فقدمت حيث تراهم ولا يرونها ، وتسمع كلامهم ، ثم أخرجت
وصيفة لها وضيئة قد رويت الأشعار والأحاديث فقالت « أيكم الفرزدق ،
فقال لها : ها أنذا . فقالت أنت القائل :

هما دلتاني من ثمانين قامة كما انحط بازاقم الريش كاسره

فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا

أحى يرجي أم قتيل نحماذره

فقلت ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا

وأقبلت في أعجاز ليل أبادره

قال نعم . قالت « فما دعاك إلى إفشاء سرها وسرك ؟ هلا سترت عليك
وعليها خذ هذه الألف والحق بأهلك » .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت « أيكم جرير » قال « ها أنذا »
فقال أنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وايس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام
تجرى السواك على أغر كأنه برد تحدر من متون غمام .
فقال نعم . قالت « أولا أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ، أنت
عفيف وفيك ضعف ، خذ هذه الآلف والحق بأهلك ، » .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت « أيكم كثير ، فقال « هانذا ،
فدالت أنت القائل :

وأعجبي يا عز منك خلّاتك كرام إذا عد الخلائق أربع
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ودوعك أسباب المنى حين يطامع
فوالله ما يدرى كريم بماطل أيدسك إذ باعدت أو يتصدع
قال نعم . قالت « ملححت (١) وشككت ، خذ هذه الثلاثة آلاف (٢)
والحق بأهلك ، » .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت « أيكم نصيب ، قال « هانذا ،
فدالت أنت القائل :

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسى المشأ الصغار
بنفسى كل مهضوم حشاها إذا ظلمت فليس لها انتصار
قال نعم . قالت « ربيتنا صغارا ، ومدحتنا كبارا ، خذ هذه الآلف
والحق بأهلك ، » .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : يا جميل مولاتي تقرئك السلام
وتقول لك والله ما زالت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعري هل أبين ليلة بوادي القرى إنى إذا لسعيد
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

(١) الملاحاة الحسن والشكل الغزل
والاعاءا تحريف والصوات الآلف (٢) الثلاثة آلاف هذه رواية الأغاني

جعلت حديثنا بشاشة ، وقتلانا شهداء ، خذ هذه الألف ديناراً
والحق بأهلك .

وقد قالت مرة لراوية جميل أليس صاحبك الذى يقول :

فيا ليتنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخفى على كلامها
قال نعم . قالت : رحم الله صاحبك إن كان صادقاً فى شعره . . انتهت
رواية الأغاني .

فأنت تراها قد أكثرت جائزة كثير وجميل لعفتها وصدقهما فى الحب
ورفقهما بالقوارير ، وتعطف عليهما أيما تعطف كما عنت أجلاف الشاق
وكذبة المحبة مثل جرير والفرزدق . وإن كانت مروءتها أبت عليهما أن
تحرهما الجائزة وهما فى حرهما خاصة .

وممنهم من يرى الفضل فى المبالغة والقصد إلى الخيان الغريب ولا يبالى
أصدق الشاعر أم كذب بل يجرى على قولهم ، «أعذبه أ كذبه» ، ومن هؤلاء
عبد الملك بن مروان ، فقد روى أبو على القالى فى ذيل ألباليه . أن
عمر بن أبى ربيعة ، وكثير عزة ، وجميل بن معمر . اجتمعوا بباب عبد الملك
ابن مروان فأذن لهم فدخلوا . فقال أنشدونى أرق ما قلتم فى الغواني وأنشده
جميل بن معمر :

حلفت يميناً يا بئينة صادقاً فان كنت فيها كاذباً فعميت
لئن كان جلد غير جلدك مسنى وبأشرفى دون الشعار (١) شريرت (٢)
ولو أن راقى (٣) الموت يرقى جنازتى بمنطقها فى الناطقين حييت

وأنشد كثير عزة :

(١) الشعار ويفتح ماتحت الدثار من اللباس بلى شعر الجسد
(٢) شراه أصابه بعلة الشرى وهى بهور صغار حمر حكاكة يحدث دفعة غالباً
وتشدد ليلاً (٣) رقاء يرقيه نفث فى عوزته

بأبي وأمي أنت من مظلومة طين (١) العدو لها فغير حالها
ولو أن غرة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها
وسمى إلى بصرم عزة نسوة جعل المليك خدودهن زعالها
وقال ابن أبي ربيعة المخزومي القرشي :

ألا ليت قبري يوم تقضى منيتي بتلك التي ما بين (٢) عينيك والقم
وايت طهوري كان ريقك كله وايت حنوطي من مشاشك والدم (٣)
ألا ليت أم الفضل كانت قرينتي هنا أو هنا في جنة أو جهنم
فقال عبد الملك لحاجبه اعط كل واحد منهم ألفين واعد صاحب جهنم
عشرة آلاف .

فيكم لا كنهم أمانى ، وأبعدهم في الخيال ، ولم يبال بما وراء ذلك من
الحاسن التي في شعر صاحبي عمر ولا سيما قول كثير :
ولو أن غرة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها
وإن قوله عند موفق بما لم يوفق إليه سواء ، ولو ألهم جميل أن ينشد
عبد الملك أبياته التي غالى فيها بقناعاته في حب بثينة لرجوت له أن يرضيه كما
أرضاه عمر ، وذلك قوله :

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشي اقترت بلابله
بلا وبالألا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة المعجلى وبالحول تنقضى أو آخره لا ، ناتق وأوائله
وهو في العفة والقناعة غاية ليس بعدها غاية .

ومنهم من يفضل الكلام لحسن التشبيه وتجلى الوصف كما روى الأصمعي
وقد حضر ندى أدب في بني عامر بن صعصعة ، وفيهم شيخ لهم طويل الصوت
عالم بالشعر وأيام الناس ، يمجسع إليه فتيانهم ينشدونه أشعارهم فإذا سمع

(١) طين كقطن وزنا ومعنى (٢) ما بين عينيك والقم له يريد فتحة
أنفها (٣) المشاش جمع مشاشة بالضممة وهي رأس العظم الممكن المضع

الشعر الجيد قرع الأرض بمحجن في يده ، فينفذ حكمه على من حضر بيكر (١)
للملشد وإذا سمع مالا يعجبه قرع رأسه بمحجنه فينفذ حكمه عليه بشاة إن
كان ذا غنم ، وابن مخاض إن كان ذا إبل فإذا أخذ ذلك ذبح لأهل النادى
وما زال يسمع ويضرب الأرض بمحجنه لما يستحسن حتى أنشده شاب
يصف ليله :

كأن شميظ (٢) الصبح في أخباراتها ملا ، ينقى من طيايسة خضر
نخال بقاياها التي أسار (٣) الدجى تمد وشيماً (٤) فوق أردية الفجر
فقام كالمجنون مصاةً سيفه حتى خالط البرك « وهى إبل أهل الحواء بالغة
ما بلغت ، وجعل يضرب يميناً وشمالاً

فانظر كيف راعه من الشاب الملشد حسن تشبيهه منظر آخر الليل وقت
ابتداء أشعة الفجر في الظلمات وتصويرها بصورة ملاء طويل مختار من
الطيايسة الخضر ، وكيف صور الأشعة في طبقات السحاب ، والأجواء في
أخريات الليل بالأردية يحمى بعضها فوق بعض ، ويتضام بعضها إلى بعض
عليها الأعلام الموشاة حتى كان الفجر تخيرها يودع بها الليل ويستقبل
بها النهار ،

ومنهم من يرى المزية للشاعر في كثرة فنونه ، واتساع بجره ، ومن هؤلاء
بشار بن برد ، فقد روى ابن سلام قال « سألت بشاراً المرعش أى انثلاثة
أشعر ، يريد - جريراً ، والفرزدق ، والأخطل - فقال « لم يكن الأخطل
مثلهما ، ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه ، قلت فهذا ، قال « كانت
لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، ولقد ماتت النوار ففادوا يهودون
عليها بشعر جرير ، يشير إلى قوله :

(١) البكر البطل (٢) الشميظ المخلوط من بياض وسواد
(٣) أسار : أبقى (٤) الوشيع على الثوب كما يصنع الآب على ثياب
الحفريات من الوشى

لولا الحياء لعادني استعباز (١) ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد سبق بشارا إلى هذا الحكم السيدة سكينة رضي الله عنها . وما ذاك
إلا لرقته وكثرة فنونه . وكذلك رأى خالد بن صفوان ، فإنه قال في مجلس
عبد الملك ، وقد كان يصف الثلاثة : أما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ،
وأهتكمهم لعدوه ستراً - الأغر الأبلق - الذي إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم
يلحق ، فجرير . وقد فضله الراعي حتى على نفسه لما سمع قوله :

وعاوى من غير شيء رميته بقارعة انفاذا (٢) تقطر الدما
خروج بأفواه الرواة كأنها قرا هندوانى إذا هن صما
وقال لما خرى مجلسه دالام على أن يغلبني مثل هذا ؟ .

وقد قال الصلطان العبدى لما حكم بين جرير والفرزدق ، وفضل جريرا
بشعره ، والفرزدق بلسانه :

أرى الخطي بز الفرزدق شعره ولكن خيرا من كليب مجاشع
فيا شاعرا لا شاعر اليوم مثله جرير ولكن في كليب تواضع
جرير أشد الشعارين شهامة ولكن عليه الباذخات الفوارع (٣)
يناشدني النصر الفرزدق بعد ما ألحت عليه من جرير (٤) صواقع
فقات له إني ونصرك كالذى يثبت أنفا كشمته الجوارع

وممنهم من يرى الفضل في قرب الكلام وصحة سبكه وعذوبة لفظه وكثرة
مائه ورونقه ، فيفضل النابغة الذبياني في الجاهليين ، والخنساء في المخضرمين
وعمر في الإسلاميين ، وابن المعتز في المولدين ، والشاب الظريف في المتأخرين
وممنهم من يراها في الصنعة ، والغوصى على المعاني والاختراع ، فيفضل زهيراً
ومسلم بن الوليد ، وأباً تمام ، على غيرهم من معاصريهم ، وطائفة تحكم
على الكلام بأثره في نفس السامع ، وهم أهل الفطرة ، والراسخون في الأدب

(١) استعبر جرت عبرته وحزن (٢) انفاذا : فتحاتها
(٣) الفارغ المرتفع الظاهر الحسن (٤) كشم أنفه أى قطعه

البعيدون عن الهوى . وهؤلاء قلما يمدحون إلا كلام الوالدين من العشاق
والمفجعين بالثكل والمصائب ، والناهضين بالإصلاح في الأمم من الحكماء ،
لأن كلام هؤلاء يخرج من قلوبهم ، فيقع في قلوب الناس ، فإذا سمعوا مالك
ابن الريب يرثى نفسه ، ويذكر مرضه ، وغريته بخراسان شاركوه في مصابه
وتوجعوا لبلائه ، وذلك قوله :

تذكرت من يبكى على فلم أجد سوى السيف والرحم الديني با كيا
وأشقر محبوكا يحمر عنانه إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا
فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا براية إلى مقم لياليا
ولا تحسداني بارك الله فيكما

من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذاني فجراني ببردى إليك فقد كان قبل اليوم صعبا قياديا
وقد كنت عطافا إذا الخيل أدبرت سريعا لدى الهيجا إلى من دعانيا
يقولون لا تبعده وهم يدفنونني وأين مكان البعد إلا مكانيا
غداة غد يالطف نفسي على غد إذا أدجوا عني وأصبحت ثاويا
ويعجبهم شعر ابن المدينة وخاصة إذا سمعوه يقول :

ولو أني أستغفر الله كلما ذكرت لك لم تسكتب على ذنوب
وإني لأستحييك حتى كأنما على بظهر الغيب منك رقيب
أو سمعوا علي بن الجهم ، وهو يقول في الاغتراب :

وارحمنا للغريب بالبلد النا زح ماذا بنفسه صنعنا ؟
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعوا
أو سمعوا عروة بن حزام وهو يقول في ابنة عمه عفراء :

فقد تركتني ما أعي لمحدث حديثا وإن ناجيته ونجاني
كأن قطاة علقت بجناحيها على كبدي من شدة الخفقان

فيا ليت كل اثنين بينهما هوى من الناس والآنعام يلتقيان
أو سمعوا أبا العلاء يقبح جفاء الإنسان للحيوان ، وقلة الشفة
عليه في قوله :

وبين بنى حواء والخلق كلهم عدا فها هذا التخاذل والدخل (١)
هذه طائفة من وجوه التفضيل ذكرناها لتكون عنوانات لسواها ، وقلنا
تنحصر أذواق الناس وأهواؤهم .

وكان السواد الأعظم من المفضلين متسرعين في الحكم جائرا ، فقد يحكم
للشاعر بالسبق ، وهو لم ير من كلامه إلا القصيدة أو القصيدتين بما استجيد
من كلامه ، وقد يحكم على غيره بالتأخر عنه لأن الذي رآه من كلامه كان دون
الذي رآه من كلام السابق . ولو اطلع على كل ما قال الشعراء وعلى أسباب
قولها ، وقارن بين معانيهما المتحدة الموضوع ، وأساليبهما ، ومقدار تأثيرهما
بالحوادث التي قالا فيها الشعر . وحاذى البديهة بالبديهة ، والروية بالروية ،
وعلم أن اللاحق لم يسرق من السابق ، ولم يخترع لنفسه اختراعه ، لعدل
عن حكمه ، ولما أطلق القول في التفضيل بل قال : فلان أشعر في قصيدة
كذا ومعنى كذا ، والآخر أجود في كيت وكيت من جهة المعنى أو الديباجة
أو حسن التصوير ، ولا يسوغ له أن يقول « أشعر على الإطلاق » ،
إلا بعد أن يستقرى المحاسن والمساوى ويقارن بين ما لكل من الشاعرين منهما ،
حتى إذا وجد أحدهما أنضر ديباجة وأبلغ معنى وأغزر فنونا وأحضر بديهة
وأقل سقطا ، وأكثر غوصا على المعاني ، وأجمل أخذا وأوفر مادة ، حكم له
على الآخر حكما يقوده الدليل الصحيح ، والذوق السليم . لا حكم كثير من
المفضلين الفضوليين . ومنهم جماعة من النحاة . عرضوا قوانينهم على بعض
الشعر الرائع كشعر النابغة فلم يتفق مع بعضها ، فغضوا من فضله ، ونسوا
أن قواعدهم محكومة بشعره ، لاحاقة عليه .

ومنهم آخرون حملتهم المعاصرة والمنافسة على الخط من شعر أقرانهم وقد
قدم في ذلك بعض المؤلفين ، فحاضوا في أقدارهم وهم لا يشعرون .
وقد يلتقد الحضري البدوي فيعيبه لاختلاف الذوقين وربما كان البدوي
في باديته أشعر من الحضري في حضارته .

وعندي أن الاعرابية التي كانت تندب ولدها بريدا عند قبره فتقول :

هل خبر القبر سائليه أم قر عيننا بزائريه ؟
أم هل تراه أحاط علما بالجسد المستكن فيه ؟
لو يعلم القبر ما يوارى تاه على كل ما يليه
يا جبلا كان ذا امتناع وطود عز لمن يليه
ونخلة طلعتها نضيد يقرب من كف مجتليته
ويا مريضا على فراش تؤذيه أيدي مريضيه
ويا صبورا على بلاء كان به الله يبتليته
يا دهر ماذا أردت مني أخلفت ما كنت أرتجيته ؟

أشعر من إبراهيم بن المهدي في رثاء ولده الذي مات بالبصرة وإن كست
الحضارة كلامه ثوبا مرقشا وذلك قوله من جيد قصيدته الطويلة :

كان لم يكن كالغصن في ميعه الضحى سقاء الندى فاهتز وهو رطيب
كان لم يكن زين الفتاء ومعقل النساء إذا يوم يكون عصيد
وريمان صدرى كان حين أشمه ومونس قصرى كان حين أغيب
وكانت يدي ملأى به ثم أصبحت بحمد إلهي وهي منه سائب
كظال سحاب لم يقم غير ساعة إلى أن أطاحت به فطاح جنوب
أو الشمس لما من غمام تحسرت مساء وقد وات وحن غروب
سأبكيك ما أبكت دموعي والبكا بعيني ماء يا بني يجيب

ولا بد أن يكون الموازن من الذوق الصحيح والاطلاع الواسع ، محيطا
بكل ما قال الشعراء ، بعيدا عن الهوى والتقليد ، دقيق النظر في المقابلة

بين المعاني والالفاظ ، فيوازن بين المفردات والأساليب والمعاني المخترعة وحسن الخيال وقبحه والبراعات والمخالص والمقاطع والأخذ والابتداع وأن يذكر تعليل كل تحسين أو تقبيح بما يقنع حتى يرسم الناظر ما يهوى له الحكم فلا يسهه قبل أن يأتي على آخر الموازنة إلا النطاق بالحكم قبل سماعه كما فعل أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدى فى كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحتري ، فإنه قال : لست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر لكنى أقارن بين قصيدتين من شعرهما إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية وبين معنى ومعنى فأقول أيهما أشعر فى تلك القصيدة وذلك المعنى ثم أحكم أنت على جملة ما لكل واحد منهما إذا استطعت علما بالجميل والردى ، ثم ذكر مساوى الشعارين فسرده سرقات أبى تمام وإحالاته وغلطه وساقط شعره وقبح استعاراته وتجنبيه واضطراب وزنه ثم ذكر ما وجدته من ذلك للبحتري وقارن بين ما افتتحا به القول من الوقوف على الديار ووصفها والسلام عليها والدعاء لها إلى غير ذلك ونبه على الجيد وفضله على الردى وبين علل ذلك .

ثم قال : وبقي ما لم يمكن إخراجه إلى البيان وهو ما لا يعرف إلا بالدربة ثم ضرب المثل بالفارسيين والجاريتيين تقساويان فى كل شئ . من الصفات الحسنة ومع هذا يفضل إحداهما على الأخرى المجربون ولا يستطيعون بيان ذلك ثم ذكر ميزان الموازنة وهو أن يكون الناقد من أصحاب الذوق السليم فحسه على النظر فى الوجوه التى فضل بها الأئمة شعر أوس بن حجر على المايعة الجعدى مثلا فإن عرفها فضل على مقتضاها وحكم حكما مقبولا وإلا فحسبه أن يكون مع الجمهور .

أما فائدة الموازنات فتحصيل ملكة الأدب وصحة النقد وكشف القناع عن المحاسن لتحذرى ، والمقايح لتجتنب . وكما أن اللسان لا يمرن على النطق بالصواب إلا بالمحاكاة كذلك الذهن لا يمرن على الفهم الصحيح ولا يحول فى ميدان فسيح من المعانى ولا يقدر الأشياء قدرها إلا بالمقارنات

الكثيرة التي تمثل في النفس لكل شاعر صورة وتقرر له حكما غير مزعزع ولا مدافع . ولو أن المتقدمين عنوا بهذا الموضوع عنايتهم بسواه ، لما بقي كثير منا مضطربا اضطرابهم إلى اليوم في منازل الشعراء ولعلنا نوفق إن شاء الله إلى مقدار صالح من المقارنات نبلغ به غايتنا

وسنبدا ذلك بالموازنة بين زهير والأعشى لا تحادهما في صفات كثيرة تجعل الموازنة صحيحة .

الموازنة بين شاعرين جاهليين

١ - تحدثنا عن الموازنة والموازنين وتمييز المقبول من آرائهم والمردود فيها وكيف تكون الموازنة صحيحة متقبلة . ومتى يصلح الموازن لتولي هذه الحكومة وأتينا على فائدة المقارنات بين الشعراء وإنها تضم إلى علم الأدب ملكة .

والآن نبدأ الموازنة بين زهير والأعشى على منهجنا من استيفاء ما للشاعرين ومقابلة كل بالآخر على وجه يحل لكل منهما صورة بيّنة ومنزلة معينة وربما ضن علينا الزمن فتركنا بعض الشيء مما يدرك الطالب وقد نكل إلى الذرق السليم مالا يقام البرهان عليه ولكن لا يفوتنا أن نعرض على القارئ ليحكم ذوقه كما حكمنا راعله يرشد إلى مالم نرشد إليه من وجوه التوضيل فقد يحىء من عفو الخاطر مالا يحىء من كد القريحة . وقد رأينا أن نمدد للموازنة بين هذين الشاعرين بذكر الصفات المشتركة بينهما والصفات الخاصة ليكون ذلك أعون على الحكم الصحيح وبعد فنقول :

٢ - كلا الرجلين شاعر جاهلي مكثر مجيد متفنن معدود في الطبقة الأولى متكسب بشعره وإن كان الأعشى أكثر الحافا ونجعة في طلب رزقه ، وهما معدودان من أصحاب المعلقة : لزهير واحدة باتفاق الرواة والأعشى اثنتان لاميتان أحدهما مرفوعة وهي التي قال في مطلعها :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تهليق وداعا أيها الرجل ؟
والثانية بجرورة وهي التي قال في مطلعها :

ما بكاء الكبير بالأظلال وسؤالي وما ترد سيؤالي
ولكن الرواة لم تتفق عليها فصاحب الجهرة عد الأخيرة من المملفات
وغيره عد الأولى، ومن اللغويين من أسقطهما كما فعلوا ذلك في قصيدتي
النابعة الذباني إحداهما الرائية وهي التي أولها :
عوجوا فخيروا النعم دمنة الدار ماذا تحيون من نوى وأحجار ؟
وأخرهما الدالية التي مطلعها :

يا دارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد
وكما اختلفوا في معلقة عنبرة والحارث بن حلزة اليشكري
٣ — ويتخالف الشاعران في الملشأ والأخلاق فزهير رباه خاله بشامة
ابن الغدير في غطفان . وكان بشامة هذا شاعرا مجيدا غنيا حازما لا تبت
غطفان في أمر دونه ، ولا تصدر إلا عن رأيه . وقد روى زهير شعره
وحبيب إليه القول ومهد له سبيله حتى نطق به صغيرا ، وقد ورثه من ماله
وشعره فلدأ شغوبا بالشعر قليل الحاجة إلى التكسب به ، وقد كان مع هذا
أبوه شاعرا وكان كثيرا ما يختلف إليه ويعلمه ويستخبره ، وكانت اختاه
سلمى والخنساء (١) شاعرتين ، وكان ابنه كعب وبجير شاعرين وكذلك
المضرب بن كعب

فبيت زهير بيت عريق في الشعر جاهلية وإسلاما وكان زهير في الجاهلية
سيدا كثير المال . حلما ، معروفا بالورع . ولهذا كان يكره الهجاء
كرهه الناسك الأثام ، وقد صرح مرة بهجاء قوم حصن في قوله من
قصيدة طويلة :

(١) الخنساء : هي غير السيدة تماضر أخت صخر

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء ؟
فان قالوا النساء مخبات فحق لكل محصنة هدا (١)
فأسف لذلك أسفاً شديداً وقال : « ما خرجت في ليلة ظلماء ، إلا خفت
أن يصيبني الله بعقوبته لهجائي قوما ظلمتهم » .

ولا كذلك الأعشى في هذا كله فقد كان خاله عبداً من نخاعة وأبوه قيس
ابن جندل قتيل الجوع لم يكن له في قومه ما كان لأبي سدي وخاله وقد تيره
بذلك جهنم أحد معاصريه من شعراء قبيلة قيس بن ثعلبة فقال :

أبوك قتيل الجوع قيس بن جندل وخالك عبد من نخاعة راضع

فدشاً في اليمامة نشأة غير المياسير ، وأخذ في الزاني إلى هودة بن علي
صاحب اليمامة ببعض المدائح فيه حتى قر به منه ، ثم جعل الشعر متجراً ثم
اقترب من بني عبد المدان بنجران ، فأجزل لهم الثناء ، وأجزلوا له العطاء ،
ثم وفد على ملوك الحيرة ، ومدح الأسود بن المنذر أخا النعمان ، وما زال
يلتجع البلاد متكسباً بشعره ، حتى وفد على ملوك فارس ، ولهذا كثرت
الفارسية في شعره ، من أسماء الأشربة وآلة الملاحى ، كالنساء والبربط (٢)
وغيرهما ، وكأسماء الأزهار في قوله :

لها جلسان عندها وبنفسج وسيسنبر المرزجوش منمنيا (٣)
وآس وخيري ووردوسوسن يصبحن في كل دجن (٤) تغنيا (٥)

(١) الهداء زفاف العروس إلى زوجها ، ومعنى البيت : إن ابني حصن إن قالوا :
« نحن النساء مخبات » يجب أن يزفن إلى أزواجهن وهو كلام في غاية التحقير .

(٢) البربط العود ، أعجمي ليس من ملاحى العرب ، وقد عربته حين سمعت به

(٣) المنمنم المصفر الورق

(٤) الدجن : ظلام الغيم في اليوم المطير

(٥) تغيم كان ذا غيم . الجلسان والبنفسج والسيسنبر والمرزجوش والآس

والخيري والسوسن : كل هذه ضروب من الرياحين .

وقد سمعه كسرى يوما يتغنى بقوله :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي تعشيق؟

فقال « ما يقول هذا العربى » فقالوا : يتغنى بالعربية فقال : فسروا قوله ، قالوا « زعم أنه سهر من غير مرض ، ولا عشق » قال « فهذا الصبى » ، وعندي أن هذا من قصور المترجم وسوء فهم من ترجم له ، فإن الشاعر أنكر على نفسه هذا السهاد ثم بين سببه بعد ، على أن أسباب السهاد لم تنحصر فى السقم والعشق واللصوصية حتى يتم ما فهمه كسرى .

ومن هنا تعلم مقدار مصيبة الأمم بالتراجمة ، وخاصة مصيبتنا بضمائمهم اليوم ، وهم السننات عند السياحين وغيرهم ، من لا يبالون أن يأخذوا علمهم بنا من أفواه هؤلاء الجملة ، المتصدرين للإرشاد .

ولقد كانت خاتمة مطافه ، أن قصد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومدحه بالدالية التى طالعها :

ألم تفتمض عيناك ليلة أرمد (١) وبت كما بات السليم مسهدا؟
والكنه طمع فى جائزة قریش (٢) فأخذنا ورجع أدراجهم فما كاد يبلغ بلده منفوحة باليامة حتى رمى به بعيره فقتله ، ولقد صدق فى صفة نفسه وطلبه للمال كل حياته بقوله فى آخر قصيدة رويت عنه :

وما زلت أبغى المال مذ أنا يافع وايدا وكم لاحت شبت وأمردا
وقوله فى أخرى :

وطوفت للمال آفاقه عمان فخص فاوريشلم
أتيت النجاشى فى داره وأرض النبط وأرض العجم

(١) أرمد الرجل : افتقر أو أجذب وهلك بمواشييه

(٢) جائزة قریش مائة من الإبل جعلوها له على أن يعود عن قصده النبي صلى الله عليه وسلم وينتظر سنة ، وبعد ذلك يكون مع الغالب

فنجران فالسرو من حمير فأى مرام له لم أرم
ولهذا لم يكن يتخرج من الهجاء المقذع (١) ، وقد بلغ من أمره أنه كان لا يهجو
أحدا إلا وضعه ، ولا يمدح أحدا إلا رفعه ، وقد سمته العرب صناعتها لجودة
شعره أو لغنائهم به ، أولاهم شهوة بالصنّاج ، وهو الضارب بالصنج ، وهى آلة
بأوتار يضرب بها فيجتمع الناس لسماع شعره كما يجتمع العرب على الصنّاج ،
ويرجح هذا ما كان له من المشاهد فى عكاظ . وإلى هنا فقد عرفنا حال
الرجلين نشأة وأخلاقا . فلنبدا فى موازنة شعريهما .

٤ - وأجود ما قال زهير فى المدح قوله :

قد جعل المبتغون الخير فى هرم والسائلون إلى أبوابه طرقا
إن تلق يوما على علاقته هرما تلق السباحة فيه والندى خلقا (٢)
لو نال حى من الدنيا بمنزلة وسط السماء لالت كفه الأفقا
وقوله :

متصرف للمجد معترف (٣) للنائبات يراح للذكر
جلد يبحث على الجميع إذا كره الظنون جوامع الأمر
فلأت تفرى (٤) ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى
والستر دون الفاحشات وما يلقاك دون الخير من ستر
لو كنت من شىء سوى بشر كنت المنور ليلة البدر

(١) المقذع : المملوء شتائم ومكروها

(٢) أى أن تلقه على قلة ذات يده تجده سمحا نديا فكيف به على غير الملأت

(٣) المترف : الصابر

(٤) تفرى : تبعد . وتخلق : توجد ، والمعنى : ولأت توجد فتباعد ، وبعض

القوم لا يبعد فيما يوجد

وقوله :

على مكثريهم رزق من يعترهم
وما يك من خير أتوه فإنما
وعند المقلين السباحة والبذل
توارثه آباء آبائهم قبل
وهل يذبت الخطي إلا رشيجه (١)

وقوله :

ولو كان حمد يخلد الناس لم تمت
ولكن حمد الناس ليس يخلد

وقوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا
قوم لأولهم أو مجدهم قعدوا
مرءون بهاليل إذا قعدوا
وقال الأعشى في مدح المحلق :

أبا مسمع سار الذي قد فعلتم
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة
تشب لمقرورين يصطليانها
رضيعي لبان ندى أم تحالفا
فأنجد أقوام به ثم أعرقوا (٢)
إلى ضوء نار باليفاع تحرق
وبات على النار الندى والمحلق
بأسهم داج عوض لا تفرق
وقال :

ما النيل أصبح زاخرا من مده
يوما بأجود نائلا منه إذا
جاءت له ريح الصبا فجرى لها
نفس البخيل تجهمت لسؤالها
وقال :

ولو أن عز الناس في رأس صخرة
لأعطاها رب العرش مفتاح بابها
مليلة (٣) تعي الأبى المخدما
ولو لم يكن باب لأعطاها سلما

(١) الخطي الرمح نسبة إلى الخط وهي جزيرة بالبحرين، والشيج: القنا الملتف
(٢) أنجدوا : ذهبوا إلى نجد ، وأعرقوا : ذهبوا إلى العراق
(٣) المللم : المجتمع المدور المضموم

فما نيل مصر إذ تسامى عبابه ولا بحر بانقيا إذا راح مفعها
بأجود منه نائلا إن بعضهم إذا سئل المعروف صد وججها (١)
وقال :

لا يرقع (٢) الناس ما أوهى وإن جهدوا
أن يرقعوه ولا يوهون ما رقعها
غيث الأرامل والأيتام كلهم لم تطلع الشمس إلا ضرا أو نفعا
وقال :

المهينين ما لهم في زمان السوء حتى إذا أفاق أفاقوا
وقال :

فرع نبع يهتز في غصن المجعد العظيم الندى كثير الجمال (٣)
وقال :

قبل امرئ طلق اليدين مبارك ألني أباه بنجوة فسيما لهسا
هذا أجود ما رأيته من مدائح الرجلين ، وكل منهما انفرد بهما ،
لم يشاركه فيها صاحبه . . فأما زهير فقد انفرد بكل معانيه ، في الأبيات
المختارة ما عدا قوله :

من يلق يوما على علاقته هرما يلق السباحة فيه والندى خلقا
وقوله :

وما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل
فإيه شارك فيهما الأعشى في قوله « المهينين ما لهم الخ » وقوله « قبل
امرئ الخ » وقد قصر الأعشى عن زهير في هذا المعنى فإن الأعشى قال

(١) ججها : لم يقدم

(٢) يرقع الثوب ونحوه يلحم خرقه ، وأوهاه خرقه أوهياه للتخرق

(٣) الجمال الدية ، يحملها قوم عن قوم

« لانهم يهيشون ما لهم في زمان السوء حتى إذا ما أفاق الزمان أفاقوا من إهانة المال ، ، ولكن زهيراً قال « إن الذي يلقي هرماً على قلة ذات يده في أى وقت كان يلقاه سمحاً جواداً يصدر عنه الجود والسمح ، صدور الغرائز ، فما بالك به أيام الرخاء . وسعة العيش ، فزاد في المعنى زيادة رائعة ، ولم يقيد بقيد الأعرشى الذي جعل بيته لا يسير كما سار بيت زهير .

فأما البيت الثانى : فإن معنى الأعرشى فيه أجود لأنه بين أن الممدوح سما بنفسه إلى المنزلة العالية التى كان فيها أبوه ، فأثبت أنه عمل للمجد حتى بلغه ، وقد مهد لذلك بقوله « طلق اليدى مبارك ، .

وأما زهير فقال إن خير الممدوح موروث فأثبت له الحسب ولم يشر إلى أنه فى جدد بلوغ ما هو فيه ، على أن قوله « أبوه ، قد يشعر بأنهم جادون ولكن ذلك محتمل لا مقطوع به كما فى بيت الأعرشى .

هـ - هذا وبقى أن نقارن بين المعانى الرائعة مما اخترنا من شعر الشعاعين فنقول ليس الأعرشى إلا معنيان رائعتان أحدهما قوله « لم تطلع الشمس إلا ضر أو نفعاً ، فإنه معنى ضخم فى لفظ نخم مهد له بالبيت قبله وهو قوله :

لا يرقع الناس ما وهى وإن جهدوا أن يرقوه ولا يوحون ما رقعا فأحكمه أيما إحكام ، ووضع النتيجة من المقدمات الصحيحة ، والثانى قوله « وبات على النار الندى والمخلق ، فإنه من أبدع الكنايات عن وصف المخلق بالكرم وقد مكناها فضل تمكن وزادها حسنا بقوله بعد :

رضيعى لبان ندى أم تحالفا بأسحهم (١) داج عوض لا تتفرق فإذا كان المخلق قد ارتضع هو والندى من ندى أم واحدة ، وتحالفا بعد على الاصطحاب بما يخلف به من يبيع نفسه للدفاع عن بيضة قومه فيغمس يده فى الدم ليستحق إهراق دمه ، وإن كانت يمينه غموساً . إذا

(١) الأسحهم الدم نغمس فيه أيدي المتحالفين

كان المخلق هو والندى كذلك كان الندى فطريا فيه ؛ لا يفارقه حتى عسرتة ،
أو تفارق نفسه جسمه .

أما زهير فله كناية لا تنقص عن هذه معنى وتزيد عنها رشاقة وعبارة
وهي قوله :

لو كنت من شيء سوى بشر كنت المنور ليلة البدر
فإنه صدر الكلام بلو وهي من مقربات المبالغة ومحسناتها ، ثم جاء بما يفيد
أنه خير من البدر ليلة تمامه بأبداع كناية وهي قوله « كنت المنور ليلة البدر »
لأن نوره غلب على نور البدر فلا يظهر البدر منه إلا كما يظهر من النجم في
رائحة النهار ، وهذا معنى دقيق في لفظ وجيز رشيق .

وقد جاء زهير بما لم يحى به سواه من شعراء الجاهلية والإسلام فيما علمت
وهو قوله « كانك تعطيه الذي أنت سائله » وقوله :

جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا مرزءون بها ليل (١) إذا قصدوا (٢)
فإن الأولين في المدح بالجود ، غاية لم يبلغها سواه ، وأما الثالث فله روعتان
لفظية ومعنوية ، فأما اللفظية فهي المقابلات البديعة ، والتعاسيم المحيكة ، وأما
روعة المعنى ، فلما تراه فيه ، من غرر الأخلاق ، التي هي لباب ما يلتهى إليه
عقل العاقل ، وحكمة الحكيم ، إذ أراد أن يختارا لأنفسهما أشرف الفضائل
ومن أعلى الكنايات عن الحمد قوله :

فلو كان حمد يخلد الناس لم تمت ولكن حمد الناس ليس يخلد
وهذا وما تقدم لا نظير له في كلام الأعشى ، على أن لزهير في المديح
مختارات كثيرة لا تكاد تبعد عما ذكرنا . وقد استقرت كلام الأعشى
في المديح فما رأيت يعلو إلا على سبيل الندور ، ولهذا : كان زهير أمدح ،
وهو في مدحه أصنع .

(١) البهلول السيد الجاهل لكل خير

(٢) ويروي : جهدوا ، من جهد عيشه كاستعب انكد

٦ - وأجود نسيب زهير مطلع القافية التي مدح بها هرما وأباه وإخوته
وقد غنى به وهو قصيدته :

إن الخليط (١) أجدالبين فإنفرقا وعلق القلب من أسماء ما عاقا
وقوله من قصيدة يمدح بها سنان بن أبي حارثة المري :
وقد كنت من سلبى سنين ثمانيا على صير (٢) أمر ما يمر وما يحلو
وكنت إذا ما جئت يوم الحاجة مضت وأجعت حاجة الغدما تخلص (٣)
وكل محب أحدث النأى عنده سلو فؤاد غير حبك ما يسلو
وقوله :

قف بالديار التي لم يعضها القدم بلى وغيرها الأرواح والديم
كأن عيني وقد سال السليل (٤) بها وعبرة ما هم لو أنهم أعم
غرب (٥) على بكرة أولواؤ قلاق في السلك خاز به رباته النظم (٦)
وقال الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل ؟
غراء فرعاء مصقول عوارضها
تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوجل
علقتها عرضا وعلقت رجلا غيرى وعلق أخرى غيرها الرجل
وعلاقتني أخرى ما تلائمني فاجتمع الحب حب كله تبيل (٧)
فمكنا مغرم يهذى بصاحبه ناء ودان ومحبول ومحبتيل (٨)

-
- (١) الخليط : المخاط (٢) الصير : الطرف
(٣) أجعت : دنت أي متى انقضت حاجة دنت حاجة
(٤) السليل : واد ، وما زائدة ، والمعنى هم عبدة لى لو أنهم قرييون فما حالى
على البعد (٥) الغرب : الدلو (٦) النظم : جمع نظام
(٧) تبيل : سقم
(٨) المحبول : الذى نصبت له الحباله وهى ما يصاد بها والمحبتيل الذى أخذ فيها

وقال :

وأذكرتني وما كان الذي نكرت منى الحوادث إلا الشيب والصلما
والناظر إلى غزلهما يرى بينهما فروقا .

الأول : أن غزل الأعشى في سهولة لفظه ، وخففة روحه أحب
من غزل زهير .

الثاني : أن المعاني النابهة في كلام الأعشى أكثر منها في كلام زهير على
أنه ليس في كلام زهير جميعه ما يعادل قول الأعشى « وأذكرتني - البيت ، لأنه
معنى نادر يحكى مثله للفظيين ، وقلما يوفق له المتكفون .

الثالث : أن الأعشى لم يشغل نفسه بوصف الديار ورحلة الراحلين ،
ولم يملأ كلامه بالأمكنة ومحاط السفر كما فعل زهير في مطلع معلقته بل شغله
وصف صاحبته بالوقار والعفة والأمانة ، وكمال الزينة ، وطيب الرائحة ،
ثم وصف حال المحبين من توزيع أهوائهم ، على من لا يحبونهم . ثم
ما يصير إليه أمرهم بعد هذا .

الرابع : أن الأعشى أغزر مادة من زهير في هذا الباب ، والظاهر أن
زهيراً لو رعه كان يتغزل على طريقة الشعراء ، ولم يكن هو عاشقاً . أما الأعشى
فقد كان يعاقر الراح ، ويغازل الملاح ، خصوصاً أيام أعياد نجران وفي أيام
الاحاد حينها كان يقول :

نارعتهم قمضب الريمان متكثا وقهوة مرة راووقها خضل
أما زهير فليس في المختار من غزله أجود من قوله :

وقد كبت من سلبى سنين ثمانيا على صير أمر ما يمر وما يحلو

وقوله :

وفارقتك برهن لا فيكالك له يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا
ومعنى الأول : أنه كان من حبها ثمانى حجج على طرف في منزلة بين

المر والحلو إذ لا يأس ولا وصل وهو معنى حسن لكنه يجري مثله في
معارف الناس ومتناول المحبين من عامتهم ،

وأما الثاني وهو رهين القلب عندها فإنه ليس شيئاً زائداً على أصل
الحب الصحيح وليس أمره فيه يبدع هذا مع غض النظر عن التكرار في
قوله (لا فكك له) وقوله (فأمسى الرهن قد غلقا) واستعماله عبارات ،
هي بكلام الفقهاء أشبه منها بكلام الشعراء .

والأمر العجيب أن زهيراً على ورعه يشبه ريق صاحبه بعد النوم
بالخمرة الممتعة . ولا أدري : أهو على تقواه يستطيع رائقها . والأعشى
على تهتكه يشبه أنفاس صاحبه بأنفاس الرياض . وما كان أحرى كلا
أن يكون محل الآخر في ذلك ولكن خطرات الشعر لا تتقيد بحال الشاعر
الخامس أنه ليس في كلام الأعشى شيء من التعقيد ولا المبالغة المردودة
كما في كلام زهير في قوله :

كأن عيني وقد سال السليل بها وعبرة ما هم لو أنهم أمم
غرب على بكرة أو لؤلؤ قلق في السلك خان به رباته النظم
فإن عجز البيت الأول . لا يفهم إلا بعد أن تتأمل في « ما » لتعرف أنها
زائدة وفي عبرة لتعرف أنها خبر مقدم وتبصر في جواب لو . والمعنى وهم
حزن لي لو أنهم قرييون فما حالي إذا كانوا بعيدين . وفيه عيب آخر
وهو تعليقه على الثاني ، وأما المبالغة المردودة في الثاني فهي تشبيهه عينه
بالدلو على البكرة من غير أن يقول هذا التشبيه بما يقرب المبالغة فيه ،
ولكن لا يخفى حسن التشبيه الذي هو قوله « أو لؤلؤ قلق في السلك » ،
فإنه في غاية الإحكام ، لأن وقوع حبات اللؤلؤ من النهر لا يسكاد يفترق
عن وقوع ماء الشؤون من العيون .

وإلى هنا عرفنا أن الأعشى أغزل وأطبع .

٧ — وللشاعرين حكم كثيرة :

كان الأعشي في آخر عمره من القصيدة التي مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولا فئت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثل فتصد الأمر الذي كان أصددا
فإياك والميتات لا تقربنهما ولا تأخذن سهما حديدا لتقصدا
وذا النصب المنسوب لا تقربنه ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا
وذا الرحم القربى فلا تقطعنه لعاقبة ولا الأسير المقيدا
ولا تسخرن من بئس ذي ضرورة ولا تحسبن المال للمرء مخلدا
وقال :

فإن القريب من يقرب نفسه لعمر أبيك الخير لا من نلسيا
وقال زهير :

ومن يحمل المعروف من دون عرضه

يفره (١) ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن هاب أسباب المنايا بملته وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يحمل المعروف في غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم
ومن لم يزد (٢) عن حوضه بسلاحه

يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يقترب بحسب عدو اصديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وكأن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

(١) يفره : يكرهه أو يحفظه (٢) أي من لم يحرم حريمه ضاع

زهير هنا أكثر حكمة ، وأغزر مادة ، وأشد غوصا على المعاني
الآخذة بالنفس ، والرأى الذى لا أظن أنى أخالف فيه أن زهيرا هنا أشعر
من الأعشى ، وإنى تارك تعليل ذلك للذوق السليم لالصعوبة وإسكن الظهور
ظهورا بينا .

٨ - والأعشى فى الفخر والحماسة الكثير من الجيد الرائع وليس لزهير
فيهما نصيب يذكر ، وأما الأعشى فله منهما حظ وافر ، من ذلك قوله :

وإن منيت بنسا فى كل معركة لا تلتفنا عن دماء القوم نقتل
قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنا أو تسزلون فإننا معشر نزل
قد نختب العير من مكنون نائله وقد يشيط على أرماحنا البطل

وله من مثل هذا كثير ، وقد تصفحت شعر زهير فما وجدت له إلا بيتا
واحدا يشبه هذه الأبيات وهو قوله :

قد أتيتك القرن مصفرا أمامه يمين فى الرمح مبد المائح (١) الأسن (٢)

٩ - ولم أر الشعاعين اشتركا فى شئ من الأوصاف اشتركا كهما فى صفة
الصيد . قال زهير فى ذلك قصيدته :

إذا ما غدتا نبتغى الصيد مرة متى نره فإننا لا نختائله (٣)
وقال الأعشى فى ذلك أيضاً قصيدته :

واقعد أغتدى إذا صقع (٤) الديك بمهر مشذب (٥) فذال

فإذا قطعنا النظر عن بقية أوصاف الأعشى فى غير هذا الموضع من نعت
القصور والقلاع والليل والنهار وبجالس اللهو ، وتفوقه فيها على زهير وجعلنا

(١) المائح : الداخل فى البئر لئلا الدلو لقلة مائها (٢) الأسن : المتغير

(٣) أى لا نسارقه بل نجاهره لو ثوقنا بجودة فرسنا

(٤) صقع الديك : صاح

(٥) المشذب : قليل اللحم

وصفه الاصطياد بإزاء وصف زهير له ، لا نجد مندوحة من أن نقول إن
الأعشى أحكم في وصفه وأدق ، فإنك تجده قد بدأ الأمر من أوله من حين
صياح الديك إلى آخره من الأكل والسمع والشراب ، ولا نجد ذلك
في كلام زهير فإنه وقف بالوصف عند اصطياد الحمار ، ثم إن جواد زهير
أباه عاريا هو و غلامه من شماسه وعدم خضوعه ثم لما تم له أن يركبه غلامه
هو إلى حيث لا يعرف النجاة ، ولا كذلك جواد الأعشى الذي قال فيه
في إجادة وبراعة :

جواد يملأ العين عاديا ومقودا ومعري وصافنا في الجلال
ثم إذا نظرنا إلى ما اتحدنا فيه من تشبيه الحصان عند كرهه على الصيد فرى
أن تشبيهه الأعشى بمصور المشبه حتى كأنه رسمه وذلك قوله :

فجرى بالغلام شبه حريق في يابس تذروه ربح الشمال
فقد اطلعنا على لون الحصان وأنه لا يرى على الأرض وأنه يسرع إسراع
ريح الشمال في اليبس . وأما زهير فإنه شبهه بالدفة من المطر فلم ينظر إلا إلى
السرعة ، ومع هذا لم يكن جواده في الإسراع بالاصطياد كجواد الأعشى . ولا
ما قصه كذلك فإن الأعشى يقول :

لم يكن غير لمحمة الطرف حتى كبب نسعا يمتامها كالمغالي
وأما جواد زهير فلم تعرف مدة اصطياده ولم يصطد إلا حماراً واحداً
بعد أن أطال وصية غلامه ، هذا من جهة المعنى وأما من جهة الأسلوب فإنه
في كلام الأعشى أسلس وأحكم .

١٠ - ولولم يكن زهير ورعاً لكان أهجى من الأعشى ولكن ورعه أبى
عليه أن ينطق لسانه بالفاحشات ومخازي الناس ، ولهذا لم يهج إلا مرة واحدة
كما أسلفنا وقد كاد يذوب أسفاً عليها ، ولكنه دل بهذه المرة على أنه ناضج
في هذا الفن لا ينقص عن درجة الفحول فيه ، ولولم يكن له منه إلا البيتان المتقدمان
لكفى ، فكيف به إذا كان له في باقي القصيدة شيء كثير ، لا يسكاد ينزل

غن درجتهما مثل قوله :

فلم أر معشرا أسروا هديا ولم أر جاز بيت يستبأ (١)
فملا آل عبد الله عدوا (٢) مخازى لا يدب لها الضراء (٣)
أرونا ستة لا عيب فيهما يسوى بيننا فيها السوا (٤)

وقد كان زهير هجا آل حصن لأن رجلا كان في جوارهم قامهم على ماله وأهله فقمر فأخذوا ماله وامرأته . وأما الأعشى فقد هجا كثيرين واستباح أعراض الناس لشهوات نفسه ولأوهى الأسباب ، ومن ذلك أنه كان معه جائزة من الأسود العنسي ، وكانت حملا وعنبرا ودهنا ، فلما مر ببني عامر ضافهم عليها ، فأتى علقمة بن علاثة فقال له أجرني ، قال قد أجرتك . قال من الجن والإنس ؟ قال نعم ، قال ومن الموت ؟ قال لا ، فأتى ابن الطفيل فقال أجرني ، فأجاره حتى من الموت . فقال له الأعشى : وكيف تجبرني من الموت ؟ قال إن مت وأنت في جوارى بعثت إلى أهلك الدية ! قال الآن علمت أنك قد أجرتني من الموت . فمدح عامرا ، وهجا علقمة . فقال علقمة : لو علمت الذي أراد كنت أعطيته إياه ، فانظر كيف هجا شخصا أراد أن يجبره من الجن والإنس ، ولم يأب عليه إلا الإجارة ، من الموت الذي لا يجار منه أحد ، ولم يفهمه الأعشى مراده ، وأخذ يقدح في دهائه بلا سبب صحيح ويقول :

تبيتون في المشتى ملأ بطونكم وجاراتكم غرثي بين خمائصا
كلا أبويسكم كان فرع دعامة ولاكنهم زادوا وأصبحت ناقصا
فمض حديد الأرض إن كنت ساخطا بفيك وأحجارا كلاب الروادصا (٥)

(١) أي تؤخذ زوجه أو يقتل . والهدى : الرجل ذو الحرمة

(٢) أي أتركوا مخازى لا يخفى أمرها

(٣) الضراء ما توارين به من شجر والمعنى مخازى لا يطامع في سترها

(٤) أي أروني طريقة لا تعاب عليكم تسوى بيننا في الحق

(٥) يقال رمص الحائط إذا دعمه

هذا ولا أحب أن أكثر من ذكر الهجاء وإنما أقول إن الأعشى فيه
أكثر قولا ، ولأنه ينعت الناس بما ليس فيهم ، وإن زهيرا أقل قولا ، وأشد
على المعنى غوصا ، ولا ينعت أحدا إلا بما هو فيه ، ولم أر في كل ما قرأته
الأعشى من الهجو أظح من قوله :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائنها
وهو دون قول زهير :

فلم أر معشرا أسروا هديا ولم أر جارا بيت يستبسا
والهدى : الرجل ذو الحرمة وهو المستجير بالقوم ، ألم يجرأ أن يأخذ عمدا ،
فإن أخذ العهد وأجير فهو حينئذ جار .
فالأعشى وصف قوم علقمة بأنهم لامروءة لهم لتركهم النساء الجارات
جاءات في وقت لا كسب هن فيه ، وهم ملاء البطون لا تعطفهم رحمة ،
ولا تأخذهم بهم شفقة .

وزهير يصف آل حصن بأنهم يأسرون المستجير بهم ، ويستبيحون
حرمة ، ولكن لفظ الأعشى في بيته أرق ، وأسلوبه أعذب ، وتأثيره في النفس
أشد ، ولهذا أرى أنهما يتعادلان في هذا الفن .

١١ - ولا مجال للمفاضلة في الخريات ومجالس الشراب . فإن الأعشى
فيها ابن بجدتها ، وهو في الجاهليين كاتب نواس في الإسلاميين ، وقد سد هذا
الباب على زهير ورعه .

وأما الأعشى فإن شيطانه لم يكتف بفتح الأبواب له بل كسرها فكان
كل حياته يشرب ويطرب بمثل قوله :

من خمر عانة (١) قد أتى لختامها حول تسل غمامة المزكوم

(١) عالة : بلدة على الفرات ينسب إليها نوع من الخمر الجيدة .

وقد تفنن في وصف الخمر والكأس والساقى والنديم والمطرب . فمن ذلك قوله :

وكأس كمين الديك باكرت خدرها
بفتيان صدق والنواقيس تضرب
سلاف كأن الزعفران وعندما يصفق في ناجورها ثم يقطب
لها أرج في البيت عال كأنه ألم به من بحر دارين أركب (١)
إلى غير ذلك مما قاله في الخمر ، ولا محل لرواية أجود ما قيل فيها .

١٢ - وللموازاة بين الشاعر في مطالع القصائد نذكر بعض مطالع قصائد الأعشى ، قال :

- | | |
|---------------------------------|-----------------------------|
| ١ - ما بكاء الكبير بالأطلال | وسؤالي وما ترد سؤالي ؟ |
| ٢ - ودع هريرة إن الركب مرتحل | وهل تطيق وداعا أيها الرجل ؟ |
| ٣ - أرفقت وما هذا السهاد المورق | وما بي من سقم وما بي تمشق ؟ |
| ٤ - ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا | وعادك ما عاد السليم مسهدا ؟ |
| ٥ - رحلت سمية غدوة أحالها | غضبي عليك فما تقول بدالها |
| ٦ - شافتك من قتلة أطلالها | بالسفع فالحبتين من حاجر |
| ٧ - ألا قل لتيا قبل مرثها اسلمى | تحية مشتاق إليهم مسلم |
| ٨ - ألم خيال من قتيلة بعد ما | وهي حبلها من حبلنا فتصرما |
| ٩ - أترحل من ليلى ولما تزود | وكنت كمن قضى اللبانة من دد |

ومن مطالع قصائد زهير ، قوله :

- ١ - أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتلم
وقوله :
- ٢ - لمن طلال برامة لا يريم عفا وخلاله حقب قديم
وقوله :

(١) الأركب : واحد مراكب البر والبحر .

٣ - عفا من آل فاطمة الجواء فيمن فالقوادم فالجساء (١)

وقوله :

٤ - صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو

وأفقر من سلمى التعمانيق فالثقل (٢)

٥ - صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرس أفراس الصبا وواحدة (٣)

٦ - لمن الديار غشيتها بالفد فد كالوحي في حجر المذيل المخلد

٧ - غشيت ديارا بالبقيع فثهمد دوارس قد أقوين من أم معبد

٨ - إن الخايط أجد البين فانفرقا وعلق القلب من أسماء ما علقا

٩ - إن الخليط أجد البين فانجردوا وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا

فبين مطالع الرجلين فروق ظاهرة : الأول : أن مطالع زهير مكررة المعاني فإن الأول منها والثاني والرابع والخامس والتاسع في السؤال عن الظلال والسابع والثامن في سلو قلبه عن صاحبه ، والحادي عشر والثاني عشر في سفر صاحبه ، وأنها نوت ألا تصله ، والعاشر مطلع تافه ، وأما الثالث فغير مكرر ، وهو متوسط الجودة . . الثاني : أن مطالع الأعشى أشد تأثيراً في النفس ، وأنها : أغزر معنى ، وذلك أما لو قارنا مطلع الأعشى الأول وهو قوله :

ما بكاء الكبير ما لأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي

بأحسن مطلع لزهير وهو أول معلقته لرجح الأعشى رجحاناً نظيماً فإن الأعشى أنكر على نفسه وقوفه بالأطلال وهو كبير ، وكذلك سؤال الخو الداتي لا يبين كلامها كما قال أبيد ، فأثبت أنه بكى وأنه سأل الطلل لدهشته ، فليس لم يحبه ، ورأى من نفسه شيخاً عاشقاً يسأل سؤال الخرق ، أنكر ذلك على نفسه ،

(١) الجواء : ما انحدر من الأرض ويمن والقوادم والجساء مواضع في بني غطفان

(٢) موضعان (٣) أي عريت أفراس الصبا ورواحله التي كنت أركها للهوى

وأما زهير فلم يزد على أن قال : هل هذه الدمنة التي لا تبين من منازل أم أوفى ؟
وهذا السؤال من شأنه أن يحجى ، عند كل من عرف أم أوفى ، وكانت مارا
بأطلالها سواء أكان محبا أم غير محب ، فليس في مطالعه شيء يجلى ما عنده
من الشوق ويقف في مصاف العشاق ، وقد تكرر هذا المعنى منه في المطالع
من غير أن يزيد عليه شيئا ، وليس له مطلع ما بكى فيه أو أنكر على نفسه البكاء
ولا كذلك الأعشى .

وكذلك لا نجد نظيراً من كلام زهير لمطلع الأعشى في الوداع خصوصاً
قوله : وهل تطيق وداعاً أيها الرجل ، .

وأما زهير فإنه قال في مطلعين : إن الخليط أبعد البين ، ولم يذكر أنه هم
بتوديعه أو خشى وقفة الوداع فوجم منه كما فعل الأعشى .

نعم إن زهيراً له مطلع واحد يتفوق فيه على الأعشى في نظيره ،
وذلك قوله :

صحى القلب عن سلمى وأصبر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله
وقول الأعشى :

صحى القلب عن ذكرى قتيلة بعدما يكون لها مثل الأسير المكبل

فإن في بيت زهير استعارة حسنة ، وزيادة بدیعة ، لم يقع مثلاً للأعشى
في بيته ، ولعل الأعشى كان على نية أن يمود ؟ فلم يؤكد كما أكد زهير
في تعربة أفراس الصبا ورواحله ، التي كان يركبها للهو ، ويؤيد هذا
قوله في مطلع آخر :

ألم خيال من قتيلة بعدما وهى حبلها من حبلنا فتصر ما

فالأعشى أفسح في مطالعه ميداناً ، وأكثر تفنناً ، ألا تراه ذكر
الخيال وإلمامه بعد الانصرام في هذا المطلع ، والشوق والتسليم في مطلع
آخر ، وهو قوله :

ألا قل لتيا قبل مرثا سلمى تحية مشتاق إليها مسلم

وإنكاره اتخذ الزاد قبل الراحلة في قوله :

أترحل من ليلي ولما تزود وكنت كمن قضى اللبانة من دد
فظهر أن الأعشى في المطالع يتفوق على زهير في كثرة تفننه وروعة
معانيه وسهولة أسلوبه .

١٣ - أما من حيث المخالص فإن أكثر مخالص زهير مقتضبة كما في
معلقته ، حيث انتقل من الكلام في الطعام إلى مدح الحارث بن عوف ، وهرم
ابن سنان فجأة . وأما الأعشى فأكثر مخالصه تكاد لا تستشعر النفس بانتقاله
إليها مثل قوله :

فآليت لا أرثي لها من كلاله ولا من حفي حتى تزور محمدا
نبي يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا
ولا أطيل بإيراد أو بسرد الشواهد ، وإنما أقول : إذا كان انتقال الشاعر
من معنى لمعنى لمناسبة محكمة تسرق نفس القارىء من الأول إلى الثاني هو الأنضل
فالأعشى في هذا أمثل من زهير .

١٤ - وزهير أيسر أمثالا ، وأغزر حكمة ، ولا تكاد تجد مثالا للأعشى
مثل قوله : وإنما العزة للكاثر ، حتى تجد أضعافه لزهير مثل :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
ولولم يكن لزهير من ذلك إلا آخر معلقته لكفى .

١٥ - أما عن طبع الشعارين فقد رأيت اتفاق الرواة على هذه المسألة
في محله وهو أن زهيراً أصنع ، والأعشى أطبع ، وأذواق الناس في استحسان
أحد الوجهين مختلفة ، وأما أنا فإني ميال إلى الأطبع لأنه مقتضى الفطرة .

والخلاصة : أن زهيراً أيسر أمثالا ، وأغزر حكمة ، وأمدح وأصدق
وأصنع ، وأن الأعشى أغزل وأخف وأوصف وأجود مطالع ومخالص ،
وأما الخريات ومجالس الشراب والأنس فهو ابن يحدتها الذي لا يضارعه

في الجاهلية أحد فيما نعلم ، وأما الهجاء فالشاعران فيه سيان . وخلاصة ذلك كله : أن زهيراً تفوق في ثلاثة فنون ، والأعشى في ستة ، وأن روح الشعر في الأعشى أظهر منها في زهير ، وللقارىء أن يحكم بمد ذلك بما يشاء .

قصيدتان جاهليتان

- ١ -

أما الأولى فهي معلقة : عمرو بن كلثوم التغلبي الشاعر الجاهلي المشهور (٥٠٠ - ٦٠٠) ، ومطلعها :

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا
وأما الثانية فهي بحجرة أمية بن أبي الصلت :

عرفت الدار قد أقوت سلعينا لزيب إذ تحمل بها قطينا

والقصيدة الأولى ملحمة تاريخية تصور المجد القديم لتغلب قبيلة الشاعر ، وملاحمها الحربية التي انتصرت فيها على أعدائها ، وهي فريدة في نوعها ، فهي جدرة حقا أن تسمى ملحمة ، لأنها تاريخ مفصل لقبيلة عمرو ومفاخرها وأيامها ، ومنها يوم خزاز الذي انتصر فيه كليب قائد النزاريين على اليمنيين ، وفيها تهديد لأعداء تغلب ، وتنبية الملك عمرو بن هند ملك الحيرة (٥٦٢ - ٥٧٩ م) كي لا يطيع بهم الوشاة أو يتحيز لبكر شقيقة تغلب ومزاحمتها في المجد والنفوذ والسلطان . . وقد بدأها الشاعر بوصف الخمر بما يعد ميزة فريدة لها ، ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو الفخر ، وختمها بقوله :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبتش حين نبتش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عما وماء البحر نملؤه سفينا

إذا بلغ الرضيع انا فطاما تخر له الجبابر ساجديننا
وأنت تعلم أن عمرو بن كلثوم ارتجل بعض معلقة أمام الملك عمرو بن
هند وهو الجزء الذي هدد فيه أعداء تغلب وحذر الملك من الاستماع لوشاة
والميل معهم على قومه ، ومنه :

أبا هند فلا تهجل علينا وأنظرنا فخبرك اليقيننا
أبا نورد الرايات بيضنا ونصدرهن حمرا قدروينا
ثم أكل القصيدة كلها ، وأشدها في سوق عكاظ ، وقد عدتها
تغلب سجل مجدها ونفخارها فاعتزت بها اعتزازا كثيرا ، ويقال إنها أضافت
إليها الكثير ، حتى بلغت أبياتها نحو ألف بيت ، وقال بعض شعراء
بكر فيها :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لفخر غير مستوم
وأما بحمرة أمية فقد تحدث فيها الشاعر عن مجد قبيلته « ثقيف » ،
وهي من أمهات القبائل العربية وصاحبة النفوذ والسلطان في الطائف من بين
قبائلها ؛ ولم يبدأ بوصف الخمر كما فعل عمرو بن كلثوم بل بدأها كما يبدأ
الشعراء قصائدهم ، فذكر أطلال محبوبته « زيب » وعفاها ولعب الرياح
المعصرات بها ، ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو الفخر بمجد القبيلة وشرف
الآباء فقال فيها قال :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا البيننا
وكنا حيثما علمت معد أقننا حيث ساروا هاريننا
وتخبرك القبائل من معد إذا عدوا سعاية أولينا
أنا النازلون بكل نعر وأنا الضاربون إذا لقينا

إلى آخر ما ذكره من الفخر بأسرته وقومه ومجدهم ومنابتهم وما أصدوه
لريب الدهر من الخيل والرماح والسيوف والشيب المجربين والشبان الأقوياء ،

ووراثتهم للمجد عن كبرى تزار إلى غير ذلك من مظاهر الكبرياء والعزة والسيادة التي أضافها أمية إلى قومه . . . ولا ندرى شيئا عن التاريخ الأدبي للقصيدة ، وإن كنا نرجح أن الشاعر نظمها في مفاخرة من هذه المفاخرات التي تحدث كثيرا بين القبائل العربية وخاصة في العصر الجاهلي .

- ٢ -

والقصيدتان تتفقان في الموضوع والوزن والقافية ، وفي خيالهما الفني الغالب على القصيدتين ؛ وتتفقان كذلك في هذه المبالغة الواضحة في الفخر ، مما لا يؤثر نظيرها من المبالغات في معاني الشعر الجاهلي إلا قليلا ؛ كما تتشابهان في هذه السهولة الفنية الغالبة على القصيدتين وخاصة عندما ينتقل الشاعران إلى الغرض الأصلي من قصيدتيهما وهو الفخر ، وليست هذه السهولة الفنية بغريبة على الشعارين ، نارتجال عمرو وقصيدته ومواقف الفخر فيها ، مما يقتضى السهولة ، ونشأة أمية في الطائف ذات الخصب والزرع والثمار والهواء المعتدل والجو الجميل وتنقله في رحلاته التجارية بين الشام واليمن وثقافته العامة وقراءته في الكتب السحرية ، كل ذلك رقق من طبيعته وهذب من أسلوبه وأكسبه مواهب فنية ممتازة ، وصقل من ملكاته الأدبية ، فظهر أثر ذلك في شعره وضوحا وسهولة وإسجاسا .

وتتفق القصيدتان فوق ذلك في كثير من معاني الشعر وأساليب الفخر ؛ ومن مظاهر ذلك الاتعاق هذه المعاني والأساليب والأبيات :

١ - قال عمرو :

ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبيننا

أى حتى يظهر الشرف لنا ، وقال : ورثنا مجد علقمة بن سيف .

وقال وهو يتحدث عن الخيول الكريمة التي يخوض قومه عليها

المبارك :

ورثناهن عن آباء صدق ونورثها إذا متنا بديننا
فقال أمية :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا ما ثرنا بالبينا
ونستطيع أن نوازن بين البيتين الأخيرين إذا علمنا أن وراثته المجد في
بيت أمية أبلغ في الفخر من وراثته الخيل في بيت عمرو ، وإن كانت وراثته
الخيل من أسباب المجد لأن الخيل وركوبها واتخاذها عتاداً دليل الشجاعة
والبطولة وحب النضال ، وقول أمية : « فأورثنا ما ثرنا بالبينا » أبلغ من قول
عمرو : « ونورثها إذا متنا بديننا » لأن أمية ذكر أن أبناءهم ورثوا مجد الآباء
في حياتهم ، وأما عمرو فذكر أن الأبناء سيرثون هذه الخيل بعد وفاة آبائهم ،
فلم يسند إليهم الشجاعة والبطولة وحماية الذمار في حياة الآباء ، وهذا قصور
في الفخر ، وقال أمية : « البينا » وقال عمرو : « بينا » فشهرهم أمية وأبان عن
وضوحهم ، وقال عمرو : « آباء صدق » فدل على شجاعتهم أو وضوح نسبهم
وطهارة أعراقهم ، وهي زيادة لا نظير لها في قول أمية . وقد أخذ أمية لفظ
« قد علمت بعد » من قول عمرو فقال :

وكنا حينما علمت بعد أقبلنا حيث ساروا هاربينا

ب - ويقول عمرو : « وأنا المهلكون إذا ابتلينا » أي نهلك
أعداءنا ونبيدهم إذا اخترنا بقتال الأعداء ، فيقول أمية : « وأنا الضاربون
إذا لقينا » ، فتجد قول عمرو وأبلغ ، حيث نص على إهلاك الأعداء ، ولم يذكر
أمية إلا الضرب ، وإن كان يكتفي به عن الشجاعة والإقدام والعزيمة والجد
في طلب الأعداء ، ولكنه على أي حال لم يصور نتيجة الحرب كما صورها
عمرو بن كلثوم بقوله « المهلكون » .

ج - ويقول عمرو : « وأما المانعون لما أردنا » ، ويروى : الحاكمون
بما أردنا ، فيقول أمية : « وأما المانعون إذا أردنا » .

د - ويقول عمرو :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدرا وطينا
ويروى من بجمهرة أمية :

وأنا الشاربون الماء صفواً ويشرب غيرنا كدرا وطينا
هـ - ويهول عمرو :

بفتيان يرون القتل مجداً وشيب في الحروب مجربينا
وقد روى من المجهرة :

وفتياناً يرون القتل مجداً وشيباً في الحروب مجربينا

- ٣ -

ومعلقة عمرو تمتاز بأنها الأصل الذي نسج على منواله أمية ؛ كما تمتاز
بتنوع أغراضها ، وبطولها ، وأنها ملحمة تاريخية نادرة ، وهي إحدى
المعلقات السبع ، التي هي قصائد تحتمل الذروة في الشعر الجاهلي . وقد انتخبت
من بين القصائد الجاهلية لشهرتها وخصائصها الفنية والأدبية الممتازة . وقال
ابن قتيبة في قصيدة عمرو : وهي من جيد شعر العرب .

أما قصيدة أمية فلا تبلغ إلا نحو الثلاثين بيتاً أو تزيد قليلاً فهي نحو ثمان
قصيدة عمرو ، وقد وضعها النقاد مع المجهرات .. والمجهرات سبع قصائد
من الشعر الجاهلي رواها أبو زيد الأنصاري في « الجمهرة » ، وأصحابها هم :

أ - عبيد بن الأبرص ، وبجهرته مشهورة وهي في الحكمة ومطلعها :

عيناك دمعهما سروب كأن شأنهما شعيب

والسروب : الكثيرة الجريان . والشعيب : المزادة ... وتشتهر بأضطراب
وزنها ؛ ومنها :

والمرء ما عاش في تكذيب طول الحياة له تعذيب

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

ب - عدى بن زيد ؛ ومجهرته فى الحكمة ومطلعها :

أعرف رسم الدار من أم معبد؟ نعم ورمك الشوق قبل التجلد
وهى شبيهة بمعلقة طرفة فى وزنها وقافيتها وحكمتها ، وتتفق معها فى
بعض الأبيات مثل :

عن المرء لا نسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
ج - النمر بن تواب ، ومجهرته فى الحكمة أيضا ومطلعها : د تأبى من
أطلال عمرة مأسل ، .

د - أمية بن أبى الصلت ، ومجهرته موضع الحديث ، وهى فى الفخر .
ه - بشر بن أبى حازم ، ومجهرته فى الفخر بقومه وبطولاتهم
وعزهم ، ومطلعها :

لمن الديار غشيتها بالأنعم ؟ تعدو معالمها كاون الأرقم
و - خدش بن زهير ، ومجهرته فى الفخر بقومه أيضا ، ومطلعها :
د أمن رسم أطلال بتوضح كالسهار ؟ ، .

ز - عنتره ، وقصيدته :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

ويعدّها بعض النقاد من المملقات والآخر من المجمرات .

وهذه القصائد السبع لم توضع فى مرتبة واحدة لاتفاق موضوعاتها ؛
إذ أن موضوعاتها مختلفة : فثلاث منها فى الحكمة وأربع فى الفخر . كما أنها لم
ترتب بالنظر إلى الناحية التاريخية ، إذ أن أصحابها لم يعيشوا فى عصر واحد ؛
فمعدى توفى نحو عام ٥٨٠ م ، وعبيد عام ٥٥٥ م ، وأميه عام ٦٢٤ م ،
وعنتره عام ٦١٥ م الخ ؛ فهى إذا إنما وضعت فى منزلة أدبية واحدة تلى
منزلة المملقات الأدبية بالنظر إلى خصائصها الفنية الأدبية وحدها ، ويكاد
الناقد الأدبى يقف أمام تشابه شاعرية هؤلاء الشعراء وخصائص الشاعرية

في هذه القصائد ؛ فمنه القصائد السبع يشبه بعضها بعضاً في النواحي الفنية والقطرة الأدبية وفي خصائص الشعر والشاعرية ، وتكاد تكون متساوية في حكم النقد الأدبي ، وهي على أي حال تلي المعلقة في الجودة والمكانة الأدبية . ونستخلص من ذلك كله أن النقاد لاحظوا الفرق الفنية الكبيرة بين القصدين فوضعوا الأول في صف المعلقة والثانية مع المجهرات ، وفي الحق أن شاعرية عمرو في معلقته أقوى وأبين من شاعرية أمية في مجهرته ؛ سواء في الأسلوب أو المعاني أو الأغراض أو مدى الجودة الفنية ومواهب الشعر .

-- ٤ --

ويرى الدكتور طه حسين في كتابه « الأدب الجاهلي » أنه لا يمكن أن تكون معلقة عمرو أو أكثرها جاهلية ، وقد شك الرواة في بعضها ، ويرجح أن تكون المعلقة منتحلة ، ونحن لانذهب هذا المذهب ، فالمعلقة تمثل حياة جاهلية لقبيلة تغلب ، وتمثل شاعراً جاهلياً ، وتصور حياة عمرو الفنية والاجتماعية نفسها ، وهي شبيهة بالآثار الباقية من شعر عمرو ، وإن كان هذا لا ينفى أن تكون قد زيدت عليها بعض الأبيات ؛ وقصيدة أمية نفسها تؤيد أن قصيدة عمرو جاهلية وأنها لم تدخل بعد الإسلام على أيدي الرواة .

ونلاحظ على مجهرة أمية خلوها من الصبغة الدينية التي اشتهر بها أمية ، ويبدو أنه نظمها في شبابه قبل أن يقف نفسه وحياته وشعره على الجانب الديني وحده ، وتقليده فيها لعمرو بن كلثوم يؤكد ذلك وأنها نظمت قبل أن تكتمل شخصية أمية الفنية ، وقد يكون السبب الذي جعل أمية ينظم بمجهرته محتدياً فيها عمراً هو إعجابه بمعلقته أو روايته لشعره أو تشابه موقف الفخر الذي وقفه الشاعران ، ونحن لا نستطيع أن نقول إن الرواة أدخلوا على مجهرة أمية بعض الأبيات من معلقة عمرو لتشابه الوزن والقافية والخيال والموضوع في القصيدتين ؛ ذلك لأن مجهرة أمية ليست طويلة ولأنه إذا حذف منها

الآيات المتشابهة لا يبقى منها في مقام الفخر إلا القليل من أبياتها، ولا يعقل أن ينظم الشاعر قصيدة في الفخر معانيها فيه محدودة أو شبه محدودة . . . ورواية أبي زيد للقصيدتين في كتابه دليل على إيمانه بصحة القصيدتين أولاً ، وبأن المعاني المتشابهة فيهما نتيجة لاتفاق الشعاعية أو للتقليد الأدبي ثانياً ، وأبو زيد المتوفى عام ٢١٤ هـ راوية ثقة .

وبعد فلستطيع أن نقول : إن أمية قلد في مجمرته عمرو بن كلثوم في معلقته تقليداً فنياً واضحاً ، فأخذ من المعلقة كثيراً من معاني الفخر وأساليبه ، وصاغ قصيدته على موسيقى وقافية معلقة عمرو . وهذا التقليد الفني ليس بمعجيب بين الشعراء في شتى العصور وليس بغريب في الشعر الجاهلي نفسه فأتت ترى أن الشاعر الجاهلي كثيراً ما يتفق مع شاعر قبله أو معاصر له في أسلوب أو معنى أو بيت ، وأنت تعرف قول امرئ القيس :

وقفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجمل
وقول طرفة :

وقفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجمل
وتعرف غير ذلك مظاهر التشابه الفني أو التقليد الأدبي بين الشعراء الجاهليين .

بين الجاهليين والمخضرمين

الشعراء الجاهليون هم الذين عاشوا طول حياتهم في الجاهلية ، أي قبل ظهور الإسلام ، أو كان إنتاجهم كله في العصر الجاهلي أو متأثراً بروح العصر الجاهلي وحده وإن عاشوا بعده قليلاً أو كثيراً ، فليبد جاهلي وإن عاش بعد الهجرة أربعين سنة لأنه لم ينظم بعد إسلامه شعراً قط ، وأممية بن أبي الصلت على ما ترجح جاهلي ، وإن عاش بعد الهجرة تسع سنوات لأنه لم يحى حياة إسلامية قط ، ومثله قيس بن الخطيم

والمخضرمون هم الذين عاشوا في الجاهلية والإسلام ، وتأثروا في شعرهم بالجاهلية والإسلام معا ، مثل حسان والخطيب ومعين بن أوس وكعب بن زهير والخدساء وسواهم . .

وأصل المخضرمة أن يجعل الشيء بين بين ، ومن ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يسمون نعمهم فيقة طعمون جزءا من أطراف آذانها ويتركونه ينوس (١) فتسمى مخضرمة لأن آذانها صارت بين الوافرة والناقصة ، فلما جاء الإسلام أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يخضرموا من غير الموضع الذي يخضرم أهل الجاهلية حتى تمتاز نعمهم من نعم مخالفهم لأنهم أهل حرب فكانت مخضرمة أهل الإسلام بائنة من مخضرمة أهل الجاهلية ، ثم قيل لكل من أدرك المخضرمين مخضرم وأكل من كان نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام لأن حيانه بينهما ومنه الشاعر المخضرم الذي أدرك الجاهلية والإسلام كحسان بن ثابت وكعب بن زهير ؛ ومن هذا المعنى قول الشاعر كما رواه صاحب اللسان :

إلى ابن حصان لم تخضرم جدوده كبير الثنا والخيم والفرع والأصل والظاهر أن استشهاد بهذا البيت غير سديد لأن سياق البيت يدل على أن معنى لم تخضرم جدوده ليسوا أدعياء لا على أنهم ليسوا بين بين اللهم إلا أن يريد معنى يؤول إلى هذا ، وذلك أنه يقال رجل مخضرم أي أبوه أبيض وهو أسود فيكون بين أبيض وسوداء أو ممنوز النسب وهو يناسب قوله إلى ابن حصان ، ومنه الطعام المخضرم وهو كما قال ابن سيده الذي ليس بمحلو ولا من ، أو كما قال ابن فارس بين الثقيل والخفيف وعلى كل حال بين بين ، وراء المخضرم ما لفتح على الأرجح ولكن قال ابن بري أن أكثر أهل اللغة على كسر الراء لأن الجاهلية لما دخلوا في الإسلام خضرموا آذان إبلهم ليكون علامة لإسلامهم إن أغير عليها أو حوربوا ؛ ويقال لمن أدرك

الجاهلية والإسلام مخضرم ، وقال ابن خالويه : مخضرم خلط ، ومنه المخضرم الذي أدرك الجاهلية والإسلام ، والظاهر ما قلناه لأن اسم المفعول أصله بالنعم الموسومة فيكون اسم الفاعل لو اسمها (١) وقد وجه ابن بري رأى من فتح الرأ فقال تأويله عنده أنه قطع من الكفر إلى الإسلام وأما أقول إن هذا التأويل غير وجيه لأنه يستدعي أن يكون كل المخضرمين مسلمين وليس كذلك فإنهم عدوا كعب بن الأشرف اليهودي الهجاء من المخضرمين مع أنه مات على دينه ، ولو أنه وجهه بأنه قطع من حال من الشعر إلى حال أخرى كان أجود لأن كثيرا من الشعراء وجهوا تيار شعرهم إلى الحكم والمواعظ والأخلاق وترفعوا عن الهجاء بل تغالى بعضهم كلبيد بن ربيعة العامري وهو من أصحاب المعلقة فترك قول الشعر وبدل به الكتاب العزيز .

وقد توسع الناس بعد في هذه التسمية فسموا بها كل من أدرك مدتين فقلوا في مثل بشار بن برد مخضرم لأنه أدرك بني أمية وبني العباس . بيد أنهم لا يذكرون ذلك من غير إضافة خوف اللبس ، ولذلك يقولون من مخضرمي الدولتين ، وعلى ما قدمنا لا يختص اسم الدولتين بالشاعر وإن اشتهر فيه ولا بزمان البعثة . وبعضهم يشترط في نعت الشاعر بالمخضرم أن يكون قد قال الشعر في الزمانين ولهذا لا يسمى لبيدا شاعرا مخضرمًا بل بعده من شعراء الجاهلية وإن كان مسلماً ويعد كعب بن الأشرف مخضرمًا وإن كان يهوديًا .

صور من الشعر الجاهلي

-- ١ --

قال حاتم الطائي :

أماوى قد طال التجنب والهجر وقد عذرتنى (٢) فى طلابكم عذر (٣)

(١) ومعناه أنه في عصر الخضرمة

(٢) عذرتنى : أى رفعت عنى اللوم ، ومحت الإساءة وطمستها .

(٣) العذر : جمع عذير ، والعذير هو الحال ، وأصله العذر ، ويخفف فيقال عذر

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذگر
أماوى إني لا أقول أسائل إذا جاء يوما : خل في مالنا النزر (١)
أماوى إما مافع فمبين وإما عطاء لا ينهنه (٢) الزجر
أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت (٣) يوما وضاق بها الدهر
أماوى إن يصبح صدای (٤) بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا نحر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضائرى وأن يدى مما بخلت به صفر
أماوى إني رب واحد أمه أخذت فلا قتل عليه ولا أمر
وقد علم الأفوام لو أن حاتما أراد ثراء المال كان له وفر
أماوى إن المال مال بذلته فأوله شكر وآخره ذكر
وإني لا آلو (٥) بمالى صليعة فأوله زاد وآخره ذخر
يفك به العانى (٦) ويؤكل طيبا وما إن يعريه القداح (٧) ولا القمر (٨)
ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتى شهودا وقد أودى بإخوته الدهر
غنيانا (٩) زمانا بالتصملك والغنى وكلا سقانا بكأسيهما الدهر
فما زادنا بأوا (١٠) على ذى قرابة غنانا ، ولا أزرى بأحسابنا الفقر
وما ضر جاريا بنة القوم فاعلمى يجاورنى ألا يكون له ستر
بهنى عن جارات قومي غنلة وفى السمع منى عن أحاديثها وقر

وقالت أم الصريح السكندية ترثى بعض قومها :
هوت أمهم ماذا بهم يوم صرعوا بجيشان من أسباب مجد تصرما

- (١) النزر : القلة . (٢) ينهنه : منعه .
(٣) الحشرجة . الغر غرة عند الموت
(٤) الصدى : ما يبقى من الميت فى قبره . (٥) لا آلو : لا أقصر .
(٦) العانى : الأسير . (٧) القداح : قداح الميسر . (٨) القمر : المقامرة .
(٩) غنيانا : غنى بالمكان ، أقام به . (١٠) البأو : الكبر والفخر .

أبوا أن يفروا والقنا في نحورهم وأن يرتقوا من خشية الموت سلما
فلو أنهم فروا لكانوا أعزة (١) ولكن رأوا ضبرا على الموت أكرما

- ٣ -

وقالت أمية بنت عبد شمس بن عبد مناف فيمن قتل من قريش في
حرب الفجار :

أبي ليلى أن يذهب ونيط الطرف بالكوكب
ونجم دونه الأهوا ل بين الدلو والعقرب
وهذا الصبح لا يأتي ولا يدو ولا يقرب
بعقر عشيرة منا كرام الخيم والمنصب
أحال عليهم دهر حديد الناب والخلب
فإن أبك فهم عزي وهم ركبى وهم منكب

- ٤ -

وقالت فاطمة الخزاعية في رثاء إخوتها :

إخوتى لا تبععدوا وابلى والله قد بعدوا
لو تملتهم (٢) عشيرتهم لاقتناء العز أو ووادوا
هان من بعض الرزية أو هان من بعض الذى أجد
كل ما حى وان أمروا واردا الحوض الذى وردوا

- ٥ -

وقال عنتره من معلقته :

لما رأيت القوم أقبل جمهم يتذاكرون كررت غير مذمم (٣)

(١) أى لا يلامون لوضوح عندهم - (٢) أى لو عاشوا مليا من الدهر
(٣) يتذاكرون : أى يحض بعضهم بعضا على القتال ، عندئذ عطف عليهم غير
مذمم على عملي بل مدحها عليه .

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بثر في لبان الأدهم (١)
 ما زلت أرميهم بشجرة نحره ولبانه ، حتى تسربل بالدم (٢)
 فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى عبيرة وتحمحم (٣)
 لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى أو كان يدرى ما جواب تكلمى (٤)
 والخيل تقتحم الخبار عوابسا ما بين شيطرة وأجرد شيطم (٥)
 ولقد شفى نفسى وأبرا سقمها قيل الفوارس ويلك عنتر أقدم (٦)
 ذال جهالى حيث شئت مشايعى لى ، وأحفزه رأى مبرم (٧)
 لاني عداني أن أزورك ، فاعلى ما قد علمت وبعض الم تعلمى (٨)

- ٦ -

وقال لقيط بن يعمر الإيادى وهو شاعر جاهلى قديم مقل ، ذكر ابن

- (١) عنتر : أى ياعنتر حذفت التاء للرخيم ، وروى المبرد أنه كان يسمى عنترا أيضا . والأشطان : جمع شطن ، وهى الحبال الطويلة الشديدة الغل . واللبان . الصدر . والأدهم : فرسه . (٢) أى بنقرة نحره . (٣) العبيرة : تردد البكاء فى الصدر قبل أن تفيض الدمعة ، والتحمحم : الصوت المنقطع دون الصهيل ، ويكون من الفرس إذا طالب العطف عليه والرقه لحاله . (٤) المحاورة : الخطاب . ويروى : ولكان لو علم الكلام مكلمى . (٥) الخبار : الأرض اللينة . والشيطم : الطويل . والأجرد : القصير الشعر . وهما صفتا حسن للفرس الكريم . (٦) ويلك مركبة من (وى) وكاف الخطاب . ووى تعجب كأنهم قالوا : عجباً لك ! أقدم : أوهى مخففة من ويلك ، أو ويحك . (٧) الذال : جمع ذلول ، وهو من الإبل وغيره أضد الصعب الحرون . ومشايعى قلبى أى متابعى ومشجعى . وأحفزه : أدفعه . والمبرم : المحكم . المعنى : يصف نفسه بأنه رجل أسفار ، وأن جماله لله ، لتعودها السير ، لا يصعب أن يوجه إلى أى أرض . ويصف نفسه أيضا بأنه حاضر العقل لا يعزب عقله فى أى حال من الأحوال ، بل هو أيضا يدفعه ويقويه برأى محكم . (٨) المعنى : صرفنى عن زيارتك ما قد علمته من الأسباب ، وما لم تعلمه .

الشجرى أنه كان كاتباً في ديوان كسرى، ولم يكن بيد الناس من شعره في زمن صاحب الأغاني إلا قصيدة كتب بها إلى قومه يحذرهم ما اعتزمه كسرى من غزوهم وقتالهم، وقطع أخرى لطاف متفرقة، فإذا صحت زواية ابن الشجرى - وفي ما قاله أبو الفرج - يقويها وإن لم يصرح وكان لقيط قد خدم الأكرسة وكتب لهم - فهو أقدم من بلغنا خبره من أئقن الفارسية من من العرب وأجدرهم بأن يتأثر بها شعره. وليس من المستطاع اليوم وقد ضاع شعر لقيط تعيين ما كان له بالفرسية واتصاله بخدمة الملوك من أثر فيه، ولكن القصيدة التي بقيت له وانتهت إلينا تتميز من شعر ذلك العهد بأنها نسق واحد لا خلل فيه ولا اضطراب، وأنها لا تبدأ معنى حتى تتمه وتستوفيه ولا تلتقل عنه إلى آخر حتى يكون هو الذي أدى إليه واقتضاه. وأمل خير ما يدل على مذهب الشاعر ويكشف عن طريقته إثبات أبيات منها، تجمع إلى وضوح الدلالة كثيراً من الفائدة، وهذه القصيدة قالها لقيط يحذر فيها قومه عاقبة أمرهم إذا قهرهم الفرس، ويذكركم بما يحل بالأمم إذا دارت عليهم الدائرة وغلبهم الأجنبي على سلطانهم، ويوصيهم باجتماع الكلمة والتشديد للحرب وتقليد زمامهم من توفرت فيه خلال القيادة وتمت له أدواتها:

هيأت لا مال من زرع ولا إبل	يرجى اغابركم إن أنفكم جدعا
لا تلهيكم إبل ليست لكم إبل	لن العدو بمظم منكم قرعا
لا تهمروا المال للأعداء لهم	إن يظفروا يحتووكم والنلاد معا
يا قوم إن لكم من إرث أولكم	إن ضاع آخره أو ذل واتضعا
ماذا يرد عليكم عز أولكم	مجد أقدم أشفقت أن يفنى وينقطع
فلا تغرنكم دنيا ولا طمع	أن تنعشوا بزماح ذلك الطمعا
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيرا	على نساءكم كسرى وما جمعا
يا قوم يبيضتكم لا تفجعن بها	لأن أخاف عليها الأزم الجدعا
هو العناء الذي تبقى مذلتة	إن طار طائركم يوما وإن وقعا
هو القناد الذي يحث أصلكم	فمن رأى مثل ذا رأيا ومن سمعا

قوموا قياما على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا ، قد ينال الأمن من فزعا
وقلدوا أمركم الله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به خشعا
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه هم تكاد حشاه تعظم الضلعا
مسهد النوم تعنيه أموركم يروم منها إلى الأعداء مطالعا
ما انفك يحلب در الدهر أشطره يكون متبعا طورا ومتبعا
وليس يشغله مال يشمره عنكم ولا ولد ينبغي له الرفعا
قد استمر على شزر مريرته مستحکم السن لا قهما ولا ضرعا

وقد كان من أعلام شعراء العصر الجاهلي طائفة كانت تنظم الشعر في
السيب وحده ، وهم كثيرون ومنهم : المرقش الأكبر م ٥٥٢ م ، وعبدالله
ابن العجلان م ٥٦٦ م ومالك ، وعنترة ، ومسمود بن خراشة التميمي وقد
أدرك الإسلام ، ومنظورين زبان الفزارى . ولهم شعر رائع وقصائد كثيرة
قصروها على الغزل وحده كما في قصيدة المرقش الأكبر : سرى ليلا خيال
من سليمى . وقد يبدو أن السيب فن إسلامى بدأه عمر بن أبى ربيعة
وجميل وكثير وطبقتهم ، والحقيقة أن هؤلاء كانوا يحتذون مثالا لمن
تقدمهم ، وما أظن أحدا بلغ من صفة النساء ما بلغ النابغة حين سأله النعمان
أن يصف امرأته المتجردة ، أو ما بلغ المنخل اليشكري والمرار العدوى
وسويد بن أبى كاهل وشعر المرقشين الأكبر والأصغر وعبدالله بن العجلان
النهدي وقيس بن الحداية ، من صدقوا الحب ونسبوا في لفظ عفيف ومعنى
نزيه مشهور معروف . . . قال المرقش الأكبر :

سرى ليلا خيال من سليمى فأرقنى وأصحابى هجود
فبت أدير أمرى كل حال وأرقب أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفى لنار يشب لها بذى الأرتى وقود

حواليها مها جم التراقي
نواعم لا تعالج بؤس عيش
يرحن معاً بطاء المشى بدا
سكن ببلدة وسكنت أخرى
فما بالي أني ويحان عمدي
ورب أسيلة الخدين بكر
وذو أشر شتيت النبت عذب
لهوت بها زماناً من شباني
أناس كلها أخلقت وصلا

وآرام وغزلان رقود
أوانس لا تروح ولا ترود
عليهن المجاسد والبرود
وقطعت الموائق والعمود
وما بالي أصاد ولا أصيد؟
منعمة لها فرع وجيـد
نقى اللون براق برود
وزارتها النجائب والقصيد
عناني منهم وصل جديد

وقال :

نواعم أبكار سرائر بدن
يهدان في الأذان كل مذهب
نشرن حديثاً آنسا فوضعه

حسان الوجوه لينات السوائف
له ربذ يعيا به كل واصف
خفيضاً فلا يلغى به كل طائف

ولعبد الله بن العجلان :

ألا أبلغا هنداً سلامي فإن نأت
ولم أر هنداً بعد موقف ساعة
أت بين أتراب تمايس إذ مشت
أشارت إلينا في خنما وراءها
وقالت تباعد يا ابن عمي فإنني

فقلبي مذ شطت بها الدار مدنف
بأنعم في أهل الديار تطوف
ديب القطا أو هن منهن أقطف
سراة الضحى منى على الحى موقف
منيت بذى صول يغار ويعنف

وقال :

خليلي زورا قبل شحط النوى هنداً
ولا تعجلا لم يدر صاحب حاجة
ومرا عليها بارك الله فيكما

ولا تأمنا من دار ذى لطف بعدا
أغيا يلاقى في التعجل أم رشدا
وإن لم تكن هند لوجهي كما قصدا

وقولا لها ليس الضلال أجارنا ولكننا جرننا لنلقاكم عمدا

وقال قيس بن الحداية من قصيدة طويلة :

أجرك إن نعمت نأت أنت جازع قد اقتربت لو أن ذلك نافع
قد اقتربت لو أن في قرب دارها نوالا ولكن كل من صن مانع
وقد جاورتنا في شهور كثيرة فما نولت والله راه وسامع
وظئى بها حفظ لغبي ورعية لما استرعت والظن بالغيب واسع
فقلت لفاء بعد حول وحجة وشحط النوى الا الذى العهد قاطع
وقد يلتقى بعد الشتات ألو النوى ويسترجع الحى السحاب اللوامع
ومنها :

كأن فؤادى بين شقين من عصا حذار وقوع البين والبين واقع
يحث بهم حاد سريع نجاؤه ومعرى عن الساقين واللوب واسع
فقلت لها يا نعم حلى محلنا فإن الهوى يا نعم والعيش جامع
فقلت وعيناها تفيضان عسيرة بأهلى بين لى : متى أنت راجع
فقلت لها : تالله يدرى مسافر إذا أضمرت الأرض ما الله صانع ؟
فشدت على فيها اللثام وأعرضت وأمن بالسكحل السحيق المدامع
ولانى العهد الود راع واننى بوصلك ما لم يطونى الموت طامع

فتصيب هذا العصر من الدسيب كما رأيت أوفرو أجود بما توهم الأدباء ،
وهو أصل يلتقى اليه بارع الدسيب الاسلامى من قريب (١).

(١) راجع الشعراء العشاق في كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان

حول الادب الجاهلي

حول العصر الجاهلي

- ١ -

عندما نقسم تاريخ الأدب العربي إلى عصور لندرسه على ضوءها ننظر
بجد إلى تاريخ الأدب العربي الذي هو تاريخ لقومية الأمة العربية وأخلاقها
وعاداتها وحياتها وآمالها وآلامها ولكل ما تأثرت به من مؤثرات حياتها
الفكرية والاجتماعية والسياسية والأدبية . ننظر إلى تاريخ الأدب على أنه
ليس علما جافا بل فنا أساسه الذوق ودراسة الفنون الأدبية في الأمة دراسة
واسعة . ومؤرخ الأدب يعني بأن يدرس أسباب رقي الأدب وانحطاطه
وتأثر الأدباء بها أو تأثيرهم فيها ، وأن يدرس صلات المحدثين بالقدماء أدباء
وشعراء وكتابا وخطباء ونقادا ، وأن يتعمق في فهم المذاهب والمدارس
الأدبية العامة وصلاتها ببعض والعوامل التي أدت إلى قيام كل مدرسة وميزاتها
وخصائصها ومدى تأثيرها بما قبلها وتأثيرها فيما بعدها من المدارس والمذاهب
الأدبية العامة . فهذه المدارس والحركات الأدبية كانت تلعب دورا هاما في
الأدب ، ولها من الأهمية في دراسة تاريخ الآداب ما لا يقل شأننا عن دراسات
كثيرة في الأدب ، فتاريخ الأدب ليس سردا لنصوص أدبية وتراجم
عامة ، بل يوضح لنا الصلات بين المذاهب الأدبية ويربط كاتباً بآخر وجماعة
بجماعة ومدرسة بمدرسة ، كما يدرس أسباب الانقلابات الأدبية المختلفة
في عصور الأدب وتأثير فحول الكتاب في نهضة الأدب والشعر وتوجيهها
وجهة جديدة . هذا كله فوق دراسة تاريخ الأدب الآثار الأدبية نظما وشعرا
ولشخصيات الأدباء شعراء وكتابا وخطباء والإمام بلشائهم وحياتهم
ونزعاتهم وغير ذلك من مكونات شخصيتهم وطابع كل منهم وسماته التي
يتميز بها عن غيره ، فكل كاتب كبير أو شاعر عبقري يأتي إلى هذا العالم
بشيء جديد كل الجدة ذلك هو نفسه ، كما يقول بعض النقاد الغربيين : وكثير
من الكتاب الأفاضل والشعراء الملهمين يخلقون ذوقا جديدا ومرحلة جديدة

في الأدب، وكما يتأثر الأديب بعصره فهو يؤثر فيه. فالأديب ابن عصره وبيئته، فكل ما يبعث اتجاهها جديدا في الرأي أو في منحى الحياة أو في مجرى السياسة والشعور العام يؤثر في تكوين الآداب إلى حد كبير ويجب ألا ننسى ظروف الزمان والمكان والبيئة عند دراستنا لأي نص أدبي، كما أنه لا بد من معرفة العوامل التي أثرت في فن الشاعر والكاتب والأديب وفي ذوقهم وإنتاجهم الفني وجعلت لهم طابعا خاصا في أدبهم. ومهما تكن شخصية الأديب بالغة منتهىها فإن روح جلسته وعصره لا بد من أن يظهر فيه. وعلى ذلك فتاريخ الأدب يتأثر بمؤثرات قوية كما يتأثر بمؤثرات شخصية، فظهور الإسلام مثلا له من الأثر العميق في الأدب العربي ما لا يستطيع حصره.

ومع ذلك فلا يقتصر تاريخ الأدب على دراسة المخلفات الأدبية لمختلف الأدباء والشعراء، كل كاتب على حدة، بل لا بد فيه من دراسة أدب الأمة جملة واحدة وإظهار مميزاته العامة باعتباره إنتاجا لعقلية هذه الأمة التي هي جماعة واحدة، لها تفكير خاص وشعور خاص وذوق خاص: فكل ماله أثر في تكوين الأمة له أثر في نسج أدبها، فأدب الأمة هو تاريخها الذي دونته بقلمها ليصور لنا رقيها العقلي والخلقي فوق تقدمها الأدبي.

وقد اعتاد مؤرخو الآداب أن يقسموا الأدب إلى عصور مختلفة، ولم يلجأوا إلى ذلك لسهولة الدرس فحسب، ومن قبيل تقسيم الموضوع المتشعب إلى أبواب وفصول. . . وهناك ما يبرر هذا التقسيم، فالعصر التاريخي عبارة عن فترة زمنية يسود فيها نوع من الذوق العام، وعلى ذلك فإن أدب ذلك العصر يتسم بصفات خاصة من حيث المادة والفكرة والأسلوب، وقد تختلف آثار الكتاب البارزين بقدر ما تختلف شخصياتهم، ولكن تلك الصفات العامة تظهر فيهم جميعا. ولا ينتهي عصر ويخلفه آخر، إلا بعد تغيير حاسم في الذوق العام. ولكننا يجب أن لا ننزع الحواجز المتينة بين عصر وعصر، فليس تاريخ الإنسان أبواباً وفصولاً، ولكنه تيار واحد متدفق يسير حيناً ذات اليمين وحيناً ذات اليسار، ليس له بداية معينة، ولا نهاية

محدودة والعصور التاريخية في الواقع آخذ بعضها بتلابيب بعض ، وقد يبدأ الرجل عمله في عصر من العصور ، ولا ينتهي منه إلا في عصر آخر ، كالتخضرمين بين الجاهلية والإسلام ، وكبشار وابن المقفع بين العصر الأموي والعصر العباسي . ومع ذلك فإن لتقسيم الأدب إلى عصور أهميته الدراسية لأنه يوجه أنظارنا إلى المراحل التي اجتازها الأدب وتميز في كل مرحلة منها بميزة خاصة ، وهو أهم ما يعنى به مؤرخ الآداب .

-- ٢ --

وهناك سؤال لا بد من إirاده ، وهو : ماذا نعني بالعصر الجاهلي ؟
إنه العصر الذي سبق الإسلام ، فإذا جعلنا حادث الهجرة هو الفاصل بين الجاهلية والإسلام ، كان عام ٦٢٢ م الذي هو بدء التاريخ الهجري نهاية هذا العصر الجاهلي ، وإذا اتسع أفقنا أكثر من ذلك كانت نهاية العصر الجاهلي عام ٦١٠ م ، وهي السنة التي بعث فيها الرسول صلوات الله عليه إلى قومه وإلى الإنسانية عامة .

أما مبدأ العصر الجاهلي ، فهو غير معلوم تماماً ، والقرآن الكريم يشهد للعرب بحضارات سالفة بائدة ، كما يقول الأستاذ إبراهيم مصطفى فقد ورثوا إبراهيم وكانوا على دينه ، لأنه أبو العرب ، وقد أرسل إلى العرب من الرسل هود وصالح وشعيب ، ولكل رسالة دين ، وفي كل دين حضارة وقد شهدت الجزيرة العربية قبل الإسلام حضارات ذات شأن ، وعلى هذا الأصل نحاول أن نحدد أول الجاهلية العربية قبل الإسلام ، وسبيل ذلك أن نعرف آخر حضارة قامت بالجزيرة ونحدد نهايتها فتكون بدء هذا العصر الجاهلي . فإذا اقتصرنا على العصر التاريخي وعلى ما كشف من آثار حضاراته ذكرنا حضارة الأنباط ، وقد كانت في شمال الجزيرة وامتدت من العراق إلى مصر ووصلت في الجنوب إلى وادي القرى وورثت حضارة ثمود وأبقت آثارها خالدة وصمدت للروم في حروب شديدة مريرة - ثم حان حينها

فأنقضى أمرها على يد « تراجان » سنة ١٠٦ من الميلاد وورثت مكانتها تدمر
ووسع سلطانها الشام ومصر وما بين النهرين والاضول إلى أنقرة وجاء
يومها فأنقضى ملكها سنة ٢٧١ م على يد أريان الروماني أيضا .

وكانت الحروب الطويلة القاسية بين الروم والفرس سبب انقطاع التجارة
بينهما ، وكان لابد للتجارة أن تشق لها مجرى ، فاتخذت سبيلها في مفاوز البلاد
العربية البعيدة عن سلطان الدولتين ، وكان الروم أشد حسرة لانصراف
التجارة إلى أيدي العرب .

ولهذا تجشموا الأهوال في القضاء على بطرة وعلى تدمر وحاولوا
القضاء على دولة اليمن أيضا وأرسل أغسطس حملته المشهورة بقيادة قائده
الياس جلاس فهلك في الصحراء جيشه وعاد بخيبة سجلها رفيقه وصديقه
استرايون ، وأورثتهم يأسا أبديا من أن ينالوا بلاد اليمن عن طريق شمال
الجزيرة . وفي القرن الرابع كانت المسيحية قد انتشرت وصالحتها الدولة
الرومية البيزنطية واستعانت بها على مد سلطانها ، وكان رسل هذه الديانة قد
وصلوا إلى الحبشة وبشروا فيها بدينهم فقامت بها دولة مسيحية حبشية تقابل
في البلاد العربية دولة اليمن اليهودية ، وقامت العداوة بين الأخوتين ، فأحباش
هذه الدولة من أصل عربي يمني ، ولكن المنافسة في التجارة والعداوة في الدين
أججت نار الحرب بينهما ، ومن آثار تلك العداوة حديث الأخدود والنار
ذات الواقود ، وأرسلت بيزنطة رسلا وسفنها إلى الأحباش فمكنتهم من
القضاء على الدولة الحميرية باليمن بعد حروب سجال ، وانتهى بذلك عهد آخر
دولة مستقلة قامت قبل الإسلام في الجزيرة العربية وكان ذلك سنة ٥٢٥ م ،
كما يقول إبراهيم مصطفى ، وقد خلت بلاد العرب من دولة تهيم عليها ،
وتؤمن سبلها وتحمي تجارتها ووقعت في فوضى نرى بعض صورها في شعر
كشعر الحارث بن حلزة إذ يقول :

هل علمتم أيام يذهب النا س غواراً لكل حي عواء
لا يقيم العزيز بالبلد السم ل ولا ينفع الذليل النجاء

ليس ينبغي موائلنا من حذار رأس طود وحررة رجلاء

فهذا حد العصر الجاهلي العربي ، وقد كانت آثار المعاقلة اليمنية موجودة في شتى أرجاء الجزيرة العربية . فبنو الحارث بن كعب في جنوب الحجاز ، وكانوا يلقبون ملوكا ، والأوس والخزرج في شماله ، وفي نجد طيء وكلب وملوك كندة ، وفي عمان الازد ، وفي تخوم العراق المناذرة ، وفي مشارف الشام الغساسنة ، وكلهم يلتسبون إلى اليمن ، وقد نشبت الحروب بينهم كل يريد الملك لنفسه ، كما فعل قواد الاسكندر في ملكه الواسع من بعده ، وثار العرب من غير اليمن وهم العدنانيون ، وتطلعوا إلى الاستقلال والنفوذ والسلطان واشتعلت الحرب بين العدنانيين واليمنيين ، بل بين بعض العدنانيين والبعض الآخر ، ومضى شعراؤهم يتغنون بفظائع الحرب :

وحليل غانية تركت بجذلا تمكو فريسته كشدق الأعم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع يلشنه يقضن حسن بنانه والمهم

يقول ابراهيم مصطفى : إن حياة العرب تعتمد على التجارة ورزقهم منها ولا بد لهم أن يتجروا ليعيشوا ، والائر الوارد : تسعة أعشار الرزق من التجارة ، والرسول كان منذ الصبا تاجرا وأبوه وعمه وجدته تجار وزوجه خديجة ترسل في التجارة أموالها .

فالعصر الجاهلي إذن يبتدىء بنقد حكومة البلاد وضياع أمنها ، واضطراب نظامها في سنة ٥٢٥ ، وينتهي بقيام الحكومة التي تقرر السلام وتلشر الأمن في سنة ٦٢٢ . وما بينهما عصر الجاهلية والفوضى والتناحر على السلطان .

فوالغساسنة كانوا يتاخون الروم في الشام قبيل الإسلام ، ولهم مع الدولة البيزنطية صلات مدونة معروفة . وكان أقدم اتصال للغساسنة ببيزنطة في زمن

الحارث الأكبر من سنة ٥٢٩ م. إلى سنة ٥٦٠ م. إذ أنعموا عليه ، ثم على ولده من بعده ، بلقب بطرق ، وهو لقب حكام الأقاليم عندهم ، ومن ذلك نعلم أن الغساسنة ، وهم يمنيون ، كانوا يستمدون سلطانهم من دولتهم اليمنية ، ويحاربون الروم فلما زالت دولة اليمين وجاءهم الحرب من حيث كانوا يلمتمسون العون ، اضطروا إلى الاستمانة بالروم واستمداد السلطان منهم ، وفي بلاد تخوم العراق كان المناذرة ملوك الحيرة ، وكان لهم اتصال بملوك الفرس من آل ساسان . ونقرأ من أخبارهم أن (يزدجرد) أرسل ولده (بهرام) إلى بني في بلاط المنذر بالحيرة ، وأن (يزدجرد) لما مات ثار الفرس رافضين أن يتولى أحد من أولاده لما كانوا يكرهون من حكمه ، وأن بهرام استعان بالمنذر وولده النعمان في جيش قدره بثلاثين ألفاً ، وبهم تمكن من الجلوس على عرش أبيه ، ولا أرى في هذا صورة التابع الخاضع ، وقد كان ذلك سنة ٤٢٠ م ؛ ولكن في زمن كسرى أنوشروان نرى المنذر الثالث يتولى السلطان من يد كسرى ، وحكم كسرى من سنة ٥٣١ م إلى سنة ٥٧٨ م ، والمنذر قتل في واقعة محددة التاريخ سنة ٥٥٤ م ، واستمر الأمر على ذلك يولى الفرس حاكم الحيرة من المناذرة ، وربما ولوه من غيرهم كما ولوا عليها إياس بن قبيصة الطائي . فهذه أسرة يمنية أخرى تبذلت طبيعة اتصالها بجارتها ، بعد أن سقطت دولة اليمين سنة ٢٥١ هـ .

وفي داخل الجزيرة كان امرؤ القيس آخر ملوك كندة ، وقد حاربه المنذر الثالث وحارب أمرته نزاعاً على الملك ، وقتل كثيراً من أمراء كندة صبراً ، ويبكيهم امرؤ القيس في شعره :

فلو في يوم معركة أصيبوا ولسكن في ديار بني مرينا
فلم يغسل جهاجهم بغسل ولسكن في الدماء مرملينا
وإذا كان المنذر يستند إلى سلطان الفرس فان سبيل امرئ القيس أن
(٣١)

يستعين بمنافسيهم الذين ينازعونهم الرغبة في التسلط على البلاد الغربية ،
وهم الروم ، ويقصد في ذلك إلى الحارث بن جبلة ، والحارث قدولى من
سنة ٥٢٩ م إلى سنة ٥٦٩ م ، وهكذا نرى أن ما ذكر من تاريخ الحوادث
يؤيد هذا التعديد .

فالمصر الجاهلى الذى هذه بدايته وتلك نهايته ، هو العصر الذى
ندرسه ، ونعنى بتتبع الأدب شعره ونثره فيه ، وحسبنا ذلك الآن .

آراء حول النثر الجاهلى

- ١ -

النثر أحد ألوان الأدب وأقسامه ، وهو بخلاف الشعر لا يقيد وزناً أو
قافية ، ويعتمد غالباً على الحقائق ، ويركن إلى صدق التعبير ، وجهال التهور
وجلال التأثير . . فإذا اعتمد النثر على الخيال ، وتعتمد إثارة العواطف ،
وصيغ في أسلوب الشعر فذلك هو الشعر المنشور ، والنثر أول ما ينشأ يستخدم
في أغراض المعيشة العادية ، ووسائل الحياة الاجتماعية . ثم لا يلبث أن يكثر
الاهتمام به ، والإقبال عليه ، وتعمم الحاجة إليه ، ويقبل الكتاب يسجلونه
بالكتابة ، فيكثر ذبوعه ، ويزداد انتشاره ، ويؤدى مطالب الحياة وأغراضها
الكثيرة . فإذا ارتقت الحياة ، وتقدمت المدنية ، ازدادت أهمية النثر ،
واتخذ وسيلة إلى أداء بعض الموضوعات التى تؤدى بالشعر ، فيستخدم فى
وصف العواطف وإثارة المشاعر ، ووصف مظاهر الطبيعة ، وفى الاستعطاف
والعتاب والشكر فينشأ النثر الفنى الذى يقصد به الفن ، ويبحث على الاتزان
والأريحية ، ويعتمد فيه تنظيم الفكرة ، وتدقيق المعنى وجودة السبك وجهال
الرصف وحسن الأداء .

فإذا ازداد العقل نماءً ، والثقافة انتشاراً ، والعلوم سعة ، أخذ العلماء

يدونون بالنثر قواعد هذه العلوم المختلفة ، فيلشأ النثر العلمى الذى يعنى به
الأدب عناية خاصة ، لأنه منهل من مناهل الثقافة الأدبية ، وأثر من آثار
العقلية التى تلشأ الأدب ، ولأن الكثير من هذا النثر العلمى أدب جيد . حيث
تزدى الحقائق فيه بلغة النثر الفنى ، كما فى مؤلفات النقد والتاريخ والسياسة
والاجتماع ، ولذلك يعد كثير من مؤلفات هذه العلوم أدبا فنيا رائعا لاشتماله
على مميزات الأدب الفنى وخصائصه ، فوق أن هذا النثر العلمى يصقل مواهب
الأديب ويملكه ويوسع أفقه ويمده بزخاير الأفكار والمعانى والموضوعات .
وأخير أ فالنثر الفنى ينقسم إلى خطابة وكتابة فنية ، والكتابة تشمل الوصف
والقصص فى رأى بعض الكتاب الأوربيين ، ويقسمها بعض كتاب العرب
إلى رسائل وقصص ومناظرة وجدل وتاريخ . أما قدامة بن جعفر فيقسم
النثر إلى خطابة وترسل واحتجاج وحديث (١) .

- ٢ -

والأدباء يختلفون فى نشأة النثر الفنى هل وجد فى العصر الجاهلى أو تأخر
فى النشأة الأدبية إلى العصر الأموى ؟ :

أما أدباء العربية المتقدمون ، والكثير من الأدباء المعاصرين ، فيرون
أن العصر الجاهلى عرف النثر الفنى ، وأجاده العرب القدماء قبل الإسلام إجابة
مالغة ، ونزل القرآن بلغة النثر الفنى مفهما لهم ومعجزا (٢) .

وأما المستشرقون ومن تابعهم فيرون أن عرب الجاهلية لم يعرفوا هذا
النثر ، كما يشهد به عصر صدر الإسلام ، ويقررون إنه إنما نشأ على يد ابن
المقفع المتوفى فى صدر الدولة العباسية عام ١٤٣ هـ ، ومن ذهب إلى ذلك

(١) ص ٩٣ نقد النثر ط ١٩٣٩ .

(٢) ومن ذهب إلى هذا رأى كذلك صاحب كتاب « الفن ومذاهبه فى النثر
العربى » وكذلك زكى مبارك فى كتابه « النثر الفنى » .

المسيو مرسية الفرنسي (١) ، والمستشرق جب الإنجليزى (٢) .

أما الدكتور طه حسين فيقرر أنه لا يستطيع بحال من الأحوال أن يطمئن إلى أن العصر الجاهلى كان له نثر فنى (٣) وإن كان له نثر خاص لم يصل إلينا لضعف الذاكرة وخلوه من الوزن (٤) هذا النثر هو الخطابة ، وأن أول القرن الثانى الهجرى هو الذى شهد ظهور الحياة العقلية وهو الذى شهد مظهر هذه الحياة العقلية وهو نشأة النثر الفنى (٥) ، أما القرآن فى رأيه فليس نثرا كما أنه ليس شعرا ، وإنما هو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير (٦) ، فالنثر العربى الذى ليس هو لغة التخاطب ولا الأحاديث العادية والذى لا يعبر عن عاطفة أو شعور من حيث هما عاطفة أو شعور بل من حيث هما صورة عامة يظهر فيها نتيجة التفكير ، هذا النثر فى رأيه هو أثر من آثار الحياة الحياة الإسلامية الجديدة (٧) ، فقد وجد فى هذا العصر كما يقول الدكتور النثر بألوانه المختلفة ، فوجد نثر عربى خالص فى التاريخ ، وفى مناقشة الفرق المتكلمة ، ووجد نثر عربى خالص فى الدين ، ثم وجد نثر عربى تشوبه الشدافة الأجنبية فى هذه الكتب التى طلب العرب إلى الروم أو الموالى نقلها إلى العربية (٨) .

ولكننا على أى حال لا نقر هذه الآراء المختلفة التى تجحد وجود النثر الفنى فى العصر الجاهلى ، وإن كنا نؤمن بأن القرآن الكريم لا يماثل نثر فنى فى لغة العرب ، كما نؤمن بأن النثر الأدبى بعد الإسلام أخذ ينمو وينهض

(١) ٣٨ ج ١ النثر الفنى لوكى مبارك ،

(٢) ص ٧ و ٩ مجلة الأدب والفن عدد نوفمبر ١٩٤٥ من مقال الاستاذ

جب بعنوان خواطر فى الأدب العربى .

(٣) ص ٢٥ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين .

(٤) ص ٢٩ المرجع (٥) ص ٣٥ المرجع

(٦) ص ٢٥ المرجع (٧) ص ٢٨ المرجع

(٨) ص ٣٦ المرجع .

منذ مطلع القرن الثاني الهجرى . وبلغ منزلة عالية على يد عبد الحميد الكاتب
ومن جاء بعده من أفذاذ الأدباء وأئمة كابن المقفع والجاحظ و... واهما .

ويقول ابن رشيقي في عمده : وكان الكلام كله منشورا . فاحتاجت
العرب إلى التفتي بمكارم أخلاقها ، وطيب أعرافها ، وذكر أيامها العالمة ،
وأوطائها النازحة ، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام . فلما تم لهم
وزنه سموه شعرا (١) .

- ٣ -

هذا ولا يعنى الأدب من النثر الجاهلى إلا ما حق بأجنحة من الخيال
والعاطفة والحكمة حتى ليعده من قبيل الشعر المنشور . ولما كان الحفظ والرواية
- لا التدوين - هما أساس التواتر في العلم بفرائد النثر الجاهلى ، فقد ضاع
الكثير منه ، بعكس المنظوم الذى ساعدت أوزانه وقوافيه على حياته واستيعابه
والنظم أقرب إلى الاستقرار فى الحافظة والتردد على الشفاه .

ونحن نعرف بين الشعر الجاهلى نماذج بديعة سلسلة رقيقة بعيدة كل البعد
عن الوحشية ، فلماذا لا توجد نماذج مثلها من النثر الجاهلى ؟ ولماذا نتعسف
وننسب اليها الاتهام ولا ننسبه إلى ذلك الشعر المأثور الذى لولا اطلائنا
السابق لتصورنا أنه من إنتاج عصرنا الحاضر ؟ ومن السهل أن نتفق مع مؤرخى
الأدب ونقادهم ، على أن النثر الجاهلى الفنى يتنوع إلى حكمة ، ومثل ، وخطابة
ورصايا ومحاورات ومنافرات وسجع وكهان . فمن أشهر حكماء العرب
الجاهليين :

أكثم بن صيفي التميمي ، وعامر بن الظرب العدواني ، واقهان الحكيم الذى
اشتهرت حكمه القصصية فى العالم اشتهار أساطير أيوب فى الغرب ، وقد طبعت
ودرست فى أوروبا منذ أكثر من قرن ، ومن مظاهر سردها اتباع الجمل

الاسمية بدل العملية المألوفة في الأسلوب العربي . ومن أشهر خطباء العرب الجاهليين : قس بن ساعدة الإيادي ، رله كلمات بدیعة مأثورة مشهورة بحكمها وأمثالها ، وكان العرب يتبعها كمون اليه في خصوصياتهم كما كانوا يتهاوتون على خطبه في سوق عكاظ ، ومن الخطباء أيضا : هاني ، بن قبيصة الشيباني .

ومن أشهر الموصين البلغاء الجاهليين من العرب : ذو الأصبع العداني ، والأوس بن حارثة . ومن أشهر المحاورين والمنافرين العرب في الجاهلية : قس بن ساعدة الإيادي ، وعامر بن الطفيل ، وعاتمة بن علاثة ، وكانا يتنازعان الرياسة على بني عامر ، وكانا يتنافران بالمناظرة والمناظرة البليغة ، وأقوالهما في ذلك مشهورة .

ومن أشهر الكهان العرب في الجاهلية : الكاهنة ذبراء .

هذه صور شائعة بعلو كعب الأدباء العرب النافرين في العصر الجاهلي . ونثرهم الفني في روعته ، لا يقل جلالا وجمالا عن شعر الجاهلية المنظوم ، وهو تراث قيم بالمسبة إلى عصره ، جدير بأن نعتز به ، وأن نلتفت إليه كل الالتفات في تاريخ الأدب الجاهلي ودراسته .

وفي هذا المقام ننوه بحكمة لقمان الحكيم ، الذي يجعله كثير من المراجع العربية القديمة عربيا ، ومن بينها كتاب (الأمثال) البديدي ، وفي كتب التفسير ذكر للقمان ، وإشارة إلى اختلاف الآراء فيه هل هو عربي أو سرياني أو مصري أو حبشي أو يوناني ؟ وهل هو حكيم أو نبي أو رسول ؟ وقد ذكرت ذلك في كتاب (الذكر الحكيم) . . . ويذهب المستشرق الإنجليزى رندل هريس في كتابه (قصة أحيقار) - طبع لندن سنة ١٨٩٨ ص ٧٥ من المقدمة - إلى أن القرآن الكريم قد أشار إلى أحيقار في سورة لقمان وأن لقمان هو أحيقار نفسه ، إذ أن كلا من لقمان

وأحيقار يوصف بالحكمة ، وأن كلا منهما كان يلقي ابنه حكماً يبدؤا بقوله « يا بني » ، وأن بعض حكم أحيقار تشبه بعض الحكم التي جاءت في القرآن على لسان لقمان ، فالآية الكريمة : (واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) (١) يناظرها ما جاء في وصية أحيقار لابنه : (يا بني احن رأسك ، ورقق من صوتك ، وكن بشوشاً وامش في الطريق المستقيم ، ولا تك أحق ، ولا ترفع صوتك بالضحك فإنه لو كان البيت يبني بالصوت المرتفع لبني الحمار بيتين في يوم واحد) . ولا شك أن التشابه قوى وواضح ، وقصة أحيقار مشهورة ، وترجمت إلى كثير من اللغات ، وهي إحدى القصص التي كانت شهرزاد ترويها للملك شهریار ، والتي عرفناها في كتاب ألف ليلة وليلة . وقد وردت في أقدم نصوصها بترجمة آرامية قديمة يرجع أن تاريخ تأليفها قبل نهاية القرن الخامس قبل الميلاد ، ويروي كاليانس الاسكندراني - وهو من كتاب القرن الثامن بعد الميلاد - أن ديمقريطس - الذي كان يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد - قد ألف كتاباً في المواعظ الاخلاقية البابلية ، تناول فيه ما في قصة أحيقار من حكمة . ويوجد شبه بين قصة أحيقار وبعض أسفار العهد القديم كأسفار الاثنا عشر ، بل وبين بعض أجزاء العهد الجديد . وقد ترجم السريان قصة أحيقار ، والنص السرياني هو أصل جميع التراجم التي ظهرت للقصة بعد ذلك ويشير عدى بن زيد إلى أحيقار في شعره :

عصفن على الحيقار وسط جنوده . وبينن في لذاته رب مارد
وكان أحيقار وزيراً حكماً لملك آشور ونيوى ، وهو سنجاريب .

(١) سورة لقمان الآية ١٩

وكان أحيقار يتوق إلى أن يرزق بولد يرث حكمته وثروته ، ولكنه لم ينجب من ستين امرأة تزوجها ، لذلك بادر بترك الوثنية إلى عبادة إله واحد ، ولما تضرع إلى الله سمع صوتاً يقول له : « خذ نادان ابن أختك واجعله لك ولداً ، وعليه علمك وأدبك » ، وكان رضيعاً ففعل ذلك ، وكبر الغلام وكبر أحيقار ، واستخلف سندهاريب الشاب نادان في الوزارة . كان أبيه وعند ذلك أخذ أحيقار في بذل النصيح لابنه ، وفي تعليمه تجارب الحياة وعبر الأيام التي مرت به ، وكل وصايا أحيقار تبدأ بكلمة « يا بني » ، وفي القصة بعد ذلك أحداث ومآس كثيرة ، منها فساد نادان في سياسته وسوء أخلاقه واسترداد أبيه ما وهب له من ثروة وشاية نادان بأبيه عند الملك واختباء أحيقار في سرداب ووقوع الملك في أزمة سياسية وظهور أحيقار ، وظهور براءته ، وانتحار نادان . وقد ذكر المسعودي لقمان ورجح أنه كان حكيماً من الحكماء ، ولا أستبعد أن يكون هو أحيقار نفسه .

(١) راجع ٢٣ - ٤١ من كتاب تاريخ الأدب السرياني تأليف مراد كابل ومحمد الكردى .

الحياة الادبية في العصر الجاهلي (١)

نرانا أمام نهضة جليلة في الأدب العربي تناولت أعرق مدارسه كدار العلوم والأزهر : فبرى في الأولى جهوداً أصيلة موفقة داعية الإعجاب بها كتلك التي يقوم إبراهيم أنيس وحامد عبد القادر في فقه اللغة ونلسفتها وعلم النخس الأدبي ونرى في كاية اللغة العربية بالأزهر نظيراً لها كمثل ما يقوم بها محمد عبد المنعم خنماجي الذي شغل بعلم الأدب وبالنقد الأدبي خاصة

والاستاذ خنماجي ظاهرة فذة شائقة في الوراثة والاطلاع والاستقراء والإنتاج ، فهو سبط الأديب الكبير الشيخ نافع الخنماجي ، وهو من أسرة بني خنماجة التي تلتحق إلى أصول عربية قديمة ومنهم الأمراء الخنماجيون في إقليم الكوفة ، والأسماء الخنماجيون بحلب ، ومنهم الأمير ابن سنان الخنماجي الحلبي ، ومن أشهر النابغة ـين في مصر من الخنماجيين الشهاب الخنماجي المصري

وهذا الرجل الذي يحمل أعلى شهادات الأزهر العلمية (وهي شهادة الاستاذية في الأدب والبلاغة ـ التي تعادل الدكتوراه ، من الجامعات السامقة كالسوربون مثلاً - ، والذي أخرج حتى الآن نحو مائة كتاب في فنون الأدب ، والذي يتولى الاستاذية بكاية اللغة العربية في الأزهر ، والذي يشغل ليل نهار بالتأليف والمطالعة حتى إنه لم يعرف عن أزهري قديماً أو حديثاً أنه اطلع مثل اطلاعه على مئات الكتب القيمة من مخطوطة ومطبوعة ، هذا الرجل العلامة الموهوب الذي لا يكتفي بترانه العربي فيتعلم الفرنسية والإنجليزية ليقف بنفسه على أمهات التصانيف والمراجع

(١) دراسة لهذا الكتاب بعد ظهور الطبعة الأولى كتبها الدكتور المرحوم احمد زكي أبو شادي ، وأذاع بها من صوت أمريكا ، ونقلته عنها محطة الإذاعة البريطانية العربية

الأوربية والأمريكية وليتذوق الأدب العالمي من مناهله الأولى
ومناابعه الأصلية ، أصبح الآن مناط آمال الأزهريين في التجديد الأدبي .
وليه لعسير أن يختار المرء كتاباً من كتبه للعرض في مجال الحديث عن
الأدب العربي ، نظراً لكثرتها وتنوعها ولتناولها جميع فروع الأدب ،
والاستاذ خفاجي ليس لغوياً ولا أدبياً فحسب ، بل هو شاعر أيضاً ، شأنه
في ذلك شأن طه حسين ، ولذلك - إلى جانب ثقافته الواسعة التي تلتهم
كل معرفة ميسورة - كان طابع كتابته شاعرياً جميلاً مع الحرص على الدقة
العلمية في الوقت ذاته . ولذلك نالت تصانيفه احتراماً عاماً في جميع الأوساط
الأدبية ببلاد العرب وفي دوائر الاستشراق ، بغض النظر عن موافقتنا على
آرائه أو مخالفتنا له فيها .

وأمامنا الآن كتابه « الحياة الأدبية في العصر الجاهلي » وهو الحلقة
الأولى من تاريخ الأدب العربي المشغول بإخراجه تباعاً ، وقد صدق حين
قال : إن تاريخ الأدب العربي هو تاريخ لقومية الأمة العربية وأخلاقها
وعاداتها وآمالها وآلامها ، ولكل ما تأثرت به من مؤثرات حياتها الفكرية
والاجتماعية والسياسية والأدبية . ثم استمع إلى قوله : إن تاريخ الأدب
ليس علماً جافاً ، بل أساسه الذوق ودراسة الفنون الأدبية في الأمة دراسة
واسعة . . . فعلى مؤرخ الأدب أن يدرس أسباب رقي الأدب وانحطاطه
وتأثر الأدباء بها أو تأثيرهم فيها ، وأن يدرس صلات المحدثين بالقدماء
أدباء وشعراء وكتاباً وخطباء ونقاداً ، وأن يتعمق في فهم المذاهب والمدارس
الأدبية العامة وصلاتها ببعضها ببعض ، والعوامل التي أدت إلى قيام كل مدرسة
وميزاتها وخصائصها ومدى تأثيرها بما قبلها وتأثيرها فيما بعدها من المدارس
والمذاهب الأدبية العامة . فهذه المدارس والحركات الأدبية كانت تلعب دوراً
هاماً ، ولها الأهمية الكبيرة في دراسة تاريخ الأدب الذي ليس سرداً لنصوص
أدبية وتراجم عامة ، ولكنه يوضح لنا الصلات بين المذاهب الأدبية ويربط
كاتباً بآخر وجماعة بجماعة ومدرسة بمدرسة كما يدرس أسباب الانقلابات

الادبية المختلفة في عصور الادب وتأثير تحول الكتاب في نهضة الادب
والشعر وتوجيههما وجهة جديدة ،

إن هذا الاسلوب المنرسل الناصع النافذ لا يعرف بين الازهرين إلا
في أفذاذ أدبائهم كالمصنف ومحمد عبده وسعد زغلول وعلي عبد الرازق
ومصطفى عبد الرازق ،

وهذا الكتاب الضخم الذي أتى لنا بتحليل جديد عميق للحياة الادبية
في العصر الجاهلي هو أساس متين صالح للدارس الباحث في موضوعه ، ولو
أنه أساس قابل للتعديل حتما في ضوء البحوث والكشوف والاستنباطات
المستمرة وليس مثل الأستاذ خفاجي والذي يتعالى على شيء من هذا ، بل
بالعكس نجده الحريص على الاستقصاء والتحقيق وتعديل نظراته ونقدهاته
على ضوء العلم .

وهكذا سيكون كلامنا عن الحياة الادبية في العصر الجاهلي دائماً على
عمادين : أحدهما كتاب الأستاذ خفاجي إن لم نقل كتبه في هذا الموضوع
الجليل ، إذ له كتب أخرى مكملة أو شارحة مثل (أعلام الشعر الجاهلي)
(الشعراء الجاهليون) وغيرهما ، والآخر الكشوف العلمية الحديثة التي يجب
على ضوئها تنقيح نظرياتنا القديمة وتعديلها ، وبذلك نخدم تاريخ الادب
الجاهلي الخدمة الحققة ونتمكن من حسن دراسة ذلك الادب والاستمتاع به

الحياة الادبية في العصر الجاهلي

بقلم الاديب الحجازي الكبير عبد الله عبد الجبار

محمد عبد المنعم خفاجي ، اسم لامع في دنيا الادب في العالم العربي
الحديث وشخصية عجيبة محببة ، هي مزيج من السكبرياء ، والتواضع ، تواضع
النفس الكبيرة التي تتجامل ، وتفرق في المجاملة حتى ليحسبها القبي ضعفا وما
هي من الضعف في شيء ، إنما هي سمة الإنسانية المهدبة المؤمنة بالخير

والفضائل ، والتي تعتقد أن القوة هي أن يتواضع المرء حيث يجب التواضع ، ويتكبر حيث يجب التكبر ، والذين لم يعرفوا أصحابنا الخفاجي ، أو يخالفوه عن كذب سيد هشون حين يرون هذا الحمل الوديع ، وهو ينقلب إلى أسد هصور إذا مامست كرامته أو كرامة بلده ، أو كرامة العروبة ، أو كرامة الأحرار في أي مكان ، وكيف يذود عن هذه الكرامة بلسانه وقلبه ، ويعلمها حرباً كلامية شعواء ضد الطغاة والظغيان ، ويصب عليهم التهم والقذائف ، لا يبالي ما قد تجره عليه هذه الجرأة من وبال ، لأنه تربى على أن لا يخشى في الحق لومة لائم .

وصاحبنا الخفاجي يمتاز بالإنتاج الغزير ، ولا أعرف أديباً في العالم العربي يدانيه في هذه الغزارة ، فقد بلغت كتبه التي ألفها وحققها أكثر من مائة كتاب ، وهو لم يتخط الأربعين إلا بقليل .

وقد سمعت صديقنا الناقد الجهمير الأستاذ مصطفى السحرقي يقول عنه ذات يوم : « لو أن هذه الكتب التي أنتجها الخفاجي ، لم يكن له فيها من عمل إلا أنه نسخها وحسب ، لأصابتنا الدهشة ، وقلنا له : كيف تأتي لك الوقت الذي نسخها فيه ، فكيف وقد ألفها تأليفاً ورجع إلى العدد الكثير من المصادر والمراجع ؟ » .

فالخفاجي - إذن - مكثار . وهذه المزية يقابلها أصدقاؤه بالدهشة والنبهة - ويقابلها منافسوه - وهم قلة - بالحق والحد .

وأنا أقول للذين يعيبون على الخفاجي هذا السيل الغزير من الإنتاج ، ويتهمون به بالسرعة في بعض الأحيان : ألا يكفيكم أن تحتوى هذه المائة كتاب على خمسين كتاباً جيدة جداً ، أو عشرين أو عشرة أو خمسة كتب ممتازة بلغت الذروة في البحث الأكاديمي ، وكل منها يصلح لأن يكون رسالة « دكتوراه » ممتازة ؟ ألا يكفيكم مثلاً كتابه « ابن المعتز » ، أو « الحياة الأدبية في العصر العباسي » ، أو « رائد الشعر الحديث » ، أو « قصة الأدب في مصر » ، أو كتابه هذا « الحياة الأدبية في العصر الجاهلي » ، أو كتابه مذاهب الأدب ،

أو سوى ذلك من العديد من كتبه ودراساته ؛ وإن باحثاً منصفاً لا يستطيع أن ينكر هذه الحقيقة أبداً ، فالحفاجي دكتور مضروب في عشرة أردنا أم لم نرد . . . وهو بهذا الصنيع قد فعل ما يفعله عادة أساتذة الجامعات في كل حياتهم الجامعية التي يخصصونها غالباً لموضوع واحد ، ومادة واحدة . وزاد عليهم مائة كتاب أخرى في التاريخ والأدب والتصوف والاجتماع والتراجم ، والبحوث الإسلامية والعربية والوطنية ، وأيا كان رأى النقاد فيها ؛ فهي - في نظري - تحتوي على الجديد العميق من الفائدة العلمية والأدبية ، وألا يكفي أن يطري بعض هذه الكتب أدباء لهم مكانتهم الأدبية : كالسحرتي ، وسلامة موسى ، وأبي شادي ، ووديع فلسطين ، وروكس العريزي ، وأحمد عارف الزين ، والشيخ محمد رضا الشبيبي ، وسواهم من أعلام العالم العربي ، والإسلامي عامة .

ولمصدقنا الحفاجي فضل كبير على الأدب المعاصر بدراساته وبحوثه عنه ، وبما جمع ودون من نصوصه ، ومن آراء النقاد والباحثين فيه ، كما فعل في كتابه « صور من الأدب الحديث » .

وقد نشر عن الحفاجي ثلاثة كتب كبيرة للسانذة : حلیم هنري ، ومحمد رضوان ، وفكري أبو النصر ، وكتبت عنه مئات البحوث والدراسات والمقالات .

والحفاجي أديب بشرق الأسلوب تمضي في قراءته دون أن تمل ؛ وهو قادر على تذليل الموضوعات الجافة وتطويعها بقلبه الحي حتى تغدو عذبة سائغة في النفوس . . . وهو ذكي لماح ، سرعان ما يستكشف الفكرة الجديدة ، ويتمثلها ويلتمس لها المراجع والمظان ، فإذا هي بعد زمن قصير أو طويل كتاب جديد .

والحفاجي - قد أسهم مع المسهمين في تغذية الفكر العربي الحديث بالدراسات البكر التي لم يسبق إليها ، وحسبك أن تعلم أن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الحسالي طلب من رجال إدارته كتباً عن تاريخ الأزهر

ورجاله ، لتقديمها إلى هيئات ثقافية أجنبية فلم يجدوا كتاباً - في صميم الموضوع - غير كتاب الخفاجي (الأزهري في ألف عام) ، وهو يقع في ثلاثة مجلدات أما كتابه (مواكب الحرية في مصر الإسلامية) فهو صورة حية لروح التاريخ المصري حين يجلوها أديب وطني حر ، وهو جديد في موضوعه . وما أجدره أن يقرر في المدارس الثانوية ، فهو خير من عشرات كتب التاريخ الجافة التي تعتمد على السرد ، وليس وراءها أي هدف أو أية غاية وطنية أو قومية . وفي هذا المجال أجدرني حائراً بين كتبه ، أذكر : (الإسلام وحقوق الإنسان) ، أم (الإسلام رسالة الإصلاح والحركة) ، أم (الإسلام دين الإنسانية الخالد) ، أم (صور من الفكر العربي وتاريخ الإسلام) ، أم كتابه (قصة الأدب في الاندلس) ، أم (قصة الأدب المعاصر) ، أم (الذكر الحكيم) ، أم تفسيره للقرآن الكريم ؛ أم (قصص من التاريخ) الذي نشره محتويًا على سبعة كتب من تأليفه ، أم غير ذلك من دراستاته ؟ .

أما كتاب (الحياة الأدبية في العصر الجاهلي) الذي يقدمه الخفاجي إلى القارئ العربي بعد تسع سنوات من طبعته الأولى في طبعة جديدة فريدة ، فهو كتاب واف في موضوعه . استقصى فيه كل البحوث الهامة التي لا يستغنى عنها دارس هذا العصر ، سواء كانت تمهيدية ، أو أساسية ، ونظرة في الكتاب تلك على أهميته ، فبعد التمهيد الشافي الذي عقده لموضوع « الأدب بين الذوق واللغة » ، تحدث عن المؤثرات في الأدب الجاهلي ، ووصف الجزيرة العربية وأقسامها ، وأصل العرب ، والشعوب العربية وطبقاتها . ثم تناول الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والعقلية ، وعقد فصلاً متمماً للمخطط العربي في الجاهلية ، ثم تحدث عن أيام العرب وأثرها في الأدب ، مستشهداً بما أثارته من أشعار حماسية ، ودرس اللغة العربية أصلها ونشأتها وأثر الأسواق العربية في تهذيب اللغة وترقية الأدب ، واختلاف اللهجات العربية ، وخصائص اللغة العربية ، وعوامل نموها ، وفصاحة لغة قریش ،

ثم تناول تطور المنهج في دراسة الادب العربي وتاريخه ، ونقسم الادب إلى إنشائي ووصفي . . كل ذلك في الباب الاول من هذا الكتاب القيم ، حتى إذا كان الباب الثاني يتحدث عن معنى الجاهلية ، وناقش آراء القائلين بأسبقية الشعر على النثر ، وأثبت أن النثر أقدم من الشعر ، ثم يتحدث عن النثر وقسمه إلى : مرسل ، ومزدوج ، ومسجوع ، وذكر خصائص النثر الجاهلي في معانيه وأغراضه وأساليبه ، وعزز كل ذلك بأمثلة فنية من النثر الجاهلي ، ثم تكلم عن الحكم والأمثال ، سواء كانت نثرية أو شعرية حتمية أم فرضية . ثم تناول الوصايا ونماذجها ، والخطابة ودواعيها ، وأغراضها وأساليبها ، وأشهر الخطباء ، وتحدث عن المحاورات والمنافرات والمفاخرات ، والكهانة وسجع الكهانة ، ثم عرض صوراً جميلة من القصص الجاهلي .

فإذا انتقل إلى الباب الثالث الذي عقده للشعر الجاهلي ، استهل حديثه بالحديث عن الشعر عامة وتعريف القدامى والمحدثين له ، وروى لنا كيف نشأ الشعر عامة ، وتدرج من دور البساطة إلى دور السجع ، ثم إلى دور الوزن ، ثم كيف تطور الشعر الجاهلي من الأبيات القليلة حتى تقصيد القصائد الطوال ، وتحدث عن تأثير الشعر في النفوس ، ونبذة الشاعر ، والتكسب بالشعر ، وشاعرية العرب . ثم قسم الشعر إلى : تمثيلي وقصصي ووجداني ، وبين الغنائية الغالبة على الشعر الجاهلي ، ثم تكلم عن تنقل الشعر في القبائل ، وشياطين الشعراء ، وطبقات الشعراء الجاهليين ، ورواية الشعر الجاهلي ، وعقد فصلاً ممتعاً للشعر الجاهلي بين التجديد والتقليد ، وتناول موضوع الصنعة والطبع في الشعر الجاهلي ، ودافع بحماسة مدعمة بالأدلة عن الشعر الجاهلي ، ثم أوضح لنا كيف كان الشعر الجاهلي سجلاً صادقاً لأخلاق العرب وعقائدهم ومعارفهم وحياتهم الاجتماعية ، وعزز آراءه بشواهد بليغة من روائع الشعر الجاهلي .

ثم درس العلاقات وسبب تسميتها بذلك وفحص الآراء المتضاربة ورجح

رأى التبريزى القائل : بأن وجه تسميتها بالمعلقات علوقها بأذهان صغارهم وكبارهم ، ومرءوسهم وروسائهم ، وذلك لشدة اغتنائهم بها .
ثم تحدث عن منزلة المعلقات وشراحها ، وتناولها بالعرض والنقد ،
معلقة معلقة .

وعقد فصلا لأغراض الشعر الجاهلى كالمديح والهجاء والفخر والثناء
والحماسة والعتاب والاعتذار والحكمة والاخلاق والوصف والسيب .
ثم فسر لا معانى الشعر الجاهلى ، وأخيلته وألفاظه وأساليبه ، وتحدث عن
الرجز والقصيد ، وكانت لفظة بارعة من مؤلفنا تحدثه عن الشاعرات العربيات
فى الجاهلية . ومن أقوى فصول الكتاب الفصل الذى عقده لآراء علماء الادب
فى الشعر الجاهلى قديما وحديثا ، وقد ناقش فيه مناقشة بارعة آراء الدكتور طه
حسين وطائفة من المستشرقين . ولم يلس المؤلف أن يتحدث عن النقد الادبى
فى الجاهلية . ثم تناول الحكومة الادبية بين قصيدتى علقمة وامرىء القيس
وعقد فصلا جميلا عن الموازنة بين الشعراء ، ثم قام بتطبيق بارع حين وازن
بين شاعرين جاهليين هما زهير والاعشى ، ووازن بين قصائد جاهلية
مشهورة ، وعرض صورا من الشعر الجاهلى . . وختم الكتاب ببحث عن
المصور الادبية وتحديد العصر الجاهلى ، إلى غير ذلك .

وبعد ، فهذا عرض سريع لرووس الموضوعات فى هذا الكتاب القيم ،
وأشبه أن هذا البحث على كثرة ما قرأت فى هذا الموضوع - يعتبر من أحفل
البحوث ؛ وأكثرها شمولاً واستيعاباً ، وتجلية للحياة الادبية فى تلك الحقبة
السخيفة من التاريخ العربى ، ولا يسفى فى ختام هذه الكلمة القصيرة إلا أن
أحيى الأستاذ الخماجى على جهاده الادبى المتصل ، وجهوده الشاقية المشكورة
فى سبيل دعم القومية العربية الواثبة ؟

عبد الله عبد الجبار

القاهرة ١٩ يوليو ١٩٥٨

خاتمة الكتاب

هذه هي الطبعة الثانية لكتاب « الحياة الأدبية في العصر الجاهلي » ،
التي تشتمل على زيادات كثيرة تكاد تبلغ مائتي صفحة ، والكتاب أوسع
دراسة للأدب الجاهلي وفنونه ، وسماته ، وقد لقيت الطبعة الأولى منه
كثيراً من اهتمام الدارسين والباحثين .

وبحسبي أن أكون قد مهدت بهذا الكتاب لفهم أصول الأدب
ومذاهبه ، وأن أكون قد وضعت المناهج الحقة لدراسة الأدب العربي
عامة والجاهلي خاصة ، وفي ذلك ما فيه من زيادة نصيبنا من الثقافة الأدبية ،
ومن بعث الاهتمام بهذه اللغة الأصيلة ، لغة القرآن الكريم .

ولست في حاجة إلى القول بأن العناية بالأدب القديم عناية بكتاب الله
الخالد ، ومؤازرة قوية في سبيل فهمه والتأثر به . . . ومن الله السداد
والنوفيق .

محمد عبد المنعم خفاجي

فهرست الكتاب

صحيفة	صحيفة
٩٢ يوم حليلة	٣ مقدمة
٩٣ يوم الزویرین	٤ تمهید
٩٣ يوم شعب جبلة	٥ تاریخ کلمة ادب
٩٤ يوم خورازی	١٨ تاریخ ادب اللغة
٩٥ أيام الفجار	٢٠ علاقته بالتاریخ العام
٩٧ يوم ذی قار	٢١ تقسیمه إلى عصور
٩٩ - ١٢٥ اللغة العربية	٢٣ - ١٣٠ الباب الأول : المؤثرات
٩٩ أصلها	فی الادب الجاهلی
١٠٣ نشأتها	٢٤ موطن العرب
١٠٦ أطوار تهذیبها	٢٧ أصل العرب
١٠٧ - ١١٦ أثر الأسواق	٢٩ الشعوب العربية
١٠٩ عكاظ	٣٠ القبائل العربية
١١٦ بحنة	٣٥ حياة العرب
١١٦ ذر المجاز	٣٥ مدلول كلمة عرب
١١٦ اختلاف اللهجات العربية	٣٧ حياة العرب الاجتماعية
١١٩ خصائص اللغة العربية	٤٢ حیاتهم السياسية
١٢٠ عوامل نمو اللغة العربية	٥٥ حیاتهم الدينية
١٢٣ فصاحة لغة قريش	٦٠ معارف العرب فی الجاهلية
١٢٤ اللغة العربية و منزلاتها بعد نزول القرآن	٧٢ الخط العربي فی الجاهلية
١٢٦ الادب العربي ودراساته	٧٧ - ٩٨ أيام العرب
١٣١ - ٢٠٣ الباب الثاني : النثر الجاهلي	٧٩ حرب داحس
١٣١ معنى الجاهلية	٨٥ حرب البسوس
	٩٢ يوم بعاث

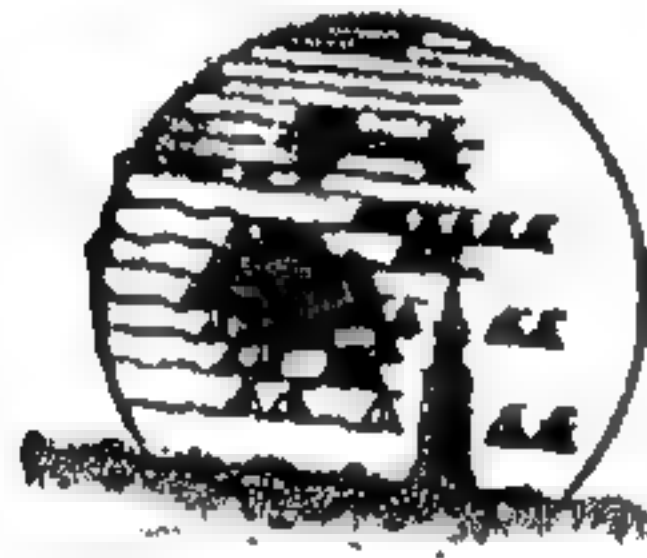
صحيفة	صحيفة
٢١٦ الشعر في الجاهلية	١٣١ الشعر والنثر
٢١٧ تأثيره	١٣٧ ميزات النثر الجاهلي
٢١٨ منزلة الشاعر	١٣٩ أمثلة للنثر المأثور في العصر الجاهلي
٢١٩ التكسب بالشعر	١٤٥ أقسام النثر : الحكيم والأمثال
٢٢٠ شاعرية العرب	١٤٥ نماذج لها
٢٢٢ لون الشعر الجاهلي	١٤٧ ماهي الحكمة
٢٢٥ تنقل الشعر	١٤٨ ماهو المثل
٢٢٦ شياطين الشعراء	١٥٠ الوصايا والنصائح : نماذج
٢٢٩ طبقات الشعراء	١٥٢ ماهي الوصايا
٢٣٤ رواية الشعر	١٥٢ الخطابة : نماذج
٢٣٥ رواة الشعر الجاهلي	١٥٧ ماهي الخطابة
٢٣٧ الشعر الجاهلي بين التجديد والتقليد	١٥٨ الخطابة عند الجاهليين
٢٤١ الشعر الجاهلي بين الطبع والصنعة	١٥٩ دواعيها - أغراضها
٢٤٧ الطبع والصنعة في الشعر الجاهلي	١٦٠ أسلوب الخطابة
أيضا	١٦١ المأثور منها
٢٥١ دفاع عن الشعر الجاهلي	١٦١ الخطابة والخطيب
٢٥٨ صلة الشعر الجاهلي بالتاريخ	١٦٢ أشهر الخطباء : قس الإيادي
٢٥٩ تصويره الأخلاق	١٧١ أ كثم
٢٦١ تسجيله للعقائد	١٧٢ عمرو بن معد يكرب
٢٠٢ معارف العرب في الشعر الجاهلي	١٧٤ من خطباء العرب
٢٦٣ الشعر والحياة الاجتماعية	١٨٦ المحاورات
٢٦٨ المعلقات ومنزلاتها من الشعر الجاهلي	١٨٧ سجع السكمان
٢٧٧ معلقة طرفة	١٩٠ صور من القصص الجاهلي
٢٨٤ معلقة امرئ القيس	٢٠٤-٧٤ الباب الثالث : الشعر الجاهلي
٢٩١ معلقة عمرو بن كاثوم	٢٠٤ ماهو الشعر
٢٩٥ معلقة زهير	٢٠٦ آراء في الشعر
٥٩٨ معلقة عنتره	٢٠٧ فحشاء الشعر

صحيفة	صحيفة
٣٦٤ الرجز في العصر الجاهلي	٣٠٤ معلقة ليبيد
٢٦٥ الشعر الجاهلي بين الرجز والقصيد	٣٠٧ معلقة الحارث
٣٦٧ العربيات الشاعرات في العصر الجاهلي	٣٠٩ أبواب الشعر الجاهلي
٣٧٦ آراء علماء الأدب في الشعر الجاهلي	٣٠٩ المدح
٤٠٤ الحكومة الأدبية بين قصيدتين	٣٠٢ المهجاء
٤٢٥ الموازنة بين الشعراء	٣١٣ الفخر
٤٣٧ الموازنة بين شاعرين جاهليين	٣١٥ الرثاء
٤٥٨ قصيدتان جاهليتان	٣٢٣ الحماسة
٤٦٥ بين الجاهليين والمختصرين	٣٢٧ العتاب
٤٦٧ صور من الشعر الجاهلي	٣٢٨ الاعتذار
٤٧٥ حول الأدب الجاهلي	٣٢٩ الحكمة والأخلاق
٤٧٦ حول العصر الجاهلي	٣٣١ الوصف
٤٨٣ آراء حول النثر الجاهلي	٣٣٣ النسيب
٤٨٩ خاتمة الكتاب	٣٤١ النقد الأدبي في الجاهلية
٤٩٠ الحياة الأدبية - ١	٣٤٥ فنون الشعر الجاهلي أو أغراضه
٤٩٢ الحياة الأدبية - ٢	٣٤٩ معاني الشعر الجاهلي
٤٩٨ - ٥٠٤ ملاحق	٣٥٣ أسخيلة الشعر الجاهلي
	٣٤٧ ألفاظه وأسلوبه

مؤلفات وتحقيقات د. محمد عبد المنعم خفاجي

- ابن المعتز وتراثه في الادب والنقد والبيان
الادب الجاهلي (نصوص ودراسة)
الادب العربي وتاريخه في العصرين الاموي والعباسي
الادب العربي في الاندلس
الآداب العربية في العصر العباسي الاول
اعجاز القرآن (تحقيق)
الاقتصاد في الاسلام
البديع (تحقيق)
الحياة الادبية في العصر الجاهلي
الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام
الحياة الادبية بعد سقوط بغداد الى العصر الحديث
دراسات في الادب الجاهلي والاسلامي
دراسات في الادب العربي الحديث
دراسات في الادب المعاصر.
- للباقلائي
لابن المعتز

الفكر الاسلامي بين الاصاله والتجديد
قصة الادب في مصر
القصيدة العربية : دراسات ونقد
المختار في الحديث النبوي الشريف
من تراثنا الخالد.



Organization of the Alexandria Library (N.L.)
Bibliothèque d'Alexandrie

|

